دراسات في تاريخ العرب

تاريخ الدولة العربية

«٣»

تأليف
سيد عبد العزيز سالم
في الاسلامى والحضارة
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

الناشر
مؤسسة شباب الجامعة
للطباعة والنشر

دراسات في تاريخ العرب

تاريخ الدولة العربية

تأليف
الدكتور السيد عبد العزيز سالم
أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

«٢»

الناشر
مؤسسة شباب الجامعة
للطباعة والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمــــة

يتفق المؤرخون المحدثون على أن تاريخ الدولة العربية هو تاريخ الدولة التى وضع النبي صلى الله عليه وسلم أسسها فى المدينة ، واتسعت بالفتوحات الإسلامية فى الشرق والغرب فى زمن الخلافة الراشدة ، وازدهرت حضارتها فى عصر الدولة الأموية ، ثم سقطت بسقوط هذه الدولة الأموية على أيدى العباسيين وأنصارهم من الفرس فى سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠ م) ، على أساس أن تاريخ الدولة العربية هو التاريخ الذى برز فيه العنصر العربى ، وانتصر فيه الحكام العرب دون غيرهم من الاجناس الأخرى ، واعتبروهم مادة الاسلام ، فى حين أن تاريخ الدولة العباسية هو المرحلة التاريخية التى سقطت فيها مكانة العرب ، وحل محلهم فى السلطان أجناس أخرى كالفرس والأتراك والبربر ، ولعل ذلك فى نظرهم هو السبب فيما ذهب إليه مؤرخو العرب بأن دولة بنى العباس أعجمية ودولة بنى أمية عربية .

إلا أن مفهوم تاريخ الدولة العربية على النحو الذى أشرنا إليه لاينطبق ـ فى رأيي الشخصى ـ تماماً على الحقيقة التاريخية لأمرين : الأول ، أن دولا عربية ذات اتجاهات قومية قامت قبل الإسلام بعهود طويلة كالدول العربية القحطانية التى قامت فى جنوب الجزيرة العربية وعلى تخوم الشام والعراق ، ودولتى الأنباط وتدمر العربيتين اللتين قامتا فى شمال الجزيرة العربية وفى شمالها الغربى ، وبعض الحواضر الحجازية التى اتخذت انفسها نمطاً فى الحكم على النظام القبلى أشبه مايكون

بالحكم الجمهوري القائم على الشورى والانتخاب . صحيح أن هذه الدول والحواضر لا يمكن اعتبارها من الوجهة السياسية دولة عربية واحدة لأن الدولة الواحدة هي التي تخضع لنظم سياسية وإدارية واقتصادية متماثلة ويتواصل فيها الحكم ، ولكنها على أية حال دولا عربية ساد فيها العنصر العربي ، وارتبطت فيما بينها إلى حد ما بروابط في الجنس واللغات والأديان الوثنية . والثاني ، أن الدولة العربية في نطاق مفهومها الذي اتفق على تحديده يمكن أن تتقبل دولا عربية أخرى قامت على أكتاف عناصر عربية وساد فيها العنصر العربي ، وقامت حضارتها على أسس عربية ، مثل دولة بني أمية في الأندلس التي تعتبر امتداداً طبيعياً للدولة الأموية في المشرق ، وتعتبر حضارتها استمراراً لحضارة العرب في العصر الأموي . كما أن الكيان العربي ظل واضحاً رغم التفوق السياسي والحضاري للعناصر الفارسية أو التركية أو البربرية التي غلبت على الأقطار الاسلامية المختلفة . وظهر العرب كدول عندما تصدع الإطار الخارجي للدول الأعجمية ، فقامت الدولة الحمدانية في حلب ، ودولة بني عقيل في الموصل وبعض الدويلات العربية في الشام كالمرداسيين وبني جراح وبني كلاب ، ودولة الأغالبة في المغرب الأدنى وغيرها .

وأعتقد أن مفهوم تاريخ الدولة العربية الذي اصطلح المؤرخون المحدثون على تحديد حقبته من ظهور الإسلام حتى سقوط الدولة الأموية يمكن أن ينطبق على تاريخ الدولة العربية الاسلامية ، لأنه إذا قصرنا تاريخ الدولة العربية على هذه الحدود الزمنية ، واستبعدنا منه العصر السابق على الإسلام ، نكون قد تجاوزنا مرحلة أولية من التاريخ العربي سابقة للمرحلة المذكورة ، تعتبر الأساس الطبيعي للمرحلة العربية الثانية ونعني بها مرحلة تاريخ الدولة العربية الاسلامية .

ولهذا السبب لم يكن من السهل أن نتجاهل العصر السابق على الإسلام لأنه يتضمن البدايات الأولى لتاريخ الدولة العربية الاسلامية ، بحيث لا يمكننا أن نفسر

الأحداث السياسية والظواهر الحضارية لهذا التاريخ دون أن نلم إلماما كبيراً بتلك المنابت .

وعلى هذا النحو رأيت أن أمهد لتاريخ الدولة العربية الإسلامية بدراسة مقتضبة لحضارة العرب قبل الاسلام باعتبارها الأساس التاريخي والدعيمة الرئيسية لتاريخ الدولة العربية، ثم التزم بعد ذلك بالمنهج الذى جرى عليه الباحثون فى تأريخهم للدولة العربية وذلك بدراسة تاريخ العرب منذ ظهور الاسلام وتكوين الدولة المدينة حتى سقوط الدولة الأموية فى الشرق فحسب ، واستبعدنا من هذا التقسيم تاريخ الدولة الأموية فى الأندلس لسبب واحد هو أنه برز فيها إلى جانب العنصر العربى عنصران أعجميان : البربرى والصقلبى .

وأسأل الله التوفيق

المؤلف

دراسة تمهيدية

حضارة العرب قبل الإسلام

١ — النظم الاقتصادية :

الزراعة : عرفت بلاد اليمن قديماً بشهرتها فى إنتاج العطور والطيوب والمر والصمغ والكافور والورس (١) ، وكان لهذه المنتجات الزراعية اليمنية سوق رائجة فى مصر القديمة حيث كانت تستخدم فى عملية التحنيط أو تحرق فى المجامر بالمعابد . ولقد ازدهرت الزراعة فى اليمن بوجه خاص فى عصر الدولة السبئية عندما اهتم مكارب سبأ باستصلاح الأراضى للزراعة وحققوا أعظم مشروعات الرى فى العصر القديم ، وأعنى بها إنشاء شبكة من السدود لحجز مياه الأمطار والسيول والإفادة منها فى رى مساحات كبيرة من الأراضى ، وقد كثر عدد السدود فى اليمن حتى قيل أنه كان بيحصب العلو أحد مخاليف اليمن ثمانون سداً أشار إليها تبع بقوله :

وبالربوة الخضراء من أرض يحصب .·. ثمانون سداً تقلس الماء سائلا (٢)

وأهم هذه السدود جميعاً سد مأرب الذى أقامه المكرب السبئى سمه على ينف على فم وادى ذنة بمأرب فى سنة ٦٥٠ ق. م. وكان لهذا السد أعظم الأثر فى مد

---

(١) يقول الأصمعى : « أربعة أشياء قد ملأت الدنيا ولا تكون إلا باليمن : الورس (نوع من النبات يشبه الزعفران يستخدم فى الصباغة ـ ابن حوقل ، ص ٤٣) ، والكندر (نوع من البخور) والعطر (ابن سائل) والعصب (نسيج) » (راجع معجم البلدان ، مادة يمن ، ص ٤٤٨ — المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ٨٧) .

وورد فى التوراة أن بلاد سبأ تنتج الطيوب واللبان (سفر أرمياء ، إصحاح ٦ ، آية ٢٠) .

(٢) الهمدانى ، صفة جزيرة العرب ، ص ١٠١ .

الرقعة الزراعية بمأرب وزيادة مواردها الزراعية وتحويل الأراضى السبئية إلى جنات يانعة جاء ذكرها فى القرآن الكريم : « لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية . جنتان عن يمين وشمال . كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور » . ومن المعروف أن بلاد اليمن عرفت قديما عند اليونان ببلاد العرب السعيدة Arabia Felix لكثرة خيراتها ومحصولاتها الزراعية نتيجة الأمطار الموسمية الغزيرة التى استغلها السبئيون لسقاية أراضيهم المرتفعة ، كما أننا نفترض أن اسم اليمن فى حد ذاته يعنى اليمن والإقبال والسعادة ، فقد ورد اسم اليمن فى النصوص السبئية القديمة باسم يمنات ويمنت ، وعرفت عند المؤرخين باليمن الخضراء . وتغنى الشعراء بخصبها وكثرة مواردها ، فهذا الكلاعى يقول :

هى الخضراء فاسأل عن رباها .·. يخبرك اليقين المخبرونا
ويمطرها المهيمن فى زمان .·. به كل البرية يظمؤونا
وفى أجبالها عز عزيز .·. يظل له الورى متقاصرينا (١)

ولم تكن الزراعة قاصرة على عرب الجنوب ، وإنما كانت من الحرف الهامة عند عرب الشمال فى بعض الحواضر الحجازية كالطائف ويثرب فى العصر الجاهلى وفى الحيرة فى عصر المناذرة وفى عدة قرى من جنوبى الشام فى عصر الغساسنة . ففى الحجاز ساعد اعتدال حرارة الطائف وجودة تربتها بالإضافة إلى توافر مياهها وعذوبتها على قيام نشاط زراعى على نطاق واسع ، فكانت حرفة الزراعة من الحرف الرئيسية عند أهل الطائف، وكانوا يزرعون الحنطة والحبوب والفواكه وعلى الأخص العنب والتمر اللذين كانا يؤلفان الثروة الزراعية الرئيسية لهذه الحاضرة فى العصر الجاهلى(٢) . أما تمرها فكان يتمتع بشهرة كبيرة . فكان

---

(١) الألوسى ، بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب ، ج ١ ص ٢٠٣
(٢) الأزرق ، كتاب أخبار مكة ، ج ٢ ص ١٩٣
Lammens, la cité de Taïf. p. 32.

طريا ممتلئا يوحل فيه الضرس(١) ، أما العنب فعليه كانت تعتمد ثروتها الزراعية لوفرة إنتاجه ، وكانوا لكثرته يجففونه ، ثم يصدرونه إلى مكة لمزجه بميـــاه آبارها (٢) . واشتهرت يثرب أيضا بخصوبة أرضها بسبب وقوعها بين لابتين أو حرتين هما حرة واقم فى الشرق وحرة الوبرة فى الغرب (٣) ، وكثرة مياهها مثل وادى العقيق ووادى بطحان ووادى رانون ووادى مذينيب ووادى قناة ووادى مهزور ، ولهذا السبب كانت الزراعة الحرفة الرئيسية للسكان ، واشتهرت يثرب بزراعة الشعير والفواكه كالعنب والرمان والتمر ، ويذكر المؤرخون أن بيثرب نوع من التمر يقال له الصيحانى يفوق تمور غيرها (٤) .

وكانت الزراعة أيضا من الحرف الهامة عند أهل الحيرة أملتها عليهم طبيعة المكان ، فوقوع المدينة فى أرض السواد وعلى نهر كافر كان عاملا هاما لتوجيه السكان نحو الزراعة ، وكانت مزارع النخيل والبساتين والجنان تمتد فى نواحيها من النجف حتى الفرات . كذلك اشتغل الغساسنة بالزراعة ، فاستغلوا ميـاه حوران التى تتدفق من أعلى الجبال فى الزراعة ، فعمرت القرى والضياع .

التجارة : كانت التجارة الحرفة الرئيسية للعرب قبل الإسلام ، فإلى جانب اشتغالهم بتصريف منتجاتهم الزراعية والصناعيـــة كانوا (سواء اليمنيون أو القرشيون أو الأنباط أو التدمريون أو المناذرة) يعملون وسطاء للتجارة بين الهند وبلاد العراق والشام ومصر ، فعن طريقهم كانت لآلىء الخليج الفارسى

---

(١) Lammens op. cit p. 33 — عبد العزيز سالم ، تاريخ العرب فى العصر الجاهلى ، بيروت ، ١٩٧٠ ، ص ٣٧٦ .

(٢) ابن قتيبة ، عيون الأخبار ، ج ٣ ص ٢٢٧ — المقدسى ، ص ٧٩ — ياقوت ، معجم البلدان ، مادة الطائف ، ص ١٢ .

(٣) السمهودى ، كتاب وفاء الوفا ، ج ١ ص ١١ .

(٤) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة مدينة يثرب ، ص ٨٧ .

وحرير الصين وسيوف الهند وتوابلها والعاج الإفريقي والذهب الأثيوبي تصل إلى مصر والشام والعراق ، وقد تمكن عرب الجنوب وأعني بهم المعينيين والسبئيين من السيطرة على الطرق التجارية بين الشمال والجنوب منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، ولم يلبث نفوذهم السياسي أن أدرك شمال الحجاز ، فدخلت معان وديدن (العلا) في نطاق هذا النفوذ . وكان المعينيون والسبئيون يقيمون نوابا عنهم في الواحات الهامة التي يمر بها الطريق التجاري كتيماء ومعان وديدن وحاميات عسكرية ، تمكينا لمصالحهم الاقتصادية . كذلك سيطر السبئيون على الطريق البحري للتجارة الهندية عبر البحر الأحمر ، وكان لهم أسطولهم التجاري الكبير الذي يتولى نقل هذه التجارة إلى بلاد الشرق الأدنى القديم [١] . وقد أثرى السبئيون بسبب ذلك ثراء فاحشا انعكست آثاره على منشآتهم العظيمة مدنية وعامة . وورد في القرآن الكريم والتوراة قصة زيارة ملكة سبأ للملك سليمان [٢] وما اقترن بذلك من مظاهر الترف المفرط .

وكان للنشاط التجاري في بلاد اليمن والحجاز أثر كبير في قيام دويلات عربية على تخوم الشام والعراق في عصر الجاهلية منها دولة الأنباط ودولة التدمريين ومملكة المناذرة بالحيرة . أما حضارة الأنباط فتقوم أساسا على التجارة ، إذ كانت البتراء عاصمتهم المركز التجاري الرئيسي لطرق القوافل بين غزة وبصرى وما بين دمشق وأيلة . وقد امتد النشاط التجاري للأنباط إلى مناطق نائية فقد عثر على آثار تجارتهم في سلوقية والإسكندرية ورودس ومليتوس وديلوس وموانىء سورية ، بل أن بعض الآثار الكتابية عثر عليها

---

(١) عبد العزيز سالم ، تاريخ العرب في العصر الجاهلي ، ص ١٣٧ ، ١٤٠ .

(٢) القرآن الكريم ، سورة النمل ٢٧ آية ٢٢ — ٤٤ ، الكتاب المقدس ، سفر الملوك الأول ، إصحاح ١٠ ، آية ١ ، ٢ .

مبعثرة عند مصب الفرات، وكانت أهم السلع التي يقومون بالتجارة فيها : العطور والطيوب اليمنية والمنسوجات الحريرية من دمشق والصين والحناء العسقلاني ولآلىء الخليج العربي هذا إلى جانب بعض المنتجات المحلية كزيت السمسم والذهب والفضة (١). أما تدمر فكانت منذ نشأتها مركزا تجاريا هاما ومحطة للقوافل بين العراق والشام وخاصة منذ قيام الدولة الأخمينية حتى قيام الدولة البارثية منذ سنة ٢٥٠ ق. م. عندما انفصلت العراق عن الشام . ولقد جنت تدمر الكثير من الثروات من موقعها الجغرافي في مفترق الطرق الصحراوية التي تربطها بالبتراء ومن البتراء إلى عدن من جهة ، وبموانىء الساحل السوري ، وعلى الأخص بثغر غزة من جهة ثانية . وكانت تدمر على اتصال وثيق بثغر جرهة الواقع على الخليج العربي حيث كانت تحط الأساطيل التجارية القادمة من الهند ، وتفرغ بضائعها ، فتقوم القوافل التدمرية بحمل هذه البضائع إلى بلدة دورا أوروبس الواقعة على حدود دولة تدمر . ومن دورا كانت تصل إلى أنطاكية وطرابلس ودمشق . وعلى هذا النحو كانت تدمر تتحكم في هذه الشبكة من الطرق التي تربط السواحل السورية بآسيا والهند ، ولتجارتها مع الشرق أصبحت تدمر المنافس الأول للاسكندرية (٢) . وعن طريق جرهة كانت تصل إلى تدمر المنسوجات الحريرية والجواهر واللآلىء والطيوب والبخور من الهند والصين والعربية الجنوبية (٣) . وإلى جانب الطريقين سالفي الذكر ، كان هناك طريق ثالث عبر البحر الأحمر يقع تحت سيطرة الأنباط ثم تخلوا عنه بعد سقوط مملكتهم إلى تجار تدمر (٤) .

---

(١) فيليب حتى ، تاريخ سورية ، ج١ ، ص ٤٢٥ — عبد العزيز سالم، تاريخ العرب في العصر الجاهلي ، ص ١٩٧ .

(٢) Paul - Bovier Lapierre, Précis de l'histoire d'Egypte, t. I, p. 398.

(٣) Cooke, Enc. Britanica, art. Palmyra, t. 17, p. 162.

(٤) Ibid. — جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج ٣ ، ص ٧٧ .

ولهذا السبب استقر عدد من تجار تدمر فى خلال القرنين الثانى والثالث الميلادى فى مدينة قفط المصرية ، وكانوا يترددون على الطرق المصرية فى البحر الأحمر ، كما كانوا على اتصال وثيق بالعربية الغربية وأسواقها الغنية (١) بأموال إفريقيا .

أما أهل الحيرة فقد اشتغلوا بالتجارة إلى جانب الزراعة والرعى ، فقد كان قرب الحيرة من الفرات يتيح لأهلها ركوب السفن فى الفرات حتى الأبلة ، ثم يركبون السفن الضخام من هناك فيطوفون بالبحار إلى الهند والصين من جهة الشرق وإلى البحرين وعدن من جهة الغرب ، وكانت تتوارد على الحيرة المتاجر العظام ثم تحمل إلى تدمر وحوران ، وترتب على اشتغال أهل الحيرة بالتجارة أن تدفقت عليهم الثروات ، فأقاموا القصور واستمتعوا بالحياة واستقدموا المغنين والمغنيات ، واتخذوا فى دورهم نفيس الأثاث والرياش (٢) ، واستعملوا الكؤوس والصحاف من الذهب والفضة (٣) ، وناموا على فرش الحرير فوق أسرة مجللة بالكلل ، واتخذوا الطيور والبخور تحرق فى المجامر قبل النوم (٤) ، وضمخوا ذفاريهم بالمسك والعنبر ، ولبسوا فاخر الثياب (٥) . أما تجارة الحجاز فأهم تجارات العرب على الاطلاق ، فالحجاز كان يشقها شريان رئيسى من شرايين التجارة العالمية تتفرع منه شرايين تتجه صوب الشرق والشمال الشرقى ، وفى موازاته شريان رئيسى آخر كان له خطره فى عالم التجارة القديم (٦) ونقصد به طريق البحر الأحمر المؤدى إلى الهند ، ولذلك كانت الحجاز جسراً يربط الشام وحوض

---

(١) جواد على ، ج ٣ ص ٧٦ .
(٢) أبو الفرج الأصفهانى ، الأغانى ، ج ٢ ص ٥٤ .
(٣) نفس المصدر ، ج ٩ ص ٣٤٧ .
(٤) نفس المصدر ، ج ١٦ ص ٢٠٣ .
(٥) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة دير هند الكبرى ، مجلد ٢ ص ٥٤٢ .
(٦) جواد على ج ٤ ص ١٦١ .

البحر المتوسط باليمن والحبشة والصومال والسواحل المطلة على المحيط الهندى ، وكان لذلك أعظم الأثر فى قيام مدن تجارية بالحجاز تعتبر محطات تجارية واقعة على هذا الطريق البحرى ، وفى قيام ثغور تجارية تتميز منها سفن الروم بالبضائع ومنتجات الهند مثل ثغر الشعيبة(١) مرفأ مكة القديم قبل ظهور ثغر جده ، وثغر ينبع مرفأ يثرب .

ولقد أدرك الرومان أهمية بلاد الحجاز ، فأخذوا يتطلعون إلى السيطرة على الطريق التجارى إلى الهند عبر البحر الأحمر وذلك بالاستيلاء على اليمن ، فاستغلوا تبعية شمال الحجاز للأنباط ، وسيروا حملتهم بقيادة اليوس جالوس فى سنة ٢٤ ق م . استعانوا فيها بفرقة من الأنباط ، ثم تجددت منذ أيام جستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥) فكرة السيطرة على الطريق التجارى إلى الهند(٢) لاحتكار الحرير الصينى وتوابل الهند ، ولكن فارس التى كانت تسيطر على وادى الرافدين ومصبهما ظلت تحتفظ بمفتاح المواصلات فى آسيا الوسطى ، على الرغم من المحاولات الفاشلة التى قام بها البيزنطيون لتحطيم هذا الستار الحديدى . ومع أن البيزنطيين أثبتوا نجاحهم فى السيطرة على الطريق البحرى عبر البحر الأحمر بفضل حلفائهم الأحباش الذين استولوا على اليمن ، فانهم اخفقوا عندما حاولوا بسط نفوذهم على الحجاز عن طريق الأحباش كذلك ، وفشلت حملة أبرهة فشلا ذريعا كما فشلت حملة ايليوس جالوس قبل ذلك بنحو ستمائة سنة . ولم يطل مقام الأحباش فى اليمن إذ حل الفرس محلهم ، وتقلص نفوذ البيزنطيين ، وأصبح يقتصر على فلسطين ، وعاد للطريقين البريين إلى الهند عبر الفرات ودجلة من جهة ، وعبر اليمن والشام عن

---

(١) الأزرق ، أخبار مكة ، ج ١ ص ١٠١ .

(٢) Lammens, la Mecque à la veille de l'Hegire, Beyrouth; 1942, p. 9 – Percy Neville, Ure, Justinian and his age, London 1951, p. 67.

طريق مكة من جهة ثانية مكانتها الأولى ، و ...نت الحيرة فى ظل المناذرة ومكة فى ظل بنى النضر القرشيين من وراء ذلك مكاسب هائلة . أما الطريق البحرى عبر البحر الأحمر فقد أصبح خاليـا من سفن الروم ، ولم تعد البحرية الحبشية تقوى على سد الفراغ فيه ، وأصبح ميدانا تجوب فيه سفن القراصنة بالاضافة إلى صعوبة الملاحة فيه(١) .

ومنذ نهاية القرن السادس الميلادى ، احتكرت قريش تجارة الهند بفضل جهود زعيمها هاشم بن عبد مناف ، الذى يعتبر أول من سن رحلة الشتاء إلى اليمن والحبشة والعراق ورحلة الصيف إلى الشام(٢) ، ويذكر اليعقوبى أن تجارة قريش كانت لا تعدو مكة فكان القرشيون يعانون ضيقا بسبب ذلك ، إلى أن رحل هاشم إلى بلاد الشام ونجح فى عقد معاهدة تجارية (ايلاف قريش) مع حكومة بيزنطة(٣) . ولكن بيزنطة حتى مع ارتباطها مع العرب من الناحية التجارية ، لم تكن تقبل التفاوض مع العرب على مبدأ الباب المفتوح ، فقد كانت ترى فى كل غريب عنها عينا يجب مراقبته عن كثب ولذلك كانت المعاملات التجارية مع العرب تتم على الحدود السورية ، ولم تسمح بيزنطة لتجار العرب بحرية الاقامة والتجارة إلا فى عدد ثابت من مدن سورية مثل بصرى وغزة والقدس . وكانت بصرى سوقا مفتوحة لهم ، وتردد ذكر بصرى فى كثير من أشعار العرب فى الجاهلية ، وكانت بصرى المحطة الأخيرة لقوافل قريش والسوق الرئيسية للغلال بالنسبة للحجاز(٤) .

---

(١) أحمد ابراهيم الشريف ، مكة والمدينة فى الجاهلية وعصر الرسول ، القاهرة ١٩٦٧ ص ١٤٤ .

(٢) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، ص ٥٩ .

(٣) اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، طبعة النجف ، ج ١ ص ٢٠١ .

(٤) عبد العزيز سالم ، تاريخ العرب فى العصر الجاهلى ، ص ٣٥٨ وما يليها .

كذلك عقد القرشيون بزعامة هاشم بن عبد مناف معاهدات تجارية مماثلة مع أمراء العرب فى الجزيرة العربية ومع ملوك غسان والحيرة ، فعقد عبد شمس بن عبد مناف معاهدة مع نجاشى الحبشة وعقد المطلب بن عبد مناف معاهدة مع ملوك العراق . وكانت هذه المعاهدات تسجل فى صحف أو على الأديم . وقد ساعد على احتكار قريش لتجارة الهند والحبشة واليمن والعراق الحروب المتواصلة بين فارس وبيزنطة ، التى تسببت فى إغلاق المسالك التجارية عبر آسيا الغربية .
وساعد موقع الحجاز بين الشام واليمن والعراق على طريق التجارة بين الشمال والجنوب على قيام مدن تجارية ينزلها التجار ويحطون الراحة ، فازدهرت مكة والطائف ويثرب وتيماء وكانت قريش تفرض الضرائب على التجار الغرباء ، وقد عرفت هذه الضرائب بالعشور (١) ، وأثرت بعض الأسرات القرشية نتيجة اشتغالها بالتجارة ، ومن بين أثرياء مكة : أبو أحيحة وعبد الله بن جدعان والوليد بن المغيرة المخزومى وأبو سفيان . وكانت أسرة بنى مخزوم من الأسرات المكية فاحشة الثراء ، وظهر منهم الوليد بن المغيرة وكان يعتبر نفسه هو وعمرو ابن عمير الثقفى عظيمى القريتين (مكة والطائف) ، وهو القائل : « أينزل الوحى على محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيدها ، ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفى سيد ثقيف ونحن عظيما القريتين (٢) » فأنزل الله فيه : « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » (٣) . وكان عبد الله بن جدعان يشتغل بتجارة الرقيق (٤) وكان شديد الغنى إلى حد أنه أرسل ألفى بعير إلى الشام تحمل إليه البر والشهد والسمن للفقراء (٥) .

---

(١) الأزرقى ، ج ١ ص ١٠١ .
(٢) ابن هشام ، السيرة ، ج ١ ص ٣٨٧ .
(٣) القرآن الكريم ، سورة الزخرف ٤٣ آية ٣١ .
(٤) عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ، ص ٣٦٣ .
(٥) الفاسى ، شفاء الغرام ، ج ٢ ص ١٠٥ .

ونتج عن اشتغال أهل الحجاز بالتجارة أن قامت أسواق تجارية مشهورة كانت تعقد فى الأشهر الحرم لتأمين الناس أثناءها على أموالهم وأنفسهم ، مثل سوق عكاظ بين مكة والطائف ، وسوق مجنة بأسفل مكة ، وسوق حباشة بالقرب من بارق ، وسوق ذى المجاز بالقرب من عرفة (١) ، وقد ساهمت هذه الأسواق فى ازدهار حواضر الحجاز اقتصاديا .

الصناعة :

كان العرب يحتقرون الاشتغال بالحرف كالزراعة والصناعة والتجارة، وكانوا يستهينون بقريش لانكبابها على التجارة وانصرافها عن الحروب من دون سائر العرب ، ومع ذلك فقد اشتغل أهل المدن بهذه الحرف جميعا ، وعلى الأخص التجارة الحرفة الأولى عند أهل الحواضر . أما الصناعة فكان نصيبها أقل بكثير من حرفتى الزراعة والتجارة ، ففى اليمن اقتصرت الصناعات على صناعة الجلود الأنطاع فى صنعاء ونجران وجرش وصعده وزبيد (٢) ، وصناعة المنسوجات وعلى الأخص الشروب المقصبة فى سحولا وعدن وصنعاء(٣) ، وصناعة السيوف اليمنية والرماح اليزنية والخطية الردينية والسمهرية . وفى البتراء كانت تصنع الأوانى الخزفية التى بلغت من الرقة والدقة درجة عالية لا تقل عن الأوانى الصينية ، وتعبر القطع الخزفية التى أسفر عنها الكشف الأثرى سواء كانت هذه القطع خاصة بالكؤوس أو الصحاف عن تفوق فى هذه الصناعة ، إذ هى من الرقة بحيث تشبه قشر البيض ، واختصت الحيرة فى عهد المناذرة بعدد من الصناعات الدقيقة مثل صناعة المنسوجات الحريرية والكتانية والصوفية ، وكان قصر الخورنق يضم عـــددا من القين والنساج ، ومن أزياء أهل الحيرة الساج والطيلسان

(١) الأزرق ، أخبار مكة ، ج ١ ص ١٢٢ ، ١٢٣ .
(٢) ابن حوقل ، ص ٤٣ — المقدسى ، ص ٩٨ .
(٣) ابن الفقيه الهمذانى ، ص ٣٦ والمقدسى ، ص ١٧ .

والدخدار والبلمق والشرعبية والسيراء . وكان ملوك الحيرة لشهرتها فى صناعة المنسوجات يخلعون على الشعراء ومن يرضون عنهم أثوابا تعرف بأثواب الرضا ، وهى جباب أطواقها الذهب فى قضيب الزمرد ، ومنها ما يسمى المرفل . كذلك اشتهرت الحيرة بصناعة الأسلحة من سهام وسيوف ونصال للرماح . أما صناعة التحف المعدنية والحلى فكانت من أرقى الصناعات فى الحيرة ، وكان الصاغة الحيريون يتفننون ويبدعون فى صناعة أدوات الزينة من ذهب وفضة ويرصعونها بالجواهر واليواقيت ، وكذلك ذاعت شهرة الخزف الحيرى والجلود الحيرية والتحف المصنوعة من العاج (١) .

وإذا انتقلنا إلى حواضر الحجاز وجدنا أن مكة اشتهرت بصناعة الأسلحة من رماح وسكاكين وسيوف ودروع ونبال ، وكان سعد بن أبى وقاص يبرى النبال، وكان الوليد بن المغيرة حداداً، وكان خباب بن الأرت قينا يعمل السيوف. كذلك اشتهرت مكة بصناعة القدور والجفان والصحاف الخزفية. وممن اشتغل بهذه الصناعة أمية بن خلف . وفى يثرب قامت بعض الصناعات التى تعتمد على الانتاج الزراعى مثل صناعة الخمور من التمر والقفف من سعف النخل ، والنجارة من شجر الطرفاء والأثل ، واختصت يثرب أيضاً بصناعة التحف المعدنية كالحلى وأدوات الزينة والأسلحة والدروع ، وقد احترف اليهود هاتين الصناعتين .

ب — الحياة الاجتماعية :

النظام القبلى :

تعتبر القبيلة الوحدة السياسية عند العرب فى الجاهلية ؛ ذلك لأن القبيلة هى جماعة من الناس ينتمون إلى أصل واحد مشترك تجمعهم وحدة الجماعة وتربطهم رابطة العصبية للأهل والعشيرة ، ورابطة العصبية هى شعور التماسك والتضامن والاندماج بين من تربطهم رابطة الدم، وهى على هذا النحو مصدر القوة

(١) عبد العزيز سالم ، تاريخ العرب فى العصر الجاهلى ، ص ٣٠١ .

السياسية والدفاعية التي تربط بين أفراد القبيلة ، وتعادل في وقتنا الحاضر الشعور القومي عند شعب من الشعوب[١]، وإن كانت رابطة الدم فيها أقوى وأوضح من الرابطة القومية ، لأن العصبية تدعو إلى نصرة الفرد لأبناء قبيلته ظالمين كانوا أم مظلومين . وتقوم العصبية على النسب ، وهي لذلك تختلف باختلاف الالتحام بالأنساب(٢) .

وعلى هذا النحو لم تكن للمجتمع الجاهلي نزعة قومية شاملة ، لأن الوعي السياسي فيه كان ضيقاً محدوداً ، لا يتجاوز حدود القبيلة أو حدود القبائل المنتمية إلى الجد ، وهكذا كان المجتمع العربي في الجاهلية مجتمعاً مفتتاً من الناحية السياسية إلى وحدات سياسية متعددة ، قائمة بذاتها ، تمثلها القبائل المختلفة .

والقبيلة في البادية دولة صغيرة ، تنطبق عليها مقومات الدولة ، باستثناء الأرض الثابتة التي تحدد منطقة نفوذها ، فمن المعروف أن أهل الوبر لم تكن لهم أوطان ثابتة بسبب تنقلهم الدائم وراء مصادر الماء والعشب ، وكان ضيق أسباب الحياة في الصحراء حافزاً لهذه القبائل المتبدية على التنقل والتحرك ، كما كان سببا في اعتزازهم بالعصبية ، التي أملتها الظروف الصعبة المحيطة بهم . وبفضل العصبية أمكن لهذه القبائل أن تدافع عن كيانها ، والتغلب على غيرها ، لتضمن لنفسها موردا لحياتها . ولذلك كانت حياة القبائل المتبدية صراعا دائما ، والصراع هجوم يتم بقصد الحصول على مزيد من الرزق ، والدفاع يقومون به للحفاظ على وجود القبيلة ، والدفاع والهجوم يتطلبان التكتل والدخول في أحلاف مع القبائل الأخرى . ولهذا اعتبر قانون البادية قانون الغاب ، وقوامه « الحق في جانب القوة » ، فمن كان سيفه أمضى وأقوى ، كانت له الكلمة والغلبة وكان

---

(١) جواد علي ، ج ١ ص ٣٦٥ ــ أحمد الشريف ، مكة والمدينة ، ص ٥٠

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ج ٢ ص ٤٢٤

الحق فى جانبه (١).

وكان النظام القبلى أيضا دعامة الحياة السياسية فى الممالك العربية والإمارات التى قامت فى جنوب جزيرة العرب، وفى حواضر الحجاز، وفى الإمارات العربية على تخوم الشام والعراق ، فلم تنصهر القبائل التى نزلت فى هذه المدن والحواضر فى شعب واحد ، كالشعب الرومانى أو الشعب الفارسى ، وإنما ظلت تحتفظ بتنظيمها القبلى (٢) ، على الرغم من اختلاط أنسابها وتداخل شعوبها ، بحكم اختلاطها بغير العرب ممن لا يعتبرون المحافظة على النسب فى بيوتهم وشعوبهم (٣) .

ومن الملاحظ أن احتفاظ القبائل ببداوتها ووحشيتها يضمن لها الاحتفاظ بقوتها والتغلب على غيرها ، وذلك لأنها تعتمد فى حياة البادية على العصبية ، مصدر قوتها . أما إذا اختلطت هذه القبائل بمناطق متحضرة ، فإن خشونتها لا تلبث أن تتلاشى وتزول (٤) والسبب فى ذلك يرجع إلى عوامل منها : الزواج من أعجميات ، أو بالنقلة من قبيلة إلى أخرى أو بالاستلحاق أى بانتساب عبد من العبيد لقبيلة عن طريق زواجه بامرأة من نسائها أو عن طريق الحاق أبناء أم ولد بنسب رجل عربى. ومن هذه العوامل أيضا الولاء ، وهو دخول خليع ، أى شخص خلعته قبيلته ، فى قبيلة أخرى بقصد أن تحميه فيصبح مولى لها ، ويدخل نسبه بمرور الزمن فى نسبها ، ومنها أيضا الحلف ، وهو تحالف فريقين من قبيلتين مختلفتين وتعايشهما وانصهار أحدهما وهو الأضعف فى الفريق

---

(١) جواد على ، ج ٤ ص ٢١٤

(٢) أحمد الشريف ، ص ٢٤

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، ج ٢ ص ٤٢٦

(٤) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٤٣٨

الآخر وهـو الأقوى (١) . وعلى الرغم من اعتزاز أهل القبيلة فى البـادية بفرديتهم فإنها فردية منسجمة ومتماسكة مع الجماعة ، بحكم رابطة العصبية ، فالفرد يلبى نداء قبيلته إذا دعته إلى نصرتها فى ساعات الخطر ، فينصرها وينصر اخوانه ظالمين كانوا أم مظلومين ، ثم إنه يقبل تحمل بعض مسئولية أعمال غيره ، فيساهم فى دفع الديات للقتلى من القبيلة الأخرى أو الفداء عن الأسرى من قبيلته ، ولهذا فإن روح الديموقراطية والمساواة كانت الأساس الذى يقوم عليه المجتمع القبلى . وكان لكل قبيلة مجلس من شيوخها يرأسه شيخ يختارونه من بينهم (٢) يسمونه الرئيس أو الشيخ أو الأمير أو السيد ، وكانوا يشترطون فى اختياره أن يكون من أشرف رجال القبيلة ، وأشدهم عصبيـة ، وأكثرهم مالا ، وأكبرهم سنا ، وأعظمهم نفوذا ، كذلك كان من الضرورى أن تتوافر فيـه صفات محمودة كالسخاء والبيـــان والحلم والحنـكة والحكمة والشجاعة ، فرب هفوة صغيرة تصدر منه تثير حربا أو تسبب كارثة للقبيلة والحلف الذى تتزعمـه ، ذلك لأن أعصاب رجال البادية مرهفة حساسة تثيرها أقل الكلمات ، لا سيما إذا كان الأمر يتعلق بالشرف والجاه (٣) ، ولهذا السبب كانت القبيلة تعتز بكرامتهـا ، وقد يؤدى هجاء شـاعر من الشعراء لشيخ من شيوخهـا أو لفرد منها إلى قيام الحرب بين قبيلة هـذا الشيخ أو الفرد وبين قبيلة الشـاعر ، وكان للشـاعر لذلك

---

(١) عمر فروخ ، تاريخ الجاهلية ، ص ١٥٠ .

(٢) لم يكن العرب يقبلون مبدأ الوراثة فى الرئاسة بل كانوا يأنفون من التسود عن طريق الوراثة ، وإلى هذا المعنى يشير عامر بن الطفيل أحد سادات بنى عامر :

وإنى وإن كنت ابن سيـد عامر .·. وفى السر منهـا والصريح المهذب
فما سـودتنى عامر عن وراثـة .·. أبى الله أن أسمـو بأم ولا أب
ولكننى أحمى حـماها وأتـقى .·. أذاها وأرمى من رماها بمقنب

(المسعودى ، المروج ، ج ٤ ص ٥٥) .

(٣) جواد على ، ج ٤ ، ص ٢١٥ .

شأن كبير فى حياة القبيلة ، ومنزلة لا تعادلها منزلة (١) ، وكان إذا نبغ فى إحدى القبائل شاعر أتت القبائل ، فهنأتها بذلك . كذلك كان للخطباء أثر كبير فى الدفاع عن القبيلة ، وفى تعظيمها عند غيرها ، أو فى دفعها إلى الحرب (٢) ، ففصاحة الخطيب ، وقدرته على الإقناع تدفع الناس إلى الإنقياد إليه والامتثال لأوامره ، والناس فى الجاهلية كانوا أحوج إلى ما يستنهض هممهم ، ويفتح أعينهم ، ويقيم قاعدهم ، ويشجع جبانهم ، ويشد جنانهم ، ويثير أشجانهم ، ويستوقد نيرانهم ، صيانة لعزهم أن يستهان ، وتشفياً بأخذ الثار ، وتحرزا من عار الغلبة وذل الدمار ، فكانوا أحوج الى الخطب بعد الشعر لتخليد مآثرهم وتأييد مفاخرهم .

وكان على شيخ القبيلة أيضا أن يعين الضعفاء ، ويفتح بيته للنزلاء والأضياف ، ويدفع الديات عن فقراء قبيلته . وإذا كان من حق شيخ القبيلة أن يكون حكمه نافذا على جميع أفراد قبيلته إلى جانب امتيازاته الاخرى فى المرباع (أى ربع الغنيمة) والصفايا (أى مايصطفيه شيخ القبيلة من الغنائم قبل أن يجرى القسمة) ، والحكم (أى إمارة الجند) ، والنشيطة ، (أى ما أصيب من المال قبل اللقاء) ، والفضول (ما لا يقبل القسمه من مال الغنيمة) فقد كان من النادر أن يستبد فى حكمه وفى رئاسته للقبيلة ، لأنه كان مضطرا إلى مصانعة أهل الرأى فى القبيلة . ولا يختلف الأمر عن ذلك كثيرا فى المجتمعات الحضرية ، لأن مجتمع الحواضر كان ينقسم الى قسمين القبيل وهم عامة القبيلة والملأ وهم أشرافها ، وكان الملأ يجتمعون فى دار الندوة .

---

(١) الألوسى ، بلوغ الأرب ، ج ٣ ص ٨٤ — جواد على ، ج ٤ ص ٢١٦ — عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى للدولة العربية ، ج ١ ص ٥١ — أحمد الشريف ، ص ٢٦

(٢) الألوسى ٢ ج ٣ ص ١٥١ — أحمد الشريف ، ص ٢٦

الأغنيـاء والفقراء :

كان من العرب فريق ينعم بالثراء والترف ، وفريق يعانى مرارة الفقر والبؤس والحرمان ، أما الفريق الأول فكانوا إما يشتغلون بالتجارة ، فكوّنوا ثرواتهم من هذا الطريق ، وإما كانوا يشتغلون بالزراعة فى أطراف الصحراء العربية فى اليمن وفى الحيرة وفى مشارف الشام وفى الواحات الداخلية والحرار ، وكان أثرياء العرب قلة إذا قيسوا بفقرائهم الذين يؤلفون جمهور سكان البادية .

ولقد صور الشعراء ما كان ينعم به أغنياء غسان والحيرة واليمن ، فالنابغة يصور ترف بنى غسان ، فيصفهم بأنهم يلبسون النعال الرقاق ، والثياب المصنوعة من الخز الأحمر شعار الملوك ، فيقول :

رقاق النعال طيب حجزاتهم .·. يحيون بالريحان يوم السباسب
تحييهم بيض الولائد بينهم .·. وأكسية الاضريج فوق المشاجب(١)

وتصف الخنساء ثياب قومها فى السلم فتقول :

وتلبس فى الحرب سرد الحديد .·. وفى السلم خزا وعصبـا وقـزا(٢)

أما سراة الحجاز ، فقد كوّنوا ثرواتهم من اشتغالهم بالتجارة والزراعة فى الواحات ، وكان كل سراة قريش تجارا ، لا يكاد يعرف لكثير منهم عمل غير الإتجار(٣) ، فكانوا ينظمون عيرهم فى الشتاء إلى اليمن حيث يبتاعون سلع الهند والحبشة فيحملونها إلى الحجاز ، وعيرا فى الصيف إلى الشام ، فيفرغونها فى أسواق غزة وبصرى وغيرهما .

---

(١) الحوفى ، الحياة العربية من الشعر الجاهلى ، القاهرة ١٩٥٦ ص ٢٢٢

(٢) الألوسى ، ج ٣ ص ١٧

(٣) سعيد الأفغانى ، أسواق العرب ، ص ٩٥

وقد أدى اختلاط القرشيين بالروم والفرس والاحباش إلى أخذهم الكثير من تقاليد هذه الشعوب ، فتأثروا بهم ، وأفادوا منهم ، وقلدوهم فى اللباس والزى . وفى الطعام والشراب ، فعبد الله بن جدعان أتى إلى العرب بطعام لا عهد لهم به ، هو الفالوذج الفارسى ، ورويت له أخبار أشبه بما يروى عن الملوك ، فكان يتخذ القيان يغنينه ثم يهبهن لمادحه ، وكان يقضى عن الناس ديونهم، وكان الشاعر أمية بن أبى الصلت يلقب عند العرب بحاسى الذهب (١) ، ومن مظاهر ثراء قريش أن عثمان بن عفان جهز وحده جيش العسرة (تبوك) بتسعمائة وخمسين بعيراً وأتمها ألفا بخمسين فرسا ، وهو الذى اشترى بئر رومة فى يثرب ، اشترى نصفها أول الأمر باثنى عشر ألف درهم فجعله للمسلمين ، ثم اشترى النصف الثانية بثمانية آلاف درهم (٢) . ويروى ابن سعد أنه كان عند خازنه يوم قتل ثلاثين ألف ألف درهم وخمسمائة ألف درهم، ومائة وخمسين ألف دينار انتهبت كلها، وترك ألف بعير بالربذة ، وترك صدقات كان تصدق بها ببراديس وخيبر ووادى القرى قيمة مائتى ألف دينار . وكانت تركة عبد الرحمن بن عوف ألف بعير وثلاثة آلاف شاة ومائة فرس ترعى بالبقيع ، وكان فى جملة ما تركه ذهب قطع بالفؤوس حتى مجلت أيدى الرجال منه ، وترك أربع نسوة ، كان نصيب كل امرأة منهن ثمانين ألف درهم (٣) .

أما الفقراء فكانوا يؤلفون سواد العرب ، وقد سجل الشعر العربى أسماء كثير من الفقراء الذين عبروا بشعرهم عن الحرمان والفاقة ، فهذا عروة بن الورد يحس بازدراء الناس له لفقره ، وتفرقهم من حوله ، فيقول :

---

(١) الألوسى ، ج ١ ص ٨٧ .

(٢) ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٦٣ .

(٣) ابن سعد ، الطبقات ، ج ٣ ص ٩٦ — ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٨٠

ذريني للغـــنى أسعى فاني .·. رأيت الناس شرهم الفقير
وأهونهم وأحقرهم لديهم .·. وإن أمسى له نسب وخير
ويقصى في الندى وتزدريه .·. حليلته ، وينهره الصغير(١)

وصعاليك العرب جماعة أصابهم الفقر فتاقوا إلى الغنى عن طريق المغامرة والغزو ، ولهذا كان الصعاليك مغامرين شجعانا ، وعدت الصعلكة مفخرة عند العرب (٢) .

المثل العربي في ايثار القوة والبغي واستطابة الموت في المعركة :

كان حب القتال مغروسا في نفوس العرب في الجاهلية ، حتى تحول إلى شغف بالسيطرة والغلبة عن طريق البغي والبطش والمبادرة بالعدوان ، ولا يمكن التوصل إلى الحق والسيطرة إلا عن هذا الطريق ، ويعبّر عمرو بن كلثوم عن ذلك في قوله :

إذا ما الملك سام الناس خسفا .·. أبينا أن نقر الذل فينا
لنا الدنيا ومن أمسى عليها .·. ونبطش حين نبطش قادرينا
بغاة ظالمينا وما ظلمنـــا .·. ولكنا سنبدأ ظالمينا (٣)

وقد ذهب العرب في الجاهلية إلى اعتبار الظلم والبغي الطريق الوحيد الذي يصل المرء بواسطته إلى الحق ، فالحق هو القوة أو الحق في جانب القوة ، وفي هذا المعنى الفلسفي العميق يقول زهير بن أبي سلمى في معلقته :

ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه .·. يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم (٤)

---

(١) الحوفي ، ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ .
(٢) نفس المرجع ، ص ٢٢٦ – ٢٣٤ .
(٣) تراجم أصحاب المعلقات العشر ، القاهرة ١٣٢٩ هـ ، معلقة عمرو بن كلثوم ، ص ٥٦
(٤) أبو العباس أحمد بن يحيى الشيباني ، شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ، القاهرة ١٩٤٤ ص ٣٠ .

وفى سبيل التوصل إلى الحق استطاب العربى الموت فى ساحة الوغى ، وازدرى الموت حتف الأنف ، وأنف منه ، فالميتة الكريمة هى أن يموت الرجل فى ميدان الحرب ، ويعبر عمرو بن معد يكرب عن هذا المعنى بقوله :

وقرب للنطاح الكبش يمشى .·. وطاب الموت من شرع وورد (١)

كذلك يشف عن هذا المثل العربى قول الشاعر عمرو بن كلثوم :

معاذ الإله أن تنوح نساؤنا .·. على هالك أو تضج من القتل
قراع السيوف بالسيوف أحلنا .·. بأرض براح ذى أراك وذى أثل(٢)

ويقول السموأل بن عاديا : صاحب حصن تيماء :

وإنا لقوم ما نرى القتل سبة .·. إذا ما رأته عامر وسلول
يقرب حب الموت آجالنا لنا .·. وتكرهه آجالهم فتطول
وما مات منا سيد حتف أنفه .·. ولا طل منا حيث كان قتيل
تسيل على حد الظباة نفوسنا .·. وليست على غير الظباة تسيل(٣)

ويعبر دريد بن الصمة عن حياة العربى فى دوام التأهب للحرب إما فى طلب الثأر لنفسه أو توقعاً لثأر منه ، فيقول :

أبى القتل إلا آل صمة أنهم .·. أبوا غيره والقدر يجرى إلى القدر
فاما ترينا لا تزال دماؤنا .·. لدى واتر يسعى بها آخر الدهر
فانا للحم السيف غير نكيرة .·. ونلحمه أحيانا وليس بذى نكر
يغار علينا واترين فيشتفى .·. منا إن أصبنا أو نغير على وتر

---

(١) البحترى ، كتاب الحماسة ، تحقيق الأب لويس شيخو ، بيروت ١٩١٠ ، ص ٣٩
(٢) الألوسى ، بلوغ الأرب ، ج ١ ص ١١٣
(٣) ديوان السموأل ، بيروت ١٩٥١ ص ٤٦

قسمنا بذاك الدهر شطرين بيننا . فما ينقضى إلا ونحن على شطر (١)

وقد ظلت هذه الروح الجاهلية مغروسة فى قلب الجاهلى حتى جاء الإسلام فخمد أوراها بعض الشىء ، ثم انبعثت فى أقل من نصف قرن عندما تنازعت العصبيتان المضرية واليمنية ، وفى ذلك يقول قطرى بن الفجاءة :

ولسنا كمن يبكى أخاه بعبرة .·. يعصرها من ماء مقلته عصرا
وانا اناس ما تفيض دموعنا .·. على هالك وإن قصم الظهرا
ولكننى أشفى الفؤاد بغارة .·. ألهب فى قطرى كتائبها جمرا

المرأة فى المجتمع الجاهلى :

الأسرة :

كان العربى فى الجاهلية لا يكتفى بزوجة واحدة إما بقصد إعالتهن أو لغرض سياسى عن طريق المصاهرة أو بقصد الاكثار من الذرية ، وكان ازواج أنواعا ، منها :

(١) زواج الصداق أو البعولة : ويتم بأن يخطب الرجل من الرجل ابنته ، فيصدقها بصداق يحدد مقداره ثم يعقد عليها ، وكانت قريش وكثير من قبائل العرب يؤثرون هذا النوع من الزواج . (٢) زواج المتعة : وهو تزويج المرأة إلى أجل ، فإذا انقضى افترقت عنه ، وفى هذا الزواج ، يقدم الزوج صداقا معينا ويكون لأولاده حق الإنتساب إليه وحق الإرث . وقد نهى الرسول عن زواج المتعة (٢). (٣) زواج السبى : ويقضى بأن يتزوج الرجل المحارب من إحدى النساء اللائى وقعن سبيا ، ولا يشترط فى هذا الزواج أن يدفع الزوج صداقا . (٤) زواج الاماء : من حق العربى أن يتزوج من أمته ، فإذا أنجب منها أبناء لا يحق لهم أن يلحقوا بنسبه ، بل يظلوا عبيداً له ،

(١) الحوفى ، الحياة العربية من الشعر الجاهلى ، ص ١٥٨ — شوقى ضيف ، العصر الجاهلى ، ص ٦٤ .

(٢) صحيح البخارى ، ج ٧ ص ٢١ — جواد على ، ج ٥ ص ٢٥٤ .

وقد يعتقهم إذا رغب فى ذلك . (٥) زواج المقت : وهو أن يتزوج الرجل زوجة أبيه كجزء من ميراثه (١) . وهناك أنواع أخرى من الزواج كانت معروفة فى الجاهلية ولكن المجتمع العربى لم يكن يقرها ، مثل الإستبضاع والمخادنة والبدل والشغار والرهط . وكان العرب فى الجاهلية يطلقون نساءهم ثلاثا على التفرقة ، أو على الخلع أى تختلع منه بمال ، فإذا طلقت المرأة أو مات زوجها كان عليها أن تقضى عدة حول لا تتزوج خلاله حتى يتضح إذا ما كانت قد حملت من زوجها أو لم تحمل ، حفاظا على الأنساب ، وقد أبطل الإسلام ذلك ، فجعل عدة الوفاة أربعة أشهر وعشرا . وكان العربى يؤثر البنين على البنات ، فكن فى منزله أدنى ، وذلك لاعتماد العرب على الذكور فى الصيد والغزو والحروب بجانب المحافظة على النسب ، وما زال الميل الى انجاب البنين واضحاً فى المجتمع العربى المعاصر وخاصة فى البادية والريف . ومع ذلك فقد كان كثير من العرب يعطفون على بناتهن ويدللونهن ، ولعل ذلك يرجع إلى ضعفهن ، وحنوهن على آبائهن ، ويذكر أبو الفرج الأصفهانى أن معن بن أوس الشاعر كان مشناثاً ، وكانت له ثلاث بنات يؤثرهن ويحسن صحبتهن ، وكان يرى البنات أكثر وفاء على الآباء من الصبيان ، فيقول :

رأيت رجالا يكرهون بناتهم ∴ وفيهن لاتكذب نساء صوالح
وفيهن والأيام يعثرن بالفتى ∴ عوائد لايمللنه ونوائح(٢)

ومن مظاهر إعزاز الآباء لبناتهم أن كان بعضهم يكنى بأسماء بناته ، فكان ربيعة بن رياح والد زهير الشاعر يكنى بأبى سلمى (٣) ، والنابغة الذبيانى كان

(١) الألوسى ، ج ٢ ص ٥٣ — عمر فروخ ، ص ١٠٦
(٢) الأغانى ، ج ١٠ ص ٣٤٧ .
(٢) الأغانى ، ج ٩ ص ٢٩٤ .

يكنى بأبي أمامة (١) .

ومع ذلك فقد كان عدد كبير من عرب الجاهلية يكرهون البنات ، وقد أشار الله تعالى إلى كراهيتهم للبنات فى قوله تعالى : « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ، ألا ساء ما يحكمون » (٢) ، وفى قوله عز وجل : « وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسوداً وهو كظيم » (٣) . هذا التصوير النفسى الرائع لحالة الرجل فى الجاهلية إذا بشروه بولادة بنت له ، فيحزن ويسود وجهه من الحزن ، ويختلى بنفسه ، ويفكر فى الاحتفاظ بهذه البنت مع احتمال المذلة والهوان فى ذلك أو دفنها حية . هذه المشكلة التى صورها القرآن الكريم هذا التصوير واستهجنها ، كانت من المشاكل الاجتماعية البارزة فى مجتمع الجاهلية .

وقد بالغ بعض الناس فى بغضهم للبنات عند ولادتهن إلى حد الوأد وهو أن يحفر الرجل للمولودة حفرة ، ثم يضع ابنته فيها ، ويهيل عليها التراب ، فيدفنها حية . وشاعت هذه العادة الذميمة فى تميم وقيس وهذيل وكندة وبكر وقريش . وقد اختلف الباحثون فى توضيح أسباب الوأد ، ونلخص هذه الأسباب فيما يلى :

١ — أرجع بعضهم سبب الوأد إلى شعور العربى فى الجاهلية بالغيرة والخوف من العار الذى تجلبه بناته إذا كبرن وتعرضن للسبي لأن طبيعة العرب الغزو والقتال والسبي .

---

(١) نفس المصدر ، ج ٩ ص ٣٢٩ .

(٢) القرآن الكريم ، سورة النحل ١٦ آية ٥٨ — ٥٩ .

(٣) القرآن الكريم ، سورة الزخرف ٤٣ آية ١٧ .

٢ — ورد فى القرآن الكريم أن بعضهم كان يئد بناته خشية الفقر والاملاق فيقول سبحانه وتعالى : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ، نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئاً كبيراً (١) » . ويقول تعالى أيضاً : « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم (٢) » . وتقديم رزق الآباء فى هذه الآية يتضمن توقع الفقر والخوف منه ، والمقصود بهؤلاء الآباء والأغنياء منهم . أما تقديم رزق الابناء على الآباء فى الآية السابقة فيشير إلى حدوث فقر ، والمقصود بأولئك الآباء الفقراء منهم بالفعل(٣) .

٣ — أرجع بعضهم سبب الوأد إلى صفات فى الموءودة كان يتشاءم منها أهلها ، فكان بعضهم يئد من البنات من كانت زرقاء أو شيماء (سوداء) أو برشاء (برصاء) أو كسحاء (٤) .

وارجع بعض الباحثين الوأد إلى عوامل اجتماعية ، منها ماله علاقة بصحة الطفل إذا ولد ضعيفاً أو مشوهاً ، أو إذا أصيب بمرض لا يرجى منه الشفاء بحيث يصبح عالة على أهله ، ومنها ماله علاقة بكثرة عدد البنات .

ومما لاشك فيه أن العامل الاقتصادى أقوى هذه العوامل جميعاً ، وقد أشار القرآن الكريم إلى أثر الفقر أو أثر توقع حدوثه فى إقبال بعض الناس على وأد بناتهم ، ونهى الله تعالى عن ذلك ، لأن الله تعالى يرزق الابناء والآباء كما يرزق الآباء والابناء . ولا أنكر أيضاً أثر خوف العرب من العار إذا ما تعرضت بناتهم للسبي

(١) القرآن الكريم ، سورة الاسراء ١٧ آية ٣١ .
(٢) القرآن الكريم ، سورة الأنعام ٦ آية ١٥١ .
(٣) ابن كثير الدمشقى ، تفسير القرآن الكريم ، ج ٢ القاهرة ١٩٣٧ ص ١٨٨ ، ج ٣ ص ٣٨ .
(٤) الألوسى ، ج ٣ ص ٤٣ .

فى أيام الحروب والغزوات ، وحياة العرب كلها صراع وحروب ، والسبى أثر من آثار الحروب .

ومع ذلك فقد وجد أناس كانوا يسعون إلى منع الوأد ، وذلك بشراء الموءودة مثل ذلك أن صعصعة بن ناجية المجاشعى جد الفرزدق الشاعر أنقذ ثمانين ومائتى موؤودة ، اشترى كل منها بناقتين عشراوين وجمل (١) .

ج — تطور الفكر الدينى عند العرب فى الجاهلية :

نستدل من أسماء قبائل العرب على أنهم كانوا قريبى عهد بمذهب الطوطمية ، والطواطم كائنات تحترمها بعض القبائل المتوحشة ، ويعتقد كل فرد من أفراد القبيلة بعلاقة نسب بينه وبين واحد منها يسميه طوطمه ، وقد يكون الطوطم حيوانا أو نباتا ، وهو يحمى صاحبه ويدافع عنه ، ولذلك احترمه وقدسه ، فإذا كان حيوانا أبقى عليه ، وإذا كان نباتا لم يتجرأ على قطعه أو أكله إلا فى أوقات الشدة (٢). وتتمثل الطوطمية من حيث وجهتها الدينية فى كثير من مظاهر حياة العرب فى الجاهلية :

١ — فالعرب كانوا يتسمون بأسماء حيوانات مثل : بنو أسد وبنو فهد وبنو ضبيعة وبنو كلب ، ومثل بر وثور وقرد وذئب وقنفذ وظبيان ، أو بأسماء طيور مثل عقاب ونسر ، وأسماء حيوانات مائية مثل قريش ، أو بأسماء نباتات مثل حنظلة ، ونبت ، أو بأسماء أجزاء من الأرض كفهر وصخر وحجر ، أو بأسماء حشرات مثل حية وحنش (٣) . هذه التسميات وإن كانت من قبيل

---

(١) النويرى ، نهاية الأرب ج ٣ ص ١٢٧ .

(٢) محمد عبد المعيد خان الأساطير العربية ، ص ٥٥ .

(٣) صبح الأعشى ، ج ١ ص ٣١٢ — محمد عبد المعيد خان ، ص ٨٤ — جواد على ، ج ٥ ص ٣٢ .

التفاؤل فإنها تشير إلى تقديس العرب للحيوانات أو النباتات . ومن الملاحظ أن العرب كانوا يتعمدون تسمية أبنائهم بمكروه الأسماء ككلب وحنظلة ومرة وضرار وحرب ، وتسمية عبيدهم بمحبوب الأسماء كفلاح ونجاح ونحوهما . ويعلل القلقشندى ذلك بما روى من أنه قيل لأبى الدقيش الكلابى : « لم تسمون أبناءكم بشر الأسماء نحو كلب وذئب ، وعبيدكم بأحسن الأسماء نحو مرزوق ورباح ؟ فقال : إنما نسمى أبناءنا لأعدائنا ، وعبيدنا لأنفسنا » (١) .

٢ — ثم ان العرب كانوا يقدسون الحيوان ويعبدونه كما يقدسه ويعبده أهل الطوطم ، وإن كان الغرض من تقديس الحيوان يختلف عند العرب عما يقصد أصحاب الطوطم . فقد كان هؤلاء يهدفون من وراء عبادته إلى اجلال الآباء ، أما العرب فكانوا يقدسونه لمجرد تحصيل البركة (٢) .

٣ — كذلك كان العرب يعتقدون أن الطوطم يحمى أهله عند وقوع الخطر ، فكانوا يحملونه معهم فى المعارك ، كما فعل أبو سفيان عندما حمل معه اللات والعزى يوم أحد . وذكروا أن يغوث دافع عن قبيلته فى ساحة القتال كما قال الشاعر :

وسار بنا يغوث إلى مراد .·. فناجزناهم قبل الصباح (٣)

وكان العربى يتفاءل بالطير كالحمامة وبنباح الكلاب على مجىء الضيوف ، ويتشاءم من الثور الأعضب مكسور القرن ومن الغراب ، وكانوا يضربون بالغراب المثل فى الشؤم فقالوا : فلان أشأم من غراب البين ، ويذكر الألوسى أن هذا الإسم لزمه « لأن الغراب إذا بان أهل الدار للنجعة أى طلب الكلأ فى

---

(١) نفس المصدر ج ١ ص ٣١٢ .
(٢) محمد عبد المعيد خان ص ٦٦ — ٨٨ .
(٣) ابن الكلبى كتاب الاصنام ص ١٠ .

موضعه وقع فى موضع بيوتهم يتلمس ويتقمم فتشاءموا به ، وتطيروا منه ، إذ كان لا يعترى منازلهم إلا إذا بانوا ، فسموه غراب البين . ثم كرهوا إطلاق ذلك الإسم مخافة الزجر والطيرة وعلموا أنه نافذ البصر ، صافى العين حتى قالوا : أصفى من عين الغراب ، كما قالوا : أصفى من عين الديك ، وسموه الأعور كناية ، كما كنوا طيرة عن الأعمى فكنوه أبا بصير ، وكما سموا الملدوغ والمنهوش السليم . . . » (١) .

٤ — وكان العرب يحرمون لمس الطوطم والتلفظ باسمه ، فيكنون عن الملدوغ بالسليم ، ويسمون النعامة بالجلم ، ويلقبون الأسد بأبى الحارث ، والثعلب بابن آوى ، والضبع بأم عامر (٢) .

٥ — وكان العربى إذا مات حيوان من نوع طوطم قبيلته احتفل بدفنه وحزن عليه ، فكان بنو الحارث إذا وجدوا غزالا ميتا غطوه وكفنوه ، وتحزن عليه القبيلة إلى ستة أيام .

ومما لاشك فيه أن العربى فى البادية كان يؤمن بوجود قوى خفية روحية مؤثرة فى العالم والإنسان ، كامنة فى بعض الحيوانات والطيور والنبات والجماد ، وفى بعض مظاهر الحياة الطبيعية المحيطة به كالكواكب (٣) . فربط بين هذه الكائنات والموجودات والظواهر الطبيعية وبين القوى الخفية وقدسها ، ثم تطورت وثنية العربى إلى عبادة قطع الصخور التى يستحسن مظهرها وهيئتها ، ومعظمها كانت بيضاء اللون لها علاقة بالغنم والجمل ولبنهما (٤) . ومن أمثلة هذه

---

(١) الألوسى ، ج ٢ ص ٣٣٥
(٢) محمد عبد المعيد خان ، ص ٧٨
(٣) جواد على ج ٥ ص ٢٢
(٤) محمد عبد المعيد خان ، ص ٩٨

الصخور الجلسد وكان صنما بحضرموت على شكل « جثة الرجل العظيم ، وهو من صخرة بيضاء لها كرأس أسود ، وإذا تأمله الناظـــر رأى فيه كصورة وجه الإنسان » (١) . ومنها ذو الخلصة وكان صخرة بيضاء منقوشة ، عليها كهيئة التاج ، وكانت بتبالة بين مكة واليمن(٢) ، ومنها سعد وكان صخرة طويلة بفلاة بساحل جدة (٣) ، وكانت ذات أنواط شجرة عظيمة خضراء كان العرب فى الجاهلية يأتونها كل سنة تعظيما لها ، فيعلقون عليها أسلحتهم ويذبحون عندها ، وكانت هذه الشجرة مغروسة بالقرب من مكة(٤) ، وكانت ببطن نخلة من مكة ثلاث سمرات (شجرات) فبنى عليها بيت العزى ، وأقيم لها غبغب ، أى منحر ، ينحرون فيه ضحاياهم(٥) .

نسج العربى حول الجبـال والآبار والأشجار ، مما كان يحيط به ، قصصا وأساطير ، ورسم صورا خيالية فى الأحجار التى كان يبحث عنها فى الوديان ، فقد صـوّر خياله الصفا والمروة ، وهما صخرتان ، رجلا وامرأة مسخهما الله حجرين ، وصـوّر خياله أيضا أسافا ونائلة رجلا وامرأة ممسوخين حجرين على موضع زمزم(٦) .

ولم يكن تقديس العربى لهذه المظـاهر الطبيعية وعبادته لها على أنها تمثل أربابا ، ولـكن شعوره نحوها لم يكن يعدو الاجلال ، كما أن الأساطير التى

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٢ ، مادة جلسد ، ص ١٥١

(٢) ابن الـكلبى ، ص ٣٤

(٣) نفس المصدر ، ص ٣٧ — ابن هشام ، السيرة ، ج ١ ص ٨٣

(٤) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة أنواط ، ص ٢٧٣ ج ١ — محمد نعمان الجـارم ، أديان العرب فى الجاهلية ، ص ١٢٧

(٥) ابن الـكلبى ، ص ٢٥

(٦) ابن هشام ، ج ١ ص ٨٤ .

نسجها حول النصب تدل صراحة على أنه لم يعبد الوثن معتقدا أنه خالق البشر أو الكائنات ، لأنه تارة يستقسم عنده ، وتارة أخرى يسبه ، ومرة ثالثة يأكله فى وقت الشدة . ولم يصبح الوثن فى تصور العربى رباً إلا منذ القرن السادس قبل الميلاد ، عندما تأثر بالوثنية المجاورة ، ثم تطورت الوثنية المحلية عند العرب بتأثير الحضارات المجاورة ، كالبابلية والرومانية واليمنية ، وعلى الرغم من تعرض الوثنية الحجازية منذ انكسار سد مأرب ، وهجرة القبائل اليمنية إلى الشمال، لتأثير الوثنية اليمنية ، فإنها لم تتأثر بوثنية اليمن كما تأثرت بوثنية العرب الشماليين وبالوثنية البابلية (١) .

والوثنية اليمنية تأثرت بوثنية بلاد الرافدين ، فإن عبادة النجوم والكواكب كان مصدرها الصابئة وبقايا الكلدانيين ، وعن أهل اليمن أخذ عرب الشمال عبادة الكواكب ، وقوامها ثالوث كوكبى هو القمر والشمس والزهرة(٢) . أما القمر فكان الإله الأكبر ، ويليه الشمس وهى اللات ، والالهة ، وكانت فى نظرهم زوجة القمر ، ومنهما ولد عثتر وهو الزهرة . والقمر كان يسمى عند المعينيين « ود » ، وعرف أيضاً عند السبئيين وغيرهم باسم ورخ ، وسين ، وهوبس ، والمقه ، وشهر ، وكهل ، وأبم ، باعتباره أكبر الآلهة سنا والمقدم عليها جميعا ، وكان يطلق على جميع أسماء القمر لفظ مشترك هو « ال » أو « ايل » ، أى الله

---

(١) محمد عبد المعيد خان ، ص ١١١ .

(٢) جواد على ، ج ٥ ص ١٢٠ — شوقى ضيف ، العصر الجاهلى ، ص ٢٩ .

وهذه الكواكب الثلاثة هى نفس الثالوث الكوكبى البابلى : الاله سين (القمر) والإله شمس والإلهة عشتار

(راجع رشيد الناضورى ، المدخل فى التطور التاريخى للفكر الدينى ، بيروت ١٩٦٩ ص ١١٣) .

أو الإله ، ويقابله بعل أو هبل عند العرب الشماليين . وكانت القمر منزلة عظمى، وهو الإله الأثير ، ومكانته عند عرب الجنوب أسمى من مكانة الشمس (اللات) التى كانت لحرارتها الشديدة فى الصيف تعرف باسم ذات حميم أو ذات حمم ، ولكن القمر كان هو دليل الحادى ، ورسول القافلة ، ولذلك لقب بالحكيم والقدوس والصادق والعادل والمبارك والمعين والحامى [١] ، وقد أصبحت هذه الأسماء فى الإسلام صفات لله الواحد الأحد .

أما الشمس فصنم عبده العرب قبل الميلاد وبه تسمى كثير من الأشخاص فعرفوا بعبد شمس ، وقد ذكر الأخباريون أن أول من تسمى به سبأ الأكبر ، لأنه أول من عبد الشمس ، والشمس أنثى فى العربية الجنوبية ، فهى إلهة ، ولكنها فى كتابات تدمر مذكر ، وكانت تسمى عند المعينيين باسم نكرح ، وعند السبئيين بذات حميم وذات بعدن وذات غضرن وذات برن . وعثتر فى العربية الجنوبية هو إله مذكر ، وفى العربية الشمالية إلهة أنثى ، وهى العُزّى [٢]، أما فى الجنوب فهو إله الزهرة ، والزهرة هو المعنى به فى القرآن الكريم « النجم الثاقب » [٣] ، وهو أكثر نجوم السماء تألقا ولمعانا ، ويعرف بعزيز ، نجم الصباح ، الذى يسبق الشمس قبل شروقها ، وقد عرف أيضاً « بذى الخلصة » و « ملك » ، ولما كان الملك يرمز له بالتاج ، فإن ما ذكره ابن الكلبى خاصا بالإله ذى الخلصة فى تبالة يؤكد هذا القول [٤] .

وهكذا كان القمر يحتل فى ديانة العرب الجنوبيين المركز الأول ، ورمز للقمر بالثور ، ولعل سبب ذلك يرجع إلى أن للثور قرنين يشبهان الهلال [٥] ،

---

(١) ديتلف نلسون « الديانة العربية القديمة » ص ٢٠٩.

(٢) جواد على ، ج ٥ ص ١٢١ .

(٣) القرآن الكريم ، سوورة الطارق ، ٨٦ آية ٣ .

(٤) ابن الكلبى ، ص ٢٤ .

(٥) جواد على ، ج ٥ ص ١٢٣ .

وقد قدم أهل اليمن القمر على الشمس كما فعل الكلدان (١).

أما الوثنية فى العربية الشمالية فكانت صورة تقليدية للوثنية البابلية ، ومما يدل على تأثر العرب بكلدة وآشور تقديمهم الليالى على الأيام ، لأن شهورهم مبنية على مسين القمر ، مقيدة بحركاته ، وهو ما يتفق ونظرة الكلدان ويختلف مع نظرة الروم والفرس . ومن مظاهر تأثر العرب بوثنية الكلدان وآشور أن كلمة صنم أصلها صلم Salm العبرانية (٢) ، أو الآرامية (٣) . وقد دخلت هذه الكلمة فى بلاد العرب مع دخول الأصنام ، ومن الثابت أن العرب لم ينحتوا الأصنام لجهلهم بفنون النحت ، وأن الأصنام جلبت اليهم من الخارج ، ومنها هبل وهو بعل ، واللات وهى اللاتو البابلية ، ومناة وهى ما مناتو البابلية بنت الإله ، كما جلبوا العزى وهى عشتار البابلية (٤).

---

(١) محمد عبد المعيد خان ، ص ١١٣ .

(٢) جواد على ، ج ٥ ص ٧٨ .

(٣) محمد عبد المعيد خان ، ص ١١٣ .

(٤) نفس المرجع ، ص ١٢٠ .

الباب الاول

ظهور الاسلام وقيام الدولة العربية الاسلامية

الفصل الأول : الدعوة إلى الإسلام

١ ـ التمهيد لظهور الإسلام واستعداد العرب لتقبل الدعوة الاسلامية

٢ ـ سيرة النبي محمد ﷺ .

أ ـ من المولد حتى المبعث .

ب ـ من المبعث حتى الهجرة إلى يثرب .

الفصل الثاني : قيام دولة الرسول في المدينة .

١ ـ الأسس التي قامت عليها الدولة المدينة .

٢ ـ السياسة الخارجية لدولة المدينة .

ـ ١ ـ

التمهيد لظهور الاسلام واستعداد العرب لتقبل الدعوة الاسلامية

كان ظهور الإسلام في الواقع ثورة دينية وسياسية واجتماعية واقتصادية ، أو بمعنى أصح انتقالاً حاسماً في تاريخ العرب ، إذ جعل لهم ديناً واحداً يدعو إلى الوحدانية ، وحقق لهم وحدتهم السياسية ، وجعل من العرب أمة موحدة قوية ، حققت من الفتوحات مثلما حققته الامبراطوريات القديمة . ومن الطبيعي أن لكل ثورة دينية أو سياسية أو اجتماعية ، مراحل تمهيدية ومقدمات ، والتقديم للنقلة واضح عند العرب قبيل الإسلام ، ويتجلى هذا التقديم أو التمهيد في ضعف المثل الجاهلية القديمة سواء كانت سياسية أم دينية أم اجتماعية ، والميل إلى تركها في سبيل مثل أخرى جديدة ، والتنبؤ بقرب ظهور نبي مصلح يدعو إلى هـذه المثل [١] .

فمن الناحية السياسية كان المثل العربي في العصر الجاهلي يقوم على نظام القبيلة ، والقبيلة وحدة سياسية قائمة بذاتها ، لها دينها الخاص ، ولها عصبيتها التي تضمن

---

(١) راجع في ذلك ما اورده ابن هشام في السيرة النبوية ، ج١ ، تسيرا ، القاهرة ، ١٩٥٥ ص ١٧٤ ، ٢٠٤ ، ٢١٣ ، وما اورده ابن الاثير في كتابه اسد الغابة في معرفة الصحابة ، تحقيق الاستاذ محمد صبيح ، القاهرة ١٩٦٤ ص ٣٢

التماسك بين أفرادها والاعتزاز بالانتساب إليها ، والعصبية على هذا النحو هي مصدر القوة السياسية للقبيلة [١] ، ولكنها مع ذلك قضت على فكرة الترابط السياسي لمجموعة القبائل ، وعلى هذا النحو لم يكن للمجتمع العربي في الجاهلية نزعة قومية شاملة، إذ كان مجتمعاً مفتتاً من الناحية السياسية إلى وحدات سياسية، متعددة قائمة بذاتها ، تمثلها القبائل المختلفة . ثم بدأ العرب قبل الإسلام ينقسمون إلى مجموعات قبلية كبيرة قحطانية أو عدنانية تنتمي جميعاً إلى أب واحد ، ثم أخذت مجموعات القبائل ترتبط بما يجاورها من مجموعات قبلية أخرى وذلك بعقد روابط الحلف ، وأخذ العرب يتنازلون تدريجياً عن استقلالهم القبلي حتى أصبحت القبيلة لا تتورط في إعلان الحرب إلا إذا ضمنت حلف جارتها ، أو وقوفها منها موقفاً حيادياً ، ثم إننا نجد العرب قبيل الإسلام يفطنون إلى مطامع الروم والفرس في بلادهم ، ويحسون بخطر الطمع الأجنبي يتهددها ، ويمتد إلى أطراف جزيرتهم ، فتنبعث الروح القومية في اليمن على أثر استيلاء الأحباش عليها ، وتكون هزيمة أبرهة في مكة باعثاً على إلهاب الشعور القومي ، وتجرؤ العناصر الوطنية في اليمن على مناوأتهم ، ويقع على كاهل سيف بن ذي يزن الحميري عبء العمل على طردهم من أرض العرب . كذلك كان انتصار عرب الحيرة على الفرس في موقعة ذي قار سنة ٦٠٩ م انتصاراً للعرب جميعاً ، وهو أول انتصار للعرب على العجم الذين كانوا يفرضون عليهم سلطانهم . وفي هذا الانتصار قال النبي ﷺ : « هذا أول يوم انتصفت العرب فيه من العجم وبي نصروا » [٢] . وقد عبر رسول الله ﷺ بهذه العبارة الموجزة عن آمال العرب جميعاً ، ورغبتهم في التحرر المطلق من سيطرة الفرس . وقد حقق الإسلام

---

(١) السيد عبد العزيز سالم ، دراسات في تاريخ العرب، ج١ عصر ما قبل الاسلام ، الاسكندرية ١٩٦٨ ص ٥٦٩ وما يليها

(٢) المسعودي ، ج١ ص ٢٧٨ — ابن الاثير ، ج١ ص ٢٨٥

وحدة العرب في الجزيرة وفي الشام والعراق ، حيث كانت تنزل بعض القبائل العربية .

أما من الناحية الدينية فقد تقاربت الأديان الوثنية قبيل الإسلام كما تقاربت من الوجهة السياسية ، وأصبح الدين الواحد ديناً لأكثر من قبيلة ، واشتركت بعض القبائل في عبادة صنم واحد ، ثم تطور الأمر إلى التوصل إلى اتفاق بين سائر القبائل على مراسيم عامة للحج إلى مكة في أشهر تعرف بالأشهر الحرم ، لا يجوز للعرب أن يقوموا خلالها بالقتال . ثم إن الأفق الثقافي الديني للعرب أخذ يزداد اتساعاً باحتكاك العرب بيهود الحجاز واليمن أو بنصارى الشام والعراق ونجران ، فأخذت الديانات الوثنية تتداعى أمام هاتين الديانتين السماويتين ، ولهذا كثر إخفار الآلهة قبل الأسلام وإبطال عبادتها ، كما حدث عندما عزم امرىء القيس الشاعر على طلب الثأر لأبيه من بني أسد ، فاستقسم عند ذي الخلصة ، فخرج السهم ينهاه عن ذلك ، فقيل إن الشاعر الملك رماه بالقوس ، ولم يعد أحد يستقسم عند ذي الخلصة بالقداح . ثم ظهر جماعة من المتحنفين ، أخذوا يشككون الناس في الديانات الوثنية ويصرفونهم عن التفكير في عبادتها إلى التوحيد وعبادة الله خالق السموات والأرض . ومن أشهر متحنفي العرب في الجاهلية زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى القرشي الذي ينسبون إليه قوله :

إلى الله أهدي مدحتي وثنائيا وقولاً رصيناً لا يني الدهر باقيا
إلى الملك الأعلى الذي ليس فوقه إله ولا رب يكون مدانيا[1]

ولقد كان للحنيفية كما سبق أن ذكرنا أثر واضح للغاية في إعداد العرب للنقلة . أما من الناحية الاقتصادية ، فقد نظمت قريش رحلتي الشتاء والصيف

(١) ابن كثير ، السيرة النبوية ، تحقيق الاستاذ مصطفى عبد الواحد ، القاهرة ١٩٦٤ ، ج١ ص ١٦٢

بين شمال جزيرة العرب وجنوبها ، فكان تجارها ينزلون اليمن شتاء ، ويقصدون الشام صيفاً ، وجنى القرشيون من اشتغالهم بالتجارة بين الشمال والجنوب ثروات هائلة ، وأفادوا من اتصالهم باليمن والحبشة . والشام والعراق ومصر تجارب كثيرة أعدتهم بعض الشيء لدورهم الطليعي المقبل ، كما تأثروا بتقاليد الشعوب التي اختلطوا بها ، وأخذوا عنهم كثيراً من النظم الاجتماعية في الزي والطعام والشراب . ولا ينبغي بهذه المناسبة أن ننسى أن أسواق العرب في الجاهلية ، وهي أسواق أدبية ودينية واجتماعية واقتصادية في آن واحد كانت مجمعاً لعرب الشمال والجنوب وفرصة للتبادل الثقافي والاقتصادي ، وأداة التقارب والتفاهم الذي أحس به العرب جميعاً قبيل ظهور الإسلام .

- ٢ -

سيرة النبي صلى الله عليه وسلم

١ ـ من المولد حتى المبعث:

كان العرب إذن مهيئين للنقلة، متأهبين للثورة الدينية السياسية الكبرى التي اتخذت بادىء ذي بدء مظهراً دينياً لم يلبث أن اكتسب طابعاً سياسياً، وأصبحت الدعوة في آن واحد إلى دين ودولة. ظهرت هذه الثورة في مدينة مكة معقل الوثنية العربية، والمركز التجاري الهام في الجزيرة العربية.

وصاحب الدعوة هو أبو القاسم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ابن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة، ويرتفع نسبه الكريم إلى معد بن عدنان من ولد اسماعيل بن ابراهيم الخليل. وأمه ﷺ هي آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة القرشية الزهرية [١] أفضل نساء قريش نسباً وموضعاً [٢]. أما أبوه عبدالله فكان أصغر ولد عبد المطلب وأجمل رجال

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، القسم الاول، ص ١٥٦ ـ ابن سعد، الطبقات الكبرى، بيروت، ١٩٥٧، ج١ ص ٩٥ ـ البلاذري، انساب الاشراف، ج١ ص ٧٩ ـ ابن الاثير، اسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق الاستاذ محمد صبيح، ج١، القاهرة، ١٩٦٤ ص ٢٩

(٢) ابن هشام، المصدر السابق، ص ١٥٦

قريش[١] ، وقد توفي عبدالله وزوجه آمنة حامل بالنبي ، وكانت وفاته في المدينة عند أخواله بني عدي بن النجار ، إذ كان أبوه عبد المطلب قد بعثه إليها يمتار بلحا ، فمات ، وقيـــل بل أتاهم زائراً لهم فمرض ومات ، وذكر بعض كتاب السيرة أن أبوه أرسله إلى الشام في تجارة ،فعاد من غزة مريضاً،ونزل عند أخواله بالمدينة حيث توفي [٢] وهو ابن ٢٥ سنة في رواية و ٢٨ سنة في رواية أخرى .

ولد النبي محمد ﷺ بمكة بعد وقعة الفيل بخمسين يوماً في ليلة العاشر من ربيع الأول [٣] ، وقيل في يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول [٤] . ولمـا ولد رسول الله ﷺ التمسوا له المراضع ، فأرضعته ثويبة مولاة أبي لهب أياماً [٥]، ثم أرضعته امرأة من بني سعد بن بكر بن هوازن بن منصور يقال لها حليمة بنت أبي ذؤيب[٦] ، وفطم رسول الله لسنتين ، فردته حليمة إلى أمه وجده وهو ابن خمس سنين [٧] ، وظل مع أمه وفي حضانــة أم أعين ، وكانت مملوكة لأبيه إلى أن بلغ النبي ست سنين ، فتوفيت أمه السيدة آمنة بنت وهب بالأبواء ، ما بين مكة والمدينة ، وكانت قد قدمت به على أخواله من بني عدي بن النجـار تزيره إياهم [٨] ، وقيل أنها مضت إلى المدينة لزيارة قبر زوجها ومعها عبدالمطلب جد النبي وأم أيمن حاضنته ، وفي أثناء منصرفها إلى مكة توفيت بالأبواء [٩]. ثم كفله

---

(١) ابن كثير ، السيدة النبوية ، ج١ ص ١٨٤

(٢) ابن سعد ،الطبقات الكبرى، ج١ ص ٩٩ ـ البلاذري ، المصدر السابق، ص ٩٢ ـ ابن الاثير، اسد الغابة ، ج١ ص ٢٩

(٣) ابن سعد ، ج١ ص ١٠٠ ـ البلاذري ، أنساب الاشراف ، ص ٩٢

(٤) ابن هشام ، السيرة ، ج١ ص ١٥٨

(٥) نفس المصدر ، ج١ ص ١٦٨ ـ البلاذري ، انساب الاشراف ، ج١ ص ٩٤ ـ ابـن الاثير ، اسد الغابة ،ج١ ص ٣١

(٦) ابن هشام، ج١ ص ١٦٠ ـ البلاذري، ص ٤٣ ـ ابن الاثير، اسد الغابة ، ص ٣١ ،

(٧) ابن سعد ، ج١ ص ١١٢ ـ البلاذري ، ص ٩٤

(٨) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ج١ ص ١١٦

(٩) ابن هشام، ج١ ص ١٦٨ ـ البلاذري ،ص ٩٤ ـ ابن الاثير، اسد الغابة ، ص ٣١

جده عبد المطلب وضمه إليه ، وكان يؤثره على بنيه ، ويغمره بحنانه ، ويرفه عليه أكثر مما يرفه على ولده ، وكان يقربه منه ويدنيه إليه ، ولا يقدم على تناول طعام إلا إذا قدم النبي إليه [١] ، وقد يقعده على فخذه فيؤثره بأطيب طعامه . وذكر هشام بن محمد بن السائب الكلبي أن عبد المطلب كان يفرش له في ظل الكعبة ، ويجلس بنوه حول فراشه إلى خروجه ، فإذا خرج عبد المطلب قاموا على رأسه مع عبيده إجلالاً له ، وكان رسول الله يأتي وهو بعد غلام فيجلس على الفراش ، فيأخذه أعمامه ليؤخروه ويبعدوه ، فيأمرهم عبد المطلب بإبقائه ، ويقول لهم : « دعوه فإن له شأناً أما ترونه ؟ ويقبل رأسه وفمه ، ويمسح ظهره ويسر بكلامه وما يرى منه » [٢] .

ثم توفي عبد المطلب وقد بلغ من عمره ٨٢ سنة ، وقيل إنه توفي وهو يومئذ ما بين الثمانين والتسعين ، فبكاه النبي وهو بعد ابن ثماني سنين خلف سريره ، ودفن عبد المطلب بالحجون بمكة [٣] . وذكر أن عبد المطلب لما حضرته الوفاة جمع بنيه وأوصاهم برسول الله ﷺ ، « وكان الزبير بن عبد المطلب وأبو طالب أخوي عبد الله ، والد النبي ، لأمه فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم ، وكان الزبير أسنهما [٤] ، فاقترع الزبير وأبو طالب أيهما يتكفل برسول الله ، فأصابت القرعة أبا طالب ، فضمه إليه . وقيل بل اختاره رسول الله على الزبير ، إذ كان أبو طالب ألطف عميه به ، وقيل أن عبد المطلب أوصاه بأن يكفله بعده [٥] . وكان النبي يحبه ولا ينام إلا بجواره ، فإذا خرج أبو طالب خرج معه [٦] . ولما بلغ النبي ﷺ اثنتي عشرة سنة خرج أبو طالب إلى الشام في تجارة ،

---

(١) ابن سعد ، ص ١١٨ — ابن كثير ، السيرة النبوية ، ج١ ص ٢٤٠

(٢) ابن هشام ، ص ١٦٨ — البلاذري ، ص ٨١

(٣) ابن سعد ، ج ١ ص ١١٨ — البلاذري ص ٨٤

(٤) البلاذري ، ص ٨٨ — ابن كثير ، ج١ ص ٢٤١

(٥) ابن هشام ، ج١ ص ١٧٩ — البلاذري ، ص ٨٥ — ابن الاثير ، ص ٣١

(٦) ابن سعد ، ص ١٢٠ — ابن كثير ، ج١ ص ٢٤٢

وكان رسول الله يألفه ولا يفارقه ، فسأله أن يصحبه ، فأبى أبو طالب ضناً به وخوفاً عليه من مشقة الطريق ، فاغتم النبي وبكى [١] ، فرقّ له أبو طالب وأخرجه معه . فلما وصلت القافلة إلى بصرى من أرض الشام ، رآه راهب نصراني منقطع في صومعة له ببصرى ، يقال له بحيرى أو بحيراء ، ولمح في النبي مخايل النبوة وعلاماتها ، فأوصى أبا طالب بأن يعود به إلى بلده وأن يحذر عليه اليهود [٢]. فما كاد أبو طالب ينتهي من تجارته بالشام حتى بادر بالعودة إلى مكة ، ولم يسافر به بعد ذلك خوفاً عليه [٣] .

وشب رسول الله ﷺ في مكة في رعاية عمه أبي طالب ، والله تعالى « يكلؤه ويحفظه من أقذار الجاهلية لما يريد به من كرامته ورسالته » [٤] ، واشتغل حيناً برعي الغنم لأهل مكة [٥] ، ثم شهد رسول الله وهو ابن أربع عشرة سنة أو خمس عشرة سنة [٦] ، أو ابن عشرين سنة في قول ابن إسحق [٧] ، حرب الفجار [٨] بين قريش ومن معهم من كنانة وبين قيس عيلان ، وشهد الرسول بعض أيامها مثل يوم شمطة ، ويوم نخلة [٩] ، فقد أخرجه أعمامه معهم ، وكان يرد على أعمامه نبال عدوهم إذا رموهم بها [١٠] ، وذكروا أنه كان يرمي في يوم شمطة بأسهم [١١] .

كذلك شهد النبي مع عمومته حلف الفضول الذي كان هدفه مناصرة المظلوم على

---

(١) البلاذري ، ص ٩٦ — ابن الاثير ، ص ٣٢ — ابن كثير ، ج ١ ص ٢٤٣

(٢) ابن هشام ، ج١ ص ١٨٠ — ١٨٢ ، ابن سعد ، ج١ ص ١٥٥ — الطبرى ، ج١ ص ١١٢٤

(٣) ابن سعد ، ج١ ص ١٥٥

(٤) ابن هشام ، ج١ ص ١٨٣

(٥) ابن سعد ، ج ١ ص ١٢٦

(٦) ابن هشام ، ج١ ص ١٨٤ — ابن كثير ، ص ٢٥٥

(٧) نفس المصدر ، ص ١٨٦ — ابن كثير ص ٢٥٥

(٨) سميت فجارا لان القتال اشتعل في الشهر الحرام ، وقيل سميت كذلك لما استحلت كنانة وقيس عيلان فيها من المحارم بينهم (ابن هشام ، ج١ ص ١٨٦)

(٩) ابن الاثير ، ص ٣٢ (١٠) ابن هشام ، ص ١٨٦

(١١) ابن سعد ، ص ١٢٨

الظالم [١] .

ولما تجاوز النبي سن العشرين وجهته السيدة خديجة بنت خويلد ، وكانت امرأة شريفة موسرة ذات تجارة عريضة ، إلى الشام في تجارة لها ، وذلك عندما بلغها من أمانته وصدقه ووفائه . فخرج النبي في تجارتها إلى الشام حيث باع واشترى ما أراد ، وقفل عائداً بما لها إلى مكة ، فلما باعته أضعف ، وكان غلامها ميسرة الذي رافق النبي في رحلته إلى الشام قد حدثها عن أمانته وصدق حديثه ويمن طائره وطهارته وما بشره به أحد الرهبان من أهل الشام ويدعى نسطور الراهب من نبوته [٢] ، فلما سمعت من ميسرة ما سمعته ورأت من أمانته وبركته ما رأته ، رغبت في أن تتزوجه ، فدست إلى رسول الله من عرض عليه أن يتزوجها ، فرغب في ذلك ، فبعثت إليه ، وأرسلت إلى عمرو بن أسد عمها ، وحضر الرسول ومعه عماه أبو طالب وحمزة ، فزوّجها عمرو إياه [٣] . وكانت خديجة أول امرأة تزوجها النبي ، وتم ذلك وهو ابن خمس وعشرين سنة وهي ابنة أربعين سنة ، ولم يتزوج النبي غيرها حتى ماتت ، فولدت لرسول الله ولده كلهم إلا إبراهيم .

ولما بلغ النبي محمد ﷺ أربعين سنة من عمره بعثه الله تعالى رحمة للعالمين ، وأول ما بدىء به رسول الله من الوحي الرؤيا الصادقة أثناء نومه ، فكان لا يرى رؤيا إلا كانت مثل فلق الصبح [٤] ، ثم حبب إليه الخلاء والانفراد بنفسه ، فكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه الليالي ذوات العدد حتى جاءه الحق وهو في الغار . وذكروا أن النبي ﷺ أول ما بعث كان يسمع من يدعوه دون أن يرى شيئاً ، فيمضي ، فأفضى بذلك إلى زوجه خديجة ، وقال : خشيت أن يكون

---

(١) ابن كثير ، ج ١ ص ٢٦٢

(٢) ابن سعد ص ١٣٠ ـ الطبري ، ج١ ص ١١٢٨

(٣) ابن هشام ، ج ١ ص ١٨٨ ـ ابن سعد ، ج ٦ ص ١٣٢ ـ البلاذري ، ص ٤٨

(٤) ابن سعد ، ص ١٦٤ ـ البلاذري ، ص ١٠٥

قــد عرض لي أمر » ، قالت : « وما ذاك ؟ » ، قال : « إذا خلوت دُعيت فأسمع صوتاً ولا أرى شيئاً ، فقد خشيت » ، قالت : « ما كان الله ليفعل بك سوءاً ، إنك لتصدق الحديث ، وتصل الرحم وتؤدي الأمانة » ، ثم انطلقت به إلى ورقة بن نوفل ، فقص عليه النبي ما سمعه ، فطمأنه ورقة ونصحه بأن يثبت للصوت حتى يسمع ما يقال له ، وبشر خديجة بنبوته [١] . وتابع النبي خروجه للخلوة والانفراد بنفسه بعيداً عن قومه . وذكر ابن اسحق أنه كان إذا خرج للخلوة أبعد حتى تحسر عنه البيوت ، ويفضي إلى شعاب مكة وبطون أوديتها ، وكان يجاور في غراء حراء شهراً فيخلو فيه الأيام والليالي يتحنث فيه على عادة الحنفية [٢] ، ويطعم من يقدم عليه من المساكين ، فإذا قضى جواره بعد شهر انصرف إلى الكعبة ، فيطوف بها سبعاً ، ثم يعود إلى داره [٣] . وما زال كذلك حتى نزل عليه الوحي وهو ابن أربعين سنة في شهر ربيع الأول ، وقيل في ١٧ رمضان . ففي هذا الشهر خرج الرسول إلى حراء كما كان يخرج لجواره ، حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيهـا برسالته جاءه جبريل عليه السلام ، فعرض له ليلة السبت وليلة الأحد ، ثم أتاه بالرسالة يوم الاثنين لسبع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان [٤] . ويكاد يجمع الأخباريون على أن أول ما نزل على النبي من القرآن سورة العلق ، فقد نزل عليه جبريل وهو في غار حراء وقال له : « اقرأ » ، فقال النبي : « ما أنا بقارىء » ، فأخذه فضمه إليه ضمة قوية ثم أطلقه ، وعاد يقول له : «اقرأ» ، فكرر النبي قوله : «ما أنا بقارىء» ، فأخذه وضمه إليه للمرة الثانية ثم أرسله ، وكرر ما طلبه منه للمرة الثالثـة ،

---

(١) البلاذري ، انساب الاشراف ، ص ١٠٦ — الطبري ، ج١ ص ١١٤٨

(٢) ابن سعد ، ج ١ ص ١٩٤ — الطبري ، ج ١ ص ١١٤٧ — المقريزي ، امتاع الاسماع بما للرسول من الابناء والاموال والحفدة والمتاع ، نشره الاستـاذ محمد شاكـر ، القاهرة ١٩٤١ ، ج١ ص ١٢ .

(٣) ابن هشام ، ج ١ ص ٢٣٦ — ابن الاثير ، أسد الغابة ، ج١ ، ص ٣٤ — ابن كثير ، ص ٣٨٤ — ٣٩٠

(٤) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ج١ ص ١٢٩

فرد عليه النبي بقوله : « ما أنا بقارىء » ، فضمه جبريل للمرة الثالثة ثم أرسله ، وقال : « اقرأ » قال النبي : « ماذا أقرأ » ، فقال : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم »[١] ، فقرأها النبي ، فانصرف عنه .

ب – من المبعث حتى الهجرة الى يثرب :

١ – الدعوة الى الاسلام :

ثم فتر الوحي عن النبي فترة حتى شق عليه ذلك ، فأحزنه حزناً شديداً ، حتى جعل يأتي رؤوس الجبال مراراً . وذكر الزهري أنه كان كلما أوفى على ذروة جبل بدا له جبريل عليه السلام ، يقول له : « إنك نبي » ، فيسكن لذلك جأشه ، وترجع إليه نفسه[٢] . وذكروا أنه لما أبطأ عن النبي التنزيل بعض الإبطاء ، قال كفار قريش : « ودعه ربه وقلاه » ، فنزلت عليه سورة الضحى ، أقسم له ربه فيها أنه ما تركه وما أبغضه منذ أحبه[٣] . وبينما كان يسير يوماً إذ سمع صوتاً ، فرفع رأسه إلى مصدره ، فإذا جبريل بين السماء والأرض ، فخشي منه النبي رهبة ، ودخله منه روع ، وأسرع إلى داره يرتجف وأتى خديجة وطلب منها أن تدثره ، فنزلت عليه سورة المدثر[٤] : « يا أيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر[٥] » . فبادر النبي ﷺ بالدعوة إلى الإسلام وترك عبادة الأوثان والأصنام وبدأ بأقرب الأقربين إليه ، ثم دعا قومه مستخفياً ثلاث سنين[٦] ، جهر بالدعوة بعدها . واستجاب لدعوته أحداث من الرجال وضعفاء من الناس . وأول من آمن بنبوته ورسالته وأسلم زوجه السيدة خديجة

---

(١) القرآن الكريم ، سورة العلق ٩٦ ، آية ١ — ٥

(٢) ابن سعد ، ج١ ص ١٩٦ — البلاذري ، ص ١٠٨ — الطبري ، ج١ ص ١١٥٥

(٣) ابن هشام ، ج١ ص ٢٤١ — البلاذري ، ص ١٠٨

(٤) البلاذري ، ص ١٠٦

(٥) القرآن الكريم ، سورة المدثر ، ٧٤ ، آية ١ — ٤

(٦) ابن سعد ، ج١ ص ١٩٦

بنت خويلد ، ثم اختلف كتاب السيرة في ثلاثة نفر أيهم سبق في اعتناق الإسلام ، هم : علي بن أبي طالب ، وأبو بكر عبدالله بن أبي قحافة القرشي ، وزيد بن حارثة مولى النبي . والمتفق عليه أن أول من أسلم من الموالي زيد بن حارثة بن شرحبيل بن كعب بن عبد العزى ، ومن الغلمان علي بن أبي طالب وكان يومئذ ابن عشر سنين ، ومن الرجال الأحرار أبو بكر الصديق . وأسلم على يدي أبي بكر خمسة من كبار صحابة النبي هم : الزبير بن العوام بن خويلد ، وعثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية ، وعبد الرحمن بن عوف من بني زهرة ، وسعد بن أبي وقاص من بني زهرة ، جاء بهم إلى النبي فأسلموا وصلّوا . ثم أسلم بعدهم طبقة ثانية نخص بالذكر منهم : أبو عبيدة بن الجراح ، وأبو سلمة بن عبد الأسد ، والأرقم بن أبي الأرقم [١] ، وعثمان بن مظعون وأخواه قدامة وعبدالله ، وعبيدة بن الحارث بن المطلب ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وامرأته فاطمة بنت الخطاب أخت عمر بن الخطاب ، وأسماء بنت أبي بكر ، وعائشة بنت أبي بكر وكانت بعد صغيرة ، وخباب بن الأرت ، وعمير بن أبي وقاص ، وعبدالله بن مسعود . ومن أبرز من أسلم من قريش سليط بن عمرو بن عبد شمس ، وخنيس بن حذافة بن عدي ، وعبدالله بن جحش ، وجعفر بن أبي طالب ، وخالد بن سعيد بن العاص ، ونعيم بن أسيد ، وعمار بن ياسر ، وصهيب بن سنان [٢] . أما عمر بن الخطاب فلم يسلم إلا بعد خروج المهاجرين إلى أرض الحبشة في السنة السادسة من البعثة [٣] . ثم دخل في الإسلام جماعات من الرجال والنساء ، حتى انتشر ذكر الإسلام في مكة وتحدثت قريش بذلك . وظل النبي يدعو سراً ثلاث سنين من مبعثه ، ثم جهر بالدعوة عندما أمره الله تعالى بإظهار دينه [٤] ، « فاصدع بما

---

(١) كان النبي صلعم يستخفي في داره من قريش

(٢) ابن هشام ، ج١ ص ٢٥٠ — ٢٦٢ ، الطبري ج١ ص ١١٦٨ — ابن كثير ، ج١ ص ٤٣٠ — ٤٣٧

(٣) ابن هشام ، ج١ ص ٤٣٢

(٤) محمد جمال الدين سرور ، قيام الدولة العربية الاسلامية ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص٦٢

تؤمر واعرض عن المشركين . إنا كفيناك المستهزءين » (١) . وقال تعـــالى : « وانذر عشيرتك الأقربين . واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين . فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون . وتوكل على العزيز الرحيم . الذي يراك حين تقوم . وتقلبك مع الساجدين . إنه هو السميع العليم » (٢) . وذكر ابن سعد(٣) أنه لما نزلت « وأنذر عشيرتك الأقربين » ، صعد رسول الله ﷺ على الصفا ، فنادى قومه فأقبلوا عليه وسألوه عن طلبه قال : « أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً أسفح هذا الجبل ، أكنتم تصدقونني ؟ قالوا : نعم ، أنت عندنا غير متهم ، وما جربنا عليك كذباً قط . قال : فإني « نذير لكم بين يدي عذاب شديد » (٤) ، يا بني عبد المطلب ، يا بني عبد مناف ، يا بني زهرة ، — حتى عدّ الأفخاذ من قريش — إن الله أمرني أن « أنذر عشيرتك الأقربين » ، وإني لا أملك لكم من الدنيا منفعة ، ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا لا إله إلا الله . فقال أبولهب: تباً لك ، سائر اليوم ، ألهذا جمعتنا ؟ . فأنزل الله عز وجل فيه :« تبت يدا أبي لهب » (٥) .

٢ — اضطهاد قريش للمسلمين :

وواصل النبي عرض دعوته على قومه ، وعاب آلهتهم وسفهها ، وحقر من شأنها ، فناكروه ، وأجمعوا على معاداته وإيذائه ، وقدم جماعة منهم إلى عمه أبي طالب وأبلغوهأن ابن أخيه سب آلهتهم وعاب دينهم وسفه أحلامهم وضلل آباءهم ، وطلبوا منه إما أن يكفه عنهم أو يخلي بينهم وبينه. فردهم أبو طالب

---

(١) القرآن الكريم ، سورة الحجر ١٥ آية ٩٤ — ٩٥

(٢) القرآن الكريم ، سورة الشعراء ٢٦، آية ٢١٤ — ٢٢٠

(٣) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ،ج١ ص ١٨٤ — البلاذري ، ص ١٢٠

(٤) القرآن الكريم ، سورة سبأ ٣٤ ، آية ٤٦

(٥) القرآن الكريم ، سورة المسد ١١١ ، آية ٤٦

رداً جميلا ووعدهم بمخاطبة النبي في ذلك [١] . وكان أبو طالب ملماً بكل ما يفعله ابن أخيه ، وكان يعطف عليه ويمنعه ، ويبدو أنه لم يشأ أن يحدثه فيما خاطبه فيه القرشيون . ومضى رسول الله على ما هو بسبيله من الدعوة للإسلام . وكان إيمان النبي برسالته قوياً عميقاً راسخاً ، فلم يرهبه تهديد قريش له ووعيدهم لدينه ، فواصل أداء رسالته . وأدركت قريش مدى خطورة الدعوة الإسلامية على عبادة الأوثان التي هي المصدر الرئيسي لما كانوا يجنونه في مواسم الحج من ثروات ، فاجتمع وفد منهم وقصدوا أبا طالب ، فقالوا له : « يا أبا طالب ، إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا ، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا ، حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين » ، ثم انصرفوا عنه. فعظم الأمر على أبي طالب ، وحار فيما يفعل أمام ضغوط قريش عليه ، فبعث إلى رسول الله ﷺ ، وأفضى إليه بما حدّثه قومه بشأنه ، ورجاه أن يبقي على نفسه وعليه ، ولا يحمل عمه ما لا يطيق . فظن رسول الله أن عمه قد ضعف عن نصرته ، وخذله ، وأنه سيسلمه إلى قريش . فقال رسول الله لعمه : « يا عم ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره أو أهلك فيه ما تركته » ، ثم استعبر رسول الله ، فبكى ؛ وقام منصرفاً . فناداه عمه وقال : « اذهب يا ابن أخي ، فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً » [٢] . ومنذ ذلك الحين ، نذر أبو طالب حياته، ووقفها لحماية النبي .

ثم تسلط مشركو قريش عليه وعلى من اتبعه من المسلمين ، بالإيذاء قولاً وفعلاً ، وكان من أشد الناس قسوة عليه عمه أبو لهب وامرأته أم جميل أروى بنت حرب ، فكان أبو لهب يطرح القذر والنتن على باب النبي ، وكانت زوجه أم جميل

---

(١) ابن هشام ، ج١ ص ٢٦٥

(٢) ابن هشام ، ج ١ ص ٢٦٦ — الطبري ، ج١ ص ١١٧٨ — ابن كثير ، ج١ ص ٤٦٣

تحمل أغصان الشوك فتطرحها على طريق النبي [١] . ولكن أبا طالب كان رغم بقائه على الوثنية يخالف قومه ويعارضهم في شأنه، وكان يحنو عليه ويبسط عليه حمايته . وبالغت قريش في مناهضة الإسلام ومناوأة النبي وأتباعه ، فوثبت كل قبيلة منها على من أسلم من أبنائها يعذبونهم بالضرب والجوع والعطش ، وبرمضاء مكة في أيام الحر الشديد [٢] ، فتعرض لإيذائهم جمهور كبير من أتباع النبي وعلى رأسهم بلال بن رباح مولى أبي بكر وعمار بن ياسر وأبويه ، وقد استشهدت سمية أم عمار ، إذ طعنها أبو جهل بحربة في قلبها ، فكانت أول شهيدة في الإسلام [٣] .

٣ — الهجرة الأولى إلى الحبشة :

ولما رأى النبي ما أصاب أتباعه المسلمين من البلاء والاضطهاد، وعدم استطاعته منعهم ، أذن لهم بالهجرة إلى أرض الحبشة لما عرفه عن ملكها أصحمة من تسامح ، وقال لهم : « لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد [٤] ، وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه » [٥] . ويذكر الدكتور أحمد الشريف أن الحبشة كانت تطمع منذ أجيال في فتح الأقاليم العربية ، وقد سبق لها أن أرسلت حملة لفتح مكة . ومع أن الحملة أخفقت ، ومع أن الحبشة خرجت من الجزيرة العربية كلها ، إلا أن الصراع الدولي خاصة بين بيزنطة وفارس ، على احتكار طريق التجارة لم ينته بعد. ويعتقد أن اختيار النبي للحبشة بالذات هدفاً للهجرة الأولى كان له مغزيان : الأول ، أن يلقى المهاجرون ترحيباً من ملك الحبشة أملاً في أن يتمكن بمساعدتهم من التدخل في

---

(١) البلاذري ، ص ١٢٢

(٢) ابن هشام ، ج ١ ص ٣١٧ — ابن كثير ، ج ١ ص ٤٧٦ — ٤٩٤

(٣) نفس المصدر ، ص ٣٢٠ — البلاذري ، ص ١٦٠ — ابن كثير ، ص ٤٩٥

(٤) الطبري ، ج١ ص ١١٨١

(٥) ابن هشام ، ج١ ص ٣٢٢ — الطبري ، ج١ ص ١١٨٣ — ابن كثير ،ج٢ ص ٤

شؤون مكة الداخلية . والثاني ، الإيماء إلى قريش بأن عدوانها على المسلمين قد يضطرهم إلى الالتجاء إلى قوة خارجية لحمايتهم [١] . ونضيف إلى هذين العاملين عاملا آخر هو أن الحبشة كانت بلداً مسيحياً ومركزاً أسقفياً هاماً . وقد رأينا أن الحبشة هي التي تصدت للحميريين حين تعرض ذونواس لنصارى نجران بالقتل ، وأنها ثارت بحملتها على اليمن وبقضائها على الدولة الحميرية لشهداء نجران ، ولذلك لا نستبعد أن يكون النبي قد هدف من وراء اختياره لأرض الحبشة إلى كسب تأييد لدعوته من شعب مؤمن بالمسيحية ، أو إلى اجتذاب أفواج جديدة من خارج الجزيرة إلى دين الإسلام فيعز ويمتنع ، ومن النصارى بالذات باعتبارهم أهل كتاب ، تدعيماً لمركز المسلمين في مكة . وقد أثمرت هذه السياسة بدليل أن النجاشي نفسه ، وفقاً لما ذكره ابن هشام ، كان قد آمن بالإسلام وبمحمد [٢] . وذكر ابن هشام أنه قدم على رسول الله وهو بمكة عشرون رجلا أو ما يقرب من ذلك العدد من نصارى الحبشة ، آمنوا به وصدقوه ، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره [٣] . وقيل إن هؤلاء النفر كانوا من أهل نجران ، وفيهم نزلت الآيات : « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين » إلى قوله تعالى : « لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين » . ولكن ابن شهاب الزهري [٣] يعتقد أن هذه الآيات وآيات أخرى من سورة المائدة أنزلت في النجاشي وأصحابه ، ويستند في ذلك إلى قوله تعالى: « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا . ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون . وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون

---

(١) احمد ابراهيم الشريف ، الدولة الاسلامية الاولى ، المكتبة التاريخية عدد ١٥ ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ٤٦

(٢) ابن هشام ، ج١ ص ٣٩٢

(٣) نفس المصدر

ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين » [١] .

وانتهى عدد من هاجر إلى الحبشة من المسلمين إلى ثلاثة وثمانين رجلاً بخلاف الزوجات والأبناء [٢]. ويبدو أن هذا العدد كان يضم المهاجرين إليها في الهجرتين الأولى والثانية ، فقد ذكروا أن الرعيل الأول من المهاجرين إلى الحبشة كانوا ١١ رجلاً وأربع نسوة ، ركبوا سفينتين من ميناء الشعيبية لبعض التجار إلى بلاد الحبشة ، وخرجت قريش في أثرهم ، فلم يدركوا منهم أحداً [٣] . وقيل أنه خرج في الهجرة الأولى عشرة من المسلمين ، ومعهم أربع نسوة [٤] ، نذكر منهم عثمان بن عفان وامرأته رقية بنت رسول الله ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس وامرأته سهلة بنت سهيل ، ومن بني أسد بن عبد العزى الزبير بن العوام ، ومن بني عبد الدار مصعب بن عمير بن هاشم ، ومن بني زهرة عبد الرحمن بن عوف ، ومن بني مخزوم أبو سلمة بن عبد الأسد وامرأته أم سلمة ، ومن بني جمح بن عمرو عثمان بن مظعون ، ومن بني عدي بن كعب عامر بن ربيعة وامرأته ليلى [٥] . وفي الموجة الثانية خرج جعفر بن أبي طالب ومعه امرأته أسماء بنت عميس ، وعمرو بن سعيد بن العاص وامرأته فاطمة بنت صفوان ، وأخوه خالد وامرأته أمينة بنت خلف ، وعبدالله بن جحش وأخوه عبيد الله ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان ، وقيس بن عبدالله ، وعتبة بن غزوان وعبدالله بن مسعود ، والمقداد بن الأسود ، وعدد آخر ممن عاد إلى مكة من المهاجرين الأوائل .

---

(١) القرآن الكريم ، سورة المائدة ٥ ، آية ٨٢ ـ ٨٣

(٢) ابن هشام ، ص ٢٣٠ ـ ابن كثير ، ج ٢ ص ٩

(٣) ابن سعد ، ج ١ ص ٢٠٤ ـ الطبري ، ج ١ ص ١١٨١

(٤) ابن هشام ، ج١ ص ٣٢٣

(٥) ابن هشام ، ج ١ ص ٢٣٠ ـ ابن كثير ، ج ٢ ص ٥

٤ – رسل قريش إلى النجاشي :

فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله قد أمنوا في الحبشة واستقروا بها ، اتفقوا على أن يبعثوا إلى النجاشي رجلين يحملان إليه وإلى بطارقته هدايا مما يستطرف من متاع مكة كالأدم ، وقيل أنهما أهديا إلى النجاشي فرساً وجبة ديباج [١] ، وذلك لإقناعه برد المسلمين . فأرسلوا عمرو بن العاص وعبدالله بن أبي ربيعه [٢] اللذين دفعا كثيراً من الهدايا إلى بطارقة النجاشي ، وخاطباهم في شأن المهاجرين ، وقالا لهم : « إنه قد ضوى إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم ، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ، ليردهم إليهم . فإذا كلمنا الملك فيهم ، فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ، ولا يكلمهم ، فإن قومهم أعلى بهم عيناً »[٣] . فوعدهم البطارقة بتأييدهما . ثم قدما على النجاشي ، وقدّما إليه هدية قريش ، وسألاه أن يرد إليهم المسلمين ، وأيدهما بطارقته ، فغضب النجاشي ، وأبى أن يسلم قوماً استجاروا به ، واحتموا فيه ،واختاروه دون غيره ، قبل أن يسألهم رأيهم فيما يقولاه ، ثم أمر بإحضار أصحاب رسول الله ،فسألهم عن مبادىء الإسلام الذي فارقوا من أجله دين قومهم ودين المسيحية . فتقدم منه جعفر بن أبي طالب [٤] ، وقال له في جملة ما قاله : « أيها الملك ، كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف ، فكنا كذلك حتى بعث

---

(١) ابن كثير ، ج ٢ ص ١٨

(٢) ابن هشام ، ج ١ ص ٣٣٣– البلاذري ، ص ٢٩٨ – ابن كثير، ج٢ ص ١٠ . وذكر آخرون ان قريش ارسلت مع عمرو بن العاص عمارة بن الوليد (ابن كثير ج٢ ص ١٠)

(٣) ابن هشام ، ج ١ ص ٣٣٥ – ابن كثير ، ج ٢ ص ١٨

(٤) ذكر ابن اسحق ان جعفر بن ابي طالب خرج بعد الفوج الاول من المهاجرين المسلمين الى الحبشة ومعه امرأته اسماء بنت عميس ، فلحق بالفوج الاول في ارض الحبشة ، ولكن موسى بن عقبة يزعم ان خروج جعفر انما كان في الهجرة الثانية اليها وذلك بعد عود بعض من كان قد خرج اليها اولا . (ابن كثير ، ج٢ ص ٦)

الله إلينا رسولاً منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفـــافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ... فصدقناه وآمنـــا به واتبعنا على ما جاء به من الله » ، ثم قص عليه ما لقيه المسلمون من اضطهاد قريش وتعذيبهم لهم لإرغامهم على الارتداد إلى الوثنية ، وأنهم آثروا أن يفروا بدينهم الحق إلى بلاد لا يظلمون فيها ، فاختاروا بلاد الحبشة . فطلب النجاشي منه أن يقرأ عليه شيئاً من القرآن ، فقرأ عليـــه صدراً من سورة مريم : « كهيعص . ذكر رحمة ربك عبده زكريا . إذ نادى ربه نداء خفياً »[1] . فبكى النجاشي حتى اخضلت لحيته ، وبكى أساقفته . ثم صرف النجاشي رسولي قريش وأبى أن يرد إليهما مهـــاجري المسلمين . فغضب عمرو بن العاص ورفيقه ، واتفقا على أن يذهبا إلى النجاشي مرة ثانية ، ويدعيا أمامه بأن المسلمين يطعنون في عيسى بن مريم ، ففعلا ، فأرسل النجاشي يستقدم المسلمين . فلما اجتمع القوم سأل النجاشي جعفر بن أبي طالب عما يقوله الإسلام في عيسى بن مريم ، قال : « هو عبدالله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول » ، فأعجب النجاشي من إجابته ، وتأكد لديه أن محمد بن عبدالله هو الرسول الذي بشر به المسيح ، فرحب بالمسلمين ، وأمنهم في أرضه ، وأوعد من يتعرض لهم بسوء[2] ، ثم أمر بهدية قريش فردها إلى أصحابها .

٥ – الهجرة الثانية الى الحبشة :

وقيل أن قريشاً بعثت إلى النجاشي تطلب منه رد المهاجرين مرتين : الأولى

---

(١) القرآن الكريم ، سورة مريم ١٩ ، آية ١ – ٢

(٢) ابن هشام ، ج ١ ص ٣٢٤ – ٣٢٨ ، ابن كثير ، ج ٢ ص ٢١

مع عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد ، والثانية مع عمرو بن العاص وعبدالله بن أبي ربيعة [١].

وأقام المسلمون آمنين في أرض الحبشة ، يتمتعون بحرية تامة ورعاية شاملة في ظل النجاشي ، ثم بلغ أصحاب النبي المهاجرين إسلام أهل مكة واصطلاحهم مع النبي ، فرحلت طائفة منهم إلى مكة . وما كادوا يقتربون من مكة حتى تبين لهم بطلان ما أبلغوا به ، فلم يدخل منهم أحد إلا مستخفياً أو بجوار ، وكان في جملة من عاد من المهاجرين عثمان بن عفان ومعه امرأته رقية بنت رسول الله ، وأبو حذيفة بن عتبة وزوجه سهلة بنت سهيل ، وعتبة بن غزوان ، والزبير بن العوام ، ومصعب بن عمير ، وسويبط بن سعد بن حرملة ، وعبد الرحمن بن عوف ، والمقداد ، وعبدالله بن مسعود ، وقد دخلوا كلهم بجوار إلا عبدالله بن مسعود الذي عاد إلى الحبشة [٢] . وقد تعرض هؤلاء العائدون لاضطهاد أهل مكة وإيذائهم ، فأذن لهم الرسول بالهجرة للمرة الثانية إلى الحبشة ، فتكبدوا مشقة في خروجهم ، فهاجر إلى الحبشة ٨٣ رجلاً ومن النساء ١١ امرأة قرشية ، و٧ غرائب [٣]. وعاد من هؤلاء المهاجرين في المرة الثانية ٣٣ مهاجراً وثمان مهاجرات إلى مكة ، أما الباقون فقد عادوا إلى المدينة بعد غزوة خيبر [٤].

٦ – ذروة اضطهاد قريش للنبي : (الصحيفة القرشية – وفاة أبي طالب والسيدة خديجة)

ظل الرسول يلقى في مكة معارضة قوية من قريش لدينه ، وتعرض منهم لكل صنوف الأذى ، فأغروا برسول الله سفهاءهم ، فكذبوه وآذوه ، ورموه

---

(١) ابن كثير ، ج ٢ ص ٢٧

(٢) ابن سعد ، ج١ ص ٢٠٦

(٣) نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٠٧

(٤) نفس المصدر

بالشعر والسحر والكهانة والجنون ، ورسول الله مظهر لأمر ربه لا يبالي بما يرمونه به من سفه، ويصرح لهم بما يكرهونه من عيب دينهم واعتزال أوثانهم [١].

كذلك عانى أبو بكر الصديق كثيراً من إيذاء قريش له ، فاستأذن رسول الله في الهجرة إلى أرض الحبشة ، فأذن له ، وكاد يمضي في الهجرة لولا أن أقنعه الحارث بن يزيد المعروف بابن الدغنة سيد الأحابيش [٢] بالعودة إلى مكة بعد أن أجاره [٣] . على أن الإسلام لم يلبث أن تقوى وعز وامتنع بإسلام حمزة بن عبد المطلب ثم بإسلام عمر بن الخطاب بعد هجرة الرعيل الأول من أصحاب رسول الله إلى الحبشة ، فقد كفا قريش من اضطهاد المسلمين . فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله قد هاجروا إلى الحبشة حيث أصابوا أمناً وقراراً ، وأن النجاشي قد منعهم منه ، وأن حمزة وعمر قد دخلا في الإسلام ، فنماه ودعماه، وشجعا الكثيرين على الاقتداء بهما ،والدخول فيه، ائتمروا فيما بينهم أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على مقاطعة بني هاشم وبني عبد المطلب وعزلهم عنهم ، فلا يصاهروهم ولا يبيعوهم ولا يبتاعوا منهم ، ثم تعاهدوا وتوثقوا على ذلك ، وعلقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم . وكتب صحيفة قريش منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف . فلما سلكت قريش هذا المسلك العدائي انحاز بنو هاشم وبنو عبد المطلب إلى أبي طالب بن عبد المطلب فدخلوا معه في شعبه واجتمعوا إليه ، ولم يخرج عن إجماعهم إلا اثنان هما : أبو لهب وعبد العزى عما الرسول ، فقد انضما إلى قريش وظاهراهم [٤] .

وحوصر النبي وقومه في الشعب ثلاث سنوات قطعت قريش عنهم خلالها

---

(١) ابن هشام ، ج١ ص ٢٨٩

(٢) الاحابيش هم بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، والهون بن خزيمة بن مدركة ،وبنو المصطلق من خزاعة ، تحالفوا جميعا بواد يقال له الاحبش بأسفل مكة او عند جبل حبشي بأسفل مكة ، فسموا بالاحابيش للحلف (ابن هشام)، ص ٣٧٣ — المقريزي، امتاع الاسماع ج١ ، ص ٢١٨)

(٣) البلاذري ، ص ٢٠٥ — ابن كثير ، ج ٢ ص ٦٦

(٤) ابن هشام ، ص ٢٥٠ — البلاذري ، ص ٢٣٠ — الطبري ، ج١ ص ١١٨٩

الميرة حتى بلغهم الجهد ، وتصايح صبيانهم جوعاً ، ومات نفر منهم [1]. غير أن الصحيفة القرشية لم تلبث أن نقضها نفر من قريش ذاتها وعلى رأسهم هشام بن عمرو بن ربيعة ابن أخي نضلة بن هاشم بن عبد مناف لأمه ، « فكان يأتي بالبعير وبنو هاشم وبنو المطلب في الشعب ليلاً ، قد أوقره طعاماً ، حتى إذا أقبل به فم الشعب خلع خطامه من رأسه ، ثم ضرب على جنبه ، فيدخل الشعب عليهم ، ثم يأتي به قد أوقره بُراً ، فيفعل به مثل ذلك » [2]. ونجح هشام بن عمرو في إقناع زهير بن أبي أمية بن المغيرة وأمه عاتكة بنت عبد المطلب بنقض صحيفة قريش ، وانضم إليهما المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف ، والبختري ابن هشام ، وزمعة بن الأسود بن عبد المطلب بن أسد [3]. فاجتمعوا في خطم الحجون بأعلى مكة ليلاً ، وتعاقدوا على نقض الصحيفة وإبطالها ، واتفقوا على أن يبدأ زهير بنقضها . فلما أصبحوا غدا زهير وقد لبس حلة ، فطاف بالبيت سبعاً ، ثم أقبل على القوم فدعاهم إلى شق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة لأنها تجيز لهم أن يأكلوا ويشربوا ويلبسوا الثياب ، وبنو هاشم هلكى لا يباع ولا يبتاع منهم ، فعارضه أبو جهل ، ولكن زمعة بن الأسود والمطعم بن عدي وهشام بن عمرو تصدوا له . ثم نهض المطعم إلى الصحيفة ليشقها فوجد الأرضة قد أكلتها ، ولم يبق من كتابتها سوى عبارة « باسمك اللهم » [4].

وترتب على نقض الصحيفة أن خرج بنو هاشم من الشعب في السنة العاشرة من البعثة أي قبل الهجرة النبوية إلى المدينة بثلاث سنين [5].

وفي هذا العام العاشر من البعثة ، وفي الوقت الذي اشتد اضطهاد قريش للنبي

---

(١) ابن سعد ، ج١ ص ٢٠٩ ـ البلاذري ، ص ٢٣٤

(٢) ابن هشام ، ج ١ ص ٣٧٥ ـ البلاذري ، ص ٢٣٥ ـ ابن كثير ، ج ٢ ص ٦٧

(٣) نفس المصدر ، ص ٣٧٦ ـ البلاذري ، ص ٢٣٦ ـ الطبري ، ج١ ص ١١٩٦ وما يليها ـ ابن كثير ، ج٢ ص ٦٧

(٤) ابن هشام ، ص ٣٧٧ ـ ابن كثير ، ج٢ ص ٦٩

(٥) ابن سعد ، ج١ ص ٢١٠ ـ البلاذري ، ص ٢٣٦

ولأصحابه، فقد النبي سندين وناصرين له في نضاله في سبيل الحق : أولهما عمه أبو طالب الذي كان يحنو عليه ويمنعه من أعدائه، ثم زوجه الوفية السيدة خديجة. وفي هذا العام أيضاً أسرى الله بنبيه من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى ببيت المقدس، وعرج به في هذه الليلة إلى السماء. وجاء الإسراء هدى ورحمة لمن آمن به وصدقه، وتخفيفاً على النبي بعد وفاة أعظم مدافعين عنه. ومع ذلك فقد اعتبر هذا العام من أشق أعوام دعوته إذ اجترأ سفهاء قريش على النبي، ونالوا منه بإيذائهم له ما لم يكونوا يصلون إليه ولا يقدرون عليه في حياة أبي طالب [1].

فلما اشتد إيذاء قريش للنبي بعد وفاة أبي طالب وخديجة خرج في ٢٧ شوال سنة ١٠ من النبوة وحده إلى الطائف [2]، وقيل ومعه زيد بن حارثة مولاه [3]، يلتمس النصرة من ثقيف ويمتنع بهم من قومه، وجلس إلى طائفة من ساداتها وأشرافها ودعاهم إلى الإسلام، ولكنهم لم يجيبوه إلى ما أراد، وأخذوا يتهكون عليه، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم، وراحوا يسبونه ويصيحون به، حتى تجمع عليه القوم. وذكر موسى بن عقبة أن أهل الطائف قعدوا له صفين على طريقه، فلما مرَّ جعلوا لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلا رموهما بالحجارة حتى أدموهما، وحاول زيد بن حارثة أن يقيه بنفسه حتى شج في رأسه شجاج [4]. وألجأه أهل الطائف إلى بستان لعتبة وشيبة ابني ربيعة وهما فيه، ثم رجع عنه

---

(١) ابن هشام، ص ٤١٩ — ابن كثير . ص ١٤٦ . ذكر ابن هشام إن احد سفهاء قريش القى على النبي ترابا، فاتت احدى النبي وجعلت تغسل من وجهه التراب وتبكي، فجعل يقول لها : «لا تبكي يا بنية، فإن الله مانع اباك»، ويقول ما بين ذلك : « ما نالت قريش شيئا اكرهه حتى مات ابو طالب ثم شرعوا » (ابن هشام، ج١ ص ٤١٦) . وذكر ابن كثير ان احد جيران النبي كان يطرح عليه رحم الشاة وهو يصلي، فاتخذ النبي حجرا يستتر به اذا صلى . (ابن كثير، ج ٢ ص ١٤٨)

(٢) ابن هشام، ج ١ ص ٤٢١ — ٤٢٢، ابن كثير، ج ٢ ص ١٥١

(٣) ابن سعد، ج١ ص ٢١١ — البلاذري، ص ٢٣٧

(٤) ابن سعد، ج١ ص ٢١٢

من سفهاء ثقيف من كان يتبعه ، فعمد إلى ظل كرمة فجلس فيه ، ثم انصرف النبي من الطائف إلى مكة [1] محزوناً لم يستجب له رجل واحد ، فوصلها في ٢٣ من ذي القعدة [2] .

٧ — بيعتا العقبة الأولى والثانية :

عاد النبي ﷺ إلى مكة وقومه أشد ما كانوا عليه من خلافه ، فأخذ يعرض نفسه على قبائل العرب في مواسم عكاظ ومجنة وذي المجاز ، يدعوهم إلى الله ، ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه ، فيتعرض له عمه أبو لهب ، ويمنع القبائل من قبول دعوته . وذكر ابن اسحق أن النبي أتى كندة في منازلهم ، فدعاهم إلى الإسلام ، وعرض عليهم نفسه ، فأبوا عليه [3] . ثم قصد بني عبد الله الكلبيين في منازلهم ، فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه ، فلم يقبلوا منه ما عرض عليهم ، ثم اتصل ببني حنيفة ودعاهم إلى الإسلام ، فأعرضوا عنه وردوا عليه أقبح رد ، ودعا بني عامر بن صعصعة إلى الإسلام ، وكانوا بسوق عكاظ ، فاشترط عليه بيحرة بن فراس ، أحد سادتهم ، أن يكون لقبيلته الأمر إذا أظهره الله على من خالفه من قريش . فلما أخبره الرسول أن الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء أبوا عليه .

وعلى هذا النحو كان رسول الله يعرض نفسه على قبائل العرب ولا يسألهم إلا إيوائه ومنعته حتى يبلغ رسالة ربه ، وحتى يقضي الله له ولمن صحبه بما شاء ، تقبل أي قبيلة أن تنصره ، ولم ييأس رسول الله من إباء القبائل عليه ، فكان يواصل اتصالاته بأشراف العرب ، فكان لا يسمع بقادم إلى مكة من سادات العرب وأشرافها حاجاً أو معتمراً إلا دعاه إلى الإسلام . فلما قدم سويد بن الصامت [4]

---

(١) ابن هشام ، ج ١ ص ٤٢١ ، ٤٢٢ — ابن كثير ، ج ٢ ص ١٥١

(٢) البلاذري ، ص ٢٣٧

(٣) ابن هشام ، ج ١ ص ٤٢٤ — ابن سعد ، ج ١ ص ٢١٦ — ابن كثير ، ج٢ ص ١٥٧

(٤) من بني عوف بن مالك بن الاوس وامه ليلى بنت عمرو النجارية اخت سلمى بنت عمرو ام عبد المطلب جد النبي، فهو على هذا النحو يرتبط بصلة قرابة بالنبي

معتمراً إلى مكة دعاه النبي إلى الإسلام ، وأسمعه شيئاً من القرآن ، فأبدى سويد استحسانه لما سمع ، وانصرف إلى قومه بالمدينة ، فلم يلبث أن قتله الخزرج قبل يوم بعاث ، وذكروا أنه مات وهو مسلم[1]. ثم سمع النبي ﷺ أن أبا الحيسر أنس بن رافع قدم إلى مكة حاجاً أو معتمراً ومعه فتية من بني عبد الأشهل الأوسيين ، من بينهم إياس بن معاذ ، يلتمسون من قريش الحلف على قومهم من الخزرج ، أقبل عليهم ودعاهم إلى عبادة الله ، وذكر لهم الإسلام ، وتلا عليهم آيات من القرآن الكريم ، فخفق قلب إياس بن معاذ عند سماعه لآي الذكر الحكيم ، ولم يمنع نفسه من إبداء تأثره بما سمع ، فقال : « أي قوم ، هذا والله خير مما جئتم له » ، فعارضه أنس بن رافع وعنفه على ترك الغرض الرئيسي الذي قدموا إلى مكة من أجله[2] . ثم خرج رسول الله في الموسم الذي لقيه فيه جماعة الأنصار في العام السابق ، فعرض نفسه على قبائل العرب مثلما كان يفعل في كل موسم ، فبينما كان عند العقبة[3] التقى برهط يتألف من ستة شيوخ من الخزرج المقيمين بيثرب ، وكان الأوس قد غلبوهم في يوم بعاث ، فدعاهم النبي إلى الإسلام ، وتلا عليهم آيات قرآنية ، وكان يهود يثرب قد تنبأوا بقرب ظهور نبي يتبعونه وتوعدوهم به ، فلما خاطب النبي محمد ﷺ هؤلاء النفر ودعاهم إلى دينه وتلا عليهم آيات من القرآن ، أدركوا أنه النبي الذي توعدهم به اليهود ، فصدقوه وأسلموا على يديه ، وعزموا على أن يحدثوا قومهم في شأنه ، ويدعوهم الى الإسلام[4].

فلما أقبلوا على قومهم بيثرب ذكروا لهم رسول الله ، ودعوهم الى الإسلام ، وأجابوهم إليه ، « حتى فشى فيهم فلم تبق دار من دور الأنصار الا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ[5] » .

---

(١) ابن هشام ، ج١ ص ٤٢٧

(٢) نفس المصدر ، ج ١ ص ٤٢٨

(٣) هي عقبة بين منى ومكة بينها وبين مكة نحو ميلين ، ومنها ترمى جمرة العقبة (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد٤ ، ص ١٣٤)

(٤) البلاذري ، ص ٢٣٦

(٥) ابن هشام ، ص ٤٣٠ — ابن كثير ، ج ٢ ، ص ١٧٧ — ١٧٨

وفي العام التالي ، أي العام الثاني عشر من النبوة ، قدم [illegible] موسم [illegible] الأنصار عشر من الخزرج واثنان من الأوس ، من بينهم أسعد بن زراره ،وعوف ابن الحارث ، ومعاذ بن الحارث ، ورافع بن مالك ، كانوا قد أسلموا في العام السابق ، ثم ذكوان بن عبد قيس الزرقي ، وعبادة بن الصامت [١] . وشهد هؤلاء الرجال موسم الحج ، ثم عزموا على الاجتماع برسول الله ، فلقوه بالعقبة فبايعوه عندها بيعة النساء [٢] ، وهي العقبة الأولى ، وفيها عاهدهم النبي على ألا يشركوا بالله شيئاً ، وأن يتجنبوا السرقة والزنا وقتل الأولاد ، وألا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم ، وألا يعصوا النبي في معروف [٣] . وقبل أن ينصرفوا عن النبي بعث معهم مصعب ابن عمير بن هاشم بن عبد مناف ، وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ، ويفقههم في الدين [٤] . وعلى يدي مصعب وأسعد بن زرارة تم إسلام عدد كبيرمن أهل يثرب من بني عبد الأشهل الأوسيين ، نذكر منهم سعد بن معاذ وأسيد بن حضر اللذان كان لإسلامهما أعظم الأثر في انتشار الإسلام بيثرب .

ولما كان موسم الحج التالي ، أي في عام ١٣ من البعثة النبوية ، قدم إلى مكة لفيف من الأنصار المسلمين مع حجاج قومهم من الوثنيين ، فاتفق الأنصار على مقابلة النبي ﷺ في الشعب عند أسفل العقبة بمنى ، وكانوا ٧٣ رجلا وامرأتان في قول ابن اسحق ، وسبعون رجلا وامرأة واحدة في قول عروة بن الزبير [٥] ، وأقاموا في ذلك الموضع ينتظرون إقبال النبي عليهم ، فقدم إليهم ومعه عمه العباس ، وكان على دين قومه [٦] ، ولكنه صحب ابن أخيه ليتوثق له . وبدأ

---

(١) ابن هشام ، ص ٤٣١ — البلاذري ، ص ٢٣٩ — ابن كثير ، ج ٢ ص ١٧٨

(٢) أي وفق ما نزلت عليه بيعة النساء بعد ذلك في عام الحديبية .

(٣) ابن هشام ، ص ٤٣٤ — ابن سعد ، ص ٢٢٠ — ابن كثير ، ص ١٨٠

(٤) نفس المصدر ، ص ٤٣٥ — ابن كثير ، ج ٢ ص ١٨٠

(٥) البلاذري ، ص ٢٤٠ — ابن كثير ، ج ٢ ص ١٩٧ — ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٤ مادة العقبة .

(٦) يدل حضور العباس عم النبي معه على الصلة القوية بين بني هاشم والنبي .

العباس بالحديث فقال : « يا معشر الخزرج ، إن محمداً منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو في عز من قومه ، ومنعة في بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم ، واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، ومانعوه ممن خالفوه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم ، فمن الآن فدعوه ، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده »[1] .

وما إن أتم العبـــاس كلمته حتى أبدى الأنصار صدق نيتهم ، وأظهروا إخلاصهم للنبي ، ثم طلبوا منه أن يحدثهم ، فتلا عليهم آيات من القرآن الكريم ، ودعاهم إلى الإسلام ، ثم قال : « أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم » ، فوافقوه على ذلك ، ولكن رجلاً منهم هو أبو الهيثم بن التيهان اعترضه بقوله : « يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال[2] حبالاً وإنا قاطعوها ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله ، أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ » فتبسم رسول الله ، ثم قال : « بل الدم الدم والهدم الهدم[3] ، أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم » . ثم اتفق معهم على أن يختاروا منهم اثني عشر نقيباً يمثلون قومهم ، فاختاروا تسعة من الخزرج وثلاثـــة من الأوس[4] .

ولما اجتمع النقباء لبيعة الرسول، ذكرهم العباس بن عبادة بن نضلة الأنصاري بما سبق أن تحدث به العباس عم النبي ، تأكيداً للعهد والبيعة والذب عن الرسول وافتدائه بالمال والروح ، فقـــال لهم : « يا معشر الخزرج ، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم . قال : إنكم تبايعونه على حرب الأحمر

---

(١) ابن هشام ، ص ٤٤٢ — ابن سعد ، ص ٢٢٢ — ابن كثير ، ج ٢ ص ١٩٧

(٢) يقصد بهؤلاء الرجال يهود المدينة

(٣) أي أن ذمتي هي ذمتكم وحرمتي حرمتكم

(٤) ابن هشام ، ص ٤٤٣ — ابن كثير ، ج ٢ ص ١٩٦

والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة، وأشرافكم قتلا ، أسلمتموه ، فمن الآن فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة ، وان كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكه الأموال وقتل الأشراف فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة . قالوا : فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ، فما لنا بذلك يا رسول الله ان نحن وفينا بذلك؟ قال: الجنة، قالوا : ابسط يدك . فبسط يده فبايعوه »[1] . ثم تفرقوا الى رحالهم ، وعادوا الى يثرب فأظهروا الإسلام ، فأسلم بها من سادات بني سلمة وأشرافهم عمرو بن الجموح وأسلم بعده عدد كبير من قومه .

وعرفت بيعة العقبة الثانية ببيعة الحرب ، لأن الرسول بايعهم في هذه البيعة الثانية على حرب الأسود والأحمر ، ووعدهم بالجنة التي وعد بها الله المؤمنين في قوله تعالى : « وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون »[2] ، وفي قوله تعالى : « الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق . والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب . والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار . جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب »[3] .

وقد حددت بيعة العقبة الثانية وضع النبي بين أهل يثرب ، فقد اعتبرته واحداً منهم ، دمه كدمهم وحكمه كحكمهم ، وقضت أيضاً بخروج النبي من أهل مكة فانتقلت تبعية النبي لذلك من مكة الى يثرب ، ولهذا السبب حرص

---

(١) ابن هشام ، ص ٤٤٦ — ابن سعد ، ص ٢٢٣ — ابن كثير ، ص ٢٠٢

(٢) القرآن الكريم ، سورة البقرة ٢ ، آية ٢٥

(٣) القرآن الكريم ، سورة الرعد ١٣ ، آية ٢٠ — ٢٣

المسلمون على إخفاء أمر هذه البيعة والتكتم عليها حتى لا تعلم بها قريش ، إذ أن حماية الأوس والخزرج للنبي لا تبدأ إلا بعد وصوله إلى يثرب [١] ، زد على ذلك أن النبي لم يكن قد أمر بعد بالقتال بدليل أن العبـاس بن عبادة قال له بعد أن بايعه في العقبة الثانية : « والله الذي بعثك بالحق ، إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيافنا ؟ قال : [٢] فقال رسول الله ﷺ : لم نؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم . قال : فرجعنا إلى مضاجعنا ، فنمنا عليها حتى أصبحنا » [٣] .

ويذكر ابن اسحق أن النبي ﷺ لم يكن قد أذن له بالحرب قبل بيعة العقبة ، ولم تحلل له الدماء ، إنما كان يؤمر بالدعاء إلى الله والصبر على الأذى والصفح عن الجاهـل ، وكانت قريش قد اضطهدت من آمن به حتى فتنوا البعض عن دينهم ونفوا البعض الآخر عن بلادهم ، فمنهم من كان مفتوناً في دينه أو معذبـاً في أيديهم أو مهاجراً الى الحبشة أو المدينة فراراً منهم . فلما بغت عليه قريش ، وعتت على أتباعه ، وعذبوهم ونفوهم ، أذن الله عز وجل له بالقتال والانتصار ممن ظلمه وظلم أتباعه [٤] ، فكانت أول آية نزلت في إذنه له في الحرب وإحلاله له الدماء والقتال لمن بغى عليهم ، وفقاً لما رواه عروة بن الزبير ، قول الله تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ، لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز . الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور » [٥] . ثم أنزل الله تعالى عليه : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله » [٦] .

---

(١) احمد الشريف ، الدولة الاسلامية الاولى ، ص ٥٤

(٢) يقصد حديث كعب بن مالك

(٣) ابن هشام ، ج١ ص ٤٤٨

(٤) نفس المصدر ، ص ٤٦٨

(٥) القرآن الكريم ، سورة الحج ٢٢ ، آية ٣٩ — ٤١

(٦) القرآن الكريم ، سورة البقرة ٢ ، آية ١٩٢

وقد تردد هذا المعنى في آيات كثيرة من القرآن الكريم ، نزلت عليه بعد ذلك ، وكلها تحرك عواطف المسلمين ناحية القتـال في سبيل الله الذي يضاعف ثواب العاملين [1] وفي نفس الوقت توصيهم بعدم المبادرة والعدوان . فمن ذلك قول الله سبحانه وتعالى : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين . واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم ، والفتنة أشد من القتل ، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ، فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين » [2] ، وقوله تعالى عز وجل: « فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً » [3] . على أننا نعتقد أن تشريع الجهاد لم يتم إلا بعد أن استقر النبي في يثرب وأصدر الصحيفة ، فلم يبعث سرية حتى أنزل الله تعالى عليه : « أذن للذين يقاتلون » [4] . بل إن مهاجمة رجال سرية نخلة في آخر رجب سنة ٢هـ لاحدى قوافل قريش ، وقتلهم لرجل من رجالها في شهر من الأشهر الحرم كان هو السبب المباشر في نزول الآية : « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير » [5] . ولما تهيأ للمسلمين دار هجرة بعد أن بايع رهط الأنصار النبي ﷺ ، على الإسلام والنصرة له ولأتبـاعه ، وفتحوا أبواب بلدهم لهم ، أمر رسول الله أصحابه المهـاجرين من قومه ومن كان مقيماً بمكة من المسلمين بالهجرة الى المدينة واللحاق بإخوانهم من الأنصار ، فقال لهم رسول الله : « قد أريت دار هجرتكم أريت سبخة ذات نخل بين لابتين » [6] . وذكر ابن اسحق أنه قال لهم « إن الله قـد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها » [7] . وجاء الإذن للمسلمين بالهجرة الى يثرب بعـد أن ضيقت قريش على

---

(١) محمد فرج ، العبقرية العسكرية في غزوات الرسول ، مجموعة مذاهب وشخصيات ، ص٢٤

(٢) القرآن الكريم ، سورة البقرة ٢ ، آية ١٩٠ — ١٩١

(٣) القرآن الكريم ، سورة النساء ٤ ، آية ٧٤

(٤) البلاذري ، انساب الاشراف ص٢٨٦

(٥) القرآن الكريم ، سورة البقرة ٢ آية ٢١٧

(٦) ابن سعد ، ج ١ ص ٢٢٦ — ابن كثير ، ج ٢ ص ٢١٣

(٧) ابن هشام ، ج ١ ص ٤٦٨ — ابن كثير ، ج ٢ ص ٢١٥

المسلمين بعد أن علموا بأنه أصبح للمسلمين منعة ودار هجرة [١].

فخرج المسلمون إلى يثرب أرسالاً ، أما الرسول ، فقد أقام بمكة ينتظر أن يأذن له ربه بالخروج من مكة إلى يثرب دار الهجرة . ولم يبق معه بمكة من المسلمين إلا علي بن أبي طالب وأبو بكر الصديق ومن كان قد حبسه المشركون في مكة كرهاً أو فتن عن دينه [٢]. وكان أبو بكر كثيراً ما استأذن الرسول في الهجرة ، فينصحه بالتمهل عسى أن يجد له صاحباً ورفيقاً (يقصد نفسه). فلما رأت قريش أن رسول الله قد أصبح له شيعة وأصحاب من غيرهم وبغير بلدهم مكة ، وأن أصحاب رسول الله قد هاجروا إلى يثرب وأصابوا منهم منعة ، خافوا لحاق النبي بهم ، وأدركوا أنه قد عزم على محاربتهم . فاجتمعوا في دار الندوة ، ولم يتخلف أحد من أهل الرأي منهم [٣] ، ليتشاوروا فيما يصنعون في أمر الرسول ، فاقترح عليهم أبو البختري بن هشام أن يحبسوا النبي ﷺ في الحديد ، ويغلقوا عليه باباً ، وقال قائل بنفيه من أرض الحجاز . ولكن شيوخ قريش لم يأخذوا بأي من الاقتراحين ، ثم اقترح عليهم أبو جهل أن يجمعوا من كل قبيلة فتى شاباً قوياً شريفاً في قومه ذا نسب ، يسلحونه بسيف صارم ، ثم يعمدوا إلى النبي فيضربوه بسيوفهم ضربة رجل واحد فيقتلوه ، ويتفرق دمه في القبائل جميعاً ، وعندئذ لا يستطيع بنو عبد مناف أن يحاربوا كل قبائل قريش . فأجمعت قريش على هذا الرأي وتفرقوا وهم مجمعون عليه .

وأبلغ النبي ﷺ بما تآمر عليه القرشيون ، وأمره الله بعدم المبيت على فراشه في تلك الليلة كما أمره بالهجرة ، وأنزل عليه : « وإذ يمكر بك الذين كفروا

---

(١) ابن سعد ، ص ٢٢٦

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٢٦ — المقريزي ، امتاع الاسماع ، ج ١ ص ٣٧

(٣) عرف يوم اجتماعهم لذلك السبب بيوم الزحمة (ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج ١ ص ٤٨٠ — ابن كثير ، ج ٢ ص ٢٢٧) وفي ذلك اليوم اجتمع من اشراف قريش : عتبة وشيبة ، وابو سفيان ، وطعيمة بن عدى ، وجبير بن مطعم ، والحارث بن عامر بن نوفل ، والنضر بن الحارث ، وابو البختري بن هشام ، وزمعة بن الاسود ، وحكيم بن حزام ، وابو جهل بن هشام ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج .

ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله،والله خير الماكرين»[١]، وقوله : « أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ، قل تربصوا ، فإني معكم من المتربصين »[٢] . فلما حل ظلام الليل ، اجتمع المتآمرون على باب النبي يرصدونه حتى ينام ثم يثبون عليه فيفتكون به ، فلما رأى النبي مكانهم عهد إلى علي بن أبي طالب بأن يبيت في فراشه ويتسجى ببرده الحضرمي الأخضر حتى يختلط الأمر على المتآمرين فيظنون أنه النبي ، ثم خرج النبي من وسط المتآمرين دون أن يفطنوا لخروجه أو يبصروه، إذ أخذ حفنة من تراب في يده وذرها على رؤوسهم وهو يتلو هذه الآيات: «يس والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم » إلى قوله عز وجل : « وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً، فأغشيناهم فهم لا يبصرون »[٣] . ومضى النبي إلى دار أبي بكر في وقت لم يكن يتوقعه ، ودخل على أبي بكر ومعه ابنتاه عائشة وأسماء ، وأبلغه بأن الله قد أذن له في الخروج والهجرة . فخرجا من خوخة في ظهر دار أبي بكر ، وركبا راحلتين ومضيا في طريق يثرب حتى أتيا غار ثور فدخلا فيه[٤] . ولم يعلم بخروج النبي أحد حين خرج . وى علي بن أبي طالب الذي استبقاه النبي على فراشه خديعة للمشركين ، وحتى يؤدي عن رسول الله الودائع التي كانت عنده للناس ، وأبو بكر وبنتاه . فأقام النبي وصاحبه أبو بكر في الغار ثلاثة أيام كان عبدالله بن أبي بكر يزودهما خلالها بأنباء مكة، وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما بما يصلحهما من الطعام وقت المساء .

أما المتآمرون فقد باتوا أمام دار النبي وهم يحسبون علياً النبي ﷺ، وأقاموا

---

(١) القرآن الكريم ، سورة الانفال ٨ آية ٣٠

(٢) القرآن الكريم ، سورة الطور ٥٢ آية ٣١

(٣) القرآن الكريم ، سورة يس ٣٦ آية ١ — ٩

(٤) ابن هشام ، ص ٤٨٥ — ابن سعد ، ج ١ ص ٢٢٨ — البلاذري ، ص ٢٦٠ — ابن حزم ، جوامع السيرة ، تحقيق الدكتور احسان عباس ، والدكتور ناصر الدين الاسد ، مجموعة تراث الاسلام ، القاهرة ، ص ٩ — ابن كثير ، ج ٢ ص ٢٣٤

على هذا النحو طوال الليل ، فلما أصبحوا وجدوا علياً في فراش النبي ، فبادروا باقتفاء أثر النبي حتى انتهوا إلى باب الغار ، فألفوا الغار وقد كسى بابه بنسج عنكبوت فأدركوا أن النبي لم يدخله ، فانصرفوا . وكان النبي قد سمعهم يتناقشون، فجزع أبو بكر،وقال للنبي: « لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه » ، فقال له النبي: « يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما»[1]. فأنزل الله على النبي : « إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار ، إذ يقول لصاحبه : لا تحزن إن الله معنا . فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هي العليا ، والله عزيز حكيم »[2].

ثم ارتحل النبي ﷺ مع صاحبه أبي بكر في ٤ ربيع الأول،بعد أن استأجرا دليلاً يقال له عبدالله بن أريقط الليثي،وصحبهما أيضاً عامر بن فهيرة مولى أبي بكر إلى يثرب[3].وسمع المسلمون في يثرب بخروج النبي ﷺ من مكة،فكانوا يغدون، مهاجروهم وأنصارهم، إلى ظهر حرة العصبة فيتحينون قدومه منذ مطلع النهار حتى يشتد عليهم حر الشمس فيعودوا إلى دورهم[4]. وذكر البخاري عن عروة ابن الزبير أن النبي قابل وهو في طريقه إلى يثرب الزبير بن العوام في ركب التجار قافلين من الشام ، فكسا الزبير رسول الله وأبا بكر ثياباً بيضاء .

ولما وصل النبي ﷺ ورفاقه إلى المدينة، انتشر الخبر سريعاً بين المهاجرين والأنصار ، فانجفلوا إليه وخرجوا للقائه ، ثم نزل رسول الله في علو المدينة في حي يقال لهم بنو عمرو بن عوف،فأقام هناك أربع عشرة ليلة وقيل أربع ليالي أسس خلالها المسجد الذي أسس على التقوى وهو مسجد قباء . ثم ركب الرسول

---

(١) ابن كثير ، ج ٢ ص ٢٤٣

(٢) القرآن الكريم ، سورة التوبة ٩ آية ٤٠

(٣) ابن سعد ، ج ١ ص ٢٢٩ — ابن حزم ، جوامع السيرة ، ص ٩٢

(٤) ابن هشام ، ص ٤٩٢ — ابن ابن سعد ج ١ ص ٢٣٣ — ابن كثير ، ج ٢ ص ٢٥٠

راحلته وسار يمشي معه الناس حتى بركت ناقته في مربد للتمر لغلامين يتيمين من بني مالك بن النجار في كنف أسعد بن زرارة [١] يقال لهما سهيل وسهل ، فقال رسول الله حين بركت بـه راحلته : « هذا إن شاء الله المنزل » ، ثم دعا الرسول بالغلامين ، وساومهما المربد ليتخذه مسجداً ، فابتاعـه منهما . ونزل النبي بدار أبي أيوب خالد بن زيد بن كليب حيث أقـام سبعة أشهر [٢] حتى بنى مسجده ومساكنه .

---

(١) وذكر ابن اسحق انهما كانا في حجر معاذ بن عفراء (ابن هشام ، ص ٤٩٥ — ابن حزم ، جوامع السيرة ، ص ٩٤)

(٢) ابن هشام ، ص ٤٩٦ — ابن سعد ، ج ١ ص ٢٣٧

الفصل الثاني

قيام دولة الرسول في المدينة

(١) الأسس التي قامت عليها دولة المدينة

(٢) السياسة الخارجية لدولة المدينة.

ا — الجبهة الداخلية

ب — الصراع بين مكة والمدينة

ج — كتب النبي إلى الامارات والقبائل والدول المجاورة

(٣) مقدمة الفتوحات العربية الإسلامية

ا — غزوة مؤتة

ب — فتح مكة

ج — غزوة حنين والطائف

د — غزوة تبوك وتوحيد جزيرة العرب.

- ١ -

الأسس التي قامت عليها دولة المدينة

لم يلبث رسول الله بعد أن هاجر إلى يثرب أن أصبح رئيساً لأحزاب غير متجانسة، فعمد إلى توحيدها بأن ربط بين المهاجرين والأنصار برابطة المؤاخاة، ثم اتخذ النبي للدين الإسلامي مسجداً لصلاة المسلمين وللاجتماع بصحابته وأتباعه، وشرع بعد ذلك في وضع نظام للحياة الاجتماعية في الدولة المدينة يكون دعامة للوحدة بين سكان المدينة، فوضع الصحيفة التي تعتبر بحق دستور دولته في المدينة، وأخيراً شرع الجهاد عندما وقف منه المكيون موقفاً مضاداً بسبب هجرته إلى يثرب وتحديه لهم ، وكان لتشريع الجهاد أثر كبير بالنسبة للمسلمين في المدينة إذ منحهم صفة سياسية لم تكن لديهم من قبل، واستكملت يثرب بذلك أهم خصائص الدولة المدينة .

وفيما يلي دراسة تفصيلية للأسس التي قامت عليها دولة الرسول بالمدينة :

أولاً – بناء المسجد الجامع بالمدينة :

لم يكد رسول الله يبتاع المربد من صاحبيه سهيل وسهل من بني مالك بن النجار حتى شرع في بناء مسجد للمسلمين . ولم يكن المربد يعدو « جداراً مجدراً ليس

عليه سقف، وقبلته إلى بيت المقدس ، وكان أسعد بن زرارة قد بناه، فكان يصلي بأصحابه فيه ، ويجمع بهم فيه الجمعة قبل مقدم رسول ﷺ »[١]. وقيل أنه كان في المربد قبور للمشركين ، وخرب ، ونخل ، وماء مستنجل ، فأمر النبي بقبور المشركين فنبشت وبالعظام فغيبت ، وبالماء فسير حتى ذهب، وبالخرب فسويت، وبالنخل فقطع [٢]. ثم أمر رسول الله باللبن فضرب ، وباحتفار أسس المسجد على ثلاثة أذرع ، وشرع المسلمون في بنـاء هذه الأسس فبنيت بالحجارة ، ثم رفعت جدرانه باللبن . واتخـذ المسجد شكلاً يقرب من شكل المربع ذكروا أن طول الجانب منه ١٠٠ ذراع[٣]، وقيل أقل من ذلك. ويعتقد الباحث الأثري أستاذي الدكتور أحمد فكري ، بعد دراسة دقيقة للروايات العربية المختلفة ، ومقارنـة رسوم المسجد كما خططها الباحثون والمستشرقون ، أن صحة ذرع هذا المسجد النبوي الأول هو ٦٣ ذراعاً في العرض ، و ٧٠ ذراعاً في الطول [٤] . وكان رسول الله ينقل الحجارة بنفسه، وأعانه أصحابه على ذلك، حتى اغبر صدره[٥].

ولم يكن المسجد بادىء ذي بدء سوى ساحـــة فسيحة لا ظلة لها ، فشكا المسلمون إلى النبي من شدة الحر بسبب تعرضهم لحرارة الشمس، فأقام لهم ظلة[٦]، واستخدم الرسول جذوع النخل سواري للقبلة المسقوفة ، بحيث أصبحت الظلة تضم ست أساطين ، ثلاثاً إلى يمين المنبر وثلاثاً إلى يساره[٧]، ثم طرح على سواري النخل العوارض والخصف والأدخر ، وهي عروش وجريـــد ، على نحو عريش

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج١ ص ٢٣٩ — السمهودي، وفاء الوفا، ج١ ص ٢٣٢
(٢) نفس المصدر ، ص ٢٤٠ — ابن كثير ، ج ٢ ص ٣٠٢
(٣) نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ — ابن كثير ، ج ٢ ص ٣٠٢
(٤) احمد فكري ، مساجد القاهرة ومدارسها ، المدخل ، الاسكندرية ، ١٩٦١ ص ١٧٠
(٥) ابن كثير ، ج ٢ ص ٣٠٤
(٦) السمهودي ، ج ١ ص ٢٣٩ — احمد فكري ، مساجد القاهرة ومدارسها ، ص ١٧٠
(٧) نفس المرجع ، ص ٢٤٨ وما يليها

موسى[١]، وبنى إلى جوار المسجد بيوتاً باللبن سقفت أيضاً بجذوع النخل والجريد. ثم أقام النبي لعائشة بيتاً يشرع بابه إلى المسجد، وفتح في المسجد ثلاثة أبواب: باباً في مؤخره، وباباً يقال له باب الرحمة أو باب عاتكة، والباب الثالث كان يدخل منه رسول الله بإزاء باب عائشة [٢].

أما القبلة فقد وجهها النبي ﷺ إلى بيت المقدس، بعد أن كان يترك للمسلمين، في أول عهده بالرسالة، حرية اختيار قبلتهم في الصلاة، لأن «ولله المشرق والمغرب، فأينما تولوا فثم وجه الله أن الله واسع عليم»[٣].

أما ما يتعلق ببيوت أزواج النبي، فقد ذكر السمهودي أن حجر أزواج النبي ﷺ لم تكن جزءاً من المسجد، ولكن أبوابها كانت شارعة فيه[٤]، وكان مجموعها تسعة بيوت مبنية باللبن، منخفضة الأسقف، ولها حجرات من جريد مطرور بالطين تقع في شرق المسجد، وبعضها في شماله[٥]، أضيفت كلها إلى المسجد بعد موت أزواج النبي[٦].

وظل المسلمون، منذ أن هاجر الرسول إلى يثرب، يولون وجوههم في الصلاة شطر بيت المقدس طوال ستة عشر شهراً كاملة، أو سبعة عشر شهراً في قول آخر، ثم حولت القبلة إلى الكعبة قبل وقعة بدر بشهرين عندما نزلت الآية: «قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها، فول وجهك شطر المسجد الحرام»[٧]. وترتب على تعديل اتجاه القبلة من الشمال إلى الجنوب أن أقيمت ظلة جديدة إلى الجانب القبلي من

---

(١) ابن سعد، ج ١ ص ٢٤٠ ـ ابن كثير، ص ٣٠٤
(٢) نفس المصدر ص ٢٤٠ ـ السمهودي، ج ١ ص ٢٣٢
(٣) سورة البقرة، ٢ آية ١١٥
(٤) السمهودي، وفاء الوفا، ج ١ ص ٣٦٦
(٥) ابن سعد، ص ٣٩٦ ـ السمهودي، ج ١ ص ٣٥٠
(٦) ابن كثير، ج ٢ ص ٣١٤
(٧) القرآن الكريم، سورة البقرة، آية ١٤٤

المسجد، فأصبح للمسجد ظلتان وسمي المسجد لذلك بمسجد القبلتين[١]. وقد اتخذ النبي الظلة الشمالية القديمة بيتاً لأهل الصفة[٢]، في حين أصبح ما بين الظلتين رحبة واسعة. ولم يكن للمسجد في أول بنائه منبر، بل كان النبي ﷺ يخطب وهو مستند إلى جذع عند مصلاه في الحائط القبلي[٣]، ثم عهد النبي إلى كلاب مولى العباس بن عبد المطلب بعمل منبر من درجتين ومقعد، وقيل من ثلاث درجات، فوضعه في موضع القبلة[٤]. ولم يكن للمسجد يومئذ مئذنة، لأن المئذنة ليست عنصراً رئيسياً في تخطيط المسجد وبنائه، وإنما هي من العناصر المعمارية المستحدثة في الإسلام[٥]، وكان بلال يؤذن على عهد الرسول «على منارة في دار حفصة ابنة عمر التي تلي المسجد ... وكان يرقى على أقتاب فيها، وأنه كان في دار عبد الله ابن عمر أسطوان في قبلة المسجد يؤذن عليها»[٦].

وضاق مسجد الرسول في المدينة بالمصلين بعد مضي سبع سنوات من بنائه، فاشترى النبي أرضاً لأنصاري زادها في المسجد من الجهة الشرقية والغربية والشمالية، ونتج عن تلك الزيادة أن جددت سقف المسجد[٧]. وفي خلافة أبي بكر تآكلت الجذوع القديمة، فجددها أبو بكر وبناها بجذوع النخل والجريد ثم تخربت في خلافة عثمان، فبناها بالآجر[٨]. ولم يزد أبو بكر في مسجد الرسول شيئاً، ولكن عمر بن الخطاب زاد فيه، وبناه على مثل بنائه الأول باللبن والجريد،

---

(١) ابن سعد، ص ٢٤٢ — السمهودي، ج ١ ص ٢٥٨ وما يليها

(٢) أهل الصفة قوم فقراء من صحابة النبي لا منازل لهم ولا عشائر، فكانوا ينامون على عهده في المسجد، ويظلون فيه ما لهم مأوى غيره، وكان رسول الله يدعو بعضهم الى العشاء معه، ويوزع الآخرين في الصحابة (ابن سعد، ص ٢٥٥)

(٣) ابن سعد، ج ١ ص ٢٥٠ — ابن كثير، ج ٢ ص ٣١٠

(٤) ابن سعد، ج ١ ص ٢٥١ وما يليها

(٥) السيد عبد العزيز سالم، المآذن المصرية، القاهرة ١٩٥٩

(٦) السمهودي، ج ١ ص ٣٧٥ — احمد فكري، المدخل، ص ٢٧٦

(٧) نفس المصدر، ج ١ ص ٢٤١ — احمد فكري، المدخل، ص ١٧١

(٨) ابن كثير، ج ٢ ص ٣٠٥

وأعاد عمده خشباً وذلك في سنة ١٧ هـ [١] . ثم زاد عثمان بن عفان في المسجد زيادة كبيرة في سنة ٢٩ هـ ، فبنى جداره بالحجارة المنقوشة والقصة (الجص)، وجعل عمده من حجارة منقوشة وسقفه بالساج [٢] . وذكر البلاذري أن عثمان زاد في المسجد ونقل إليه الحصباء من العقيق [٣] ، واتخذ فيه مروان بن الحكم مقصورة من الحجر المنقوش . ثم زيد في المسجد في زمن الوليد بن عبد الملك ، وتولى الاشراف على هذه الزيادة عمر بن عبدالعزيز عندما كان عاملاً له على المدينة، وبعث إليه الوليد في سنة ٨٨ هـ بمال وفسيفساء ورخام وثمانين صانعاً من الروم والقبط من أهل الشام ومصر، فبناه وزاد فيه . ولم يحدث فيه أحد من خلفاء بني أمية وبني العباس في أول قيام دولتهم، شيئاً إلى أن تولى المهدي العباسي الزيادة فيه في سنة ١٦٢هـ، ثم رمم في خلافة المتوكل على الله في سنة ٢٤٧ [٤]. واحتفظ المسجد منذ أيام المهدي بنظامه وتخطيطه ، ولكنه تعرض لأعمال التجديد والترميم في سنة ٦٥٥ ، وفي سنة ٧٠٥ . وما زال منذ هذه السنة موضع عناية سلاطين مصر المملوكية وسلاطين آل عثمان حتى أصبح بحق متحفاً تاريخياً للفن الاسلامي في عصوره المختلفة .

ويعبر مسجد الرسول في المدينة ، ببساطته التي بنى عليها، عما وضعه الاسلام من تعاليم دينية : فنظام النسب فيه يقوم على أساس إنساني هو الوضع الأفقي ترجمة لما هو ثابت في الطبيعة كالسهل والبحر والكتلة البشرية المتماسكة الساكنة، في نظام يتسق ونظرية المساواة في المجتمع الإسلامي ، حيث لا يوجد من النظام الطبقي سوى الإيمان المشترك ، وهو مجتمع المؤمنين في الاسلام [٥] . ولم يكن

---

(١) ابن كثير ، ص ٢٠٥ — السمهودي ، ج ١ ص ٣٥٥

(٢) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٢٠٥ — السمهودي ، ص ٣٥٥

(٣) البلاذري ، فتوح البلدان ، نشره الدكتور صلاح الدين المنجد ، القسم الاول ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ٥

(٤) البلاذري ، المصدر السابق ص ٦ — السمهودي ، ج ١ ص ٣٦٥

(٥) جومث مورينو ، الفن الاسلامي في اسبانيا ، ترجمة الدكتور لطفي عبد البديع والسيد عبد العزيز سالم ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ١٠

مسجد الرسول في المدينة المثل الذي احتذته مساجد الاسلام في العصور التالية فحسب، بل كان تخطيطه ونظام بنائه أساساً لسائر أنواع العمائر الاسلامية المتأخرة كالمدارس والخوانق والقصور والوكالات والفنادق، فمن نظامه التخطيطي اشتقت هذه الأبنية نظمها التخطيطية. يضاف إلى ما سبق أن المسجد أصبح في العصر الاسلامي أساساً للتنظيم العمراني للمدينة الاسلامية، والمركز الديني الذي تلتف حوله بقية مراكزها العمرانية، والقلب الذي ينبض بالحياة، ويهبها النشاط والحركة، وهو الذي يطبع المدينة الاسلامية البناء أو المدينة المفتوحة بالطابع الاسلامي، باعتباره المركز الديني والثقافي والاجتماعي والاقتصادي للمدينة [١]: فقد كان مسجد الرسول في المدينة مركزاً لصلاة المسلمين، ودار ندوة لهم في نفس الوقت، ففيه كان يتشاور النبي مع الصحابة في شؤون جماعة المسلمين وعلاقاتهم بقريش وما يتصل بذلك من سلم أو حرب، وفيه كانت تستقبل وفود العرب إلى المدينة [٢]، فكان القادمون يعقدون رواحلهم في فناء المسجد، ويقابلون النبي ﷺ في سقيفة المسجد، وفيه كانت تعقد ألوية المسلمين عند خروجهم إما للاستطلاع أو للغزو. وكان المسجد بالاضافة إلى ذلك مركزاً علمياً وثقافياً، فكان الصحابة يتولون تعليم القرآن والسنة لمن أراد أن يتعلمها من وفود العرب على المدينة [٣]، وأصبحت المساجد الاسلامية بعد ذلك مراكز علمية يحصل فيها طلاب العلم علومهم، وتقوم بوظيفة المدرسة التي استحدثت في عصر متأخر [٤]،

---

(١) السيد عبد العزيز سالم، التخطيط ومظاهر العمران في العصور الاسلامية الوسطى، مقال بمجلة المجلة، العدد التاسع، سبتمبر ١٩٥٧، تخطيط مدينة الاسكندرية وعمرانها في العصر الاسلامي، مقدمة عامة المدن الاسلامية، بيروت ١٩٦٣

(٢) ابن سعد، ج ١ ص ٢٩٤، ٣١٤، ٣١٦، ٣٢١، ٣٢٨، ٣٥٧

(٣) نفس المصدر، ص ٣١٦، ٣٢٤، ٣٣٦

(٤) ظهرت أولى المدارس في مصر الاسلامية كبناء مستقل عن المسجد الجامع في الاسكندرية في العصر الفاطمي (السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي، الاسكندرية ١٩٦٩ ص ٢١٨، ٢١٩) كما ظهرت في نفس الوقت تقريبا في خراسان في عصر السلاجقة (راجع السيد عبد العزيز سالم، بيوت الله مساجد ومعاهد القاهرة ١٩٦٠)

وكان مسجد الرسول أيضاً مركزاً اجتماعياً إذ كان يقوم في منطقة عمرانيـــة مكتظة بالمساكن ، وقد رأينا أن هذا المسجد أقيم بجوار بيوت النبي وزوجاته كما أقيم بجوار دار مالك بن النجار. وكان أهل الصفة يبيتون في السقيفة الشمالية من المسجد بعد أن تحولت قبلته إلى الكعبة،وفيه كان يجتمع الصحابة مع الرسول يتحادثون ويتناشدون الأشعار ويذكرون أشياء من أمر الجاهلية فيضحكون ويبتسم رسول الله [1] .

ثانيا – مؤاخاة النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار :

ذكرنا أن رسول الله بعد أن هاجر إلى يثرب أصبح رئيساً لأحزاب غـــير متجانسة ، فعمـــل على توحيدها برباط الإسلام ، وبدأ بإصلاح ما بين الأوس والخزرج ، فأزال من نفوسهم ما كان قد رسب فيها من الخصومة القديمة ، وهي خصومة كان يذكيها اليهود ، ثم وحد بينهما تحت اسم الأنصار الذين نصروه وأيدوا الدعوة الإسلامية . واتجه بعد ذلك إلى توحيد جماعة المهاجرين، فآخى بين المهاجرين بعضهم لبعض [2] ، ثم ربط بينهم وبين الأنصار برابطة المؤاخاة ، وهو ما كان يعرف في الجاهلية باسم الحلف [3] ، أي أنـه آخى بينهم على الحق والمؤاساة والتوارث بعد الموت دون ذوي الأرحام[4]، بحيث يرث المهاجر أخاه

---

(١) ابن سعد ، ج ١ ص ٣٧٢

(٢) نفس المصدر ، ج ١ ص ١٣٨

(٣) احمد ابراهيم الشريف ، الدولة الاسلامية الاولى ، ص ٦٨

(٤) ابن سعد ، ص ٢٣٨ — ابن كثير ، ج ٢ ص ٣٢٤ — المقريزي ، امتاع الاسماع ، ج ١ ص ٤٩ . غير ان المواخاة في الميراث لم تلبث ان نسخت بعد وقعة بدر ، واصبح الميراث وقفا على الاقرباء من دون الناس ، وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى : « واولوا الارحام بعضهم اولى ببعض في كتاب الله ، ان الله بكل شيء عليم » (سورة الانفال ٨ آية ٧٥) ، وفي قوله عز وجل : « واولوا الارحام بعضهم اولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين » (سورة الاحزاب ، ٣٢ ، آية ٦) . فأصبحت المؤاخاة بعد ذلك معنوية ، لا يتـــوارث المتؤاخون على اساسها .

الأنصاري إذا مات والعكس بالعكس . غير أن بعض العلماء أنكروا – وفقاً لما ذكره ابن كثير – مؤاخاة النبي ﷺ وعلي ، « استناداً إلى أن المؤاخاة إنما شرعت لأجل ارتفاق بعضهم من بعض ، وليتألف قلوب بعضهم على بعض ، فلا معنى في رأيهم لمؤاخاة النبي ﷺ لأحد منهم ولا مهاجري لمهاجري آخر كما ذكره (أي ابن اسحق) من مؤاخاة حمزة وزيد بن حارثة اللهم إلا أن يكون النبي ﷺ لم يجعل مصلحة علي إلى غيره ، فإنه كان ممن ينفق عليه رسول الله ﷺ من صغره في حياة أبيه أبي طالب ... وكذلك يكون حمزة قد التزم بمصالح مولاهم زيد بن حارثة فآخاه بهذا الاعتبار »[1] . وقد ذكرنا من قبل أن ابن سعد أكد أن النبي بدأ بمؤاخاة المهاجرين بعضهم لبعض ، ولهذا السبب نفترض أن المؤاخاة تمت على ثلاثة مراحل : الأولى بين الأنصار بعضهم لبعض،ونعني بالأنصار الأوس والخزرج ، الذين نصروا النبي وبايعوا له ، والثانية بين المهاجرين بعضهم لبعض، والثالثة بين الأنصار والمهاجرين ، وهذا يفسر ما أنكره بعض العلماء من مؤاخاة النبي وعلي ، ومؤاخاة حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة،وكلاهما مهاجران، وعلى هذا الأساس نفسر ما أورده كتاب السيرة بأنه خلط بين مرحلتي المؤاخاة الثانية والثالثة .

وذكر ابن اسحق أن النبي ﷺ قال للمهاجرين والأنصار : « تآخوا في الله أخوين أخوين »[2] ، ثم أخذ بيده علي بن أبي طالب ، فقال : « هذا أخي » ، وأصبح النبي أخاً لعلي، وتآخى حمزة بن عبد المطلب عم النبي مع زيد بن حارثة مولى الرسول ، وتآخى جعفر بن أبي طالب وهو غائب في الحبشة مع معاذ بن جبل[3] ، وتآخى أبو بكر مع خارجة بن زهير الأنصاري ، وعمر بن الخطاب مع عتبان بن مالك الأنصاري ، وأبو عبيدة بن الجراح مع سعد بن معاذ، وقيل

---

(١) ابن كثير ، ج ٢ ص ٣٢٦

(٢) ابن هشام ، ج ١ ص ٥٠٥ — ابن كثير ، ج ٢ ص ٣٢٥

(٣) ابن حزم ، جوامع السيرة ، ص ٩٦

مع أبي طلحة، وعبدالرحمن بن عوف مع سعد بن الربيع الخزرجي الأنصاري، والزبير بن العوام مع سلامة بن سلامة بن وقش الأنصاري، وعثمان بن عفان مع أوس بن ثابت بن المنذر، وطلحة بن عبيد الله مع كعب بن مالك الأنصاري[١].

وعلى هذا النحو من المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، توثقت وحدة المسلمين في المدينة [٢]، بعد أن كان المسلمون فيهـا قبائل مختلفة فيما بينها، وأصبح المسلمون المتؤاخون يشكلون قوة خطيرة يحسب مشركو مكة لها حساباً كبيراً.

ثالثاً — الصحيفة :

قبل وقعة بدر، وقبل أن ينصرم العام الأول من الهجرة، كتب النبي محمد ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار، وادع فيه يهود المدينة وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم، وعرف الكتاب بالصحيفة. وقد تضمنت الصحيفة تنظيماً للحياة الاجتماعية في المدينة وتحديـداً للعلاقات بين أهل المدينة المسلمين وبين يهودها. والصحيفة على هذا النحو وثيقة هامة لأنها تصور لنا مـا كانت عليه أحوال المجتمع اليثربي وإلى أي حد تغيرت نظمه القديمة والأسس التي قام عليها قانون تنظيم الحياة الاجتماعية في المدينة. وفيما يلي نص الوثيقة كما أورده ابن هشام نقلاً عن ابن اسحق: « بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي ﷺ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم، فلحق بهم، وجاهـد معهم. إنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم [٣] يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم [٤] بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عوف على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم[٥] الأولى، كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل

---

(١) ابن هشام، ج ١ ص ٥٠٥ — ابن حزم، ص ٩٦

(٢) جمال الدين سرور، ص ٧٨

(٣) ربعتهم أي الحالة التي كانوا عليها عند ظهور الاسلام

(٤) العاني اي الاسير

(٥) جمع معقلة بمعنى الدية

طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو جشم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وإن لا يتركون مفرحاً [١] بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل ، وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه ، وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة [٢] ظلم ، أو إثم ، أو عدوان ، أو فساد بين المؤمنين ، وإن أيديهم عليه جميعاً ، ولو كان ولد أحدهم ، ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ، ولا ينصر كافراً على مؤمن ، وإن ذمة الله واحدة ، يجير عليهم أدناهم ، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس ، وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة ، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم ، وإن سلم المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله ، إلا على سواء وعدل بينهم، وإن كل غازية غزت معنا يُعقب بعضها بعضاً ، وإن المؤمنين يبيء [٣] بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله، وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدْي وأقْومه، وإنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً ، ولا يحول دونه على مؤمن ، وأنه من اعتبط [٤] مؤمناً قتلاً عن بيِّنة، فإنه قَوَدٌ به إلا أن يُرضي وليُّ المقتول ، وإن المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم إلا قيامٌ عليه ، وإنه لا يحلّ لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة ، وآمن بالله واليوم الآخر ، أن ينصر محدثاً ولا يُؤويه ، وأنه من نصره أو آواه ، فإن عليه

---

(١) المفرح اي المثقل بالدين كثير العيال

(٢) دسيعة : عطيـة

(٣) يكف ويمنـع

(٤) اي قتله بدون سبب يستدعي ذلك

لعنة الله وغضبه يوم القيـــامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل . وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء ، فإن مردّه الى الله عزّ وجلّ ، وإلى محمد ﷺ . وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين مـــا داموا محاربين ، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم ، إلا من ظلم وأثم ، فإنه لا يُوتِغ [١] إلا نفسه وأهلَ بيته ، وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف ، وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف ، وإن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف ، وإن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف ، إلا من ظلم وأثم ، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته ، وإن جفنة بطنٍ من ثعلبة كأنفسهم ، وإن لبني الشطيبة مثـل ما ليهود بني عوف ، وإن البر دون الإثم ، وإن موالي ثعلبة كأنفسهم ، وإن بطانة [٢] يهود كأنفسهم ، وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ ، وإنه لا ينحجز على ثأر جرح ، وإنه من فتك فبنفسه فتك ، وأهل بيته ، إلا من ظلم ، وإن الله على أبرّ هذا [٣] ، وإن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هـذه الصحيفة ، وإن بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الأثم ، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه ، وإن النصر للمظلوم ، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وإن يثرب حرام جوفُها لأهل هذه الصحيفة ، وإن الجار كالنفس غيرَ مُضار ولا آثم ، وإنه لا تُجار حرمة إلا بإذن أهلها ، وإنه ما كان بين أهل هـذه الصحيفة من حَدَثٍ أو اشتجـار يُخاف فساده ، فإن مرده إلى الله عزّ وجلّ ، وإلى محمد رسول الله ﷺ ، وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره [٤] ، وإنه لا تُجار قريش ولا من نصرها ، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب ، وإذا دُعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه ، فإنهم يصالحونه ويلبسونه ، وإنهم إذا دعوا الى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين ، إلا من حارب في الدين ، على كل إناس حصتهم من جانبهم

---

(١) يوتغ نفسه : يهلك نفسه

(٢) بطانة اي خاصة ، وبطانة اليهود اي ذويهم واهل بيتهم

(٣) اي يرضى به

(٤) اي ان الله وحزبه المؤمنين على الرضا به

الذي قِبَلهم ، وإن يهود الأوس ، مواليهم وأنفسهم ، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة ،مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة ، وإن البر دون الإثم ، لا يكسب كاسبٌ إلا على نفسه ،وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره ، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم ، وإنه من خرج آمن ، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم أو أَثِم ، وإن الله جارٌ لمن بر واتقى ، ومحمد رسول الله ﷺ »[١] .

ونستنتج من هذه الوثيقة الهامة التي تعتبر دستور الدولة المدينة عدة أمور ،منها:

١ — أن الصحيفة تجاهلت نظام القبيلة الذي يفتت وحدة العرب ، وجعلت من المسلمين جميعاً ، مهاجريهم وأنصارهم ، ومن تبعهم ممن لحق بهم وجاهد معهم أمة واحدة من دون الناس . وقد أكد القرآن الكريم هذا المعنى ، اذ اعتبر جماعات المسلمين أمة واحدة في قوله تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »[٢] .

وبهذا الاسم الذي أطلق على جماعة المسلمين والمؤمنين ومن تبعهم من أهل يثرب ممن احتفظوا بدينهم ، ألغى النبي الحدود والفواصل القبلية ، واندمج المسلمون على اختلاف قبائلهم في هذه الجماعة التي ترتبط فيما بينها برابطة الإسلام ، فهم يتكافلون فيما بينهم ، وهم ينصرون المظلوم على الظالم ، وهم يرعون حقوق القرابة والصحبة والجوار . ولم تستبعد الصحيفة من مدلول الأمة الفئات التي لم تعتنق الإسلام بعد من الأوس وطائفة اليهود الذين يوالون المسلمين ويحاربون معهم ، وإن كانوا لا ينتمون انتماء وثيقاً الى الأمة الاسلامية انتماء المهاجرين والأنصار[٣]، اذ أن درجة الانتماء الى الأمة الاسلامية كما حددتها الصحيفة كانت كانت تتفاوت بين طبقات سكان المدينة ، فقد فرقت بين أصحاب الحق الكامل وبين غيرهم من تابع ونزيل .

---

(١) ابن هشام ، السيرة ، ج ١ ص ٥٠١ — ٥٠٤ ، ابن كثير ، ج ٢ ص ٣٢١ وما يليها — المقريزي ، امتاع الاسماع ، ص ٥٠

(٢) القرآن الكريم ، سورة آل عمران ٣ آية ١١٠

(٣) احمد الشريف ، ص ٧٩

٢ – على الرغم من أن الصحيفة تجاهلت نظام القبيلة وأدمجت كل طوائف المدينة في الأمة الاسلامية ، إلا أن هذا الاندماج لم يتم إلا عن طريق القبيلة ، فكأن القبائل دخلت الأمة بتنظيماتها القبلية القديمة . وألقي على كاهل القبائل عبء دفع ديات القتلى وفديات الأسرى على نفس النظام الذي كان متبعاً في العصر الجاهلي . كذلك أبقت الصحيفة على رابطة الولاء وما يترتب عليهـا من حقوق الموالاة ، فلم تجز لأحد أن يخالف مولى دون مولاة . وبالاضافة الى ذلك أباحت الصحيفـة حق إجارة أي شخص غريب ، ولم تستثن إلا قريش ومن نصرها : « وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها » .

٣ – نظمت الصحيفة حق الأخذ بالثأر على نحو يجنب قيام حرب داخلية ، فإذا اعتدى شخص ما على مؤمن بالقتل وجب على أقرباء الجاني أن يسلموا القاتل لولي القتيل أي لصاحب الثأر لكي يقتاد منه بالعدل : « وإنه من اعتبط مؤمناً قتلاً عن بيّنة فإنه قود به إلى أن يرضى ولي المقتول ، وإن المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم إلا قيام عليه » . وفي موضع آخر : « وإن المؤمنين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين ، وإن أيديهم عليه جميعهم ولو كان ولد أحدهم » . وبذلك تحول مبدأ الأخذ بالثأر إلى مبدأ القصاص والأخذ بالعقاب ، ويعتبر تفويض حق التأديب إلى الجماعـة بدلاً من الفرد انتقالاً حاسماً له دلالته في المجتمع العربي الجديد ، وهو مرحلة متوسطة في قانون العقوبات بين العقوبة على المستوى الفردي في المجتمع القبلي إلى العقوبة على مستوى تشريعات وقوانين في مجتمع الدولة ، وكان لذلك التنظيم أعظم الأثر في تفادي الحروب الداخلية والاضطرابات .

٤ – تركت الصحيفة لله ولرسوله أمر فض أي نزاع أو اشتجار يخاف فساده : « وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله » ، وفي موضع آخر : « وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده الى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ » . والمغزي من ذلك

واضح ، وهو تأكيد سلطة عليا دينية تهيمن على المدينة وتفصل في الخلافـــات منعاً لقيام اضطرابات في الداخـل من جراء تعدد السلطات ، وفي نفس الوقت تأكيد ضمني برئاسة الرسول على الدولة المدينة سياسياً .

٥ – أكدت الصحيفة تضامن المسلمين والمؤمنين ، وتماسكهم أمام خطر ما خارجي يهدد سلامة دولة الرسول في المدينة : « وإن المؤمنين بعضهم موالي لبعض دون النـــاس » ، « وإن بينهم النصر على من دهم يثرب » . وتؤكد في موضع آخر « أن المؤمنين يبيء بعضهم بعضاً بما نال دماءهم في سبيل الله » .

ولم تجز الصحيفة أن يثأر المؤمن من مؤمن آخر إذا قتـــل قريب له كافراً : « ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن » . وعلى هذا النحو خرج الاعتداء على المشرك من دائرة المطالبة بالثأر ، وأصبحت المسألة في هـذه الحالة مجرد اجازة بقتل أعداء الدولة ،على النحو المعروف في الحروب ،والكافر المقتول يصبح في هذه الحالة من ضحايا الحرب ، لا يجوز الثأر لدمه . كذلك أصبح عقد السلم مسألة جماعية لا يجوز أن تنفرد بها قبيلة دون الأخرى فإن « سلم المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله الا على سواء وعدل بينهم » . ومعنى هذا أن الصحيفة ألزمت المسلمين بالتضامن والجماعية في حالتي السلم والحرب .

٦ – أوضحت الصحيفة موقف المسلمين من يهود المدينة ، فقد تركت لهم حرية العقيدة : « لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم » ، وفي مقابل ذلك ألزمت اليهود بموالاة المسلمين وعدم التآمر عليهم ، وفتحت البـاب أمام الراغبين منهم في الانتماء الى الأمة الاسلامية : «وأنه من تبعنا من يهود فإنله النصر والأسوة ، غير مظلومين ولا متناصر عليهم » . وفي مقابل تبعية اليهود للمسلمين يبـاح لليهود أن يحصلوا على نفقة اشتراكهم مع المسلمين في الحرب ، فاليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين » ، « وإن على اليهود نفقتهم ،وعلى المسلمين نفقتهم ، وان بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة » .

رابعاً – تشريع الجهاد :

ظل رسول الله بعد أن هاجر إلى يثرب يؤثر الوسائل السلمية في الدعوة إلى الإسلام وينفر من اصطناع سياسة العنف والقوة ، ولكن الظروف الجديدة التي قامت فيها دولته في المدينة ، وما نتج عن ذلك من تبييت قريش في مكة النية للقضاء عليها ،هذه الظروف دعت إلى تشريع الجهاد لتأمين دولة الاسلام في المدينة من خطر الوثنيين من قريش وغيرها من قبائل العرب المناهضة للإسلام ، ومن مؤامرات اليهود في داخل المدينة مع أعدائها في الخارج ، ولتمكين المسلمين من الدفاع عن أنفسهم ممن أخرجوهم من ديارهم بغير حق . فنزل الوحي على النبي في المدينة [1] يدعو المسلمين إلى القتال الذود عن أنفسهم : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله »[2]. ثم نزلت آيات أخرى كان الغرض منها تحريك عواطف المسلمين إلى ناحية القتال لا من أجل العدوان أو الاعتداء على المشركين وإنما للدفاع عن أنفسهم والرد على عدوان المشركين عليهم ، وللحفاظ على الإسلام من الفتنة: « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله »[3]، وقوله تعالى: «كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون . يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون »[4] ، وقوله تعالى : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا

---

(١) سبق ان ناقشنا ما ذكره كتاب السيرة من أن تشريع الجهاد تم بعد بيعة العقبة الثانية المعروفة ببيعة الحرب

(٢) القرآن الكريم ، سورة الحج ٢٢ ، آية ٣٩

(٣) القرآن الكريم ، سورة الانفال ٨ ، آية ٣٩

(٤) القرآن الكريم ، سورة البقرة ٢ ، آية ٢١٦ — ٢١٧

تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين . واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ، فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين »[١] . والله يعد المسلمين المقاتلين بالجنة ويضاعف ثواب المجاهدين في سبيله ، ويتجلى ذلك في قوله عز وجل : « فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة »[٢] ، وفي قوله تعالى : « الذين آمنوا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون . يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم ، خالدين فيها أبداً ، إن الله عنده أجر عظيم »[٣] ، وفي قوله تعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم »[٤] .

وكان لتشريع الجهاد آثار هامة بالنسبة لدولة الرسول في المدينة ، فقد اكتسبت به صفة سياسية لم تكن لديها من قبل ، وأصبح لها الحق في الدفاع عن نفسها ضد التيارات المعادية لها في الداخل والخارج .

---

(١) القرآن الكريم ، سورة البقرة ٢ آية ١٩٠ — ١٩٢

(٢) القرآن الكريم ، سورة النساء ٤ آية ٧٤ — ٧٥

(٣) القرآن الكريم ، سورة التوبة ٩ آية ٢٠ — ٢٢

(٤) القرآن الكريم ، سورة التوبة ٩ آية ١١١

- ٢ -

السياسة الخارجية لدولة المدينة

ا - الجبهة الداخلية :

١ - موقف الرسول من يهود المدينة :

اعتنق نفر من أحبار اليهود في يثرب الإسلام عن إيمان بعد وصول النبي ﷺ إليها ، نذكر منهم عبدالله بن سلام ، وكان حبراً عالماً من سادة اليهود ، وأسلم بإسلامه أهل بيته وعمته خالدة بنت الحارث [١] ، ومنهم ثعلبة بن سعية وأخوه أسيد بن سعية وأسد بن عبيد [٢] ومخيريق من بني ثعلبة بن الفطيون وقيل من بني قينقاع ، وكان حبراً عالماً ، جاهد مع المسلمين في موقعة أحد [٣].

وقد رأينا أن رسول الله ، حرصاً منه على استمالة يهود المدينة [٤] واصطناعهم ،

---

(١) ابن هشام ، ج ١ ص ٥١٦ ، ٥١٧ — ابن كثير ، ج ٢ ص ٢٩٤ ، ٢٩٩ ، ٢٤٤

(٢) نفس المصدر ، ص ٥٥٧ — ابن حزم ، ص ١٩٤ . وقد اسلم هؤلاء عند نزول يهود بني قريظة على حكم النبي في ذي الحجة سنة ٥ هـ

(٣) الواقدي ، كتاب المغازي ، تحقيق مارسدن جونس ، اكسفورد ١٩٦٦ ، ج ١ ص ٢٦٢ — ابن هشام ، ج ١ ص ٥١٨ — البلاذري ، أنساب الاشراف ، ص ٣٢٥ — ابن حزم ، جوامع السيرة ، ص ١٦٤

(٤) توماس أرنولد ، الدعوة الى الاسلام ، ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن ، القاهرة ١٩٤٧ ص ٤٧

عمد إلى استرضائهم بوسائل منها كتاب الموادعة الوارد في الصحيفة وفيه منحهم حرية إقامة شعائرهم الدينية ومساواتهم سياسياً بالمسلمين واعتبارهم جزءاً من الأمة الاسلامية، ومنها توجيه قبلة المسجد في الشهور الستة عشرة الأولى من الهجرة إلى بيت المقدس حيث هيكل سليمان، ولكن اليهود على الرغم من موقف النبي الودي منهم كتموا استياءهم من قيام دولة إسلامية في المدينة يرأسها النبي محمد ﷺ ، ولأن النبي الذي بشرت به كتبهم لإنقاذهم من هوة البؤس والشقاء جاء عربياً من غير جنسيتهم وذريتهم، ولأن التوحيد الذي يؤمن به المسلمون غير التوحيد الذي يؤمنون به [١]. فتظاهروا بالرضاء إلى حين انتظاراً لما تتكشف عنه الأوضاع الجديدة في المدينة ، وظناً منهم أن بإمكانهم استمالة النبي إلى جانبهم لتحقيق مصلحتهم الذاتية واسترجاع سيادتهم القديمة في يثرب ، ثم لم يلبثوا أن نقضوا عهدهم مع النبي وأفصحوا عن عدائهم له، وبدأوا يحاربونه بسلاح الدس والوقيعة والنفاق، عندما رأوه يؤلف بين الأوس والخزرج ويزيل عوامل الجفوة من نفوسهم ويربطهم برابطة المؤاخاة مع إخوانهم المهاجرين بحيث جعل منهم قوة كبرى تضاءلت بجانبها أي قوة أخرى في المدينة . فقد تظاهر فريق منهم (من بني قينقاع) بالإسلام وهم منافقون[٢] أو على سبيل التقية [٣] ، نذكر منهم سعد بن حنيف ، وزيد بن اللصيت ، ونعمان بن أوفى ، وكنانة بن صوريا ، ورافع بن حرملة ، ورفاعة بن زيد بن التابوت ، وأخذوا يحثون المنافقين من بني الأوس والخزرج على تكذيب النبي والسخرية من دينه . وفيهم يقول الله عز وجل: «إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب أليم . ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون . في قلوبهم مرض ، فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا

---

(١) احمد ابراهيم الشريف ، الدولة الاسلامية الاولى ، ص ٩٤

(٢) ابن هشام ، ص ٥٢٧

(٣) ابن كثير ، ج ٢ ص ٢٢٩

يكذبون . إذ قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون . ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون. وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون. وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزؤون »[١] .

وقد فطن رسول الله إلى المشاعر الخفية لليهود وهي مشاعر مناهضة لدينه كانوا يسعون إلى إخفائها تحت قناع زائف من التظاهر بالرضا ، فأخذ يحترز منهم ويحذرهم ، وأوحى الله إليه بأن يصرف القبلة إلى الكعبة بعد ١٧ شهراً من هجرته إلى يثرب، وسجل تحويل القبلة على هذا النحو بداية عهد جديد جهر فيه اليهود بعدائهم للنبي . وحاولوا بادىء ذي بدء أن يفتنوه عن دينه ، فقدم إليه عدة نفر منهم بعد أن صرفت القبلة إلى الكعبة ، فقالوا له : « يا محمد ما ولاك عن قبلتك التي كنت عليها نتبعك ونصدقك » ، وكانوا يريدون بذلك فتنته عن دينه [٢] ، فأنزل الله فيهم : « سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ، قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ، وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذي هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم . قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ، وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم ،وما الله بغافل عما يعملون، ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم ، وما بعضهم بتابع قبلة بعض ، ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين»[٣] . فلما لم يجدوا من النبي أي استجابة لهم أخذوا يبثون بذور الخصام والشقاق بين المسلمين، ويثيرون الفتن والخصومات القديمة بين الأوس والخزرج

---

(١) القرآن الكريم ، سورة البقرة ٢ آية ٦ — ١٤

(٢) ابن هشام ص ٥٥٠

(٣) القرآن الكريم ، سورة البقرة ٢ آية ١٤٢ — ١٤٥

بقصد الوقيعة وإضرام نار الحرب في داخـــل المدينة ، وكاد الأوس والخزرج يصطدمون صداماً مسلحاً لولا أن تداركهم النبي فبصّرهم إلى ما دعـــا إليه الإسلام من الإخاء ونبذ الأحقاد،فأدركوا مكيدة اليهود، وبكوا وتعانقوا[١].
ثم عمد آخرون إلى تشكيك الأنصار في الإسلام[٢]،وصدّ من يرغب فياعتناقه، والطعن فيه وتعييبه [٣]. واشتدت حملتهم على المسلمين بعد أن أسفرت موقعة بدر عن انتصار ساحق المسلمين ، رفع معنويتهم ، وأعلى الله به كلمتهم ، فقـد فطنوا إلى تزايد قوة المسلمين ، فعمدوا إلى الطعن في محمد ﷺ وفي المسلمين[٤] ، وبغوا وقطعوا ما كان بينهم وبين النبي من العهد،وقالوا له بعد انتصاره في بدر : « يا محمد لا يغرنك من لقيت،إنك قهرت قوماً أغماراً وإنا والله أصحاب الحرب، ولئن قاتلتنا لتعلمن أنك لم تقاتل مثلنا »[٥] ، ثم استغل يهود بني قينقاع الصاغة

---

(١) ابن هشام ، ص ٥٥٦

(٢) ذكر ابن اسحق ان جماعة من منافقي اليهود ذكر منهم كردم بن قيس ، واسامـة ابن حبيب ، ونافع بن ابي نافع ، وبحري بن عمرو ، وحيى بن اخطب ، ورفاعة بن زيـد ابن التابوت كانوا يأتون رجالا من الانصار يتنصحون لهم من اصحاب رسول الله ، فيقولون لهم : لا تنفقوا أموالكم ، فانا نخشى عليكم الفقر من ذهابها ، ولا تسارعوا في النفقة فانكم لا تدرون علام يكون » (ابن هشام ، ص ٥٦٠) . وقد نهى الله تعالى المسلمين الذيـن يواصلون جماعة من اليهود بصلة الحلف او الجوار عن مباطنتهم ، في قوله تعالى : « يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ، ودوا ما عنتم ، قد بدت البغضاء من افواههم وما تخفي صدورهم أكبر ، قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون . ها انتم اولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله واذا لقوكم قالوا آمنا واذا خلوا عضوا عليكم الانامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم ، ان الله عليم بذات الصدور » (القرآن الكريم ، سورة آل عمران ٣ آية ١١٨ — ١١٩)

(٣) ابن هشام ، ص ٥٦٠

(٤) كان ابو عفك من بني عمرو بن عوف اليهود يرسل الاشعار يطعن بها على محمـد وعلى المسلمين ، ويحرض قومه على الخروج عليهم . ولكن سالم بن عمير قتله (الواقدي ، ج ١ ص ١٧٥) كذلك كان كعب بن الاشرف اليهودي ينشد الشعر في هجاء النبي والطعن في الاسلام والمسلمين ويحرض قريش على الثأر من المسلمين ، ولما عاد الى المدينة اخذ يتغزل في نساء المسلمين ويشبب بهم ، وقد ادى ذلك الى قيام نفر من المسلمين بقتله في ربيع الاول من العام الثالث للهجرة (الواقدي ، ج ١ ص ١٨٤ وما يليها)

(٥) الواقدي ، ص ١٧٦

حادثة سوقهم [١] في طليعة الشهر العشرين من الهجرة [٢] لتحدي المسلمين ، فأمر رسول الله بحصارهم ، فحوصروا ١٥ يوماً ، وأرغموا على التسليم والنزول على حكمه وقضائه ، فأمر بهم فربطوا من أكتافهم ، ولكنه أمر بفك وثاقهم بعد أن توسط لهم ابن أبي علي أن يجلوا من المدينة . وانتهى الأمر بخروجهم عن المدينة ، فنزلوا بأذرعات بشمال الحجاز [٣].

ثم تجرأ يهود بني النضير على النبي بعدما أصاب المسلمين في يوم أحد ووقعة الرجيع وبئر معونة ، وحاولوا قتله بصخرة يرمونها عليه [٤]، وتآمروا مع المنافقين على إثارة حرب داخلية في المدينة ، وأخذوا يعدون عدتهم لحصار طويل ، فرموا حصونهم وشحنوها بالسلاح والعدد . فبادر النبي بمحاصرتهم ، واشتبك المسلمون معهم في قتال عنيف ، وطال حصار المسلمين لهم عشرين يوماً ، منع عنهم خلالها أي سبيل للاتصال بعبد الله بن أبي وأصحابه . فيئس اليهود من عونهم ، ونادوا بالصلح مع النبي ، فصالحهم على الخروج من المدينة لكل ثلاثة منهم بعير بما حمل سوى الحلقة [٥] والآلة ولرسول الله أرضهم ونخلهم والحلقة وسائر السلاح ، ثم رحلوا في ربيع الأول من بداية العام الرابع للهجرة ، فحملوا على ٦٠٠ بعير . وفيهم يقول الله تعالى: « هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا ، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي

---

(١) تفصيل هذه الحادثة ان امراة من الانصار قدمت الى سوق بني قينقاع ، وكانوا اكثر يهود المدينة تحديا للنبي ، فجلست عند صائغ في حلى لها ، فجاء يهودي من بني قينقاع وجلس من ورائها، فعبث بثيابها دون ان تفطن، فظهرت بعض عورتها عند قيامها، فغضب لذلك رجل مسلم اخذته الغيرة على المراة المسلمة ، فقتله . فوثب اليهود على المسلم وقتلوه ، ونبذوا عهد النبي (الواقدي ، ص ١٧٧)

(٢) نفس المصدر ، ص ١٧٦

(٣) الواقدي ، ص ١٨٠ — المقريزي ، امتاع الاسماع ، ج ١ ص ١٠٥

(٤) نفس المصدر ، ج ١ ص ٣٦٥ — ابن حزم ، جوامع السيرة ، ص ١٨٠

(٥) الحلقة اي الدروع

المؤمنين ، فاعتبروا يا أولي الأبصار . ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار »[١] . وقد رحل فريق منهم إلى خيبر بينما مضى البعض الآخر إلى الشام ، وتركوا للمسلمين وراءهم غنائم كثيرة [٢]. أما من رحل منهم إلى خيبر فقد عملوا على الثأر لأنفسهم من المسلمين [٣] ، فخرج منهم حيي بن أخطب النضري وسلام بن أبي الحقيق في جماعة من يهود خيبر إلى قريش بمكة التي تحمل لواء المعارضة للنبي لتحريضهم على مهاجمة المدينة، ولم يتردد هؤلاء اليهود عندما سألهم أهل قريش باعتبارهم أهل كتاب عن أي الدينين أفضل: دين الوثنيـة أم دين الإسلام ، أن فضلوا الوثنية على التوحيد ناقضين بذلك التفضيل تعاليم التوراة ، فقالوا لهم : « بل دينكم خير من دينـه ، وأنتم أهدى منه وممن اتبعه »[٤]. فلما أقنعوا قريشاً مضوا إلى غطفان وبني مرة وفزارة وأشجع وسليم وبني سعد وبني أسد يحرضونهم على الأخذ بثأرهم [٥]، وإعلانها حرباً شاملة على محمد. ونجحت خطتهم في تحزيب الأحزاب على المسلمين في المدينة. فأعد المسلمون عدتهم لصد هذا العدوان ، وانتهى يوم الأحزاب أو الخندق بفشل ذريع ليهود خيبر وأنصارهم من عرب قريش وغطفان ومرة وأشجع من خارج المدينة ويهود بني قريظة من داخلها ، وكان بنو قريظة موادعين للرسول ولكنهم لم يلبثوا أن غدروا به ونقضوا ما كان بينهم وبينه من عهد، إذ رأوا في غزوة الأحزاب فرصة مواتية لهم للانتقام من المسلمين الذين أخرجوا أشقاء لهم من المدينـة . وأحيط

---

(١) القرآن الكريم ، سورة الحشر ٥٩ آية ٢ ، ٣

(٢) منها خمسون درعا وخمسون بيضة (خوذة) و ٣٤٠ سيفا (الواقدي ، ج ١ ص ٣٧٧ — البلاذري ، فتوح البلدان ، ج ١ ص ١٨ — ٢٢ ، المقريزي ، امتاع الاسماع ، ج ١ ص ١٨٦)

(٣) بسبب طرد المسلمين ليهود بني قينقاع وبني النضير (ولفنسون ، تاريخ اليهود ، ص ١١٧)

(٤) ابن هشام ، ص٥٦٢

(٥) المقريزي ، امتاع الاسماع ، ج ١ ص ٢١٦ ، ٢١٧

بالمسلمين من كل جهة [١]. فلما رحلت الأحزاب ، عاد الرسول إلى المدينة وحاصر بني قريظة خمس عشرة ليلة من ذي القعدة وذي الحجة سنة خمس من الهجرة[٢]، وقيل خمساً وعشرين ليلة[٣]. فلما طال عليهم الحصار لم يجدوا بدأ من الاستسلام، فخاطبوا الرسول في النزول على حكمه على أن يحكم فيهم سعد بن معاذ، فحكم فيهم بحكم رسول الله وهو أن تقتل الرجال وتقسم الأموال، وتسبى الذراري والنساء [٤] ، فأمر بهم الرسول فسيقوا جماعات إلى موضع سوق المدينة[٥] حيث حفرت لهم خنادق ، ثم أمر الرسول فضربت أعناقهم في تلك الخنادق[٦] . وبلغ عدد القتلى منهم ما بين ٦٠٠ و ٧٠٠ يهودي، وقتلت من نسائهم امرأة واحدة هي بنانة امرأة الحكم القرظي وكانت قد ألقت حجراً للرحى على خلاد بن سويد بن الصامت فقتلته [٧] ، ثم قسم الرسول أموال بني قريظة بين المسلمين .

وبالقضاء على يهود بني قريظة تطهرت الجبهة الداخلية من عدو شديد البأس، وضعف أمر المنافقين من بني الأوس والخزرج . ولكن الخطر اليهودي على المدينة لم ينته تماماً طالما أن هناك فئات منهم تستوطن خيبر وفدك وتيماء ووادي القرى انتظاراً لفرصة مواتية تنقض فيها عليها، وتنتقم فيها من النبي وصحابته . ولذلك رأى النبي بعد أن عقد صلح الحديبية مع قريش أن يبدأ بغزو خيبر وما

---

(١) ابن حزم ، ص ١٨٨ ، واضاف ابن هشام : « وعظم عند ذلك البلاء ، واشتد الخوف ، واتاهم عدوهم من فوقهم ومن اسفل منهم ، حتى ظن المؤمنون كل ظن ، ونجم النفاق من بعض المنافقين » ابن هشام ، القسم الثاني ، ص ٢٢٢

(٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ج ١ ص ٢٣ . ويؤكد ابن حزم ان الحصار تم في العام الرابع للهجرة (ص ١٨٥)

(٣) ابن هشام ، القسم الثاني ص ٢٣٥ — ابن حزم ، جوامع السيرة ، ص ١٩٣

(٤) البلاذري ، ص ٢٣ — ابن حزم ، ١٩٥

(٥) هكذا يذكر ابن اسحق ومعنى ذلك انهم سيقوا الى موضع من المدينة قريب من ظاهرها ، هذا الموضع اصبح في زمن ابن اسحاق اي في القرن الثالث الهجري سوقا للمدينة، وذلك بعد ان نما عمرانها

(٦) ابن هشام ، القسم الثاني ، ص ٢٤١ — ابن حزم ، ص ١٩٥

(٧) نفسه ، ص ٢٤٢ — ابن حزم ص ١٩٥

حولها ، فخرج إليها في المحرم من سنة ٧ هـ ، وقاتل أهلها حتى ألجأهم إلى قصورهم وحاصرهم في حصنيهم الوطيح وسلالم وذلك بعد أن استولى عنوة على جميع حصونهم ، وقيل إن حصار الرسول لأهل خيبر دام ما بين عشرين ليلة إلى ثلاثين [١] ثم صالحوه على حقن دمائهم على أن يقوموا على العمارة والنخل ، فأقرهم النبي وعاملهم على الشطر من الثمر والحب ، أي مقاسمة على النصف [٢]. ثم بعث رسول الله إلى أهل فدك بعد منصرفه من خيبر رسولاً من قبله هو محيصة بن مسعود الأنصاري يدعوهم إلى الإسلام فصالحه رئيسها يوشع بن نون اليهودي على نصف الأرض بتربتها ونصف نخلهم [٣] ، ثم عرج الرسول على وادي القرى فدعا أهلها إلى الإسلام فامتنعوا عن ذلك وقاتلوا ، ففتحها الرسول عنوة ، وخمس أموالهم وعامل اليهود على نحو ما عامل أهل خيبر [٤] أما يهود تيماء فقد بادروا بمصالحة النبي بعد أن بلغهم دخوله في وادى القرى [٥].

وهكذا كان لانتصار المسلمين في خيبر دلالة هامة ، إذ أصبحت لدولة الرسول في المدينة أملاك في خارجها تدر عليهم خيراً ، كما أصبح يخضع لها لأول مرة قوم على غير الإسلام عرفوا بأهل الذمة شملهم السلطان السياسي للدولة العربية الإسلامية [٦] .

٢ — موقف النبي من منافقي الأوس والخزرج :

عندما قدم رسول الله إلى المدينة مهاجراً ، كان يتزعم الخزرج سيد منهم هو عبد الله بن أبي بن سلول العوفي ، كان مطاعاً في قومه ، بينما كان يتزعم الأوس

(١) البلاذري ، ج ١ ص ٢٨

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٥ وما يليها — ابن حزم ص ٢١٣

(٣) نفس المصدر ، ص ٣٧

(٤) نفس المصدر ، ص ٣٩

(٥) نفس المصدر ، ص ٤٠

(٦) علي حسني الخربوطلي ، الدولة العربية الاسلامية ، القاهرة ١٩٦٠ ص ٣٧

أحد بني ضبيعة بن زيد وهو أبو عامر عبد عمر بن صيفي بن النعمان . أما ابن أبي ضغن على النبي إذ شاهد انصراف قومه إلى الإسلام ، وكان يعتبر النبي قد استلبه ملكاً . فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام ، اضطر إلى الدخول فيه مرغماً كارهاً على نفاق وضغن[1] . وأما ابن صيفي فقد أصر على كفره، وأبى أن يعيش في بلد تحول إلى الإسلام وأصبح معقلاً لهذا الدين ، وآثر الخروج مع بضعة عشر رجلاً إلى مكة ، ثم اضطر إلى الرحيل عنها عندما افتتحها النبي ، فرحل إلى الطائف، فلما أسلم أهل الطائف لحق بالشام حيث توفي طريداً غريباً وحيداً[2] . وكان عبدالله بن أبي من أشد المنافقين ضغناً للإسلام ، ويأتي ابن اسحق بمثل يوضح لنا إلى أي حد بلغ به الحقد على النبي وعلى الإسلام ، فذكر أن رسول الله ركب يوماً إلى سعد بن عبادة يعوده من مرض أصابه ، وأركب خلفه على حماره حبّه أسامة بن زيد بن حارثة ، فمر بعبد الله بن أبي وهو في ظل أطمة « مزاحم » ، وحوله نفر من قومه . فلما رآه رسول الله استحيا من أن يجاوزه حتى ينزل ، « فنزل وسلم ثم جلس قليلاً ، فتلا القرآن ، ودعا إلى الله عز وجل ، وذكر بالله وحذر وبشر وأنذر » ، كل ذلك وعبدالله بن أبي صامت زام لا يتكلم ، فلما انتهى رسول الله من حديثه علق ابن أبي قائلاً : « يا هذا إنه لا أحسن من حديثك هذا إن كان حقاً ، فاجلس في بيتك فمن جاءك له فحدثه إياه ، ومن لم يأتك فلا تغته[3] به ، ولا تأته في مجلسه بما يكره منه » ، فهب عبدالله بن رواحة وقال للنبي : « بلى ! فاغشنا به وائتنا في مجالسنا ودورنا وبيوتنا فهو والله مما نحب ومما أكرمنا الله به وهدانا له » . فقال عبدالله بن أبي حين رأى من خلاف قومه ما رأى :

متى ما يكن مولاك خصمك لا تزل	تذل ويصرعك الذين تصارع
وهل ينهض البازي بغير جناحه	وإن جذ يوماً ريشه فهو واقع

---

(١) ابن هشام ، ج ١ ص ٥٨٥

(٢) نفسه ص ٥٨٦

(٣) تغته اي تثقل عليه

فقام النبي غاضباً ودخل على سعد بن عبادة وأخبره بما قاله ابن أبي،فقال له سعد: « يا رسول الله ، ارفق به،فوالله لقد جاءنا الله بك وإنا لننظم له الخرز لنتوجه، فوالله إنه ليرى أن قد سلبته ملكاً » (١) .

وذكر ابن اسحق أن المنافقين كانوا يحضرون المسجد ، فيستمعون أحاديث المسلمين ويسخرون ويستهزئون بدينهم (٢) . والواقع أن وضع المنافقين كان غريباً ، فقد كانوا مسلمين ، ولكنهم دخلوا الإسلام عن غير إيمان وصدق ، ومع ذلك فقد كان النبي ﷺ يأخذهم بالرفق ويعتبرهم من أصحابه ، فعلى الرغم من أن عبدالله بن أبي سعى لإشعال الفتنة بين المهاجرين والأنصار عند منصرف النبي من غزوة بني المصطلق في العام السادس للهجرة ، فقال : « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز فيها الأذل » ، وعلى الرغم من أن ابنه عبدالله تبرأ منه ، وعرض على النبي أن يقوم هو أي عبدالله بقتل أبيه ، فإن النبي ﷺ أمره بعدم الإساءة إلى أبيه (٣) ، وقيل أن عمر بن الخطاب أشار على النبي يومئذ بقتل بن أبي ، فرد عليه النبي قائلاً : « فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » (٤) .

ومن أشهر المنافقين من الأوس والخزرج زوي بن الحارث من بني عمرو بن عوف ، وجلاس بن سويد بن الصامت من بني ضبيب بن عمرو بن عوف الأوسيين، وأخوه الحارث بن سويد وكان قد خرج مع المسلمين في يوم أحد ،فقتل المجذر بن زياد البلوي وقيس بن زيد ثم لحق بقريش (٥) . ومنهم نبتل بن الحارث من بني لوذان بن عمرو بن عوف ، وهو الذي قال له رسول الله : « من أحب أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نبتل بن الحارث » . وكان نبتل هـذا يأتي إلى النبي

---

(١) ابن هشام ، ص ٥٨٧ ، ٥٨٨

(٢) نفس المصدر ، ص ٥٢٨ — ابن كثير ، ج ٢ ص ٣٥٠

(٣) ابن حزم ، ص ٢٠٦

(٤) ابن هشام ، القسم الثاني ، ص ٢٩١

(٥) نفس المصدر ، ج ١ ص ٥٢٠ — ابن كثير ، ج ٢ ص ٢٤٥

ويتحدث إليه ، فيسمع منه ثم ينقل حديثه الى المنافقين [١] . ومنهم ثعلبة بن حاطب ، ومعتب بن قشير الذي قال يوم أحد : « لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا » ، وهو الذي قال يوم الأحزاب : « كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا لا يأمن أن يذهب إلى الغائط » [٢] . ومنهم مربع بن قيظي من بني حارثة بن الحارث بن الخزرج ، وهو الذي قال لرسول الله حين اجتاز من بستانه في طريقه لمقاتلة المشركين يوم أحد : « لا أحل لك يا محمد ، إن كنت نبياً ، أن تمر في حائطي » ، ثم أخذ في يده حفنة من تراب ، وقال : « والله لو أعلم أني لا أصيب بهذا التراب غيرك لرميتك به » ، فابتدره القوم ليقتلوه ، فمنعهم رسول الله قائلاً : « دعوه فهذا الأعمى أعمى القلب ، أعمى البصيرة » ، ولكن سعد بن زيد من صحابة الرسول ضربه بالقوس فشجه. ومنهم أوس بن قيظي أخوه ، وهو الذي خذل رسول الله في يوم الخندق ، وامتنع عن القتال بحجة أن بيوته عورة [٣] ، فأنزل الله فيه وفي غيره من المنافقين : « وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً . وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ، ويستئذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة ، إن يريدون إلا فراراً » [٤] . ومن أشهر المنافقين أيضاً حاطب بن أمية بن رافع ، وكان له ولد صادق الإسلام يقال له يزيد أصيب يوم أحد بجراح خطيرة ، فكان الناس يبشرون الغلام بالجنة ، فجعل حاطب يقول : « أجل جنة والله من حرمل ، غررتم والله هذا المسكين من نفسه » [٥] .

---

(١) ابن هشام ، ج ١ ص ٥٢١ — ابن كثير ، ج ٢ ص ٣٤٥

(٢) نفسه ، ص ٥٢٢ ، قسم ٢ ص ٦٥ — ابن كثير ، ج ٢ ص ٣٤٦

(٣) نفس المصدر ، ص ٥٢٤ — ابن كثير ، ج ٢ ص ٣٤٧

(٤) القرآن الكريم ، سورة الاحزاب ٣٣ آية ١٢ ، ١٣

(٥) الواقدي ، ج ١ ص ٢٦٣ — ابن هشام ، قسم ١ ص ٥٢٤ وقسم ٢ ص ٨٨ — ابن كثير ، ج ٢ ص ٣٤٧ ، والحرمل حب نبات كان العرب يجعلونه في القبور

ومع أن المنافقين اعتنقوا الإسلام نفاقاً ، وخذلوا النبي في كثير من المواقف الحرجة ، فلم يشتركوا في غزوة أحد وغزوة الأحزاب ، إلا أنهم لم يخونوا جيش المدينة كما فعل اليهود ، ولم يتصلوا بالعدو ويحرضوه على دخول المدينة ، بل إن جمهوراً منهم اشترك في القتال يوم أحد وغيرها من الغزوات لا ذباً عن الإسلام وإنما حمية عن قومهم ودفاعاً عن بلدهم ، كما حدث عندما اشترك بشير بن أبيرق المعروف بقزمان مع المسلمين في موقعة أحد ، فقاتل قتالاً شديداً ، وقتل ستة أو سبعة من المشركين ، ثم جرح جراحات بالغـــة ، فبشره نفر من المسلمين بالشهادة ، قـــال : « بم تبشرون ، والله ما قاتلنا إلا على الأحساب . قالوا : بشرناك بالجنة . قال : جنة من حرمل ، والله ما قاتلنـــا على جنة ولا على نار ، وإنما قاتلنا على أحسابنا »، ثم أخرج سهماً من كنانته فجعل يتوجأ به نفسه ، فلما أبطأ عليـــه المشقص أخذ سيفه فاتكأ عليه حتى خرج من ظهره [١] . وفي موضع آخر يذكر الواقدي أنه قـــال لقتادة بن النعمان : « إني والله ما قاتلت يا أبا عمرو على دين ، ما قاتلت إلا على الحفـــاظ أن تسير قريش إلينا حتى تطأ سعفنا » [٢] .

وكان النبي يستشير المسلمين جميعاً — وفي جملتهم المنافقين — في الأوقات التي تتعرض فيها المدينة لخطر خارجي ، كما حدث في غزوة أحد ، عندما رأى النبي في منامه رؤيا ، أراد بمقتضاها ألا يخرج لقتال كفار قريش ، وأن يتحصن بالمدينة حتى إذا ما قدموا قاتلهم على أفواه الأزقة . ومع ذلك فقد طلب مشورة المسلمين ، فأيده عبدالله بن أبي في البقاء في المدينة وقال : « يا رسول الله ، كنا نقاتل في الجاهلية فيها ، ونجعل النساء والذراري في الصياصي ، ونجعـــل معهم الحجارة ، والله لربما مكث الولدان شهراً ينقلون الحجارة إعداداً لعدونا ونشبك المدينة بالبنيان ، فتكون كالحصن من كل ناحية ، وترمي المرأة والصبي من فوق

---

(١) الواقدي ، ج ١ ص ٢٦٣ ، ٢٦٤ — ابن هشام ، قسم ٢ ص ٨٨

(٢) الواقدي ، ص ٢٦٤

الصياصي والآطام ، ونقاتل بأسيافنا في السكك . يا رسول الله ، إن مدينتنا عذراء ما فضت علينا قط ، وما خرجنا إلى عدو قط إلا أصاب منــا ، وما دخل علينا قط إلا أصبناه ، فدعهم يا رسول الله فإنهم إن أقاموا أقاموا بشر محبس ، وإن رجعوا رجعوا خائبين مغلوبين لم ينالوا خيراً . يا رسول الله أطعني في هذا الأمر واعلم أني ورثت هذا الرأي من أكابر قومي وأهل الرأي منهم ، فهم كانوا أهل الحرب والتجربة » [١] . وكان رأي عبدالله بن أبي صادقاً ، فقد صدق الرسول النصيحة ، وأيده الرسول وكبار صحابته ، وأراد أن يأخذ به لولا أن فتية أحداث لم يشهدوا بدراً رغبوا في الشهادة وأحبوا لقــاء العدو ، طلبوا من النبي أن يخرج بهم إلى العدو ، وانضم إليه فريق من صحابـة النبي ممن أنف أن يقال عنهم أن قريشاً حاصرت محمداً في صياصي يثرب وآطامها ، أو ممن كانوا يتوقون إلى الشهادة ، وعلى رأس هذا الفريق حمزة بن عبد المطلب، وسعد بن عبادة . وما زال مؤيدو الخروج لمقابلة قريش يلحون على النبي ، وهو كاره للخروج حتى استجاب في النهــاية لرغبتهم ، ولبس لأمته ودرعه واعتم وتقلد سيفه وخرج في ألف من أصحابه . أما ابن أبي فجعل من معه من المنافقين يثيرونه على النبي ويقولون له : « أشرت عليه بالرأي ونصحته وأخبرتهأ ن هذا رأي من مضى من آبائك ، وكان ذلك رأيه مع رأيك ، فأبى أن يقبله ، وأطاع هؤلاء الغلمان الذين معه » ، وما زالوا به حتى أقنعوه بعدم الاشتراك في المعركة وخذل النبي . فلما صار بالشوط بين المدينة وأحد ، انصرف ابن أبي بثلث الناس مغاضباً إذ خولف رأيه [٢] ، فأتبعهم عبدالله بن عمرو بن حرام ، وطلب منه العودة لمنعة الإسلام والذب عن النبي، فأبى عبدالله بن أبي أن يرجع ، وانصرف وهو يقول : « أيعصيني ويطيع الولدان ؟ [٣] . ولما أصيب أصحاب الرسول ،

---

(١) الواقدي ج ١ ص ٢٠٩ ، ٢١٠ ـ ابن هشام ، قسم ٢ ص ٦٣

(٢) ابن هشام ، قسم ٢ ص ٦٤ ـ ابن حزم ، ص ١٥٧

(٣) الواقدي ، ج ١ ص ٢١٦

سر ابن أبي ، وأظهر الشماتة ، وقال : « عصاني وأطاع من لا رأي له » [١] .

ولم تزل شوكة المنافقين قوية في المدينة بوجود اليهود ، ومناهضتهم للنبي ، ولم تضعف سطوتهم إلا بعد أن طهر رسول الله مدينته من اليهود الذين أشعلوا نار النفاق في المدينة بتشكيكهم في الإسلام ، وتضامنوا مع المنافقين من الأوس والخزرج .

ب – الصراع بين مكة والمدينة

(١) مرحلة السرايا الاستطلاعية :

بعد أن هاجر النبي ﷺ إلى يثرب ، وأسس فيها نواة الدولة العربية الإسلامية ، كان على يقين من أن قريش لن تتركه يتقوى ليتغلب عليها أو على الأقل ليتحرش بقوافلها التجارية إلى الشام ، ولهذا السبب اعتبر النبي قريش العدو الأول للمسلمين ، ونص في صحيفته على تحريم إجارة قريش ونصرتها وتحريم إجارة مال لقريش أو نفس . وتطبيقاً لذلك كان يبعث السرايا لتعترض عير قريش في طريقها إلى الشام أو عند عودتها إلى مكة ، دون أن تشتبك معها في قتال أو تستولي على قوافلها . وكان سبب تسيير النبي لهذه السرايا ، مجرد التظاهر بقوة المسلمين ومضايقة قريش وموادعة القبائل النازلة في طريق القوافل والتحالف معها ، وتلقف أخبار قريش [٢] . وقد بلغت مجموع غزوات النبي ٢٧ غزوة ، قاتل في تسع منها فقط بينما بلغ عدد السرايا ٤٧ سرية [٣] ، وقيل ٤٣ سرية [٤] .

وذكر الواقدي وموسى بن عقبة أن أول سرايا النبي سرية حمزة بن عبد المطلب في شهر رمضان بعد سبعة أشهر مضت من الهجرة النبوية ، عقد فيها النبي اللواء

---

(١) نفس المصدر

(٢) نفس المصدر ، ج ١ ص ٩ — ١٩ ، محمد جمال الدين سرور ، قيام الدولة العربية الاسلامية ص ٨٢

(٣) نفسه ص ٦

(٤) ابن كثير ، ج ٢ ص ٣٥٤

لأول مرة منذ هجرته الشريفة لحمزة [١] ولكن ابن اسحق يذكر أن أول سرايا رسول الله وبعوثه أثناء مقامه في المدينة سرية عبيدة بن الحارث بن المطلب في ستين أو ثمانين راكباً من المهاجرين ليس فيهم واحد من الأنصار وأن لواء عبيدة هو أول لواء عقده النبي ﷺ في الإسلام لأحد من المسلمين [١] . ويفسر ابن اسحق الاختلاف في أول قائد لسرايا المسلمين بأن بعث حمزة بن عبد المطلب وبعث عبيدة كانا معاً فشبّه ذلك على الناس [٢]. وسواءأ كانت أول سرايا النبي سرية حمزة أو سرية عبيدة ، فمن الملاحظ أنه لم يحدث في أي منها قتال ، وأن جميع من اشترك فيهما كانوا من المهاجرين [٤] .

أما حمزة فقد بعثه النبي ﷺ إلى سيف البحر في ثلاثين راكباً ليعترض عير قريش فلقي أبا جهل بن هشام بذلك الساحل في قافلة لقريش قادمة من الشام في ٣٠٠ راكب من أهل مكة ، فاصطف الفريقان للقتال ، ولكن مجدي بن عمرو الجهني حجز بينهما موادعاً ، فانصرف الفريقان كل إلى وجهته . وأما عبيدة بن الحارث فقد خرج في ستين راكباً ، فالتقى بأبي سفيان بن حرب على ماء يقال له أحياء من بطن رابغ ، وكان أبو سفيان يومئذ في مائتين من أهل مكة ، فلم يحدث قتال بينهما سوى أن سعد بن أبي وقاص رمى يومئذ بسهم ، فكان أول من رمى بسهم في الإسلام [٥] .

---

(١) الواقدي ، ص ٢ — ابن سعد ، ج ٢ ص ٦

(٢) ابن هشام، ج ١ ص ٥٩١ — ابن سعد ج٢ ص ٧ — ابن كثير، ج٢ ص ٢٥٦، ٢٥٨

(٣) نفس المصدر ، ص ٥٩٦ — ابن كثير ، ج ٢ ص ٢٥٩

(٤) ذكر الواقدي ان النبي صلى الله عليه وسلم بعث حمزة بن عبد المطلب في ثلاثين راكبا شطرين : ١٥ من المهاجرين ، و ١٥ من الانصار ، وذكر اسماء معظم من اشترك من الفريقين (الواقدي ، ج ١ ص ٩) ، ولكن الواقدي يذكر نقلا عن ابن المسيب وعبد الرحمن بن سعيد بن يربوع ان رسول الله لم يبعث احدا من الانصار مبعثا حتى غزا بنفسه الى بدر ، وعلل ذلك بأن النبي ظن انهم لا ينصرونه الا في الدار اي يثرب (الواقدي ، ج١ ص ١٠) ، وفي موضع اخر يعلل ذلك بأنهم شرطوا له ان يمنعوه في دارهم (ص ١١)

(٥) الواقدي ، ص ١٠ — ابن هشام ، ج ١ ص ٥٩١ — ابن سعد ، ج٢ ص ٧ — ابن ، ج٢ ص ٢٥٦

ثم كانت السرية الثالثة في بدء الشهر التاسع من الهجرة ، وهي سرية سعد بن أبي وقاص إلى الخرار[1] سيرها النبي لقطع الطريق على عير لقريش ، فخرج سعد في عشرين من المهاجرين على أقدامهم ، فكانوا يكمنون أثناء النهار ويسيرون في الليل ، ولكنهم وصلوا إلى الخرار بعد أن مرت عير قريش ، فقفلوا عائدين إلى المدينة [2].

ثم خرج النبي ﷺ بنفسه في صفر على رأس ١١ شهراً من الهجرة بعد أن استعمل على المدينة سعد بن عبادة، حتى بلغ الأبواء[3] بقصد اعتراض عير قريش، فلم يلق فيها كيداً ، وفي هذه الغزوة وادع بني ضمرة من كنانة على ألا يكثروا عليه ولا يعينوا عليه أحداً[4]، وتعتبر غزوة الأبواء أول غزاة غزاها النبي ﷺ بنفسه. ثم غزا بواط في ربيع الأول بعد مضي ١٢ شهراً من الهجرة في ٢٠٠ من المهاجرين بهدف قطع الطريق على عير قريش ، ثم رجع منها بدون حرب[5].

وغزا النبي ﷺ بعد ذلك غزوتين إحداهما غزوة بدر الأولى أو غزوة سفوان وكانت بعد غزوة بواط بأيام، في طلب كرز بن جابر الفهري الذي كان قد أغار على سرح المدينة ، ولكنه لم يدركه . أما الغزوة الثانية فغزوة ذي العشيرة من ناحية ينبع بين مكة والمدينة، وذلك في جمادي الآخرة من الشهر ١٦ من الهجرة، وكان يسعى من ورائها اعتراض عيرات قريش وهي في طريقها إلى الشام، فخرج يومئذ في ١٥٠ من أصحابه ، وقيل ٢٠٠ ، فأقام بالعشيرة جمادى الأولى كله وليالي من جمادى الآخرة، ووادع خلالها بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة، ثم عاد

---

(١) الخرار موضع قريب من خم ، وقيل آبار بالقرب من خم

(٢) الواقدي، ج١ ص ١١ — ابن سعد، ج٢ ص٧ — ابن حزم ، جوامع السيرة، ص ١٠٣

(٣) هي قرية بالقرب من المدينة .

(٤) الواقدي، ج١ ص ١١، ١٢ — ابن هشام، السيرة، ج١ ص٥٩١ — ابن سعد، ج٢ ص٨

(٥) الواقدي ص ١٢ — ابن هشام ، ص ٥٩٨ — ابن سعد ج ٢ ص ٨ — ابن كثير ، ج ٢ ص ٣٦١

إلى المدينة دون أن ينشب قتال بينه وبين القرشيين [١].

وأهم هذه السرايا على الإطلاق سرية عبد الله بن جحش المعروفة بسرية نخلة ، لأنها مهدت لغزوة بدر العظمى ، وفتحت للمسلمين باب الجهاد ، وهي على هذا النحو منطلق السياسة الاسلامية بعد تشريع الجهاد . وتفصيل الغزوة أن النبي ﷺ بعث عبد الله بن جحش بن رئاب الأسدي في ثمانية من المهاجرين إلى موضع يطلق عليه اسم بطن نخلة ويقع بين مكة والطائف ، وذلك في رجب على رأس سبعة عشر شهراً من الهجرة . ويبدو أن الغرض الرئيسي من هذه السرية قليلة العدد استطلاع تحركات العدو والوقوف على أخبار قريش . وحرص النبي على ألا يبوح بوجهة السرية لقائدها ، واكتفى بأن أعطاه صحيفة من أديم خولاني يمنى كتبت فيها التعليمات ، وأمره بألا يفتح كتابه إلا إذا سار ليلتين في الطريق المؤدية إلى النجدية ، وأذن له أن يقرأ ما جاء في الكتاب بعد ذلك على أن يمضي لما أمره به ولا يستكره من أصحابه أحداً [٢]. فانطلق ابن جحش مع رفاقه حتى إذا وصل إلى بئر ابن ضميرة نشر كتاب النبي فقرأ فيه ما يلي : « إذا نظرت في كتابي فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم » ، ثم إنه خير رجاله بين المضي معه أو العودة، فمضوا معه ولم يتخلف منهم أحد. فلما وصلت السرية إلى معدن يقال له بحران تخلف سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان في طلب بعير لهما ، ومضى عبدالله بن جحش في بقية أصحابه حتى نزل نخلة ، فمرت به عير لقريش تحمل زبيباً وأدماً وتجارة من تجارة قريش فيها عمرو بن الحضرمي وعثمان بن عبد الله بن المغيرة ، وأخوه نوفل ، والحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة . فلما رأوهم أصحاب العير هابوهم وأنكروا أمرهم ، فخرج إليهم عكاشة بين محصن من أصحاب عبدالله بن جحش وقد حلق

---

(١) الواقدي ، ج ١ ص ١٢ ـ ابن هشام ، ص ٦٠١ ـ ابن كثير ، ج ٢ ص ٣٦١ ، ٣٦٤،٣٦٢

(٢) الواقدي ص ١٢ ـ ابن هشام ، ص ٦٠١ ـ ابن حزم ، ص ١٠٤ ، ١٠٥ ـ ابن كثير ، ج٢ ص ٣٦٦

رأسه حتى يوهم التجار القرشيين بأنهم إنما جاؤوا عماراً أو معتمرين [١]، ونجح عكاشة في خطته، واطمأن تجار قريش، فقيدوا ركابهم وسرحوها. وعندئذ تشاور عبد الله بن جحش وأصحابه فيما يفعلونه بهم، وكانوا بين أمرين إما أن يقاتلوهم في آخر يوم من الشهر الحرام فينتهكوا بذلك الشهر الحرام وإما أن يتركوهم الليلة فيتيحوا لهم بذلك فرصة دخولهم الحرم والامتناع بـه منهم، ورجحت كفة أصحاب الرأي الأول، فشجعوا رفاقهم وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم. فرمى واقد بن عبدالله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، واستأسر عثمان بن عبدالله والحكم بن كيسان، أمـا نوفل بن عبدالله فنجح في الإفلات منهم، فاستاقوا العير والأسيرين وقفلوا إلى المدينة. فلما قدموا على رسول الله ﷺ أنكر عليهم ما فعلوه وقال لهم: « ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام »، ثم وقّف العير والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً؛ فأسقط في أيـدي ابن جحش ورفاقه وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوه.

وانتهزت قريش هذه الفرصة لإثارة الرأي العام العربي على المسلمين وإظهار المسلمين بمظهر المعتدين الذين استحلوا الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدماء، وأخذوا الأموال، وأسروا الرجال، فهاجت، واتهمت النبي بانتهاك حرمة الشهر الحرام مع أنه كان يعظمه. كل ذلك والمدينة تفور فور المرجل [٢] بسبب إنكار المسلمين لما صنعته سرية ابن جحش، وتدخل اليهود في القضية بغية إشعال نار الحرب، ويذكر ابن هشام أن يهود المدينة تفاءلوا بما حدث وقالوا: « عمرو بن الحضرمي قتله واقد بن عبدالله التميمي، عمرو عمرت الحرب والحضرمي حضرت الحرب، وواقد وقدت الحرب » [٣].

فلما كثر الجدل في المدينة حول القضية أنزل الله تعالى على نبيه: « يسألونك

---

(١) الواقدي ص١٤ — ابن هشام، ص ٦٠٢ — ابن سعد ج٢ ص١٠ — ابن كثير ص ٣٦٧
(٢) الواقدي، ج ١ ص ١٦
(٣) الواقدي، ص ١٦ — ابن هشام، ص ٦٠٤

عن الشهر الحرام قتالٌ فيه كبيرٌ ، وصدٌ عن سبيل الله وكفرٌ بـه ، والمسجد الحرام وإخراج أهلِهِ منه أكبرُ عند الله ، والفتنةُ أكبرُ من القتل، ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا »(١) ، أي أنه إن كنتم قتلتم في الشهر الحرام ، فقد صدوكم عن سبيل الله مع كفرهم به ، وعن المسجد الحرام في الحج والعمرة، وإخراجكم من المسجد الحرام وأنتم أهله أكبر عند الله من قتل من قتلتم منهم ، لأن الفتنة أشد من القتل وأكبر عند الله ، وهم بالإضافة إلى ذلك مقيمون على أخبث ذلك وأعظمه غير تائبين ولا نازعين(٢)

وحسمت الآية الفتنة ، وفرج الله بها على المسلمين ما كانوا فيه من الخوف ، ثم قبض رسول الله العير والأسيرين ، ولم يقبل من قريش فيهما فدية حتى اطمأن على وصول سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان سالمين ، وعندئذ قبل الفداء في الأسيرين ، وكان فداؤهما أربعين أوقية فضة لكل منهما(٣) .

وهكذا كانت سرية نخلة أول غزوة غنم فيها المسلمون، وبدأ المسلمون بعدها غزواتهم التي قاتلوا فيها أهل مكة . وذكر الزهري أن رسول الله حرم بعدها الشهر الحرام كما كان يحرمه حتى أنزل الله عز وجل «براءة» في سورة التوبة وذلك في موسم الحج من العـــام التاسع للهجرة ، وبمقتضاها أتيح للمشركين أن يمهلهم المسلمون للدخول في الإسلام أربعة أشهر يحاربونهم بعدها(٤).

٢ – مرحلة الغزوات :

رأينا كيف كانت سرية نخلة حداً فاصلاً بين المرحلة السلمية والمرحلة الحربية من العلاقات بين المدينـــة ومكة ، فقد أيقن النبي بعد أن رأى محاولة مكة استثارة قبائل العرب عليه عقب سرية نخلة بأن سياسة حقن الدمـــاء وسياسة

---

(١) القرآن الكريم ، سورة البقرة ٢ ، آية ٢١٧

(٢) ابن كثير ، ج٢ ص ٣٦٨

(٣) الواقدي ، ص ١٧ . وذكر الواقدي ان الاوقية اربعون درهما

(٤) القرآن الكريم ، سورة التوبة ٩ ، آية ١–٥

التوسل بالسلم للوصول إلى الغاية المنشودة وهي دخول قريش في الإسلام أصبحت غير مجدية ، كما أن قريش أيقنت هي الأخرى بالخطر الذي تمثله دولة الرسول على تجارتها ما بين الشام ومكة ، ولا ينبغي أن نغفل ما أحدثته سرية نخلة من ردود فعل قوية عند المكيين ، فعزموا على وضع حد لاعتراض المسلمين لقوافلهم ، ولا ننسى أيضاً أن اليهود تنبأوا بقيام الحرب ، وأسعدهم ذلك اعتقاداً منهم بأن النبي ﷺ والمسلمين من حوله ، لن يقووا على الصمود أمام مكة ، وعندئذ يصبح في إمكانهم استرداد مكانتهم القديمة في المدينة .

ولم ينس النبي موقفهم من المسلمين عقب سرية نخلة ، وتفاؤلهم باسم القتيل واسم القاتل ، فأذن الله تعالى له بصرف القبلة إلى الكعبة في شعبان على رأس ١٨ شهراً من الهجرة. ولا شك أن لتحويل القبلة إلى مكة مغزى هاماً ، وكأنما أراد النبي أن يشعر أهل مكة بأهمية الكعبة بالنسبة للإسلام وإصراره على أن يعود إليها منتصراً في يوم قريب باعتبارها قبلة الإسلام ، وفي نفس الوقت أراد أن يشعر اليهود في المدينة بنيته في أن يسود الإسلام بلاد العرب جميعاً، وذلك باتخاذ قبلة عربية يرتضيها عرب الجزيرة العربية كلها باعتبار أن مكة كانت العاصمة الدينية للوثنية العربية ، فلا مانع من أن تكون مكة قبلة العرب جميعاً في العصر الإسلامي. ثم ان اتخاذ قبلة المسلمين نحو بيت المقدس لن يرضي غير غرور اليهود ، وكان النبي حريصاً على أن يعبر عن سياسته المستقبلة وهي سياسة ترمي إلى تحويل الجزيرة العربية إلى دولة عربية إسلامية مركزها السياسي المدينه ، ومركزها الروحي مكة [١].

ثم عزم الرسول عزماً صادقاً على أن يقف من قريش موقفاً صارماً فلا يسمح

---

(١) وذكر ابن كثير نقلا عن ابن عباس ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي بمكة الى بيت المقدس والكعبة بين يديه ، فلما هاجر الى المدينة لم يتمكن من الجمع بينهما ، فصلى الى بيت المقدس اول مقدمه الى المدينة في الوقت الذي كان يجب ان يصرف قبلته الى الكعبة قبلة ابراهيم ، فكان يرفع يديه الى السماء ويسأل الله عز وجل ان يسمح له بصرفها الى المسجد الحرام . (ابن كثير ، ج ٢ ص ٣٧٤)

لها بتمرير تجارتها عبر أراضي المدينة ، وإذا كان النبي قد وصل يوم ذي العشيرة متأخراً فلم يدرك عير قريش وهي في طريقها إلى الشام ، فقد حرص هذه المرة على أن يترصد لها عند عودتها محملة بالتجارة الشامية ، فلما تحين انصراف العير من الشام وفيها أموال كثيرة إلى مكة ، ندب أصحابه لاعتراض العير ، وبعث عينين من عيون المسلمين هما طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد يتحسسان خبر العير ، وذلك قبل أن يخرج من المدينة بعشر ليال. ثم خرج في ٨ من رمضان سنة ٢ للهجرة في ٣١٩ رجلا[١]، منهم ٨٦ رجلاً من المهاجرين، وقيل ٨٣ رجلا، ومن الأوس ٦١ رجلا، ومن الخزرج الباقون وهم ١٧٠ رجلا[٢]. وتخلف من المسلمين عدد كبير لم يلمهم النبي لأن المسلمين لم يخرجوا على قتال وإنما خرجوا لاعتراض العير[٣]. ونلاحظ أن الأنصار اشتركوا في هذه الغزوة لأول مرة، ويرجع السبب في عدم اشتراكهم في السرايا السابقة إلى أنهم اشترطوا على أنفسهم يوم بيعة العقبة الكبرى أن يحموا النبي ما دام في المدينة ، ولم يشترطوا على أنفسهم أن يقاتلوا معه خارج حدود مدينتهم[٤]، ثم ان موقفهم كان يختلف اختلافاً كبيراً عن موقف المهاجرين، فإن المهاجرين يحق لهم القتال لأنهم أخرجوا من ديارهم رغماً عنهم عندما اشتد اضطهاد أهل مكة لهم ، فهم في حالة حرب بينهم وبين أهل مكة ، أما الأنصار فقد التزموا وتعهدوا بنصرة النبي ﷺ إذا دهمه بالمدينة خطر من عدوه ، فهم اشترطوا عليه عندما بايعوه بالعقبة قائلين : « يا رسول الله : إنا براء من ذمامك ، حتى تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا ، فأنت في ذمتنا ، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا »[٥] .

---

(١) ابن حزم ، جوامع السيرة ، ص ١٤٥ . وذكر ابن سعد انه خرج في ٣٠٥ رجلا ، منهم ٧٤ من المهاجرين وسائرهم من الانصار (ابن سعد ، ج ٢ ص ١٢)

(٢) ابن هشام ، ص ٦٩١ ، ٧٠٦ — ابن حزم ، ص ١٢٢ ، ١٣٠ ، ١٤٥

(٣) الواقدي ، ص ٢١ — ابن هشام ، ص ٦٠٧

(٤) الواقدي ، ج ١ ص ١١،١٠ — احمد الشريف ، الدولة الاسلامية الاولى ، ص ١٠٩

(٥) ابن هشام ، ص ٦١٥ — ابن كثير ، ج٢ ص ٢٦٢

غير أن الوضع اختلف بالنسبة لغزوة بدر ، فقد ذكروا أن سعد بن معاذ كان قد خرج معتمراً قبل بدر ، فنزل على أمية بن خلف ، فأتاه أبو جهل ، وعنفه على إنزاله له عنده ، فهدده سعد بن معاذ باعتراض عيرهم عندما تمر بأراضي المدينة [١] . ولم يتردد سعد بن معاذ في الخروج مع النبي ﷺ إلى بدر عندما أراد النبي أن يستوثق من الأنصار ، وأعلن عن ذلك بقوله : « فقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت ، فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق ، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لصُبُرٌ في الحرب ، صُدُقٌ في اللقاء . لعل الله يريك منا ما تقرّ به عينك ، فسر بنا على بركة الله » [٢] .

أخذ أبو سفيان بن حرب حين دنا من الحجاز يتحسس الأخبار ويسأل من لقى من الركبان عن تحركات المسلمين ، فأبلغ أن محمداً قد استنفر المسلمين للعير ، فحذر عند ذلك وسيّر رجلا يقال له ضمضم بن عمرو الغفاري إلى مكة يستنفر قريش إلى أموالها ويخبرهم أن محمداً قد تعرض لها في أصحابه [٣] ، ومضى أبو سفيان إلى مكة من طريق غير الطريق المألوفة ، فأخذ بجهة الساحل ، وترك بدراً على يساره [٤] ، أما قريش فقد أجمعوا على المسير ، وتجهزوا سراعاً ، ولم يتخلف من أشرافهم أحد سوى أبو لهب الذي بعث مكانه العاصي بن هشام بن المغيرة ، وأقبلت قريش بعدّها وعديدها بين التسعمائة والألف ، فنزلت بالعدوة القصوى من الوادي . وكان أبو سفيان قد وصل بعيره إلى مكة ، فأرسل إلى قريش ينهاهم عن المضي إلى بدر لمحاربة المسلمين ، فإذا كان خروجهم بقصد منعة العير والرجال

---

(١) الواقدي ، ص ٣٥

(٢) الواقدي ، ص ٤٦ — ابن هشام ، ص ٦١٥

(٣) ابن هشام ، ص ٦٠٧ — ابن كثير ، ص ٢٨١

(٤) الواقدي ، ص ٤١ — ابن هشام ، ص ٦١٨

والأموال، فإن هذه العير والرجال والأموال قد وصلت سالمة ، ولم يعد هناك مبرر للحرب . ولكن أبا جهل أبى أن يعود قبل أن يرد بدراً حتى تسمع بهم العرب فيهابونهم ، وعبّر عن ذلك بقوله : « والله لا نرجع حتى نرد بدراً — وكان بدر موسماً من مواسم العرب يجتمع لهم به سوق كل عام — فنقيم عليه ثلاثاً فننحر الجزر ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب ، وبمسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها، فامضوا»[١]. ولم يستجب له من قريش إلا بنو زهرة وبنو عدي بن كعب .

أما المسلمون فقد خرجوا وفي مقدمتهم النبي ﷺ في طلب عير أبي سفيان دون أن يكون في نيتهم القتال ، فلما وافى النبي وادي ذفران أتاه الخبر بمسير قريش ليمنعوا عيرهم ، فاستشار القوم فأيدوه جميعاً ووافقوه على القتال ، فارتحل النبي من ذفران ونزل قريباً من بدر . وبعث علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص في نفر من أصحابه إلى ماء بدر يلتمسون الخبر له عن قريش، فأصابوا غلامين لقريش فأتوا بهما ، فسألهما النبي عن منزل قريش ، فأجاباه بأنهم نزلوا وراء الكثيب المعروف بالعقنقل بالعدوة القصوى ، ثم سألهما عن أعداد قريش ، فما استطاعا أن يحددا العدد ، وعندئذ سألهما عن مقدار ما ينحرون من الإبل يومياً ، فأجابا بأن الذبائح تتراوح بين تسع وعشر ، فأدرك النبي ﷺ أن المعدود يتراوح بين ٩٠٠ وألف . ولما أخبراه بأنه خرج من قريش أشرافها مثل عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وحكيم بن حزام ، ونوفل بن خويلد ، والحارث بن عامر بن نوفل ، وطعيمة بن عدي بن نوفل ، والنضر بن الحارث، وزمعة بن الأسود ، وأبو جهل بن هشام ، وأمية بن خلف ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج ، علق النبي قائلا لأصحابه : « هذه مكة قد ألقت عليكم أفلاذ كبدها »[٢] .

---

(١) الواقدي ، ص ٤٤ — ابن هشام ، ص ٦١٨ ، ٦١٩

(٢) ابن هشام ، ص ٦١٧

كان موقف المسلمين حرجاً ، فهم قد خرجوا في قلة عدد ليواجهوا حامية أقل منهم عدداً ، على غير استعداد مسبق للقتال ، ففوجئوا بخروج قريش لهم ، بل مكة كلها بأشرافها وأفلاذ كبدها ، ولم يكن هناك مناص من القتال ، إذ لا يمكن للنبي وأصحابه أن يعودوا إلى المدينة ناكصين ، لسبب واحد هو أنهم سيضعون أنفسهم في تلك الحالة موضع الضعيف المهزوم أمام أهل يثرب ، فيطمعون فيهم يهودها ومنافقيها ، كما أنهم يطمعون فيهم قريشاً ، وقد يؤدي ذلك إلى الإطاحة بهيبة الدولة الاسلامية والقضاء على حرمتها ، ويجعلها هدفاً أكيداً للاعتداء الوشيك سواء من الداخل من جانب اليهود والمنافقين والمتخاذلين أو من الخارج من جانب قريش وأحلافها . ومع ذلك كله فقد وقف المسلمون جميعاً المهاجرون منهم والأنصار صفاً واحداً ، وأجمعوا على خوض المعركة مهما كانت نتيجة ذلك ، فاطمأنت نفس رسول الله لهذه الروح العالية وتفاءل خيراً . ثم استجاب لمشورة الحباب بن المنذر بن الجموح الذى كانت له معرفة واسعة بالموضع ، في أن ينزل المسلمون من بدر منزلاً أقرب الى مياهها ويبنوا حوضاً على البئر الذي نزلوا عليه ويملأوه بالمياه ، وبذلك يضمنون لأنفسهم السيطرة على مياه بدر والتحكم فيها وحرمان قريش منها . واقترح عليه سعد بن معاذ بناء عريش له تعد فيه ركائبه حتى يستطيع في حالة إذا ما جانبهم التوفيق أن يمضي سريعاً إلى المدينة حيث ينتظره قوم لا يقلون عنهم حباً له ، فوافقهم النبي على ذلك ، وأقيم للنبي عريش أعدت عنده الركائب [1] .

ثم ارتحلت قريش حين أصبحت ، فأقبلت بخيلائها وفخرها ، واستعدوا للقتال ، وأرسلوا رجلاً منهم ليتسقط الأخبار ويحزر عدد المسلمين ، فرجع إليهم وأبلغهم أنهم ثلاث مائة رجل يزيدون قليلاً أو ينقصون ، وأضاف قائلاً : « ولكني قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا ، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع ، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم ، والله ما أرى أن يقتل

---

(١) ابن هشام ، ص ٦٢١

رجل منهم حتى يقتل رجلاً منكم » . ثم حذر أصحابه من عاقبة الحرب ، وأثرت كلماته في نفوس الكثيرين الذين جزعوا من مقاتلة المسلمين حتى لا يقتل هؤلاء أكثرهم ، فتقدم رجل يقال له حكيم بن حزام إلى عتبة بن ربيعة كبير قريش ، ودعاه إلى الرجوع بالناس ونبذ الحرب ، فوقف عتبة بين الناس خطيباً ، وقال: « يا معشر قريش ، إنكم والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه ، قتل ابن عمه أو ابن خاله ، أو رجلا من عشيرته ، فارجعوا وخلّوا بين محمد وبين سائر العرب ، فإن أصابوه فذاك الذي أردتم ، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرّضوا منه ما تريدون » [1] .

ولما علم أبو جهل بمقالة عتبة امتلأ غضباً وأقسم ألا ترجع قريش حتى يحكم الله بينها وبين محمد ، ثم عمـــد الى المناداة بطلب الثأر حتى تلبي قريش النداء فتصبح الحرب أمراً محتوماً ولا يملك الراغبون في العودة الى مكة إلا القتال ، فبعث إلى عامر بن الحضرمي شقيق قتيل قريش في سرية نخلة ، وحرضه على طلب الثأر ، واستحثه على المناداة بنصرة قبيلته ، فقال له : « هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس ، وقد رأيت ثأرك بعينك ، فقم فانشد خفرتك[2] ومقتل أخيك »[3]. فقـام عامر بن الحضرمي ، فاكتشف ، ثم صرخ : « واعمراه ! واعمراه ! » . وعلى أثر ذلك اشتعل حماس قريش ونادت بالحرب ، وأفسد بذلك على الناس الرأي الذي دعاهم إليه عتبة .

ثم صف رسول الله أصحابه قبل أن تنزل قريش ، ودفع رايته الى مصعب ابن عمير ، ثم وقف رسول الله مستقبلاً المغرب ، وجعل الشمس خلفه ، أمـــا قريش فاستقبلوا الشمس ، فنزل رسول الله بالعدوة الشمالية ، بينما نزل المشركون بالعدوة القبلية ، ثم دعا رسول الله ﷺ ربه ، فنزل عليه جبريل بهذه الآية :

---

(١) الواقدي ، ج١ ص ٦٢ ، ٦٣ — ابن هشام ، ص ٦٢٣ — ابن كثير ، ج٢ ص ٤٠٧

(٢) اي طالب قريش الوفاء بعهدها لك باعتبارك حليفا لهم

(٣) ابن هشام ، ص ٦٢٣ — ابن كثير ، ج ٢ ص ٤٠٨

« إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين »[١].

وكان مع المسلمين ثلاثة ألوية ، أحدها لواء المهاجرين يحمله مصعب بن عمير ، ولواء الخزرج مع الحباب بن المنذر ، ولواء الأوس مع سعد بن معاذ ، وكان مع قريش أيضاً ثلاثة ألوية . ثم خطب النبي في أصحابه ليرغبهم في الأجر ويحثهم على القتال ، فقال : « أما بعد ، فإني أحثكم على ما حثكم الله عليه ، وأنهاكم عما نهاكم الله عنه فإن الله عظيمٌ شأنه ، يأمر بالحق ، ويحب الصدق ، ويعطي على الخير أهله « على منازلهم عنده ، به يذكرون وبه يتفاضلون ، وإنكم قد أصبحتم بمنزل من منازل الحق ، لا يقبل الله فيه من أحد إلا ما ابتغى به وجهه . وإن الصبر في مواطن البأس مما يفرج الله به الهم ، وينجي به من الغم ، وتدركون به النجاة في الآخرة . فيكم نبي الله يحذركم ويأمركم ، فاستحيوا اليوم أن يطلع الله عز وجل على شيء من أمركم يمقتكم عليه ، فإن الله يقول : (لمقتُ الله أكبرُ من مقتكم أنفسكم)[٢] . انظروا إلى الذي أمركم به كتابه ، وأراكم من آياته ، وأعزكم بعد ذلة ، فاستمسكوا به يرض ربكم عنكم . وأبلوا ربكم في هذه المواطن أمراً ، تستوجبوا الذي وعدكم به من رحمته ومغفرته ، فإن وعده حق ، وقوله صدق ، وعقابه شديد . وإنما أنا وأنتم بالله الحي القيوم ، إليه ألجأنا ظهورنا ، وبه اعتصمنا ، وعليه توكلنا ، وإليه المصير ، يغفر الله لي وللمسلمين »[٣] .

وبدأت الموقعة في ١٧ من رمضان بمناوشات صغيرة ، إذ اندفع الأسود بن عبدالأسد المخزومي من بين صفوف أهل مكة ، وكان شرساً سيىء الخلق ، فقال : « أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموتن دونه » . فخرج إليه حمزة بن عبدالمطلب ، وتبارز معه فضربه حمزة بسيفه على رجله فقطع قدمه ،

---

(١) القرآن الكريم ، سورة الانفال ٨ آية ٩

(٢) القرآن الكريم ، سورة غافر ٤٠ آية ١٠

(٣) الواقدي ، ص ٥٦

وحاول الأسود بعد أن وقع على الأرض أن يحبو الى حوض المسلمين، برآ بقسمه، فعاجله حمزة وأجهز عليه [١].

ثم نزل من قريش ثلاثة من أشرافها، هم : عتبة بن ربيعة الذي رماه أبو جهل بالجبن ، بين أخيه شيبة وابنه الوليد ودعا، الى المبارزة، فخرج إليهم ثلاث فتية من الأنصار ، فاعترض عتبة على مقابلتهم ، ودعا النبي أن يرسل إليه أكفاء من المهاجرين ، فنزل عبيدة بن الحارث وحمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب، وبدأت المبارزة ، وانتهت بقتل شيبة والوليد ، أما عتبة فقد أصيب بجرح، ولم يستطع عبيدة أن يجهز عليه لإصابته هو الآخر بجرح ، فكرّ حمزة وعلى على عتبة فقتلاه ، وحملا عبيدة الجريح الى معسكر المسلمين [٢] .

ولما رأت قريش ما انتهى إليه أمر عتبة بن ربيعة وشيبة والوليد عمدت إلى المبادرة بالهجوم ، فزحفت جموعهم ودنت من المسلمين ، فأمر رسول الله فأخذ من الحصباء كفاً رماهم بهـــا ، وقال : « شاهت الوجوه ، اللهم ارعب قلوبهم وزلزل أقدامهم » [٣] ، فانهزم المشركون هزيمة نكراء ، وعمدوا الى الفرار لا يلوون على شيء، والمسلمون يقتلون ويأسرون، ورسول الله في العريش، وسعد بن معاذ قائم على بابه متوشح السيف في نفر من الأنصار يحرسون رسول الله .

انهزمت قريش هزيمة ساحقة، وقتل من أشرافها وساداتها سبعون رجلاً [٤]، من أشهرهم عتبة بن ربيعة، وحنظلة بن أبي سفيان، وأبو جهل بن هشام، وأبو البختري العاصي بن هشام، ونوفل بن خويلد، والنضر بن الحارث بن كلده ، وعمير بن عثمان، وزمعة بن الأسود ، وطعيمة بن عدي، وأمية بن خلف بن وهب . وأسر من المشركين سبعون رجلا اختلف المسلمون في قتلهم أو تقبل فدائهم ، فأعرض

---

(١) الواقدي ، ص ٦٨ — ابن هشام ص ٦٢٥

(٢) نفس المصدر ، ج١ ص ٧٠ — ابن هشام ، ص ٦٢٥

(٣) نفس المصدر ، ص ٨١ — ابن هشام ، ص ٦٢٨

(٤) ابن حزم ، ص ١٤٧ . وذكر الاخباريون انه لم يقتل من المسلمين في هذه الغزوة سوى ١٤ ، منهم ستة من المهاجرين وثمانية من الانصار

النبي عن قتلهم ، وعفا عنهم ، وقبل منهم الفداء باستثناء رجلين منهم أمر النبي بقتلهما عنـــد منصرفه من الغزوة هما : النضر بن الحارث وعقبه بن أبي معيط بسبب اضطهادهما للمسلمين في مكة ، ومبالغتهما في تعذيبهم ، وإلحاق الأذى بهم [١] .

وعاد النبي ﷺ إلى المدينة ومعه الأسرى الباقون والأنفال ، وقبل أن يصل إلى المدينة قسم الأنفال على السواء بين المسلمين عند كثيب سير بالصفراء [٢] ، ثم سير إلى المدينة رجلين للبشارة بالفتح ، أحدهما زيد بن حارثة إلى أهل السافلة ، والثاني عبد الله بن رواحة الأنصاري بشيراً إلى أهل العاليـــة ، فجعل عبدالله ينادي على راحلته بالبشرى ، وأخذ يمر على دور الأنصار بالعاليـــة داراً داراً والصبيان ينادون معه : « قتل أبو جهل الفاسق ! » . أما زيد بن حارثة ، فقد قدم على ناقة النبي ﷺ القصواء يبشر أهل السافلة ، فلما نزل المصلى صاح على راحلته مبشراً الناس : « قتل عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وابنا الحجاج ، وأبو جهل وأبو البختري ، وزمعة بن الأسود ، وأمية بن خلف ، وأسر سهيل بن عمرو ذو الأنياب في أسرى كثيرة » ، فجعل الناس لا يصدقون الخبر . وأخذ المنافقون واليهود يشيعون أن محمداً هزم وأنه قتل هو وأصحابه ، وأن زيداً إنما جاء على ناقته فلاً [٣] .

وأقبل رسول الله ، فقدم إليه الناس يهنئونه بفتح الله ، فقال سلمة بن سلامة ابن وقش : « ما الذي تهنئوننا به؟ فوالله ما قتلنا إلا عجائز صلعاً » يريد بذلك تحقير مشركي قريش . فتبسم النبي ﷺ وقال : « يا ابن أخي ، أولئك الملأ ، لو رأيتهم لهبتهم ، ولو أمروك لأطعتهم ، ولو رأيت فعـــالك مع فعالهم لاحتقرتها » [٤] .

---

(١) ابن هشام ، ص ٦٤٤

(٢) الواقدي ، ص ١١٤

(٣) نفس المصدر ، ص ١١٥

(٤) الواقدي ، ص ١١٦

وكان من نتائج موقعة بدر أنها عززت مكانة النبي في المدينة وأعلت كلمة الإسلام فدخل في الإسلام بعدها كثير من المشركين من بينهم أبو العاص بن ربيع وعمير بن وهب ، وكان عمير هذا على حد قول ابن اسحق شيطاناً من شياطين قريش ، وكان ممن يؤذي رسول الله وأصحابه ويلقون منه عناء وهو بمكة [١] . ولما أسلم عمير بن وهب عاد إلى مكة وأخذ يدعو بدوره إلى الإسلام، فأسلم على يديه إناس كثيرون . ومن نتائجها أيضاً أنها أضعفت شوكة اليهود والمنافقين حتى لم يبق يهودي ولا منافق في المدينة إلا وقد قل كبرياؤه [٢] .

وبالاضافة إلى ذلك فقد كسب المسلمون من انتصارهم في بدر تجربة جديدة ، فبفضلها وضعت قواعد ثابتة لتوزيع الغنائم والأنفال وتنظيم الفداء عن الأسرى فقد جعل رسول الله فداء الرجل ما بين الألف درهم وأربعة آلاف درهم إلا من لا شيء عنده فمنّ عليه رسول الله [٣] .

أما قريش فقد عز عليهم أن يهزموا ويقتل سادتهم ويؤسر أشرافهم، وأخذوا يعدون العدة لمحو عار هزيمتهم على أيدي المسلمين في بدر ، فاتفقوا على أن يتنازلوا عن أرباح قافلة أبي سفيان التي آبت من الشام قبل غزوة بدر ، والإنفاق من أرباحها على المعركة المقبلة ، واستغلت قريش ما كانت تشعر به القبائل المجاورة للمدينة من ضيق بسبب ما تعرضت له تجارتها من بوار في كل سرية إسلامية تعترض عير مكة ، فأخذت تتصل بهذه القبائل لتستنفرها على المسلمين ، وتمكنت في خلال عام كامل من إعداد جيش كثيف يتكون من ثلاثة آلاف كلهم من سادة مكة ومواليها وأحابيشها من بني كنانة وغيرهم ، وانضاف إليهم نحو مائة من ثقيف ، ثم خرجت قريش برجالها

---

(١) ابن هشام ، ص ٦٦١

(٣) المقريزي ، امتاع الاسماع ، ص٩٩ – محمد جمال الدين سرور ، ص ٨٦

(٢) ابن هشام ، ص ٦٦٠ – المقريزي ، المصدر السابق ، ج١ ص ٩٩

ونساؤها [1] معهن الدفوف يحرضن الرجال على القتال، في شوال سنة ثلاث للهجرة، فنزلوا بقرب أحد على شفير الوادي تجاه المدينة . أما النبي ﷺ فخرج في ألف من أصحابه ، ونزل الشعب من أحد في عدوة الوادي وجعل ظهره إلى جبل أحد. ولما نشب القتال ، أبلى المسلمون بلاء حسناً وقاتلوا قتالاً شديداً ، حتى انهزمت قريش ، فأيقن الرماة بانتصار المسلمين ، ونهضوا يطلبون الغنائم تاركين الرمي على الأعداء ، فخالفوا بذلك ما أمرهم به الرسول، ثم كر المشركون حتى وصلوا إلى قرب موضع الرسول ، فقاتل مصعب بن عمير دونه حتى قتـل ، وجرح رسول الله ﷺ في وجهه الكريم، وكسرت إحدى أسنانه الأربعة العليا والسفلى مما يلي الثنايا بحجر ، فتولى علي بن أبي طالب حمل الراية بعد استشهاد مصعب ، وانهالت الأحجار على رسول الله حتى سقط في حفرة كان قد حفرها أبو عامر الأوسي مكيدة للمسلمين ، ثم نهض من كبوته ولحق به المشركون ، فدافع عنه نفر من المسلمين عددهم سبعة قتلوا جميعاً ، ثم قاتـل طلحة ، وقاتلت أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية دفاعاً عن النبي وجرحت جراحات كثيرة ، وترّس أبو دجانة عن رسول الله بظهره والنبال تتساقط عليه وهو لا يتحرك . وجعل رسول الله يذمر الناس ويحثهم على القتال ، وباشر بنفسه القتال ، فرمى بالنبل حتى نفذت نباله .

وأسفرت المعركة عن هزيمة المسلمين ، وقتل منهم فيها ٧٤ ، من بينهم سبعون من الأنصار، وقتل أربعة من قريش منهم حمزة بن عبد المطلب وعبدالله ابن جحش [2] .

---

(١) خرج ابو سفيان بن حرب بامراتين ، هند بنت عتبة واميمة بنت سعد بن اشيم ، وخرج صفوان بن امين بامراتين هما برزة بنت مسعود الثقفي والبغوم بنت المعذل ، وخرج طلحة بن ابي طلحة بامراة سلافة بنت سعد بن شهيد ، وعكرمة بن ابي جهل بامراته ام جهيم ، والحارث بامراته فاطمة بنت الوليد ، وعمرو بن العاص بامراته هند بنت منبـــه (راجع الواقدي ، ج١ ص ٢٠٣)

(٢) الواقدي ، ص ٣٠٠

وأسرفت قريش في إظهار حقدها على المسلمين ، فمثلت بقتلاهم، جدعت الأنوف وقطعت الآذان . وبلغ الحقد بهند بنت عتبة على حمزة بن عبد المطلب درجـــة لا مثيل لها من الغلو الجنوني ، فعهدت بقتله إلى وحشي عبد ابنة الحارث بن عامر ابن نوفل ، بعد أن وعدته بمكافأة مجزية، فلما قتله وحشي شق بطنه وأخرج كبده وجاء به إلى هند ، فمضغته ثم لفظته،ومضت إلى جثته فقطعت أذنيه وجدعت أنفه [١] .

★ ★ ★

عاد الرسول إلى المدينة،وطرد منها بني النضير من اليهود الذين حاولوا الغدر به . ثم سعت قريش إلى تكوين حلف كبير يضم العناصر المعارضة للرسول مثل فزارة وأشجع ومرة وغطفان[٢] وبني قريظة ، وزحفت إلى المدينة في العـــام الخامس للهجرة [٣] ، فأقـــام الرسول خندقاً حصن به الجانب الشمالي من المدينة وهو أكثر جوانبها ضعفاً من الناحية الاستراتيجية . ولكن قريش وحلفائهـــا لم يستطيعوا دخول المدينة ، فعـــسكروا خارج الخندق ، وكانت قريش وأحزابها قد نزلت بمجتمع السيول من بئر رومة في عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تبعهم من أهل كنانة وغيرهم ، أما غطفان فنزلت بذنب نقمي إلى جانب أحد ومعهم من تبعهم من أهل نجد [٤] . أما النبي ﷺ فقد خرج في تسعمائـــة فقط ، وأمر بالذراري والنساء فوضعوا في الآطام .

أحاطت قريش وأحباشها ومن تبعها بالمسلمين من كل ناحية ، وفي نفس الوقت

---

(١) انواقدي ، ص ٢٨٦

(٢) اشتركت غطفان في غزوة الاحزاب طمعا في ان يمنحهم اليهود غلة سنة في خيبـر (المقريزي ، امتاع الاسماع ج ١ ص ٢١٦ ـ محمد جمال الدين سرور ، ص ٩١)

(٣) يؤكد ابن حزم ان الغزوة حدثت في العام الرابع (ص ١٨٥)

(٤) ابن حزم ، ص ١٨٧

نقض كعب بن أسد رئيس بني قريظة اليهود عهده مع رسول الله ، وأصبح المسلمون بين عدوين داخلي وخارجي . وعلى الرغم من أن قريش اكتفت بالحصار ولم يحدث خلاله قتال ، فإن بعض فوارس منهم من بينهم عمرو بن عبد ود ، وعكرمة بن أبي جهل وهبيرة بن أبي وهب وضرار بن الخطاب ، خرجوا على خيلهم وتيمموا مكاناً ضيقاً من الخندق فاقتحموه وجاوزوه ، وجالت بهم خيلهم في السبخة بين الخندق وسلع [١] ودعوا إلى البراز ، فبارز علي بن أبي طالب عمراً فقتله ، فخاف الباقون ، وخرجوا من حيث دخلوا .

ولما اشتدت الحال بسبب طول أمد الحصار ، وبسبب الخوف من بني قريظة ، رأى النبي أن يصطنع الحيلة في تمزيق الحلف بين قريش وأحابيشها وغطفان واليهود ، وكان قد قدم إليه نعيم بن مسعود بن عـامر من غطفان ، وكان من دهاة العرب ، وأعلن إسلامه سراً دون علم قومه ، فطلب منه النبي أن يخذل عن المسلمين إن أمكنه ذلك وقال له : « إنما أنت فينا رجل واحد ، فخذّل عنا إن استطعت ، فإن الحرب خدعة » [٢] . فمضى نعيم إلى بني قريظة وكان ينادمهم في الجاهلية ، فنصحهم بألا يقاتلوا مع قريش وغطفان حتى يأخذوا منهم رهناً ، لأن المدينة ليست بلدهم وأن بإمكانهم الرجوع إلى بلدهم متى شاءوا ، ويتركونهم بعد ذلك تحت رحمة المسلمين ، فأعجبهم رأيه وأخذوا به . ثم نهض نعيم إلى قريش وقـال لأبي سفيان : « قد عرفتم صداقتي لكم ، وبلغني أمر لزمني أن أعرفكموه ، فاكتموا عني . قالوا : وما هو ؟ قال : اعلموا أن اليهود قد ندموا على ما فسخوا من عهد محمد ، وقد أرسلوا إليه أن يأخذوا منكم رهناً يدفعونـه إلى محمد ، ويرجعون معه عليكم . » فاقتنع أبو سفيان وأيقن بصدقه وشكره على تطوعـــه بإبلاغهم هذا السر . ثم مضى إلى غطفان فقال لهم ما قاله لقريش . ثم أرسل أبو سفيان وغطفان إلى بني قريظة في ليلة السبت من شوال يطلب منهم ان يخرجوا في الغد .

---

(١) هو جبل يقع الى الشمال الغربي من المدينة وسلع لفظة عبرية بمعنى الصخر

(٢) ابن هشام ، قسم ٢ ص ٢٢٩ ، ٣٠ — ابن حزم ، ص ١٩٠

للقتال ، فأرســــل إليهم اليهود رسولاً يطلب منهم إرجاء القتـال يوم السبت ويشترطوا عليهم ان يقدموا إليهم رهنـاً ، فردوا إليهم الرسول، وامتنعوا عن إعطائهم الرهن ، وعندئذ تبين لبني قريظة صدق ما قاله لهم نعيم كما تبين لقريش وغطفان صدق ما قاله لهم نعيم أيضاً ، فأبوا القتال [١] .

وفي تلك الليلة تعرض الأحزاب لعاصفة عاتيــة كفأت قدورهم وآنيتهم وأرغمتهم على التفرق والعودة من حيث أتوا .

وهكذا أثبت يوم الأحزاب أن المدينـة حصن لا يرام ، وأن المشركين مهما اتفقوا على قهرها فإنهم لن يستطيعوا اقتحامها عنوة. وعاد رسول الله إلى المدينة ليصبح المسلمين وجهاً لوجه أمام يهود بني قريظة على النحو الذي فصلناه من قبل، ومنذ غزوة الخندق استنفدت قريش كل الوسائل الممكنة وغير الممكنة للقضاء على دولة الرسول بالمدينــة ، كما استنفدت كل طاقاتها وإمكاناتها الاقتصادية ، في محاربته مضحية في ذلك بهيبتها وتجارتها . وكان رسول الله قد عزم على التغلب على مكة سلمياً مستغلاً فرصة ما أصابها، واستعدادها لتقبل الصلح معه حتى يتيسر لها بعد ذلك أن تعاود نشاطها التجاري في أمان ، فإذا ما تمكن رسول الله من تحقيق هذا الهدف سهل عليه بعد ذلك ضم بقية قبائـل بلاد العرب ، التي كانت تترقب نتيجة الصراع بين الإسلام في المدينة والوثنية في مكة لتنضم إلى جانب الغالب . وبادر رسول الله بتجريد قريش من قوتهـا ، فغزا غزوتين بعد الخندق إحداهما غزوة بني لحيان والثانية غزوة بني المصطلق من الأحابيش حلفاء قريش، وذلك في العام السادس للهجرة فهزمهم ووقع معهم عهداً، وتزوج الرسول جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد بني المصطلق ، وبذلك ضمن الرسول انضواءهم إلى المسلمين .

ثم عزم رسول الله على قصد مكة معتمراً في ذي القعدة من نفس العام السادس

---

(١) ابن حزم ،ص١٩١

للهجرة ، وكان على يقين من أمر واحد هو أن قريش ستمنعه من أداء العمرة ، ولكنه كان يسعى من وراء ذلك إلى إظهار قريش بمظهر المعتدي الذي يرفض السلام ويصد عن بيت الله من جاء يعظمه ، كما كان يسعى أيضاً إلى الإفصاح عن احترام الإسلام للكعبة والبيت الحرام وتعظيمه للحج والعمرة أمام قبائل العرب جميعاً حتى يدركوا جوهر هذا الدين الحنيف .

لذلك خرج رسول الله بمن معه من المهاجرين والأنصار في عدد يتراوح ما بين ١٣٠٠ ، ١٥٠٠ وليس معهم سلاح إلا السيوف في أغمادها ، وساقوا الهدى ، فلما بلغ قريشاً ذلك خرج معظم رجالها لصد رسول الله عن البيت أو قتاله دون ذلك ، وقدموا خالد بن الوليد في خيل إلى كراع الغميم . فلما علم رسول الله بذلك سلك طريقاً آخر انتهى إلى الحديبية من أسفل مكة ، وأمر بالنزول هنالك . ثم تردد الرسل بين رسول الله وبين كفار قريش ، بقصد حمله على العدول عن دخول مكة .

فرأى الرسول أن يبعث عثمان بن عفان إلى أبي سفيان وأشراف قريش ليفاوضهم في رغبة المسلمين في أداء العمرة ، ولكن قريش أجمعوا على منع الرسول من دخول مكة ، ومضت ثلاثة أيام لم يعد عثمان خلالها ، وشاع أن المسلمين قتلوه ، فدعا رسول الله إلى المبايعة على الموت ، وأن لا يفر المسلمون عن القتال وهي بيعة الرضوان التي تمت تحت الشجرة . وعندئذ أدركت قريش أن مناصبة المسلمين العداء سيؤدي إلى سفك مزيد من الدماء دون جدوى فأرسلت سهيل بن عمرو في وفد من قريش لمفاوضة النبي ﷺ في الصلح . وتم الاتفاق أخيراً بين قريش والنبي على الشروط الآتية :[١]

١ — أن ينصرف الرسول عامه ذلك ، على أن يقبل في العام التالي مع أصحابه

---

(١) راجع ابن هشام قسم ٢ ، ص ٣١٦ — ابن سعد ج ٢ ص ٩٧ — البلاذري ، فتوح ج ١ ص ٤١ — ابن حزم ص ٢٠٨

بلا سلاح حاشا السيوف في القرب فقط ، فيقيم بها ثلاثة أيام .

٢ — أن يتصل الصلح بين المسلمين و كفار قريش عشرة أعوام يتداخل فيها الناس ويأمن بعضهم بعضاً .

٣ — من أراد أن يدخل في حلف محمد من القبائل دخل ومن أراد أن يدخل في حلف قريش دخل .

٤ — من جاء من الكفار إلى المسلمين مسلماً رد إلى الكفار ، ومن جـــاء من المسلمين إلى الكفار مرتداً لم يرد إلى المسلمين .

وعظم هذا الشرط الأخير على المسلمين فاحتجوا عليـه ، ولكن رسول الله أعلم أصحابه أن الله سيجعل للمسلمين فرجاً، وأن هذا الصلح يعتبر نصراً وفتحاً مبيناً، والواقع أن رسول الله كسب بهذا الصلح كسباً سياسياً، فقد أصبـح من حقه أن يدخل مكة في العام المقبل ، كما أتيح له أن يضم إلى جانبه كثيراً من قبائل العرب وفي ذلك تدعيم لموقفه وإضعاف لموقف قريش ، زد على ذلك أنـه بفضل فترة السلم الطويلة، التي يحددها صلح الحديبية بعشر سنوات، يمكنه خلالها من تطهير جناحه الشمالي وأن يقضي نهائياً على قوة اليهود في جزيرة العرب ، وبذلك يأمن مؤامراتهم ودسائسهم ، وهكذا يصبح في إمكان الرسول أن يكمل حصار مكة تماماً من الجهة الشمالية[1]، وهو أمر حققه رسول الله تدريجياً ومهد بذلك السبيل لفتح مكة .

ج — توجيه الدعوة الى الاسلام في داخل جزيرة العرب وخارجها :

في العام السادس للهجرة وبعد أن عقد النبي مع قريش صلح الحديبية وتخلص من يهود المدينة اتجه النبي إلى اصطناع سياسة خارجية ترمي إلى نشر الدعوة الإسلامية في مجالات تمتد خارج دولته في المدينة وعلى نطاق الجزيرة العربية ، بل على نطاق

---

(١) أحمد ابراهيم الشريف ، ص ٢١٠ ، ٢١١

أبعد من ذلك في مداه، فأرسل الرسل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، وكتب إليهم كتباً مختومة بخاتمه، فخرج ستة نفر من هؤلاء الرسل في يوم واحد وذلك في المحرم من سنة سبع هجرية.

وكان أول رسول وجهه رسول الله هو عمرو بن أمية الضمري بعثه إلى النجاشي وزوده بكتابين إليه: أحدهما يدعوه فيه إلى الإسلام ويتلو عليه القرآن، والثاني يطلب منه أن يبعث إليه بمن قبله من المسلمين ويزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان ابن حرب. ويذكر ابن سعد أن النجاشي أخذ كتاب النبي فوضعه على عينه، ونزل من سريره فجلس على الأرض تواضعاً، ثم أسلم وشهد شهادة الحق، وكتب إلى رسول الله بإجابته وتصديقه وإسلامه على يدي جعفر بن أبي طالب. ثم زوّج النبي أم حبيبة وأصدقها النجاشي ٤٠٠ دينار ذهباً وأرسلها مع مسلمي الحبشة في سفينتين [١].

وبعث النبي ﷺ دحية بن خليفة الكلبي، أحد رسله الستة إلى هرقل، قيصر الروم، يدعوه إلى الإسلام، وكتب معه كتاباً، وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى ليرسله إلى قيصر [٢]. وذكر اليعقوبي أن هرقل رد على النبي بكتاب جاء فيه: «إلى أحمد رسول الله الذي بشر به عيسى، من قيصر ملك الروم إنه جاءني كتابك مع رسولك، وإني أشهد أنك رسول الله، نجدك عندنا في الإنجيل، بشرنا بك عيسى بن مريم، وإني دعوت الروم أن يؤمنوا بك فأبوا، ولو أطاعوني لكان خيراً لهم، ولوددت أني عندك فأخدمك وأغسل قدميك» [٣].

وبعث رسول الله عبد الله بن حذافة السهمي أحد الرسل الستة إلى كسرى يدعوه إلى الإسلام، وأرسل معه كتاباً، فلما طالع كسرى كتاب النبي مزقه، فبلغ ذلك رسول الله فقال: «اللهم مزق ملكه» [٤].

---

(١) ابن سعد، الطبقات، ج ١ ص ٢٥٨، ٢٥٩ — ابن حزم، ص ٣٥

(٢) نفس المصدر، ص ٢٥٩

(٣) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج ٢ ص ٦٢

(٤) ابن سعد، ص ٢٦٠

وبعث رسول الله حاطب بن أبي بلتعة اللخمي أحد الرسل الستة إلى المقوقس نائب هرقل على مصر في الاسكندرية يدعوه إلى الإسلام، وكتب معه كتاباً بهذا المعنى، فكتب إلى النبي كتاباً جاء فيه: « قد علمت أن نبياً قد بقي، وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم، وقد أهديت لك كسوة وبغلة تركبها»، ولم يزد على ذلك، ولم يسلم [1]. فقبل رسول الله هديته.

أما الرسول الخامس وهو شجاع بن وهب الأسدي فقد بعثه رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر الغساني أمير غسان يدعوه إلى الإسلام. فلما قرأ كتاب النبي إليه رماه وقال: « من ينزع مني ملكي ؟ أنا سائر إليه ولو كان باليمن جئته »، ثم كتب إلى قيصر يستأذنه في الخروج لمحاربة النبي، فرد عليه ينهاه عن ذلك. فلما علم رسول الله بما فعله أمير الغساسنة قال: « باد ملكه »[2]. وبعث الرسول السادس وهو سليط بن عمرو العامري إلى هوذة بن علي الحنفي أمير اليمامة يدعوه إلى الإسلام، ولكنه لم يرد على النبي.

وذكر ابن الأثير أن رسول الله بعث الحارث بن عمير الأزدي بكتاب إلى صاحب بصرى، فلما نزل مؤتة وهي قرية من قرى البلقاء اعترضه شرحبيل بن عمرو الغساني أحد أمراء الغساسنة، فأوثقه رباطاً، ثم قدّمه، فضربت عنقه صبراً [3]. ولم يقتل لرسول الله رسول غيره، وكان قتله سبباً في البعث الذي سيره النبي ﷺ إلى مؤتة.

كذلك وجه رسول الله رسلاً آخرين إلى سائر قبائل العرب في الجزيرة العربية يدعوهم إلى الإسلام، ففي العام الثامن أرسل عمراً بن العاص إلى جيفر وعبد ابني الجلندي الأزديين أميري عمان يدعوهما إلى الإسلام، فصدقا النبي ﷺ وآمنا

---

(١) ابن سعد، ص ٢٦٠

(٢) نفس المصدر، ج ١ ص ٢٦١

(٣) ابن الاثير، اسد الغابة ص ٤٠٦ ـ المقريزي، امتاع الاسماع ج ١ ص ٢٤٥

به وأسلما [١] .

ووجه رسول الله عند منصرفه من الجعرانة وهو ماء بين مكة والطائف ، في العام الثامن للهجرة ، بعد غزوته للطائف ، العلاء بن الحضرمي ، إلى المنذر بن ساوي العبدي أمير البحرين ، يدعوه إلى الإسلام ، فأسلم المنذر ، وأسلم معه نفر من رعيته من أهل هجر [٢] . وكتب النبي ﷺ إلى المنذر كتاباً جاء فيه : « إنك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك ، ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية » [٣] .

وكتب رسول الله إلى أقيال اليمن كتباً يدعوهم فيها الى الإسلام ، من بينهم الحارث بن عبد كلال ، وشريح بن عبد كلال ، ونعيم بن عبد كلال ، ونعمان قيل ذي يزن ، ومعافر ، وهمدان ، وزرعة ذي رعين . كما كتب إلى بني معاوية من كندة ، وإلى بني عمرو من حمير ، وإلى جبلة بن الأيهم ملك غسان ، وإلى أساقفة نجران وكهنتهم ، وإلى أمراء ذي مرحب بحضرموت . كذلك كتب إلى قبائل بني قنان بن يزيد الحارثيين ، وإلى بني طيىء وإلى بني جذام ، وإلى بني زرعة وبني الربعة من جهينة ، وإلى بني جعيل من بلي ، وإلى بني الجرمز بن ربيعة وهم من جهينة ، وإلى بني سليم وإلى غيرهم من قبائل العرب .

وتعتبر رسائل النبي الى أمراء القبائل والملوك المجاورين لبلاد العرب نقطة تحول هامة في سياسة دولة الرسول الخارجية ، وقد نجحت هذه السياسة ومهدت لتوحيد النبي لسائر أنحاء بلاد العرب في عام الوفود .

---

(١) ابن سعد ، ج ١ ص ٢٦٣

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٦٣

(٣) نفس المصدر

- ٣ -

مقدمة الفتوحات الاسلامية

١ – غزوة مؤتة :

أراد رسول الله ﷺ أن يثأر لقتل رسوله الحارث بن عمير الأزدي على يدي شرحبيل بن عمرو الغساني أمير مؤتة، ومقتل فروة بن عمرو الجذامي عامل الروم على معان وما حولها على أيدي الروم بعد أن بلغهم إسلامه[١] . فلما انصرف من عمرة القضاء في العام السابع للهجرة، على ما عاهد عليه قريشاً في صلح الحديبية، أقام بالمدينة ذا الحجة والمحرم وصفراً وربيعاً من سنة ٨ للهجرة، ثم أرسل في جمادى الأولى من تلك السنة بعث الأمراء الى الشام[٢]، لتأديب أمير مؤتة المذكور.

أعد رسول الله جيشاً ضخماً عدته ثلاثة آلاف مقاتل على رأسهم زيد بن حارثة، وأوصى المسلمين بأنه إذا أصابه قدر فعليهم جعفر بن أبي طالب، فإن أصاب جعفراً قدر فعلى الناس عبدالله بن رواحة الأنصاري[٣]. ثم أوصى رسول

---

(١) ابن حزم، ص ٢٢٠

(٢) ابن سعد، ج ١ ص ٣٥٥

(٣) ابن هشام، ج٢ ص ٣٧٣ — ابن سعد ج١ ص ٣٥٥ — امتاع الاسماع، ص ٣٤٤ وما يليها

الله أمراء جيشه فقال: « أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيراً . أغزوا باسم الله في سبيل الله ، فقاتلوا من كفر بالله ، لا تغدروا ولا تغلوا ، ولا تقتلوا وليداً ، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم الى إحدى ثلاث فأيتهن مـــا أجابوك إليها ، فاقبل منهم واكفف عنهم ، ثم ادعهم الى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ،فإن فعلوا فأخبرهم أن لهم ما للمهاجرين ،وعليهم ما على المهاجرين ، إن دخلوا في الإسلام واختاروا دارهم فأخبرهم أنهم يكونوا كأعراب المسلمين ، ويجري عليهم حكم الله ، ولا يكون لهم في الفيء ولا في الغنيمة شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فإن أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية ،فإن فعلوا فاقبل منهم ، واكفف عنهم ، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم ، وإن أنت حاصرت أهل حصن أو مدينة فأرادوك أن تستنزلهم على حكم الله ، فلا تستنزلهم على حكم الله ، ولكن أنزلهم على حكمك ، فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا ؟ وإن حاصرت أهل حصن أو مدينة فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة رسوله ، فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة رسوله ، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمـــة أصحابك ، فإن تخفروا ذمتكم وذمة آبائكم خير لكم من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله . وستجدون رجـــالاً في الصوامع معتزلين للناس ، فلا تتعرضوا لهم ... لا تقتلن امرأة ولا صغيراً ضرعاً ولا كبيراً فانياً ، ولا تغرقن نخلاً ، ولا تقلعن شجراً ، ولا تهدموا بيتاً »[١] .

وشيعهم رسول الله ﷺ وودعهم ، وسار جيش المسلمين حتى بلغ معان من أرض الشام ، وهناك بلغهم أن هرقل ملك الروم قد نزل أرض مآب وهي أرض البلقاء ، في مائة ألف من الروم ومائة ألف أخرى من نصارى الشام [٢] من لخم

---

(١) امتاع الاسماع ج ١ ص ٣٤٦

(٢) هذا الرقم مبالغ فيه للغاية ، ولا يعقل ان يصمد ثلاثة الاف يؤلفون جيش المسلمين امام مائتي الف من الروم والعرب المتنصرة ولذلك لا ناخذ به ، ولكننا نستدل من المبالغة في تضخيم جيش العدو على انقوته كانت تفوق قوة المسلمين بمراحل من حيث العدد ومن حيث السلاح ايضا .

وجذام وقبائل قضاعة من بهراء وبلى وبلقين وعليهم رجل من بني إراشة من بلـّي يقال له مالك بن راقلة . فأقام المسلمون في معان ليلتين يفكرون فيما يصنعونه ، فأراد بعضهم أن يكتب إلى رسول الله يخبرونه بعدد العدو فيأمرهم إما بالعودة أو يزودهم بامداد يعينهم على حرب العدو ، فقال عبدالله بن رواحه : « يا قوم ، إن الذي تكرهون للتي خرجتم تطلبون – يعني الشهادة – وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ، وما نقاتلهم إلا بهذا الذي أكرمنا الله بـه ، فانطلقوا فهي إحدى الحسنيين : إما ظهور وإما شهادة »[1] . فوافقه الجميع على هذا الرأي وأخذهم الحماس ، فزحفوا إلى مؤتة حيث وافاهم المشركون ، واشتبك الفريقان في القتال ، واقتتلوا قتالاً شديداً حتى قتل زيد بن حارثـة ، ثم أخذ جعفر بن عبد المطلب الراية وقاتل بها حتى قطعت يمينه ، فأخذ الراية بيسراه فقطعت يسراه ، فتلقى الراية في صدره واحتضنها ، فقتل كذلك . فأخذ عبدالله بن رواحة الراية ، وتردد عن النزول بعض التردد ، ثم صمم فقاتل حتى استشهد[2] . فأخذ الراية ثابت بن أقرم أخو بني العجلان ، ودعا قومه إلى اختيار قائد منهم ، فلما اختاروه رفض ، فأخذها خالد بن الوليد ، وانحاز بالمسلمين ، وعاد بهم إلى المدينة .

كان ذلك أول اشتباك جرى بين المسلمين وبين الغساسنة والروم ، وتنحصر أهميته ، في أنه أول تجربة حربية تجتازها الدولة العربية الإسلامية على مستوى دولي ، وإذا كانت موقعة مؤتة انتهت بهزيمة لجيش المسلمين ، فإنما اعتبرهـا رسول الله جولة تعقبها كرة ، فلما عيّر أهل المدينة أصحاب مؤتة بأنهم فروا من المعركة ، رد على اتهام المسلمين بقوله : « بل هم الكرار إن شاء الله »[3] .

وبالإضافة إلى أنها كانت اختباراً لقوة المسلمين ، وفرصة للجيش الاسلامي للاحتكاك الدولي في شمال شبه الجزيرة ، فقد كان لها نتائج أدبية خطيرة إذ فتحت

---

(١) ابن حزم ، ص ٢٢١ — المقريزي ، امتاع الاسماع ج ١ ص ٣٤٨

(٢) ابن هشام ، قسم٢ ص ٣٧٨ — ابن حزم ، ص٢٢١ — ابن الاثير ، اسد الغابة ص٣٤٢

(٣) ابن هشام قسم ٢ ص ٣٨٢ — ابن كثير ، ج ٤ ص ٢٥٣

فتحت المجال أمام القبائل العربية الضاربة في الشمال للدخول في الإسلام . على أن قريش اعتبرت مؤتة هزيمة إن دلت على شيء فعلى ضعف سلطان المسلمين، وخيل إلى قريش أن هزيمة مؤتة بداية لسلسلة من الهزائم ، وعندئذ عزموا على إعادة الأمور إلى مثل ما كانت عليه قبل الحديبية ، وذلك بنقض الصلح المذكور .

ب – فتح مكة :

كانت خزاعة قد دخلت في عهد النبي ﷺ مؤمنها وكافرها إذ كان عبد المطلب وخزاعة حلفاً قديماً ، كما أصبح بنو بكر بن عبد مناة في عقد قريش وعهدها . وكانت بين خزاعة وبكر ثارات قديمة في الجاهلية يرجع سببها إلى اغتداء خزاعة على حليف لآل الأسود بن رزن قتلوه واستولوا على ماله ، فثأرت بنو بكر بن عبد مناة يومئذ وهم رهط الأسود بن رزن ، من أحد بني خزاعة فقتلوه ، ، فعدت خزاعة على سلمى وكلثوم وذؤيب من بني الأسود بن رزن ، فقتلوهم . ثم ظهر الإسلام واشتغل الناس به ، فلما دخلت خزاعة في عهد النبي بعد صلح الحديبية ، دخلت بكر بن عبد مناة في عهد قريش ، واستغل بنو الديل من بني بكر بن عبد مناة فرصة هذا الصلح وغفلة خزاعة وأرادوا إدراك ثأر بني الأسود بن رزن، فخرج نوفل بن معاوية الدّيلي بمن أطاعه من بني بكر وبيّت خزاعة وهم على ماء لهم يقال له الوتير بأسفل مكة ، فاقتتلوا ، ورفدت قريش بني بكر بالسلاح ، بل اشترك جماعة من قريش في القتال إلى جانب بني بكر مستخفين ، فانهزمت خزاعة إلى الحرم ، وعمد قوم نوفل بن معاوية إلى إدراك ثأرهم في خزاعة في داخل الحرم ، فقتلوا رجلاً من خزاعة يدعى منبه ، فاضطرت خزاعة إلى الالتجاء الى دار بُدَيْل بن ورقاء الخزاعي ودار مولى لهم اسمه رافع في داخل مكة [1] .

كان هذا الاعتداء الذي قام به بنو بكر بن عبد مناة تؤيدهم قريش بشبابها

---

(1) ابن هشام ، قسم ٢ ص ٣٩١ — ابن حزم ، ص ٢٢٤ — ابن كثير ، ج ٤ ص ٢٧٨

وسلاحها على خزاعة نقضاً للعهـــد الموقع يوم الحديبية ، ولذلك خرج عمرو بن سالم الخزاعي ومعه أحد بني كعب وبديل بن ورقاء وقوم من خزاعة إلى المدينة حتى قدموا على رسول الله، واستغاثوا به مما أصابهم على يد بني عبد مناة وقريش ، فوعدهم رسول الله بالنصرة .

أما قريش فقد ندمت على ما قدمته من عون لبني بكر، وأدرك شيوخها أنه لا بد من عمل شيء لتمكين الصلح والزيادة في مدته ، فأوفدوا أبا سفيان بن حرب لهذا الغرض ، فخرج أبو سفيان إلى المدينة ليشد العقد ويزيد في المدة . وعندما دخل المدينة عمـد إلى مقابلة ابنته أم حبيبة زوج النبي ﷺ فأساءت استقباله ، فمضى لمقابلة النبي في المسجد وكلمه ، فلم يجبه بكلمة. فاستعان بكبار الصحابة أمثال أبي بكر وعمر وعلي حتى يتوسطوا بينه وبين رسول الله ، فأبوا جميعاً ، فعاد إلى مكة يجر أذيال الفشل والهوان .

ووعزم رسول الله على فتح مكة ،فأعد جيشاً كثيفاً من أهل المدينة لم تشهد له الحجاز مثيلاً من قبـــل عدته عشرة آلاف [١]، ودعا الله أن يأخذ عن قريش بالأخبار بقصد مفاجأتها بالفتح . وخرج رسول الله بجيشه من المدينة في العاشر من رمضان بعد أن استخلف على المدينة أبا رُهْم كلثوم بن حصين بن عُتْبة بن خلف الغفاري .

وتجمع المصادر على أن أبا سفيان وبديل بن ورقاء وحكيم بن حزام خرجوا من مكة يتلقفون الأخبار ، كما تجمع على أن العباس بن عبد المطلب ، الذي وقف إلى جانب الرسول في بيعة العقبة الثانية والذي كان يوافي النبي ﷺ بأخبار مكة وتحركاتها ضده، خرج مهاجراً وأنه لقي رسول الله في ذي الحُلَيْفة، وفي ذلك دلالة على أن قريش كانت تتوقع مسيرة الرسول: ولخروج العباس للقاء النبي مغزيان: الأول

---

(١) اشتركت في تشكيل هذا الجيش جموع من مختلف قبائل العرب : فمن بني سليم الف رجل وقيل سبعمائة ، ومن مزينة الف رجل وثلاثة ، ومن غفار اربعمائة ، وطوائف أخرى من قيس وأسد وتميم (ابن حزم ص ٢٢٧)

أن يصبح مهاجراً قبل أن يفتح رسول الله مكة ، والثاني أن يأخذ الأمان لقريش . كذلك لم يكن خروج كل من أبي سفيان وبديل بن ورقاء معاً بمجرد صدفة أو اتفاقاً وإنما ليُسَهِّل له بديل الاتصال بالرسول، كما أن لقاء أبي سفيان بالعباس[٢] وهو راكب بغلة النبي لم يكن مجرد صدفة أو محض اتفاق ، ومن المعتقد أنه اتفق معه على هذا اللقاء حتى يجيره العباس أمام المسلمين ويمنعه من التعرض لسيوفهم ، وفي نفس الوقت ليمثل قريش أمام الرسول، ويعلن إسلامه ، وعندئذ يؤمّن الرسول أهل مكة ، فلا تفتح عنوة . ويعتقد الدكتور أحمد الشريف أن زعماء قريش الثلاثة الذين خرجوا يتحسسون الأخبار وفقاً لما أوردته المصادر العربية وهم أبو سفيان وبديل بن ورقاء وحكيم بن حزام لا بد أنهم يؤلفون وفد التسليم، وأنهم كانوا على اتفاق سابق مع العباس الذي خرج من مكة ليمهد لهذا اللقاء[١].

وعندما أسلم أبو سفيان في حضرة النبي ، قال العباس : « يا رسول الله ، إن أبا سفيان يحب هذا الفخر، فاجعل له شيئاً» . فقال له رسول الله ﷺ : « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن »[٣] ، وبذلك أصبحت مكة مؤمنة على دماء أهلها وذراريهم وأموالهم ونسائهم ، إلا من قاتل أو استثني فقط .

ثم عاد أبو سفيان إلى مكة ليبلغ قومه بتأمين رسول الله لكل من دخل داره أو المسجد الحرام أو دار أبي سفيان . ولكن جماعة من شباب قريش من بينهم عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وسهل بن عمرو صمموا على القتال ، فناوشهم أصحاب خالد القتال ، فقتل من المشركين ١٣ رجلاً وقيل ٢٣ بينما قتل

---

(١) ذكر المؤرخون ان العباس بعد ان لقى رسول الله في ذي الحليفة ، ترك معسكر المسلمين عند وصولهم الى مر الظهران ومضى على بغلة النبي لينذر احدا من اهل مكة قبل أن يفاجئهم النبي بدخولها .

(٢) احمد الشريف ، ص ٢٤٠

(٣) ابن هشام ، ج ٢ ص ٤٠٥ — ابن حزم ، ص ٢٢٩

من المسلمين ثلاث رجال (١) .

وكان رسول الله قد جعل الراية بيد سعد بن عبادة ، فبلغه أنه قال : «اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة» ، فأمر النبي أن يدفع الراية إلى الزبير ، وقيل إلى علي بن أبي طالب ، وقيل إلى قيس بن سعد بن عبادة . ثم قسم الرسول جيشه إلى فرق ، فأمر الزبير قائد الميسرة أن يدخل من ناحية ذي كداء وهو موضع بأعلى مكة عند المحصب ، وأمر خالداً قائد الميمنة بدخول مكة من جهة الليط بأسفل مكة ، أما قلب الجيش بقيادة أبي عبيدة بن الجراح فقد دخل من ذي طوى .

وبدخول المسلمين مكة ، سقط معقل الوثنية في جزيرة العرب في أيدي المسلمين ، وأمن رسول الله أهل مكة حاشا عدة نفر منهم عبد العزى بن خطل وعبدالله ابن سعد بن أبي سرح ، وعكرمة بن أبي جهل ، والحويرث بن نقيذ بن وهب بن عبد بن قصي ، ومقيس بن صبابة ، بعضهم قتل مثل ابن خطل ، وبعضهم استأمن رسول الله مثل عبدالله بن سعد ، وبعضهم خرج فاراً من مكة مثل عكرمة بن أبي جهل . وعفا رسول الله عن عامة قريش وقال لهم : وما تظنون ؟ قالوا : نظن خيراً ونقول خيراً : أخ كريم وابن أخ كريم ، وقد قدرت . قال : فإني أقول كما قال أخي يوسف عليه السلام (لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) (٢) . ثم طاف رسول الله ﷺ بالكعبة ، وأمر بكسر الصور التي كانت منصوبة داخل الكعبة وخارجها وتحطيم الأصنام التي حول الكعبة وبمكة ، وأذّن له بلال على ظهر الكعبة (٣) . ولم يكتف النبي بذلك بل بعث خالد ابن الوليد إلى العزى وكان بيتاً بنخلة تعظمه قريش وكنانة ومضر ، فهدمه (٤) .

وبفتح مكة تحققت المرحلة الأولى الهامة من توحيد الأمة العربية بالإسلام ،

---

(١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ج ١ ص ٤٤

(٢) القرآن الكريم ، سورة يوسف ١٢ آية ٩٢

(٣) ابن هشام ج ٢ ص ٤١٢ — ابن حزم ، ص ٢٣٤ — امتاع الاسماع ج ١ ص ٣٨٣

(٤) ابن هشام ، ج ٢ ص ٤٣٧ — ابن حزم ، ص ٢٣٥

وخرجت الدولة العربية الإسلامية من نطـــاق الدولة المدينة إلى نظام الدولة الكبيرة ، ولم يمض عام واحد حتى امتد سلطانها إلى جميع بلاد العرب .

ج – غزوة حنين والطائف :

كانت مكة تحمل لواء المعارضة للإسلام قبل أن يفتتحها رسول الله ، فلمـا فتحت اعتبرت قبيلة هوازن وقبيلة ثقيف في الطائف ذلك ضربة قاضية للوثنية في الجزيرة العربية ، وأيقنوا بأن الضربة التالية سيوجهها النبي إليهم ، لارتباط الطائف بمكة في الجاهلية . فعندما بلغ فتح مكة هوازن جمعهم مالك بن عوف النصري واجتمع إليه ثقيف وبنو نصر بن معاوية وبنو جشم وبنو سعد بن بكر وجماعة من بني هلال بن عامر ، وصمموا على محاربة النبي قبل أن يشرع في الزحف عليهم . فخرجوا ومعهم أموالهم وماشيتهم ونساءهم وأولادهم ، ونزلوا بأوطاس ، وهناك اعترض عليهم دريد بن الصمة من بني جشم على اصطحاب النساء والأطفال ، ونصح مالكاً ابن عوف بتقديم فرسان هوازن لمحاربة المسلمين ، فخالفه مالك وخالفته هوازن . ولما علم رسول الله بخروجهم أعد جيشاً من المسلمين ، وخرج في اثني عشر ألفاً ، منهم عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وألفان من مسلمة الفتح [١] .

وما إن وصلت طلائع المسلمين إلى وادي حنين في أول شوال من العام الثامن ، وهو واد منحدر من أودية تهـامة في الصباح الباكر حيث يختلط ضوء الصبح بالظلام ، فوجئوا بكمائن هوازن تترصدهم في جنبتي الوادي ، وأحدث هـذا الهجوم المفاجىء أثره في إرباك المسلمين ، فولى المنهزمون منهم لا يلوي أحد على أحد [٢] ، فناداهم رسول الله فلم يرجعوا ، وثبت مع النبي ﷺ وهو على بغلته

---

(١) نفسه ، ص ٢٣٨ — امتاع الاسماع ، ج ١ ص ٤٠١

(٢) في ادبار المسلمين يقول سبحانه وتعالى : « لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين اذ اعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا ، وضاقت عليكم الارض بما رحبت ثم وليتـــم مدبرين . ثم انزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وانزل جنودا لم تروها وعـــذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين » (القرآن الكريم ، سورة التوبة ٩ آية ٢٥ — ٢٦)

عدد من كبار الصحابة منهم أبو بكر وعمر وعلي والعباس وأبو سفيان بن الحارث وابنه جعفر . ثم أمر رسول الله العباس أن ينادي الأنصار والمهاجرين، وكان العباس جهير الصوت ، فسمعه القوم ، فكر عدد منهم إلى النبي ، استقبلوا هوازن بالقتال ، ثم توافد المسلمون، واشتد القتال، وانتهت المعركة بانتصار حاسم للمسلمين ، فانهزمت هوازن، واستمر القتل في بني مالك من ثقيف ، فقتل منهم يومئذ سبعون رجلا، وفر مالك بن عوف إلى الطائف ، بينما لاذت طائفة من هوازن إلى أوطاس ، وفرت طائفة من الأحلاف من ثقيف إلى نخلة ، فتعقبهم بعض الصحابة وقتلوا بنخلة دريد بن الصمة . ثم بعث الرسول إلى من اجتمع من فل هوازن بأوطاس أبا عامر عبيد الأشعري ، فقتل أبو عامر بسهم ، فتولى أبو موسى الأشعري القيادة وقتل قاتل عمه ، واستمر القتل في بني نصر بن معاوية فقتل منهم نحو عشرة من المشركين .

ثم أرجأ رسول الله توزيع الغنائم ورد النساء والذرية إلى هوازن إلى حين عودته من الطائف ، فقد عزم ﷺ أن يمضي من حنين إلى الطائف مباشرة دون أن يعرج على مكة، حتى يفتحها . وكان أهل الطائف قد استعدوا للحصار، فرموا حصنهم وجمعوا فيه الميرة [1] فسلك النبي في طريقه من الجعرانة إلى الطائف على نخلة اليمانية ثم على قرن، ثم على المليح، ثم على بحرة الرغاء من لية ، وكلها من نواحي الطائف ، وهدم في طريقه إلى الطائف حصناً ببحرة الرغاء لمالك بن عوف ، وأطماً لرجل من ثقيف .

فلما وصل رسول الله بالمسلمين إلى الطائف رمتهم ثقيف بالحجارة والنبال ، فأصيب بالنبال جماعة من المسلمين ، فنصب رسول الله منجنيقاً على حصنهم رماهم به، ثم دخل نفر من المسلمين تحت دبابة من جلود البقر ودنوا بها من سور الطائف، فقذفتها ثقيف بسكك الحديد المحماة فأحرقتها، وأصيب من كان تحتها من المسلمين

---

(١) ابن هشام ، ج ٢ ص ٤٧٨ — البلاذري ، فتوح البلدان ، ج ١ ص ٦٥

بنبال الرماة [١] . وأقام رسول الله على حصار الطائف خمس عشرة ليلة ثم رحل عنها إلى الجعرانة حيث رد على هوازن أبناءهم ، وقسم الأموال بين المسلمين ، ثم أعطى من نصيبه (الخمس) المؤلفة قلوبهم منهم : أبو سفيان بن حرب وابنه معاوية وحكيم بن حزام بن خويلد والحارث بن الحارث بن كلده والحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي . ثم إعتمر رسول الله من الجعرانة إلى مكة ، ورجع إلى المدينة بعد أن استعمل على مكة عتاب بن أسيد ، فأقام الحج بالمسلمين تلك السنة ، وهو أول أمير أقام الحج في الإسلام ، فدخل المدينة في اليوم الرابع والعشرين من ذي القعدة .

ولم يلبث بنو ثقيف أن أدركوا عبث مناوءتهم للرسول ، لقلة إمكاناتهم قياساً إلى إمكانات المسلمين ، وخافوا أن يعود النبي ﷺ إليهم ليعاود قتالهم ، فبعثوا إليه وفداً برأسه عبد يا ليل بن عمير ، فصالحهم الرسول على أن يسلموا ويقرهم على ما في أيديهم من الأموال .

د — غزوة تبوك وتوحيد جزيرة العرب :

تعتبر غزوة تبوك وما يليها من شمال الحجاز مثل أيلة وأذرح ومقنا والجرباء آخر غزوة غزاها النبي ﷺ بنفسه . ففي رجب من العام التاسع للهجرة عزم رسول الله على تجهيز جيش بقيادته لغزو المناطق الشامية الواقعة على تخوم الحجاز ، منذ أن بلغته الأنباء بقيام صاحب تبوك بحشد جموع كبيرة من الروم ومتنصرة العرب [٢] .

فأذن رسول الله بغزو الروم ، واتفق أن استنفاره جاء في أوان حر شديد حين طاب أول الثمر ، وفي عام محل وجدب ، ولهذا السبب قوبل الاستنفار بفتور من المنافقين وتثاقل من بعض الصحابة ، وساعد على ذلك الشعور أن

(١) ابن هشام ، ج ٢ ص ٤٨٢ — ابن حزم ، ص ٢٤٣

(٢) ابن هشام ص ٥١٦ — البلاذري ص ٧١

نفراً من المنافقين كانوا يجتمعون في بيت سويلم اليهودي عند بئر جاسوم يثبطون الناس عن المضي للغزو فبعث رسول الله طلحة بن عبيدالله في نفر من المسلمين وأمرهم بإحراق هذا البيت عليهم ، ففعلوا (١) .

ثم خرج رسول الله من المدينة فتخلف عبدالله بن أبي بن سلول مع جماعة من أهل النفاق والريب يتراوح عددهم ما بين السبعين والثمانين ، واستمر النبي ﷺ في مسيرته حتى وصل إلى تبوك ، فلم يلق بها كيداً ، وصالحه أهلها على الجزية . وأقام بها عشرين ليلة ، أتاه إليها وهو بها يحنة بن رؤبة صاحب أيلة ، فصالحه على أن يؤدي عن كل حالم بأرضه ديناراً في السنة ، فبلغ ذلك ٣٠٠ دينار . واشترط عليهم أن يقروا من يمر بهم من المسلمين (٢) . كما قدم عليه وهو بتبوك أهل أذرح فصالحهم على مائة دينار في كل شهر رجب ، وصالح أهل الجرباء على الجزية ، وأهل مقنا اليهود على ربع أشجارهم وربع سلاحهم وربع ثمارهم . وكتب لأهل جرباء كتاباً نصه : « هذا كتاب من محمد النبي رسول الله ، أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد ، وأن عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة والله كفيل عليهم (٣) » . وكتب لأهل مقنا عهداً نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى بني حبيبة وأهل مقنا . سلم أنتم . فإنه أنزل عليّ أنكم راجعون قريتكم ، فإذا جاءكم كتابي هذا فإنكم آمنون ، ولكم ذمة الله وذمة رسوله . فإن رسول الله قد غفر لكم ذنوبكم وكل دم أتبعتم به ، لا شريك لكم في قريتكم إلا رسول الله أو رسول رسول الله ، وإنه لا ظلم عليكم ولا عدوان . وإن رسول الله ﷺ يجيركم مما يجير منه نفسه ، فإن لرسول الله بزّتكم ورقيقكم والكراع والحلقة إلا ما عفا عنه رسول الله ، أو رسول رسول الله وإن عليكم بعد ذلك ربع ما أخرجت نخيلكم وربع ما صادت عرككم ، وربع ما اغتزلت نساؤكم .

---

(١) ابن هشام ، قسم٢ ص ٥١٧ — ابن حزم ، ص ٢٥٠

(٢) ابن هشام ص ٥٢٦ — البلاذري ، ج ١ ص ٧١

(٣) المقريزي ، امتاع الاسماع ، ج ١ ص ٤٦٨

وإنكم قد برئتم بعد ذلكم ، ورفعكم رسول الله ﷺ عن كل جزية وسخرة ، فإن سمعتم وأطعتم فعلى رسول الله أن يكرّم كريمكم ويعفو عن مسيئكم ،ومن ائتمر في بني حبيبة وأهل مقنا من المسلمين خيراً فهو خير له ، ومن أطلعهم بشر فهو شرٌ له . وليس عليكم أمير إلا من أنفسكم أو من أهـل بيت رسول الله ﷺ . وكتب علي بن أبي طالب في سنة تسع » [1] .

وبعث رسول الله خالد بن الوليد إلى أكيدر بن عبد الملك الكندي بدومة الجندل حتى يضمن بذلك خضوع كل منطقة شمال الحجاز والبادية للدولة العربية الإسلامية فلا يتمكن أهلها من إعانة الروم إذا ما قدموا إلى بلاد الحجاز من هذه الناحية . ويذكر المؤرخون أن خالد تمكن من أسر أكيدر وقدم به على رسول الله ، فعفا عنه عندما أعلن إسلامه ، وصالحه على الجزية وكتب له ولأهل دومة الجندل كتاباً جاء فيه : « هذا كتاب من محمد رسول الله لأكيدر حين أجاب إلى الإسلام وخلع الأنداد والأصنام ولأهل دومة . إن لنا الضاحية من الضحل ، والبور والمعامي وأغفال الأرض ، والحلقـــة والسلاح والحافر والحصن ولكم الضامنة من النخل والمعين من المعمور . لا تعدل سارحتكم ولا تعد فاردتكم ، ولا يحظر عليكم النبات ، تقيمون الصلاة لوقتها ، وتؤتون الزكاة بحقها ،عليكم بذلك عهد الله والميثاق ولكم به الصدق والوفاء . شهد الله ومن حضر من المسلمين » [2] .

---

(١) البلاذري ، ج ١ ص ٧٢

(٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ج ١ ص ٧٣.

والضاحي المرتفع والضحل الارض قليلة المياه ، والبور الارض التي لم تزرع وتثمر ، والمعامي الارض المجهولة ، والاغفال التي لا آثار فيها ، والحلقة الدروع ، والحافر كـــل ما له حافر من الحيوانات كالخيل والبغال والحمير ، والضامنة اي النخل الموجود بالحصن ، والمعين الماء الدائم . ومجمل العهد انـــه بمقتضى كتاب الصلـــح المذكـــور تـــؤول الاراضي الظاهرة من المناطق المغمورة بالمياه والاراضي البور التي لم يسبق لها أن زرعت ، بالاضافة الى الاراضي غير المعروفة والتي لا صاحب لها ، والدروع والسلاح والخيول والبغــــال والحصن ، كل ذلك يؤول للمسلمين ، بينما يحتفظ أهل دومة الجندل بنخيلهم ومياههم الجارية الدائمة ومواشيهم التي ترعى في مراعيها ومواضعها ، ونباتهم الذي يزرعونه

وكان أكيدر قد تنازل للمسلمين عن ألفي بعير وثمانمائة رأس وأربعمائة درع وأربعمائة رمح (١) .

ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد عشرين ليلة قضاها في تبوك لم يتجاوزها (٢) ، فوصل إلى المدينة في رمضان سنة تسع من الهجرة .

ولما حان موعد الحج ، عهد رسول الله ﷺ إلى أبي بكر بإمارة الحج ، وذلك في نهاية العام التاسع ، ثم أصدر بيان براءة تضمنتها سورة من سور القرآن الكريم هي سورة التوبة ، وفوّض إلى علي بن أبي طالب مهمة قراءتها على مشهد من جميع الحجاج بمكة ، وفي هذا البيان نبذ عهوده التي كان قد عقدها مع القبائل التي وادعها والتي لم تدخل بعد في الإسلام ، وألغى كل عقد أبرمه معها ، وأمهل هذه القبائل أربعة أشهر لإشهار إسلامها والدخول في الدولة العربية الإسلامية وإلا اعتبروا خارجين على نظامها ووجب على المسلمين محاربتهم ، وجاء في البيان أن مكة أصبحت بحرمها إسلامية بعد أن برئت الكعبة من الأصنام ، وأن الحج أصبح يجري على الطريقة الإسلامية ، وأنه لا يجوز لغير المسلم أن يحج ويقرب من المسجد الحرام ، ويتعرض البيان للمنافقين فينذرهم بالعقاب . وتبدأ السورة المذكورة بذكر براءة صادرة من الله ورسوله إلى المعاهدين من المشركين ، ومعنى هذا أن الله بريء من المشركين وأنه لا عهود بينهم وبين الدولة الاسلامية ، وهو لذلك يمهلهم فرصة أربعة أشهر للدخول في الاسلام وفي الدولة الاسلامية أو يعتبروا في نظر الاسلام خارجين على الدولة الاسلامية ووجبت محاربتهم . يقول سبحانه وتعالى : « براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين . فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين . وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله ، فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين

(١) ابن سعد ، ج ٢ ص ١٦٦ — المقريزي ، امتاع الاسماع ، ج ١ ص ٤٦٥

(٢) ابن حزم ، ص ٢٥٣

كفروا بعذاب أليم . إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين . فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد،فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم. وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون » . إلى آخر السورة [١] .

ووفقاً لهذا البيان المعروف ببراءة يتضح لنا أن موقف النبي ﷺ مع الوثنيين كان يختلف في حالتين : فالمشركون الذين كانوا يرتبطون معه بعهود سابقة تنص على مدة معينة لم ينقصوها بنكث أو نقض ولم يظاهروا عليه أثناءها أحداً ، توفي إليهم عهودهم إلى مدتهم التي ارتبط النبي بها، على ألا يسمح بتجديدها لتغير الظروف، وعليهم أن يدخلوا في الإسلام وإلا حل على المسلمين قتالهم بعد ذلك. أما المشركون الآخرون فإنهم يمهلون فترة الأشهر الأربعة الحرم،فإذا ما انسلخت هذه الأشهر حل للمسلمين قتالهم أينما وجدوهم حتى يتوبوا إلى الله ويعتنقوا الإسلام . ويحرم الله تعالى على هؤلاء المشركين دخول المسجد الحرام والحج مع المسلمين .

أما فيما يتعلق بالنصارى واليهود فعليهم أن يعلنوا خضوعهم للدولة العربية الإسلامية عن طريق الجزية يعطونها عن يد وهم صاغرون . وأما المنافقون ممن عاهدهم الرسول ولم يستقيموا وأبت قلوبهم أن تتقبل الإسلام فعليهم أن يطهروا أنفسهم من النفاق ، ويتوبوا إلى الله ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإن نكثوا إيمانهم فهم كفرة حل قتالهم .

وكان بيان براءة بمثابة إنذار وجهه رسول الله ﷺ إلى المشركين في موسم الحج، وهو الموسم الذي يجتمع فيه كل ممثلي قبائل العرب في بلاد العرب، بعد أن مكّن

---

(١) القرآن الكريم ، سورة التوبة ٩

لنفسه ولدولته بالانتصارات التي أحرزتها دولة الرسول في المدينة في السنين اللاحقة التي مرت بعد الهجرة، مثل وقعة بدر الكبرى، وغزوة الأحزاب، وفتح مكة، وغزوة تبوك، وغزوة دومة الجندل . وهدف بيان براءة هو ضم جميع قبائل العرب في شبه الجزيرة إلى الدولة العربية الاسلامية عن طريق إعلان تحولها إلى الإسلام وخضوعها لدولة الإسلام ، وعلى هذا النحو بدأت وفود القبائل العربية تصل تباعاً بعد فترة قصيرة من إذاعة هذا البيان، معلنة خضوعها للإسلام ودخولها في طاعة الدولة العربية، وكان رسول الله ﷺ يرسل مع هذه الوفود معلمين مهمتهم تعليم هـــذه القبائل قواعد الاسلام وفي نفس الوقت تحصيل الصدقات منهم ، وبفضل هؤلاء المعلمين دخلت قبائل العرب في الإسلام ، ووصل الفائض من مال الصدقات بعد توزيع ما استلزم توزيعه على فقراء هذه القبائل إلى المدينة .

وهكذا لم يحل العام العاشر للهجرة حتى كانت كل جزيرة العرب دولة عربية إسلامية موحدة، وعرف العام التاسع بعام الوفود [١]، ففيه تواترت وفود العرب تعلن إذعانها للإسلام . وبوادر هذه الوحدة بدأت تظهر بعد عودة رسول الله من غزوة تبوك، فقد ذكر ابن سعد أنه لما رجع رسول الله من تبوك في العام التاسع قدم عليه وفـــد بني فزارة، وكان يتألف من بضعة عشر رجلاً جاؤوا مقرين بالإسلام . كذلك قدم وفد بني مرة على رسول الله عقب عودته من تبوك وكانوا ثلاثة عشر رجلاً [٢] . وفي هذا العام وفد إلى رسول الله وفد بني كلاب وكانوا ثلاثة عشر رجلاً [٣]، ووفد قشير بن كلب بعد غزوة حنين [٤] ، ووفد ثقيف ، ووفد بني البكاء [٥]، ووفد تجيب [٦]، ووفد بني عذرة [٧]، ووفد بلى [٨]، ووفد

---

(١) ابن هشام ، ج ٢ ص ٥٦٠
(٢) ابن سعد ، ج ١ ص ٢٩٧
(٣) نفسه ص ٣٠٠
(٤) نفسه ص ٣٠٣
(٥) نفسه ص ٣٠٤
(٦) نفسه ص ٣٢٣
(٧) نفسه ص ٣٣١
(٨) نفسه ص ٣٣٠

الداريين[١]. وقدم في سنة عشر للهجرة وفد محارب[٢]، ووفد خولان[٣]، ووفد سلامان[٤]، ووفد غسان[٥]، ووفد بني الحارث بن كعب[٦]، ووفد الرهاويين من بني مذحج[٧]، ووفد بجيلة[٨]. وكان أول من أعطى الجزية للنبي من أهل الكتاب أهل نجران النصارى، ثم أهل أيلة وأذرح، وأهل أذرعات في غزوة تبوك[٩]. ثم فرضت الجزية في اليمن وهجر على اليهود والمجوس من أهلها[١٠]. غير أن الاسلام لم يلبث أن انتشر انتشاراً سريعاً في اليمن، وقد رأينا وفودهم تأتي إلى المدينة معلنة دخولها في الإسلام، كما نرى البعض الآخر ممن أصروا على التمسك بدينهم القديم لم يلبثوا بدورهم أن اعتنقوا الاسلام، ويرجع سبب دخولهم في الاسلام إلى أن النبي أرسل إلى هذه القبائل المحافظة على أديانها علي بن أبي طالب وخالد ابن الوليد لدعوتهم إلى الاسلام، وأوصاهما بقوله: « امض ولا تلتفت ، إذا نزلت بساحتهم فلا تقاتلهم حتى يقاتلوك ». أما علي بن أبي طالب فقد اضطر إلى الدفاع عن نفسه عندما تحرش به جماعة من اليمنيين من مذحج، فلما تغلب عليهم أجابوه دعوته إلى الإسلام. وأما خالد بن الوليد فقد مضى إلى بني الحارث بن كعب بنجران ودعاهم إلى الإسلام فأجابوه دون قتال، وقدم خالد ومعه وفد منهم لإعلان إسلامهم[١١]. وكان النبي حريصاً على إرسال معلمين إلى القبائل بقصد تعليمهم الشريعة الاسلامية وقواعد الاسلام، وجباة للصدقات[١٢]. فقد عهد الرسول

(١) ابن سعد ، ص ٣٤٣
(٢) نفسه ، ص ٢٩٩
(٣) نفسه ، ص ٣٢٤
(٤) نفسه ، ص ٣٣٣
(٥) نفسه ، ص ٣٣٨
(٦) نفسه ، ص ٣٣٩
(٧) نفسه ، ص ٣٤٤ — المقريزي ، ص ٥٠٧
(٨) نفسه ، ص ٣٤٧
(٩) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٨١
(١٠) نفس المصدر ، ص ٨٦
(١١) ابن سعد ، ج ١ ص ٣٣٩ — ابن حزم ص ٢٦٠
(١٢) البلاذري ، ج ١ ص ٨٢

إلى عمرو بن حزم بالخروج إلى بني الحارث بن كعب ليعلمهم شرائع الاسلام ويفقههم في الدين ويجبي منهم الصدقات . كما ولى زياد بن لبيد حضرموت ، والمهاجر بن أبي أمية بن المغيرة المخزومي صنعاء ، وأبا موسى الأشعري زبيد ورمع وعدن والساحل ، ومعاذ بن جبل الجند ، وصير إليه القضاء ، وقبض جميع الصدقات باليمن ، وولى عمرو بن حزم الأنصاري ثم أبا سفيان بن حرب على نجران . وقد كتب رسول الله إلى زرعة بن ذي يزن زعيم حمير باليمن كتاباً يخبره فيه بتعيينه معاذ بن جبل على الصدقات ، ونص الكتاب ما يلي : « أما بعد ، فإذا أتاكم رسولي معاذ بن جبل وأصحابه فاجمعوا ما عندكم من الصدقة والجزية فأبلغوه ذلك ، فإن أمير رسلي معاذ ، وهو من صالحي من قبلي ، وإن مالك بن مرارة والرهاوي حدثني أنك قد أسلمت أول حمير وفارقت المشركين ، فابشر بخير . وأنا آمركم يا معشر حمير ألا تخونوا ولا تحادوا ، فإن رسول الله مولى غنيكم وفقيركم . وإن الصدقة لا تحل لمحمد ، ولا لآله ، إنما هي زكاة تزكون بها هي لفقراء المسلمين والمؤمنين . وإن مالكاً قد بلغ الخبر وحفظ الغيب ، وإن معاذاً من صالحي أهلي وذوي ديني ، فآمركم به خيراً ، فإنه منظور إليه والسلام »[1] . كذلك كتب إلى الحارث بن عبد كلال ، ونعيم بن عبد كلال ، وشرح بن عبد كلال ، وإلى النعمان قيل ذي رعين ومعافر وهمدان ، كتاباً نصه : « أما بعد ، فإن الله قد هداكم بهدايته إن أصلحتم وأطعتم الله ورسوله ، وأقمتم الصلاة ، وآتيتم الزكاة من المغانم خمس الله وسهم النبي وصفيه وما كتب الله على المؤمنين من الصدقة من العقار عشر ما سقت العين وسقت السماء وما سقى بالغرب نصف العشر »[2] .

كذلك أرسل النبي ﷺ إلى أزد عمان أبا زيد قيس بن سكن بن زيد ، وقيل ثابت ابن زيد الأنصاري الخزرجي أحد من جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ ليعلم أهلها الاسلام والقرآن والسنن[3] . وأرسل النبي ﷺ إلى عرب عبد القيس وبكر

(١) البلاذري ، ج ١ ص ٨٢

(٢) نفسه ، ص ٨٥

(٣) نفسه ، ص ٩٢

ابن وائـل وتميم بالبحرين العلاء بن عبد الله بن عماد الحضرمي ليدعو أهلهـا إلى الاسلام أو الجزية، وكتب معه إلى أميرها من قبل الفرس ويدعى المنذر بن ساوي، وإلى مرزبان هجر واسمه سيبخت، يدعوهما إلى الإسلام أو الجزية، فأسلما وأسلم معهما جميع العرب في هاتين المنطقتين وبعض العجم. أما المجوس واليهود والنصارى فقد صالحوا العلاء على الجزية [1] بسبب تمسكهم بأديانهم، فقـال منافقو العرب وقتئذ: «زعم محمد لا يقبل الجزية إلا من أهل الكتاب، وقد قبلها من مجوس هجر وهم غير أهل كتاب»، فنزلت الآية الكريمة: «يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعـاً فينبئكم بمـا كنتم تعملون» [2].

وبدخول قبائـل العرب في الاسلام، وقدوم وفودهم إلى المدينة في عامي ٩، ١٠ من الهجرة، تبدأ صفحة جديدة في تاريخ الدولة العربية الإسلامية، التي أصبحت تضم جميع قبـائل العرب على اختلاف أديانهم باستثناء مناذرة الحيرة وغساسنة جلق والجابية، وهؤلاء الغساسنة بوجه خاص كانوا يشكلون خطراً ماثلاً على الدولة العربية من الجهة الشمالية، وقد أدرك النبي هذه الحقيقة منذ أن اعترض شرحبيل بن عمرو الغساني رسول النبي وقتله، ومنـــذ أن احتك بهم المسلمون في غزوة مؤتة، ولذلك فقد عزم النبي ﷺ على إنفاذ حملة جديدة لتأديبهم وأعد هذه الحملة وجعل على قيادتها أسامة بن زيد بن حارثة، وكان هدفها غزو مشارف الشام (تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين)، ولكن لم يقدر لهذه الحملة أن تحقق مهمتها في حياة الرسول، وقدر أن يتم ذلك في بداية خلافة أبي بكر.

★ ★ ★

ثم حج النبي ﷺ حجة الوداع في ذي القعدة من العام العاشر، وشهد انتصار الإسلام على الوثنية ممثلاً في الحشود الهائلة من الحجاج الذين امتلأت بهم ساحـة

(١) البلاذري، ج ١ ص ٩٥

(٢) القرآن الكريم، سورة المائدة ٥ آية ١٠٥

الحرم ، وشهد النبي كيف ارتفعت كلمة الاسلام في هذا العدد الضخم من الحجاج الذي بلغ ما يقرب من مائة ألف حاج من العرب ليس بينهم مشرك واحد (١) .

ولما أدى النبي ﷺ مناسك الحج على النظام الإسلامي، وخطب في المسلمين في عرفات خطبته الأخيرة (٢)، عاد إلى المدينة في ١٤ من ذي الحجة سنة ١١هـ ثم مرض مرضه الذي مات فيه يوم ٢٧ صفر وهو في بيت ميمونة أم المؤمنين ، فاستأذن صلوات الله عليه نساءه أن يمرّض في بيت عائشة فأذنّ له في ذلك (٣)، وطال مرضه ﷺ اثني عشر يوماً وقيل أربعة عشر يوماً ثم قبض يوم الاثنين لاثنتي عشرة من ربيع الأول بعد أن أكمل رسالته، وأتم نعمته على المسلمين أو كما قال الله تعالى: « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً » (٤).

---

(١) المقريزي ، امتاع الاسماع ج ١ ص ٥١٢

(٢) ابن حزم ، حجة الوداع ، تحقيق الدكتور ممدوح حقي ، بيروت ١٩٦٦ ص ١٩٧

(٣) ابن هشام ، ج ٢ ص ٦٤٤ — ابن سعد ج ٢ ص ٢٣١ — ابن حزم ، ص ٦ — ابن الاثير ، اسد الغابة ، ج ١ ص ٥٢ — المقريزي ، الامتاع ج ١ ص ٥٤٢

(٤) القرآن الكريم ، سورة المائدة ٥ آية ٣

الباب الثانى

عصر الخلافة الراشدة

الفصل الثالث: الأخطار التي تهددت الدولة العربية الإسلامية بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم

الفصل الرابع : الفتوحات الإسلامية

الفصل الخامس : الفتنة الكبرى أو فتنة الأمصار

الفصل الثالث

الأخطار التي تهددت الدولة العربية الإسلامية بعد وفاة النبي ﷺ

١ – التنازع على الخلافة :

ا – نظام الخلافة

ب – مشكلة اختيار خليفة لرسول الله

٢ – حركة الردة :

ا – دوافعها

ب – موقف أبي بكر من المرتدين

الفصل الثالث

الأخطار التي تهددت الدولة العربية الاسلامية بعد وفات النبي ﷺ

– ١ –

التنازع على الخلافة

١ . نظام الخلافة

الخلافة هي نيابة عن صاحب الشرع (النبي ﷺ) في حفظ الدين وسياسة الدنيا [١] ، بمعنى أن الخليفة لا يعدو أن يكون رئيساً دينياً وسياسياً نيابة عن رسول الله ، يجمع بين سلطتين : دينية باعتباره إماماً للمسلمين يؤمهم للصلاة ويسهر على تطبيق العدالة والإنصاف ويحمي الدين ويذب عنه من خطر الخارجين عليه ، ودنيوية لأنه ينظر في مصالح المسلمين الدنيوية . والخلافة على حد قول ابن خلدون « حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية

---

(١) الماوردي (أبو الحسن علي بن محمد) ، الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، المطبعة المحمودية التجارية بمصر ، ص ٢ — ابن خلدون ، المقدمة ، طبعة بيروت ، ١٩٦١ ص ٣٨٦ — حسن ابراهيم حسن ، النظم الاسلامية ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ٣ — علي حسني الخربوطلي ، الدولة العربية الاسلامية ، ص ٦٢ .

الراجعة إليها ، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشرع إلى اعتبارهـــا بمصالح الآخرة ، فهي في الحقيقة خـلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به » [١] ، والخليفة على هذا النحو له الطاعة التـامة على جميع المسلمين في دينهم وفي دنياهم .

والخلافة نظام مستحدث حتمته الظروف بعد وفاة النبي ﷺ دون أن يعين للمسلمين خليفة لهم [٢] ، أو ينص على الخلافة عيناً لأحد من الناس ، لا لأبي بكر ولا لعلي [٣] ، وكأنما أراد رسول الله ﷺ بذلك أن يترك الأمر شورى للمسلمين ليختاروا من يصلح لها من بينهم جرياً على النظـــام القبلي الذي ألفه العرب ، خاصة وأنه لم يخلف ولداً ذكراً يستخلفه من بعده [٤] . وهكذا وجد المسلمون أنفسهم في سقيفة بني ساعدة بمدينة الرسول يبايعون أبا بكر بالخلافة على النحو الذي كان مألوفاً لدى العرب في الجاهلية عند اختيار شيوخهم ، وتم انتخـاب خليفة النبي ﷺ على أساس السبق إلى الاسلام وعلى أساس الانتماء إلى قبيـــلة قريش ، وأخيراً على أساس تفويض رسول الله له بإمامة المسلمين في الصلاة وذلك عندما اشتد به المرض ، بالاضافة إلى اعتبارات أخرى ، منها أنه كان ثاني اثنين في الغار ، وأنه والد السيدة عـائشة زوج رسول الله . ويذكر ابن خلدون أنه يشترط في الخليفة خمس شروط هي : العلم والعــدالة والكفاية وسلامة الحواس والأعضاء مما يؤثر في الرأس والعمل ، وأخيراً النسب القرشي [٥] ، كذلك يشترط الماوردي في النسب أن يكون من قريش لورود النص فيه وانعقاد الاجماع

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٣٣٨

(٢) ابن هشام ، السيرة النبوية ، طبعة القاهرة ١٩٣٦ ، ج ٤ ص ٣٠٢

(٣) ابن كثير الدمشقي ، البداية والنهاية ، بيروت ، ١٩٦٦ ج ٥ ، ص ٢٥٠

(٤) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، بيروت ، ١٩٦٩ ص ٨ - ١٠

(٥) ابن خلدون ، المقدمة ص ٣٤٢

عليه (١) . واشتراط النسب القرشي له مغزاه باعتبـــاره أساس العصبية « التي تكون بها الحماية والمطالبة ، ويرتفع الخلاف والفرقة بوجودها لصاحب المنصب، فتسكن إليه الملة وأهلها ، وينتظم حبـل الألفة فيها ، وذلك أن قريشاً كانوا عصبية مضر وأهلهم وأهل الغلب منهم، وكان لهم على سائر مضر العزة بالكثرة والعصبية والشرف، ، فكان سائر العرب يعترف لهم بذلـك ، ويستكينون لغلبهم ، فلو جعل الأمر من سواهم لتوقع افتراق الكلمة بمخالفتهم وعدم انقيادهم، ولا يقدر غيرهم من قبائل مضر أن يردهم عند الخلاف ، ولا يحملهم على الكرّة ، فتتفرق الجماعة وتختلف الكلمة » (٢) . ونستنتج مما سبق ، أن اشتراط القرشية إنما قصد به دفع التنازع بين المسلمين ، فالقائم بأمور المسلمين لا بد أن يكون من قوم أولي عصبية قوية . وقد أورد المحدثون عدداً من الأحاديث النبوية تدل كلها على أن الأئمة من قريش والخلافة فيهم (٣) ، أو أن قريش ولاة هـــذا الأمر . ولقد تمسك المهاجرون بهـذا الشرط في سقيفة بني ساعدة ، عندما رد أبو بكر رداً حازماً على مزاعم الأنصار، فقال: « لن تعرف العرب هذا الأمر إلا لهـذا الحي من قريش ، هم أوسط العرب نسباً وداراً » (٤) ، وكان لهـــذا الرد أثره الكبير في تحرج موقف الأنصار ، وترجيح كفة المهاجرين عليهم ، بعد أن كانت الكفتان أقرب ما تكونا إلى التعادل، ومن المعروف أن قريش كانت لها الزعامة على العرب في الجاهلية باعتبارهم أهل الحرم والقـــائمين على البيت الحرام ، وازدادت هذه المكانة سمواً في الاسلام (٥) . ثم استند عمر بن الخطاب على عصبية

---

(١) الماوردي ، المصدر السابق ، ص ٤

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٣٤٥ ، ٣٤٦

(٣) الطبري ، ج ٣ ص ١٩٩ ـ السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ١٠

(٤) ابن هشام ، ج ٤ ص ٣١٠ ـ الطبري ، ج ٣ ص ٢٠١

(٥) أحمد ابراهيم الشريف ، دور الحجاز في الحياة السياسية العـــامة في القرنين الأول والثاني للهجرة ، القاهرة ، ١٩٦٨ ص ١١٢

أخرى هي قرابة المهاجرين للنبي ﷺ ، فقال مخاطباً الأنصار : « والله لا ترضى العرب أن تؤمركم ونبيّها من غيركم ، ولكن العرب لا ينبغي أن تولي هذا الأمر إلا من كانت النبوة فيهم، وأولى الأمر منهم. لنا بذلك على من خالفنا من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين: من ينازعنا سلطان محمد وميراثه، ونحن أولياؤه وعشيرته إلا مدل بباطل أو متجانف لإثم أو متورط في هلكة » [١] . ولهذا السبب رجحت كفة أبي بكر لاستناده إلى ركيزتين: ركيزة الدين وركيزة العصبية [٢] .

وقد استمرت شروط الخلافة سارية في عصر الخلفاء الراشدين ، ولم يراع مبدأ الوراثة في مبايعة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وقد تمت خلافة ثلاثة منهم بطريق الشورى والاختيار. وعلى الرغم من أن أبا بكر هو الذي استخلف عمر بن الخطاب إلا أنه لم يقطع بهذا الاستخلاف إلا بعد أن طلب مشورة أولى الرأي من الصحابة في ذلك الأمر ، فقد سأل أبو بكر عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وسعيد ابن زيد وأسيد بن الحضير وغيرهم عن رأيهم في عمر بن الخطاب، فأجمعوا على أن سريرته خير من علانيته [٣] ، ولهذا السبب أملى على عثمان بن عفان عهداً استخلف فيه عمر بن الخطاب من بعده خوفاً على المسلمين الفتنة .

وكان الخليفة يلقب بلقب خليفة رسول الله لأنه يخلف النبي في أمته [٤] ، وقد نهى أبو بكر أن يطلق عليه المسلمون لقب « خليفة الله » لأن الاستخلاف إنما هو من حق الغائب [٥] ، ولما كان أبو بكر يقوم مقام الرسول في حكم الدولة

---

(١) ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ص ١٠

(٢) عبد الكريم الخطيب ، الخلافة والامامة ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٣١٩

(٣) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ج ٣ ص ١٩٩

(٤) ابن خلدون ، المقدمة ص ٤٠١

(٥) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ج ٣ ص ١٨٣ — الماوردي ، ص ١٤ - ابن خلدون ، المقدمة، ص ٣٣٩ ـ صبحي الصالح، النظم الاسلامية، نشأتها وتطورها، بيروت ١٩٦٥، ص ٢٨٨

العربية الإسلامية ، وفي السهر على تطبيق الشريعة ، فقد اعتبر نفسه خليفة رسول الله . أما عمر بن الخطاب فقد لقبه الناس بلقب « خليفة خليفة رسول الله » ، ثم استثقلوا هذا اللقب بكثرته وطول إضافته ، واتفق أن دعا بعض الصحابة عمر رضي الله عنه : « يا أمير المؤمنين » ، فاستحسن الناس هذا اللقب واستصوبوه ودعوه به ، وأول من دعاه به عبدالله بن جحش، وقيل عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة [١] ، وجرى الامر على تسمية عمر بأمير المؤمنين بدلاً من خليفة خليفة رسول الله منعاً للبس والتعقيد ، ويتضمن لقب أمير المؤمنين معنى القيادة والايمان أي يجمع بين السلطتين الادارية والدينية ، وهو لقب يتناسب مع ظروف عصر الفتوحات .

ثم تحول نظام الخلافة منذ قيام الدولة الأموية إلى ملك استبدادي قائم على النظام الوراثي ، على غرار ما كان معروفاً عند الفرس والروم ، وقد عرف التوريث أو النظام الوراثي بالهرقلية أو الكسروية[٢] تشبهاً بنظام أكاسرة فارس وأباطرة بيزنطة الوراثي ، وكان العرب يأنفون من هذين النظامين القائمين على القوة والجبروت [٣] ، بل كانوا يستنكرون مجرد التشبه بالكسروية في الزي

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٠٢ . وذكر اليعقوبي أن أبا موسى الاشعري كتب إليه في سنة ١٨ هـ بلقب أمير المؤمنين (اليعقوبي ، طبعة صادر ، ج ٢ ص ١٥٠) .

(٢) ابن كثير الدمشقي ، البداية والنهاية ، ج ٨ ص ٨٩

(٣) أحمد الشريف ، دور الحجاز، ص ١٢٣

ذكر ابن خلدون أن عمر بن الخطاب لما قابل معاوية في الشام ورآه في أبهة الملك وزيه من العديد والعدة استنكر ذلك وقال : « أكسروية يا معاوية ؟ » فقال : « يا أمير المؤمنين إنا في ثغر تجاه العدو وبنا إلى مباهاتهم بزينة الحرب والجهاد حاجة » فسكت عمر ولم يخطئه لما احتج عليه بقصد من مقاصد الحق والدين . ويفسر ابن خلدون الكسروية بما كان عليه أهل فارس في ملكهم من ارتكاب الباطل والظلم والبغي وسلوك سبله والغفلة عن الله (ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٣٦٠)

والباس... كذلك عدل الأمويون في حكم الدولة العربية عن تطبيق نظـــام الخلافة الراشدة القائم على الشورى والمستند على الدين إلى نظام الملك[١]، الذي يقوم على التوريث ويستند في آن واحد على السياسة ، واستحالت الخلافة منذ ذلك الحين إلى ما يشبه النظام الملكي . ثم تطور نظام الخلافة في العصر العباسي فأصبح الخليفة يحكم بتفويض من الله لا من الشعب، على نقيض ما كان متبعـــاً في نظام الخلافـــة الراشدة عندما كان الخليفة الراشد يستمد سلطانه من الأمة أو جماعة المسلمين ، ولذلك بدأت الالقاب الخلافية المضافة إلى الله تظهر منذ قيام الدولة العباسية ، وجاراهم خلفـــاء الدولة الفاطمية في ذلك ، إذ كان للخليفة الفاطمي صفة العصمة من جميع الخطايا مع الاحتفاظ بلقب الإمام الذي هو أساس الخلافة .

ب – مشكلة اختيار خليفة لرسول الله :

لم يتم اختيار أبي بكر خليفة لرسول الله إلا بعد نزاع كبير نشب بـــين المهاجرين والأنصار كاد يفتت وحدة المسلمين، ويصدع إحدى المقومات الرئيسية التي قامت عليه الدولة العربية الإسلامية ، وهي ارتباط المسلمين برابطـــة المؤاخاة . فقد انقسم المسلمون عند وفاة الرسول إلى ثلاثة تكتلات أو فرق لكل منها مرشحها :

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٣٦٩ . وذكر ابن طباطبا أن خلافة الأربعة الأول كانت أشبه بالرتب الدينية من الرتب الدنيوية في جميع الأشياء (ابن طباطبا ، تاريخ الدول الاسلامية ، طبعة صادر بيروت ١٩٦٠ ص ٢٩)

وفي موضع آخر يقول أن دولة الخلفاء الراشدين لم تكن من طراز دول الدنيا وأنها بالأمور النبوية والأحوال الأخروية أشبه ، « والحق في هذا ان زيها قد كان زي الأنبياء ، وهديها هدى الاولياء ، وفتوحها فتوح الملوك الكبار ، فأما زيهـــا فهو الخشونة في العيش والتقلل في المطعم والملبس . كان أحدهم يمشي في الأسواق راجلاً وعليه القميص الخلق المرقوع إلى نصف ساقه ، وفي رجله تاسومة ، وفي يده درة ، فمن وجب عليه حد استوفاه منه ، وكان طعامهم من أدنى اطعمة فقرائهم » (ابن طباطبا ، ص ٧٣)

الفرقة الأولى من الأنصار الذين أيدوا اختيار سعد بن عبادة الخزرجي ، والفرقة الثانية من المهاجرين،وقدأجمعوا في نهاية الأمر على اختيار أبي بكر،أما الفرقة الثالثة فكانت تتألف من الهاشمية وفئة من الامويين بالاضافة إلى طلحة بن عبيدالله والزبير بن العوام ، وكانت تميل إلى اختيار علي بن أبي طالب خليفـة لرسول الله [١] .

أما الفرقة الاولى وهم الانصار فكان برأسها سعد بن عبادة سيد الخزرج ، وقد بادرت هذه الفرقة بالاجتماع بعد وفاة الرسول في سقيفة بني ساعدة ليبايعوا رئيسهم بالخلافة ، وكانوا يرون أنهم أحق بالخلافة من المهاجرين لسابقة الأنصار في الإسلام ، ونصرتهم لرسول الله وأصحابه ، وإيوائهم لهم، وجهادهم في سبيل الله ، فهم على حــد قول الحباب بن المنذر الجموح أهل الإيواء ، وإليهم كانت الهجرة [٢]. أما الفرقة الثانية ، وهم المهاجرون،فقد أيدوا أبا بكر لإعتبارات كثيرة ، فقد خصّهم الله بتصديق رسالة النبي ﷺ«والايمان به والمواساة والصبر معه على الشدة من قومهم وإذلالهم وتكذيبهم إياهم ، وكل الناس مخالف عليهم ، زار لهم ،فلم يستوحشوا قلة عددتهم، وإزراء الناس لهم،واجتماع قومهم عليهم»[٣] وهم بالاضافة إلى ذلك أولياؤه وعشيرته وأحق الناس بالامر من بعده . وأمـا الفرقة الثالثة ومعظمها من الهاشمية فقد أيدت علي بن أبي طالب لان أباه حمى النبي عندما اضطهدته قريش ، ثم إنـــه بالاضافة إلى ذلك ابن عم رسول الله وزوج ابنته فاطمة الزهراء وأخ النبي كهارون من موسى ، وأول من أسلم من الصبيان ، وقد كان لهذه الاعتبارات جميعـاً أكبر الاثر في تأييد بني هاشم له وترشيحهم إياه للخلافة ، بحيث أن العباس عم الرسول أقبل عليه وطلب منه

---

(١) عبد العزيز الدوري ، مقدمة في تاريخ صدر الإسلام ، بيروت ١٩٦٠ ص ٤٨

(٢) ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ص ٨ ـ الطبري ، ج ٣ ص ٢٠٨ ، ٢٠٩

(٣) نفسه ، ص ٩ ـ الطبري ، ج ٣ ص ٢٠٩

أن يبسط يده ليبايعه [١] ، ولكن علي لم يستجب لهذا الطلب إما لخوفه من تفرق المسلمين إذا فسروا خلافته علي أنها ضرب من التوريث ، أو لانه كان على يقين من إجماع المسلمين عليه بدليل أنه قال لعمه : « ومن يطلب هـــذا الامر غيرنا؟»[٢]. وإذا كان رسول الله ﷺ قد أوصى المسلمين بالانصار ، فقال ﷺ : « يا معشر المهاجرين ، استوصوا بالانصار خيراً ، فـــإن الناس يزيدون وإن الانصار على هيئتها لا تزيد ، وإنهم كانوا عيبتي (موضع ثقتي) التي أويت إليها ، فأحسنوا إلى محسنهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم » [٣] ، كما ذكر ابن قتيبة أن النبي ﷺ خرج في مرضـــه الاخير متوكئاً على علي بن أبي طالب والعباس عم الرسول ، فدخل المسجد ، واجتمع الناس إليه ، فقال رسول الله : « إنه لم يمت نبي قط إلا خلف وراءه تركة ، وإن تركتي فيكم الانصـــار رضي الله عنهم ، وهم كرشي التي آوى إليها . أوصيكم بتقوى الله تعالى والإحسان إليهم ، فقد علمتم أنهم شاطروكم وواسوكم في العسر واليسر ، ونصروكم في النشط والكسل ، فاعرفوا لهم حقهم ، واقبلوا من محسنهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم » [٤] ؛ فإذا كان رسول الله قد أوصى المسلمين بالانصار خيراً فإنه كان قد أومأ بالامر لابي بكر ، فاختصه دون الصحابة جميعاً بالذكر ، وعندما أمـــر في مرضه بسد أبواب المسجد استثنى باب أبي بكر ، وقال يومئذ : « فاني لو كنت متخـــذاً من العباد خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن صحبة وأخاء إيمان حتى يجمع الله بيننا عنده » [٥] ، كذلك فوضه رسول الله ﷺ دون غيره من أصحـــاب رسول الله في الصلاة بالمسلمين وذلك عندما اشتد بـــه المرض [٦] ، فصلى

---

(١) ابن قتيبة ، ص ٦

(٢) نفسه

(٣) ابن هشام ، السيرة ، ج ٤ ص ٣٠٠

(٤) ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، ص ٥

(٥) ابن هشام ، ج ٤ ص ٢٩٩

(٦) ابن قتيبة ، المصدر السابق ص ٦ ـ ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، مجلد ٣ ص ١٧٩ ـ السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٥٨

أبو بكر سبع عشرة صلاة في قول ،وعشرين صلاة في قول آخر، وثلاثة أيام كوامل في حياة النبي في قول ثالث [١] . أمـا الفريق الثالث ، فيستند على أن علياً أحق بني هاشم بميراثهم من النبي، باعتباره زوج فاطمة بنت رسول الله وأبو سبطي رسول الله ، وهو الذي اعتبره رسول الله بالنسبة إليه بمنزلة هارون من موسى [٢] .

وعلى هـذا النحو من الانقسام واجه المسلمون مشكلة اختيار خليفة لرسول الله ، فعندما بلغ الانصار نبأ وفاة النبي اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة ليبايعوا سعد بن عبادة زعيم الخزرج وسيدهم ، فخرج إليهم وهو مريض ، فأجلسه قومه وعصبوه بعصابة ، وثنوا له وسادة[٣]، أما علي بن أبي طالب وقومه والزبير بن العوام وطلحة بن عبيدالله فقد اعتزلوا في بيت فاطمة ، في حين انحـاز بقيـة المهاجرين إلى أبي بكر وانحـاز معهم أسيد بن حضير في بني عبد الاشهل [٤] . وحدث أن أقبل رجل إلى أبي بكر وعمر وأبلغها باجتماع الأنصار في سقيفة بني ساعدة مع سعد بن عبادة ، فبادر الشيخان بالتوجه إلى الأنصار قبل أن يتفاقم الامر . وكان سعد بن عبادة قد خطب في قومه قائلا على لسان ابنه قيس لشدة مرضه : « يا معشر الانصار ، إن لكم سابقة في الدين وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب ، إن رسول الله ﷺ لبث في قومه بضع عشرة سنة يدعوهم إلى عبادة الرحمن وخلع الاوثان ، فمـا آمن به من قومـه إلا قليل ، والله ما كانوا يقدرون ان يمنعوا رسول الله ﷺ ولا يعرفوا دينـه ولا يدفعوا عن انفسهم ،

---

(١) ابن سعد، ص ١٨٠ - ابن هشام ، ج ٤ ص ٣٠٢ - الطبري ، ج ٣ ص ١٩٥ - ابن الاثير ، ج ٢ ، ص ٣٢٢ - ابن كثير الدمشقي ، البداية والنهاية ،ج ٥ ص ٢٣٥

(٢) ابن سعد ، ج ٣ ص ٢٤

(٣) اليعقوبي ، ج ٢ ص ١٢٣

(٤) ابن هشام ، ج ٤ ص ٣٠٧

حتى أراد الله لكم الفضيلة وساق اليكم الكرامة ، وخصكم بالنعمة ، ورزقكم الإيمان به وبرسوله ﷺ ، والمنع له ولاصحابه ، والإعزاز لدينه ، والجهاد لاعدائه ، فكنتم اشد الناس على من تخلف عنه منكم ،وأثقله على عدوكم من غيركم ، حتى استقاموا لامر الله تعالى طوعاً وكرهاً ، وأعطى البعيد المقادة صاغراً داحراً حتى أثخن الله تعالى لنبيّه بكم الارض ، ودانت بأسيافكم له العرب ، وتوفاه الله تعالى وهو راض عنكم قرير العين ، فشدوا أيديكم بهذا الامر ، فإنكم أحق الناس وأولاهم به »[١]. فأجابوه جميعاً بأنه أصاب القول ووفق في الرأي ، وأطلعوه على رغبتهم في الإجماع على مبايعته . وكان أبو بكر قد فزع أشد الفزع عندما علم باجتماع الانصار ،فأقبل مسرعاً في صحبة عمر بن الخطاب إلى سقيفة بني ساعدة قبل أن يلتاث الامر ، فلقيا أبا عبيدة بن الجراح ، فانطلق معهما ، ثم دخلوا السقيفة ، فالفوا سعد بن عبادة مع نفر من الاشراف ، وأراد عمر بن الخطاب أن يتكلم ، فسبقه أبو بكر إلى الكلام ، وقال : « إن الله جل ثناؤه بعث محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق ، فدعا إلى الاسلام ، فأخذ الله تعالى بنواصينا وقلوبنا إلى ما دعا إليه ، فكنا معشر المهاجرين أول الناس إسلاماً والناس لنا فيه تبّع ، ونحن عشيرة رسول الله ﷺ ، ونحن مع ذلك أوسط العرب أنساباً ، ليست قبيلة من قبائل العرب إلا ولقريش فيها ولادة ، وانتم ايضاً والله الذين آووا ونصروا ، وانتم وزراؤنا في الدين ووزراء رسول الله ﷺ ، وأنتم إخواننا في كتاب الله تعالى وشركاؤنا في دين الله عز وجل وفيما كنا من سراء وضراء . والله ما كنا في خير قط إلا كنتم معنا فيه ، فأنتم أحب الناس الينا وأكرمهم علينا ، وأحق الناس بالرضى بقضاء الله تعالى والتسليم لامر الله عز وجل لما ساق لكم ولإخوانكم المهاجرين رضي الله عنهم ، فلا تحسدوهم وأنتم المؤثرون على أنفسكم حين الخصاصة ، والله ما زلتم تؤثرون

---

(١) ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، ص ٧ – الطبري ، ج ٣ ص ٢٠٨ – ابن الأثير ، ج ٢ ص ٣٢٨

إخوانكم من المهاجرين وأنتم أحق الناس أن لا يكون هذا الأمر واختلافه على أيديكم ، وأبعد أن تحسدوا إخوانكم على خير ساقه الله تعالى إليهم ، وإنما أدعوكم إلى أبي عبيدة أو عمر وكلاهما رضيت لكم ولهذا الأمر ، وكلاهما له أهل »(١)

فنهض عمر بن الخطاب ونادى بأحقية أبي بكر بالخلافة لعوامل منها : أنه صاحب الغار ثاني إثنين ، ومنها أن رسول الله استخلفه على الصلاة بالمسلمين مقدماً إياه على سائر الصحابة (٢) . ويبدو أن الأنصار اقتنعوا بما ساقه عمر بن الخطاب من حجج ، فاقترحوا أن يتولى الخلافة اثنان واحد بعد الآخر : أحدهما من المهاجرين والآخر من الأنصار ، وتستمر الخلافة محصورة بين المهاجرين والأنصار على التعاقب . ولكن هذا الرأي لم يلق قبولاً حسناً من المهاجرين ؛ فقام أبو بكر وأبرز دور المهاجرين في تمكين الدعوة الاسلامية وصبرهم على الشدائد والإضطهاد ، ثم وضع الأنصار في منزلة تلي منزلة المهاجرين لأنهم هم الذين نصروا النبي وأصحابه على الكافرين من أهله وذويه ؛ وإذا جاز للمهاجرين أن يكونوا أمراء فلا بد أن يكون الأنصار لهم وزراء ، لا يفتاتون دونهم بمشورة (٣) . ولكن هذا الرأي لم ينل استحسان الأنصار ، فهب واحد منهم هو الحباب بن المنذر بن الجموح وأخذ يحث قومه على التمسك بحقهم في الخلافة ؛ فهم في رأيه أهل العز والثروة ، وأولو العدد والنجدة ، وهم أهل الإيواء وأصحاب الدار ، وإليهم كانت الهجرة ، واقترح الحباب أن يكون من المهاجرين أمير ومن الأنصار أمير . فرد عليه عمر بن الخطاب بأن السيفين لا يمكن أن يجتمعا في غمد واحد ، وأن الخلافة لا بد من حصرها في أولياء النبي وعشيرته .

---

(١) ابن قتيبة ، ص ٨ - ابن الأثير ، ج ٢ ص ٣٢٩

(٢) نفسه ، ص ٨ - ابن الأثير ، ج ٢ ص ٣٢٢ .

(٣) نفسه ، ص ١٠ - الطبري ، ج ٣ ص ٢٠٨ - ابن الأثير ، ج ٢ ص ٣٢٨

واحتدم الجدل والنقاش بين المهاجرين والأنصار ، وكاد يتأزم الموقف لولا أن قام قيس بن سعد الخزرجي ، وفي رواية أخرى بشير بن سعد ، مدفوعاً بدافع الغيرة بسبب ترشيح سعد بن عبادة ، فأيد المهاجرين في حقهم ، ودعا قومه إلى ترك النزاع ونبذ الخلاف ، وعدم التطاول على قريش في حق من حقوقهم فهم أحق بميراث النبي وتولى سلطانه [١]. ثم تقدم أبو بكر ، مستغلاً الموقف الذي تحول لصالح المهاجرين ، فدعا المسلمين إلى مبايعة عمر أو أبي عبيدة أمين هذه الأمة ، ولكن عمر أبى إلا أن يتولاها أبو بكر أفضل المهاجرين وثاني إثنين إذ هما في الغار ، وخليفة رسول الله على الصلاة ، وطلب منه أن يبسط يده ليبايعه ، فسبقه بشير بن سعد حتى لا يدع مجالاً لسعد بن عبادة في الاستئثار بالسلطان ، فلما رأى الأوس [٢] قيام بشير بمبايعة أبي بكر بادروا بمبايعته ، فأقبل الخزرج على أثر ذلك يبايعون أبا بكر من كل جانب باستثناء سعد بن عبادة الذي أصر على موقفه ، وظل ممتنعاً عن مبايعة أبي بكر حتى وفاته ، فلما تولى عمر الخلافة رحل سعد إلى الشام حيث توفي . ثم أقبلت أسلم فبايعت ابا بكر ، فتقوى أبو بكر بهم [٣].

وفي اليوم التالي لهذه البيعة الخاصة ، بويع أبو بكر بالخلافة البيعة العامة ، فصعد على المنبر ، وتأهب لمخاطبة جماهير أهل المدينة عندما سبقه إلى الكلام صاحبه عمر بن الخطاب ، فحمد الله واثنى عليه ثم قال في جملة ما قاله : « وإن الله قد جمع أمركم على خيركم ، صاحب رسول الله ﷺ ، ثاني اثنين إذ هما في الغار ، فقوموا فبايعوه » . فبايع الناس ابا بكر بيعة العامة بعد بيعة السقيفة [٤] . ثم خطب أبو بكر في الناس قائلاً : « أما بعد ، أيها الناس ، فاني قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أسأت فقوموني ، الصدق أمانة

---

(١) ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، ص ١٠

(٢) كان الأوس قد فقدوا زعيمهم سعد بن معاذ الذي توفي قبل وفاة الرسول

(٣) الطبري ، ج ٣ ص ٢١٠ — ابن الأثير ، ج ٢ ص ٣٣١

(٤) ابن هشام ، ج ٤ ص ٣١١

والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ له حقـــه ، والقوي ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله . لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشه في قوم قط إلا عمّهم الله بالبلاء . أطيعوني ما اطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله ، فـلا طاعة لي عليكم » [١] .

أما علي بن أبي طالب فقد امتنع عن مبايعة أبي بكر هو وجماعة من الهاشمية والزبير بن العوام، وتخلفوا في بيت فاطمة. فخرج إليهم عمر بن الخطاب في جماعة من الصحابة وأرغموا بني هاشم والزبير على مبايعة أبي بكر[٢]. ثم استقدم عليّ إلى أبي بكر وطُلب منه أن يبايعه ، فامتنـــع بحجة أن أبا بكر اغتصب حقه في خلافـــة النبي، وأنه استند في مقالته للأنصار على أن الخلافة لا بد أن تحصر في عشيرة رسول الله . قال علي : « أنا احق بهذا الأمر منكم ، لا ابايعكم وانتم أولى بالبيعة لي ، اخذتم هذا الحق من الأنصار ، واحتججتم عليهم بالقرابة من النبي ﷺ ، وتأخذوه من أهل البيت غصباً ، ألستم زعمتم للأنصار أنـــكم أولى بهذا الأمر منهم لما كان محمد منكم ، فأعطوكم القيادة ، وسلموا إليكم الإمارة فإذاً أحتج عليكم بمثل ما احتججتم على الأنصار: نحن اولى برسول الله حياً وميتاً، فأنصفونا إن كنتم تؤمنون ، وإلا فبوءوا بالظلم وأنتم تعلمون». وحاول الصحابة إكراه علي على مبايعة ابي بكر ، فبكت فاطمة ، وزجرت ابا بكر وأعلنت سخطها عليه وعلى عمر [٣] . ولم يبايع علي ابا بكر بالخلافـة إلا بعد ان توفيت

---

(١) ابن هشام ، ج ٤ ص ٣١١ ـ الطبري، ج ٣ ص ٢٠٣ – ابن الأثير ، ج ٢ ص ٣٣٢ ـ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ٥ ص ٢٤٨ ، ج ٦ ص ٣٠١ ـ السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٦٤

(٢) ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، ص ١٤

(٣) راجع التفاصيل في : الإمامة والسياسة ص ١٦ ، ١٧ ـ الطبري ، ج ٣ ص ٢٠٢

فاطمة، واختلفوا في الفترة التي امتنع فيها علي عن مبايعة أبي بكر، فبعضهم يجعلها ليلة من وفاة الرسول[1]، وقيل ٤٠ يوماً[2]، ولكن معظم مؤرخي العرب أجمعوا على ستة أشهر[3]. وعلى الرغم من اعتراض علي على مبايعة أبي بكر في أثناء هذه الفترة، فإنه لم يرض بمبايعة فريق من الناس له شخصياً إشفاقاً على المسلمين من الفتنة والانقسام، وفي نفس الوقت تقديراً منه للخليفة الأول أبي بكر، فقد ذكروا أنه لما أجمع الناس على مبايعة أبي بكر قدم أبو سفيان بن حرب إلى علي، وكان أبو سفيان من بين من تخلف عن بيعة أبي بكر، وطلب منه أن يبسط يده ليبايعه، وأبدى استعداده بأن ينصر علياً وأن يزوده بما شاء من الرجال والخيل لمناهضة أبي بكر، فأبى علي عليه، فتمثل أبو سفيان بشعر المتلمس:

ولن يقيم على خسف يراد به ... إلا الأذلان[4] عير الحي والوتد

هذا على الخسف معكوس برمته ... وذا يشج فلا يبكي له أحد

فزجره علي قائلاً: «والله إنك ما أردت بهذا إلا الفتنة، وإنك والله طالما بغيت للإسلام شراً. لا حاجة لنا في نصيحتك»[5]، وذكروا أنه أضاف قائلاً: «إنا وجدنا أبا بكر أهلاً لها»[6].

---

(١) ابن قتيبة: المصدر السابق، ص ١٧ ـ المسعودي، مروج الذهب، طبعة بيروت، ١٩٦٦ ج ٢، ص ٣٠٢.

(٢) اليعقوبي، ج ٢ ص ١٢٦

(٣) الطبري، ج ٣، ص ٢٠٢ ـ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٢٦ ـ ابن الأثير، ج ٢، ص ٣٢٥ ـ ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٥، ص ٢٨٥.

(٤) يعني بالأذلين العباس وعلي

(٥) الطبري، ج ٣ ص ٢٠٣ ـ ابن الأثير، ج ٢ ص ٣٢٦

(٦) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٦٢

وذكر اليعقوبي أن عتبة بن أبي لهب قال :

ما كنت أحسب أن الأمر منصرف .·. عن هاشم ثم منها عن أبي الحسن

عن أول الناس إيماناً وسابقة .·. وأعلم الناس بالقرآن والسنن

وآخر الناس عهداً بالنبي ، ومن .·. جبريل عون له في الغسل والكفن

من فيه ما فيهم لا يمترون به .·. وليس في القوم ما فيه من الحسن

فبعث إليه عليّ فنهاه[1]

- ٢ -

حركة الردة

١ - دوافعها :

لما توفى رسول الله ﷺ عظمت بوفاته فجيعة المسلمين ومصيبتهم ، وانفسح المجال أمام المنافقين وأعداء قريش من العرب لإظهار ما يخفون من نوايا انفصالية ونزعات ، وظهرت مظاهر الصدام العنيف بين النظامين القبلي والإسلامي في الحركة المعروفة بالردة [2] . فقد « ارتدت العرب ، واشرأبت اليهودية والنصرانية ، ونجم النفاق ، وصار المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية لفقد نبيهم ﷺ حتى جمعهم الله على أبي بكر »[3]. وساعد على تأجج نار الردة

---

(١) اليعقوبي ، ج ٢ ص ١٢٤

(٢) عبد العزيز الدوري ، مقدمة في صدر الإسلام ، ص ٤٢

(٣) ابن هشام ، ج ٤ ص ٣١٦ - البلاذري ، فتوح البلدان ، ج ١ ص ١١٤ - اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج ٢ ص ١١٤ - ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٢ ص ٣٣٤ - السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٦٨

وإذكاء الفتنة مابلغ القبائل العربية في أنحاء الجزيرة من تنازع المهاجرين والأنصار على الخلافة ،واستئثار قريش بالزعامة بعد أن خرجت الخلافة من الأنصار. ومن العوامل التي جرأت المرتدين على الانتقاص قيام أبو بكر بتحقيق رغبة الرسول في إنفاذ حملة أسامة بن زيد إلى الجبهة الشمالية ، وما سببه ذلك من ضعف القوة الدفاعية عن المدينة .

وحركة الردة في واقع الأمر لا تعدو أن تكون انتقاضاً على نظام الدولة العربية الاسلامية الذي وضع الرسول أسسه في المدينة ، فإن كثيراً من قبائل العرب لم تعترف بأبي بكر خليفة للنبي ﷺ اعتقاداً منهم بأن الإسلام قضي عليه بوفاة الرسول ، وأن نظام الخلافة يدعم نفوذ قريش ويجعل سلطان المدينة وراثياً ، فحنوا إلى النظام القبلي القديم القائم على الحرية والاستقلال في نطاق القبيلة ، وقام عدد من قبائل العرب في مختلف أنحاء شبه الجزيرة العربية بخلع سلطان المدينة ، وطرد عمال الصدقات ، مستهدفين من وراء ذلك التخلص من الزكاة ، التي اعتبروها إتاوة تحد من استقلالهم ، والاكتفاء من الإسلام بالصلاة، بينما ارتد عدد كبير من العرب عن الإسلام والتفوا حول عدد من المتنبئين بدافع من العصبية القبلية ، ابتغاء منافسة قريش في الرئاسة . وقد ظهرت بوادر هذه الحركة في أواخر أيام رسول الله ، ثم احتدمت نارها بعد وفاته . ودوافع هذه الحركة متعددة نجملها فيما يلي :

١ – وفاة النبي صلى الله عليه وسلم :

كان المسلمون قد ربطوا بين شخص محمد وبين ما حققه للعرب من مكاسب دينية واجتماعية وسياسية ، فهو الذي ربط العرب برابطة الإيمان بدلاً من رابطة الدم، وشرع الجهاد في سبيل الله بدلاً من القتال من أجل الثأر أو التسابق نحو الماء ، وأطاح بفردية القبيلة لقاء فكرة الجماعية التي تستند عليها الأمة ، وهو الذي أرسى قواعد الدولة العربية ، فوضع أسس حكومتها وفق الشريعة الإسلامية ، وساوى بين المسلمين ، ودعا إلى التكافل والتضامن ، ونظم المجتمع

العربي على نحو يتناسب وطباع العرب. وبالإضافة إلى هذا التغيير الجذري الذي طرأ على العرب في جميع مناحي حياتهم كانت قوة شخصية الرسول ، وإيمانه العميق برسالته ، وجرأته في سبيل الحق والدين من عوامل افتتان المسلمين بشخصه . فلما توفى صلى الله عليه وسلم أحدثت وفاته اضطراباً عنيفاً لا حدود له في نفوس المسلمين ، ولم يصدق الجمهور الأعظم منهم نبأ وفاته ، وقال الناس: « ما كنا نظن أن رسول الله يموت حتى يظهر على الأرض » [١] ، بل إن عمر بن الخطاب نفسه لم يصدق هذا الخبر ، ورد على الناس بقوله : « إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توفى ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم والله ما مات ، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ، ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات ، ووالله ليرجعن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما رجع موسى ، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات » [٢] . وظل عمر يحدث الناس بهذا المعنى حتى أقبل أبو بكر على الناس بعد أن تأكد من وفاة رسول الله ، فقال لعمر : « إن الله نعاه إلينا بقوله (إنك ميت وإنهم ميتون) » ثم خطب في الناس فقال: «أيها الناس : من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت» [٣] ، ثم تلا هذه الآية: (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أ فإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ، وسيجزي الله الشاكرين) [٤] .

وأحس المسلمون بعد وفاة الرسول بفراغ هائل ، وتشككوا في قدرة خليفته على ملئه ، وضعفت نفوسهم جزعاً وشعروا بالضياع ، ولم يلبث تيار

---

(١) اليعقوبي ، ج ٢ ص ١١٤
(٢) ابن هشام ، ج ٤ ص ٣٠٥ ـ اليعقوبي ، ص ١١٤ ـ الطبري ، ج ٣ ص ١٩٧
(٣) ابن هشام ، ج ٤ ص ٣٠٦ ـ الطبري ، ج ٣ ص ١٩٨
(٤) سورة آل عمران ٣ آية ١٤٤

الردة أن جرفهم . وهكذا تزعزع البناء الذي شيده الرسول ، لأن عدداً كبيرا من القبائل العربية التي كانت قد خضعت لسلطان الدولة العربية الاسلامية في حياته وفقاً لماهدات عقدتها مع الرسول ، اعتبرت ما كان يربطهـــا بالدولة الاسلامية قد انتهى بوفاته ، وتتمثل هذه الحالة في البيتين التاليين :

أطعنا رسول الله ما كان بيننا ∴ فيا لعباد الله ما لأبي بكر
أيورثنا بكراً إذا مات بعده ∴ وتلك لعمر الله قاصمة الظهر (١)

٢ ـ ضعف سلطان المدينة فيما وراء دائرة الحجاز :

كان للسرايا والغزوات التي قـام بها المسلمون في حياة الرسول ، ونخص بالذكر منها الحملة الكبرى التي وجهها الرسول بقيادته إلى تبوك في العام التاسع للهجرة ، وهي حملة لم تشهد بلاد العرب لها مثيلاً من قبل ، أعظم الأثر في بسط سلطان المدينة على معظم قبائل العرب في شبه الجزيرة ،ولم تلبث هذه القبائل أن أرسلت وفودها في العام التاسع معلنة خضوعها لدولة المدينة على النحو الذي أوضحناه في الفصل السابق . على أن خضوع قبائل الأطراف لسلطان المدينة لم يكن عميقاً في جذوره ، مكيناً في أسسه ، ولم تكن هذه القبائل لتخضع لسلطان المدينة إلا لما تبيّن لها تصميم النبي صلى الله عليه وسلم وتمسكه بفكرة توحيد الامة العربية كلها في ظل الإسلام ، فقبلت أن تعترف بهـذا السلطان طالما كان هذا الوضع مرهوناً بحياة الرسول ، ثم إن ما فرضه الإسلام من الزكاة على المسلمين أوجد نوعاً من الإحساس بالإذلال والتصاغر عند هذه القبائل لم تألفـــه قط على الرغم من أن الإسلام لم يعتبر الزكاة جزية أو إتاوة يدفعها المغلوب ، وإنما اعتبرها صدقة ، وعلى الرغم من أن رسول الله لم يحد من الشعور بالاستقلال الذي كانت هذه القبائل تنعم به ، فترك لها كيانها (٢)،

---

(١) الطبري ، ج ٣ ص ٢٢٣
(٢) عبد العزيز الدوري، ص ٤٢

فلم تفقد بدخولها في الاسلام شيئاً من حريتها ، ولم يكن سلطان المدينة يتجاوز العهود التي ارتبطت بها هذه القبائل مع الرسول ، ووجود ممثلين للمدينة في هذه القبائل للاشراف على جمع الزكاة . كل ذلك لم يمنع هذه القبائل من أن تكتم سخطها على هذا الوضع وأن تتحين الفرصة المناسبة لقطع ما كان يربطها سياسياً بالمدينة ، فتطرد عمال الصدقات ، وتنبذ الطاعة ، وتتنصل من التبعية .

ولم يكن عدد كبير من عرب الأطراف قد اعتنقوا الإسلام عن إيمان راسخ به وفهم عميق لأصوله ، وإنما هيبة وخوفاً مما يصيبها من الردع ، أو لمجرد التبعية لرؤسائهم ، ولم يكن رسول الله يشترط عليهم للإسلام سوى تطبيق قواعده وهي النطق بالشهادتين وأداء الصلاة وإيتاء الزكاة والصوم وأخيراً الحج لمن تيسر له القيام به ، ولذلك لم يتمكن الإسلام في قلوب الكثير من العرب وخاصة البدو أو الأعراب [١] الذين لم يغمر الإيمان قلوبهم ، ولم يألفوا ما جاء به الاسلام من تعاليم ومثل أطاحت بالمثل الجاهلية ، وكانوا يعتقدون أن الأوضاع الجديدة في الجزيرة موقوتة بحياة رسول الله ، فلما توفي ﷺ تجرأوا على إعلان خروجهم على سلطان المدينة ، وارتدوا عن الاسلام كنظام سياسي وليس إلى الوثنية التي قضى عليها الاسلام قضاء مبرماً .

٣ - انبعاث العصبيات القبلية :

لم يكن من السهل على قبائل العرب التي دخلت في الإسلام وأعلنت خضوعها

---

(١) قال الله تعالى : « قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ، وإن تطيعوا الله ورسوله لايلتكم من أعمالكم شيئاً ، إن الله غفور رحيم » (سورة الحجرات ٤٩ آية ١٤) . وذكر ابن الاثير أنه لما انهزم الناس عن طليحة الكذاب وأسر المسلمون عيينه بن حصن الفزاري زعيم غطفان وأحد اتباع طليحة ؛ ابتقدم إلى أبي بكر مكتوفا ، وكان صبيان المدينة يقولون له : « ياعدو الله ؛ أكفرت بعد إيمانك ؟ » فيقول : « والله ما آمنت بالله طرفة عين » ، فتجاوز عنه أبو بكر ؛ وحقن دمه؛ (المقريزي ٢ ص ١٢٩ - ابن الاثير ؛ ج ٢ ص ٣٤٨)

لدولة الرسول في المدينة منذ العام الثامن للهجرة أن تنسى في أمـــد قصير (لا يزيد عن ثلاث سنوات) عصبياتها القبلية التي جهد رسول الله على إذابتهـــا وتشكيل أمة عربية إسلامية أكدتها نصوص صحيفته ، ولم تكن هذه القبائل لترضى بتفوق قريش وزعامتها عليها ، واستمرار هذه الرئاسة بعد وفاة الرسول كنوع من الوراثة التي لم يألفها العرب قط . وليس أدل على ذلك من ذكر ما حدث في سقيفة بني ساعدة ، فلم يكن يمنع الأنصار عن مبايعة أبي بكر سوى خوفهم من أن ينحاز خليفة رسول الله إلى أهله وعشيرته ، فهـــذا الحباب بن المنذر بن الجموح يخـاطب قومه بعد مبايعتهم لابي بكر : « فعلتموها يا معشر الانصار ! أما والله لكأني بأبنائكم على أبواب أبنائهم قد وقفوا يسألونهم بأكفهم ولا يسقون الماء » . فقال أبو بكر: « أمنا تخاف يا حباب؟ » قال: « ليس منك أخاف ولكن ممن يجيء بعدك » . قال أبو بكر : « فإذا كان ذلك كذلك فالامر إليك وإلى أصحابك ، ليس لنا عليكم طاعة » ، قـال الحباب : « هيهات يا أبا بكر ، إذا ذهبت أنا وأنت جاءنا بعدك من يسومنا الضيم » [١] .

ولم تكن حركة الردة في جوهرها حركة دينية بقدر ما كانت في الواقع حركة سياسية وضحت فيها العصبيات القبلية ، وكانت ردة الاسود العنسي باليمن أول ردة في الإسلام على عهد رسول الله ، فادعى النبوّة ، واستغلظ أمره في اليمن ، ولكن حركته أخمدت قبل وفاة الرسول ، وعاد أصحاب النبي الذين كان قـد ردهم الأسود إلى أعمالهم [٢] . كذلـك تنبأ طليحة بن خويلد الاسدي من بني أسد في حياة الرسول ، واستفحل أمره بعد وفاته ، وتبعه عدد كبير من العرب تعصباً ، ولهذا كان أكثر أتباعه من أسد وغطفان وطيء [٣] . وتنبـأت أيضاً

---

(١) ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، ص ١٢

(٢) الطبري ، ج ٣ ص ٢١٧ ـ ابن الأثير ، ج ٢ ص ٣٤١

(٣) ابن الأثير ، ج ٢ ص ٣٤٤

امرأة من بني يربوع تدعي سجاح بنت الحارث بن سويد التميمية ، وكانت هي ورهطها في أخوالها من تغلب تقود أفناء ربيعة ، وكانت تسعى لغزو المدينة ، فطلبت من مالك بن نويرة اليربوعي أن يوادعها ، فردها عن غزوها ، وحملها على أحياء من بني تميم ، فأجابته بقولها : « أنا امرأة من بني يربوع ، فإن كان ملك فهو لكم » [1] ، وعندما اجتمعت بمسيلمة الذي ادعى النبوة في اليمامة قال لها مسيلمة : « هل لك أن أتزوجك وآكل بقومي وقومك العرب ؟ » فأجابته إلى طلبه ، فتزوجها [2] . وعندما كتب رسول الله إلى أهل اليمامة في العام السابع للهجرة يدعوهم الى الإسلام ، أرسل إليه أهل اليمامة وفداً اشترك فيه مسيلمة ، ولم يكن قد تنبأ بعد ، فقال مسيلمة للنبي : « إن شئت خلينا الامر وبايعناك على أنه لنا بعدك » ، فلما انصرف وفد بني حنيفة إلى اليمامة ادعى مسيلمة النبوة ، وكتب إلى النبي « من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله . أما بعد ، فإن لنا نصف الارض ولقريش نصفها ، ولكن قريشاً لا ينصفون . والسلام عليك » [3] ، فكتب إليه النبي : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد النبي إلى مسيلمة الكذاب أما بعد فـ (إن الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) والسلام على من اتبع الهدى » » [4] .

ومن المرتدين من كان يسعى إلى استرجاع ملك ، كبني ربيعة بالبحرين فإنهم أجمعوا على الردة وقالوا : « نرد الملك في المنذر بن النعمان بن المنذر » فملكوه [5] .

---

(١) ابن الأثير ، ج ٢ ، ص ٣٥٤

(٢) نفسه ، ص ٣٥٦

(٣) البلاذري ، فتوح البلدان ، ج ١ ص ١٠٦ - اليعقوبي ، ج ٢ ص ١٣٠ .

(٤) نفسه

(٥) الطبري ، ج ٣ ص ٢٥٥ - ابن الأثير ، ج ٢ ص ٣٦٨

كذلك ارتد الحطم بن ضبيعة فيمن تبعه من بكر بن وائل على الردة ومن انضم إليه ممن بقي على وثنيته حتى نزل القطيف وهجر ، وأرسل إلى الغرور بن سويد أخي النعمان بن المنذر ، فبعثه إلى جواثا ، وقال له : « اثبت فإني إن ظفرت ملكتك بالبحرين حتى تكون كالنعمان بالحيرة »[١] . ومن الأدلة التي نوردها لإثبات أن الردة حركة سياسية تقوم على العصبيات القبلية ما رواه الطبري ، إذ ذكر أن عيينة بن حصن قام في غطفان وتحالف مع بني أسد ، وابع طليحة مع ثبوت كذبه ، مبرراً موقفه بقوله : والله لئن نتبع نبياً من الحليفين أحب إلينا من أن نتبع نبياً من قريش ، وقد مات محمد وبقي طليحة »[٢] .

وذكر الطبري أيضاً أن طلحة النمري جاء إلى اليمامة ، وأراد الاجتماع بمسيلمة واختبار نبوته ، فلما جاءه قال له « أنت مسيلمة » ؟ . قال « نعم » . قال : « من يأتيك ؟ » قال « رحمن » . قال « أفي نور أو في ظلمة ؟ » ، فقال : « في ظلمة » ، فقال « أشهد أنك كذاب . وأن محمداً صادق ، ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر »[٣].

ونستدل من الأمثلة السابقة على أن حركة الردة حركة سياسية اتخذت قناعاً زائفاً من الدين ، وكانت تستهدف الاستقلال عن سلطان المدينة أو المطالبة بملك وسلطان ، بدليل أن العدد الأعظم من المرتدين اعتبروا الزكاة نوعاً من الإتاوة[٤] التي يؤديها المغلوب إلى الغالب ، فطالبوا بإعفائهم منها ، أو التمس بعضهم

---

(١) الطبري ، ج ٣ ص ٢٥٦

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٣٠

(٣) نفس المصدر ، ج ٣ ص ٢٤٦ - ابن الأثير ، ج ٢ ص ٣٦٢

(٤) ذكر الطبري في ذلك أن عمرو بن العاص نزل بعد منصرفه من عمان عقب وفاة رسول الله على قرة بن هبيرة بن سلمة بن قشير وحوله عسكر من بني عامر ، ثم خلا به قرة فقال له : « يا هذا إن العرب لا تطيب لكم نفساً بالإتاوة ، فإن أنتم أعفيتموها من أخذ أموالها فتسمع لكم وتطيع ، وإن أبيتم فلا أرى أن تجتمع عليكم » (الطبري ، ج ٣ ص ٢٣١ - ابن الأثير ، ج ٢ ص ٣٥٢)

من وراء انتحال النبوة نوعاً من الرئاسة السياسية منافسة لقريش، وقد أيدت المتنبئين قبائلهم تعصباً فحسب دون أي اعتبار آخر .

ب — موقف أبي بكر من المرتدين :

كان أبو بكر يجمع بين اللطف ورقة القلب وبين الشجاعة وشدة العزم وقوة الإرادة والتصميم ، وكان صديقاً لرسول الله وثاني اثنين في الغار ، بذل نفسه وعرضها للأخطار فداء لرسول الله ، وضحى بأمواله في سبيل الدعوة الإسلامية حتى قيل إن رسول الله كان يقضي في مال أبي بكر كما يقضي في مال نفسه[1]، وشارك ابو بكر في الجهاد مشاركة فعالة ، وكان يوم بدر أشجع المسلمين ، فقد دافع عن رسول الله وهو في عريشه خير دفاع .

وصمم أبو بكر الصديق منذ اليوم الذي بويع فيه بالخلافة على أن ينهج نهج رسول الله ويترسم خطاه ويسلك السبيل التي سلكها في سبيل نشر الإسلام وتوحيد أمة العرب دون أن يخاف وهناً ولا حيرة ولا جبناً ، وعلى الرغم من ثقل المهمة التي تحمل تبعتها فقد آلى على نفسه ألا يتساهل في أمور الدين ولا ينحرف عن سواء السبيل مهما كلفه ذلك من تضحيات ، وقد عبر عن ذلك في خطبته في اليوم الأول الذي تمت فيه بيعته ، فقال : « ولقد قلدت أمراً عظيما ما لي به طاقة ولا يد ، ولوددت أني وجدت أقوى الناس عليه مكاني ، فأطيعوني ما أطعت الله ، فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم » ، ثم بكى وقال « اعلموا أيها الناس أني لم أجعل لهذا المكان أن أكون خيركم ولوددت أن بعضكم كفانيه ، ولئن أخذتموني بما كان الله يقيم به رسوله من الوحي ما كان ذلك عندي ، وما

---

(١) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٣٦

أنا إلا كأحدكم، فإذا رأيتموني قد استقمت فاتبعوني وإن زغت فقوموني...»[١]
وهكذا لم يكن أبو بكر على استعداد للتساهل في أمر من أمور الدولة والدين ، عندما ظهرت حركة الردة ، وصمم على محاربة المرتدين وعدم مهادنتهم في الوقت الذي أنفذ حملة أسامة بن زيد إلى مقصدها تلبية لأمر رسول الله قبل وفاته .

وعندما شرع أسامة في الرحيل ارتد عامة العرب وخاصتهم إلا قريشاً وثقيفاً[٢] ، فأبدى جماعة من المسلمين اعتراضهم على تسيير حملة أسامة في وقت انتقض فيه العرب على سلطان المدينة ، ونصحوه بإبقاء الجيش ، فأجابهم أبو بكر : « والذي نفسي بيده لو ظننت ان السباع تختطفني لأنفذت بعث اسامة كما امر به النبي ﷺ ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته »[٣]

وكان طليحة بن خويلد الأسدي الذي تنبأ في أواخر حياة الرسول قد كثر جمعه واستفحل أمره ، وتعصب له قومه على غير إيمان به ، ولما كثر اتباعه بانضمام أسد وغطفان وطيء وكنانة فرقهم في نواحي أراضيهم ، فأقام فريق منهم في ذي القصة التي تقع على مسافة قريبة إلى الشرق من المدينة ، وأمدهم طليحة بحبال الأسدي ، بينما عسكر فريق آخر من بني مرة في الأبرق ، بقيادة عوف بن فلان بن سنان، وأرسلوا إلى المدينة وفداً منهم يبلغ ابا بكر باستعدادهم لبذل الصلاة ومنع الزكاة . واشار جماعة من المسلمين على ابي بكر بقبول ما عرضه المرتدون عليه ، وقالوا : « أقبل منهم يا خليفة رسول الله ، فإن العهد حديث والعرب كثير ، ونحن شرذمة قليلون لا طاقة لنا بالعرب ، مع أننا سمعنا رسول الله ﷺ يقول : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها

---

(١) ابن قتيبة ، ص ١٩.

(٢) الطبري ، ج ٣ ص ٢٢١ - ابن الأثير ، ج ٢ ص ٣٤٢

(٣) نفس المصدر ، ص ٢١٢ - ابن الأثير ، ج ٢ ص ٣٣٢

عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله » فقال أبو بكر : « هذا من حقها لا بد من القتال » ، فطلب القوم من عمر بن الخطاب ، أن يخلو به عله يعدل عن عزمه فيقبل من المرتدين الصلاة ، ويعفيهم من الزكاة ، فلما حدثه عمر في ذلك ورجاه أن يفتر عن قتالهم وقال له : « يا خليفة رسول الله تألف الناس وارفق بهم فإنهم بمنزلة الوحش » فرد عليه أبو بكر بقوله : « رجوت نصرتك وجئتني بخذلانك ، جباراً في الجاهليـــة جوّازاً في الإسلام ؟ بماذا عساي أن أتألفهم ، بشعر مفتعل أو بسحر مفترى ؟ هيهات هيهات »[١] . ثم قـــال : « والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونــه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه ، ولو لم أجد أحداً أقاتلهم به لقاتلتهم وحدي حتى يحكم الله بيني وبينهم وهو خير الحاكمين . وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : أمرت أن أقاتــل الناس على ثلاث : شهادة أن لا إله إلا الله ، وإقـــامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، فوالله الذي لا إله إلا هو لا أقصر دونهن»[٢]. وعلى هذا النحو عزم أبو بكر عزماً أكيداً على محاربة المرتدين ومانعي الزكاة ، إذ اعتبرهم مارقين متمردين على الدولة العربية الإسلامية .

رد أبو بكر وفود أسد وغطفان وطيء ، فعادوا وأخبروا قومهم بما عاينوه من ضعف قوة الدفاع عن المدينة[٣]، وأطمعوهم فيها ، ولم يكن أبو بكر بغافل عن نوايا المرتدين العدوانية ، فعمل على تدعيم الدفاع حول المدينة ، تأهباً لمقاتلة المرتدين إذا هاجموا المدينة ليلاً أو نهارا ، فعهد بالدفـاع عن أنقاب المدينة ، والمقصود بها الطرق الجبلية ، إلى علي بن أبي طالب وطلحة والزبير وعبدالله بن مسعود . وصح ما توقعه أبو بكر، فلم تكد تمضي ثلاثة ليالي حتى أغار المرتدون من غطفان وبني أسد على المدينة ليلاً، ولكن الغارة ووجهت بمقاومة باسلة، وانتهت

---

(١) السيوطي ، ص ٦٨

(٢) ابن قتيبة ، ص ٢٠ - البلاذري ، فتوح البلدان ، ج ١ ص ١١٣ .

(٣) محمد أبو الفضل ابراهيم ، وعلي محمد البجاوي ، أيام العرب في الإسلام ، القاهرة ١٩٦١ ص ١٤٢

بالفشـــل . ولم ينتظر أبو بكر أن يعاودوا الكرة ، فبادر بالزحف نحو العدو أثناء الليل ، فما طلع الفجر إلا وهم والعدو على صعيد واحد ، فما سمعوا للمسلمين همساً ولا حساً حتى وضعوا فيهم السيوف ، فاقتتلوا أعجاز ليلتهم ، فما ذر قرن الشمس حتى ولوهم الأدبار ، وغلبوهم على عامة ظهرهم، وقتل حبال، وأتبعهم أبو بكر حتى نزل بذي القصـة ، وكان أول الفتح » [١] . فانتقم بنو عبس وذبيان من المسلمين بأن وثبوا على من بقي منهم عـلى الإسلام فقتلوهم ، فأقسم أبو بكر ليقتلن من المشركين بمن قتلوا من المسلمين .

وفي هذه الأثناء وصل أسامة بن زيد من حملته ظافراً ، فاستخلفه أبو بكر على المدينـــة حتى يستريح هو وجنده ، وزحف أبو بكر بنفسه في جمع من المسلمين فنزل بالأبرق [٢] ، فقاتل من به من المرتدين ، وتغلب عليهم وعلى بلاد ذبيان، وانسحبت ذبيان وبني عبس إلى طليحة الأسدي ببزاخة ،وهي عين ماء لبني أسد تقع بالقرب من مكة [٣]. أما أبو بكر فقد عاد إلى المدينة ، وكان أسامة قد استراح هو وجنده وتأهـــب لخوض المعركة ضد المرتدين ، فوزع أبو بكر البعوث وعقد الألوية لأحد عشر أميراً، أمر كل منهم باستنفار من مر به من المسلمين من أهل القوة وهم :

١ — خالد بن الوليد: وعهد إليه الخليفة بمحاربة طليحة بن خويلد في بزاخة [٤]، ثم مالك بن نويرة بالبطاح، وهو ماء لبني أسد

---

(١) الطبري ، ج ١ ص ٢٢٤ – ابن الأثير ، ج ٢ ص ٣٤٤ ، ٣٤٥ – أيام العـــرب في الإسلام ، ص ١٤٣

(٢) يقال له أبرق الربذة كان في منازل ذبيان (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ١ ص ٦٨) .

(٣) ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ٤٠٨

(٤) ذكر البلاذري أن أبا بكر بعثـــه إلى اليمامة لمحاربة مسيلمة (البلاذري ، ج ١ ص ١٠٦)

٢ ـ عكرمة بن أبي جهل : وأمره بالسير نحو مسيلمة في اليمامة ، ثم التوجه إلى دبا [١] بعد الفراغ من اليمامة .

٣ ـ المهاجر بن أبي أمية : وأمره بمحاربة جنود الأسود العنسي ومساعدة الأبناء،وهم نتاج مصاهرةالفرس للعرب ،ضد قيس بن المكشوح المرادي ومن أيده من أهل اليمن عليهم ،فإذا انتهى من مهمته ، يمضي إلى كندة بحضرموت ليجتمع مع زياد بن لبيد ليكونا يداً واحدة على المرتدين .

٤ ـ خالد بن سعيد بن العاص : سيره إلى مشارف الشام .

٥ ـ عمرو بن العاص : أرسله إلى قضاعة ووديعة والحارث في شمال الحجاز

٦ ـ حذيفة بن محصن الغلفاني :وعهد إليه بأهل دبا ، ثم الانضمام إلى عرفجة ابن هرثمة

٧ ـ عرفجة بن هرثمة : وكانت وجهته مهرة .

٨ ـ شرحبيل بن حسنة : سيره في أثر عكرمة بن أبي جهل لمقاتلة مسيلمة، ثم أمره ان يمضي بعد اليمامة إلى قضاعة مدداً لعمرو بن العاص .

٩ ـ طريفة بن حاجز : ووجهته بني سليم ومن معهم من هوازن.

١٠ - سويد بن مقرن : ووجهته تهامة اليمن .

١١ ـ العلاء بن الحضرمي: وأمره بالبحرين لمحاربة من ارتد بها من ربيعة [٢].
ويضيف البلاذري إلى هؤلاء أميراً آخر هو يعلي بن منية حليف بني نوفل

---

(١) البلاذري معجم البلدان ، ج ١ ص ٩٢

(٢) الطبري ، ج ٣ ص ٢٢٥ – ابن الأثير ،ج ٢ ص ٣٤٦ ـ محمد حميد الله الحيدر آبادي ، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ، القاهرة ١٩٥٦ ص ٢٦٠

ابن عبد مناف أرسله أبو بكر إلى خولان باليمن [١] .

انفصل أمراء البعوث من ذي القصّة بعد أن زود أبو بكر كلا منهم بنسخة من كتاب وجّهه إلى المرتدين يأمرهم فيه بمراجعة الاسلام ويحذرهم من نتيجة ارتدادهم : ونسخة من عهده لهم بقتال المرتدة [٢] . ونجحت بعوث أبي بكر في قمع حركة الردة على نحو لم يكن في الحسبان ، وقاتل خالد بن الوليد ، أكثر هؤلاء الامراء كفاية حربية ومقدرة ، طليحة وحلفاءه من بني أسد وغطفان في بزاخة ، وانتهت المعركة بهزيمة طليحة وحلفائه ، وفر طليحة مع امرأته إلى بلاد الشام ، فأقام في كلب ، وأسلم حين بلغه أن أسداً وغطفان وعامر قد أسلموا ، ثم خرج معتمراً إلى مكة في خلافة أبي بكر [٣] . أما بنو عامر فقد أقبلوا بعد هزيمة أهل بزاخة إلى خالد ابن الوليد يعلنون إسلامهم ، فبايعهم على مثل ما بايع عليه أهل البزاخة من أسد وغطفان وطيء قبلهم ، بعد أن طلب منهم أن يسلموا إليه المسؤولين عن قتل المسلمين منهم . فأتوه بهم ، فاستثنى منهم قرة بن هبيرة القشيري ونفراً معه أوثقهم وسيرهم إلى أبي بكر ، ومثّل بالذين عدوا على المسلمين فأحرقهم بالنيران وأثقلهم بالحجارة ثم رمى بهم من الجبال [٤] . ثم بلغ خالد أن فلول غطفان وطيء وسليم وهوازن قد اجتمعوا إلى أم زمل سلمى بنت مالك بن حذيفة فحرضتهم على القتال ، وكثرت حشودها واستفحل أمرها ، فزحف إليها خالد واشتبك معها فقتلت وقتل حول جملها مائة رجل [٥] .

---

(١) البلاذري ، ج ١ ص ١١٩

(٢) راجع نص كتاب أبي بكر ونص العهد في ملاحق الكتاب

(٣) الطبري ، ج ٣ ص ٢٣٢ ـ ابن الأثير ، ج ٢ ص ٣٤٨ . ياقوت معجم البلدان ، مجلد ١ ص ٤٠٨ . وذكر البلاذري أن طليحة أبلى في فتح العراق ونهاوند بلاء حسناً (البلاذري ج ١ ص ١١٥)

(٤) نفسه ص ٢٣٣ ، ٢٣٤ ـ ابن الأثير ، ج ٢ ص ٣٥٠

(٥) نفسه ـ ابن الأثير ، ج ٢ ص ٣٥٠ ، ٣٥١

ثم زحف خالد نحو البطاح وبها مالك بن نويرة[١]، فلما قدم البطاح لم يجد بها أحداً، إذ كان مالك قد فرق بني يربوع أتباعه، فبث خالد السرايا، فجاءته الخيل بمالك بن نويرة في نفر من بني ثعلبة بن يربوع، فأمر بحبسهم في ليلة باردة، ثم أمر رجاله أن يدفئوا الأسرى، والإدفاء في لغة كنانة القتل، فظن جنده أنه أراد قتل الأسرى، فقتلوهم. فلما علم خالد بما حدث أسف لمقتل مالك، وتزوج أم تميم امرأته، وكان قتل مالك من العوامل التي أثارت عمر بن الخطاب على خالد ابن الوليد، فاتهمه أنه قتل رجلاً مسلماً وتزوج امرأته، وعلى الرغم من أن أبا بكر تجاوز عن خالد، فإن عمر بن الخطاب لم ينس له فعلته[٢].

ثم سار خالد بجموعه إلى اليمامة لقتال مسيلمة الكذاب، وكان أبو بكر قد عقد لعكرمة في عسكر إلى اليمامة لمحاربة مسيلمة، ثم أتبعه بشرحبيل بن حسنة، فعجل عكرمة بمواقعة أهل اليمامة حتى ينـال شرف الانتصار عليهم فنكبوه وهزموه، وأقام شرحبيل في الطريق عندما بلغه خبر الهزيمة، وكتب عكرمة إلى أبي بكر بخبر هزيمته، فأمره أبو بكر بالسير إلى عمان ومهرة والاشتراك مع حذيفة وعرفجة، ثم أمره بعد ذلك بالسير إلى اليمن والاشتراك مع مهاجر بن أبي أمية في محاربة المرتدين. ثم كتب أبو بكر إلى شرحبيل يأمره بالمقـام في موضعه إلى أن يصل خالد فيشترك معه في مقاتلة مسيلمة، ثم يمضي بعد ذلك إلى عمرو بن العاص ليعينه على قضاعة.

وعلى الرغم من أن أبا بكر أمر شرحبيل بالبقاء حيث هو حتى يدركه خالد فإن شرحبيل سبق خالداً في مقـابلة بني حنيفة وكان عددهم يومئذ أربعين ألف

---

(١) كان مالك عاملاً للنبي صلى الله عليه وسلم على صدقات بني حنظلة، فلما توفي رسول الله، أعفى بني حنظلة من الزكاة، وقد ذكروا أنه لم يرتد، وقيل أن بني حنظلة وضعوا السلاح وأذنوا عندما قدمت إليهم جيوش خالد (البلاذري، ج ١ ص ١١٧)

(٢) الطبري، ج ٣ ص ٢٤٣

مقاتل ، فنكب ، ثم حاجز . فلما قدم إليه خالد لامه على تسرعه . واشتبك المسلمون بقيادة خالد مع بني حنيفة بقيادة مسيلمة ومجّاعة بن مرارة في عقرباء[١]، واشتد القتال بين الفريقين، وتبادلا النصر والهزيمة، وتعرض المسلمون للهزيمة أكثر من مرة ، وكثر القتلى في الفريقين ، وانتهت المعركة بهزيمة بني حنيفة ، وطاردهم المسلمون حتى ألجأوهم إلى الحديقة ، فسميت يومئذ حديقة الموت لكثرة من قتل بها، وفيها قتل مسيلمة ، كما قتل محكم اليمامة [٢] ، وبلغ عدد القتلى من بني حنيفة بعقرباء سبعة آلاف وبحديقة الموت سبعة آلاف أخرى وفي طلب الفلول سبعة آلاف ثالثة ، في حين لم يقتل من المهاجرين والأنصار من أهل المدينة سوى ٣٦٠، ومن المهاجرين من غير أهل المدينة ٦٠٠ أو أكثر [٣] ، وذكر بعضهم أن عدة من استشهد من المسلمين ١٧٠٠ وقيل ٧٠٠ وقيل ١٢٠٠ [٤] . ويعتبر خالد أهم قواد المسلمين أبطال حرب الردة ، وكان دوره أهم الأدوار جميعاً ، إذ قضى على حركة مسيلمة أكثر المرتدين خطراً على دولة المدينة ، وغرس الهلع والذعر في قلوب المرتدين في أكثر مناطق الجزيرة العربية إلى حد أن الكثيرين منهم استسلموا للمسلمين دون قتال وأظهروا الاسلام والأذان ، ومنهم بنو عامر بن صعصعة[٥]. وأثبت انتصار المسلمين على كل من طليحة ومسيلمة على سطوة المدينة في ظل نظام الخلافة . وبالقضاء على كل من طليحة ومسيلمة سهل على المسلمين القضاء على المرتدين في الأطراف: فيعلى بن منية قاتل خولان حتى أذعنت وأقرت بالصدقة، وفي قول آخر لم يلق حرباً ، وأن القوم رجعوا إلى الإسلام [٦] ، وطريفة بن

---

(١) العقرباء منزل من أرض اليمامة لقوم من بني عامر بن ربيعة (ياقوت معجم البلدان، مجلد ٤ ص ١٣٥)

(٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، ج ١ ص ١٠٧ ـ الطبري ، ج ٣ ص ٢٤٨

(٣) الطبري ، ج ٣ ص ٢٥٢ ـ ابن الأثير ، ج ٣ ص ٣٦٥

(٤) البلاذري ، ج ١ ص ١١١

(٥) نفسه ، ج ١ ص ١١٦

(٦) نفسه ، ج ١ ص ١١٩

حاجز ومساعده عبدالله بن قيس الحاشي هاجما الفجاءة السلمي بالجواء ، فانهزم الفجاءة ووقع أسيراً ، فلما قدم به طريفة على أبي بكر أمر بإحراقه في ناحية المصلى [١] ، وعكرمة بن أبي جهل أمره أبو بكر بالانضمام إلى زياد بن لبيد والمهاجر بن أبي أمية لمحاربة الأشعث بن قيس وقومه من كندة ، وكان الأشعث قد تحصن في النجير من أرض اليمن ، فقدم عكرمة عليهما بعد منصرفه من عمان وقد فتح النجير [٢] .

وعلى الرغم من أن عكرمة أخطأ بواقعته لأهل اليمامة قبل أن ينضم إليه شرحبيل ، وأبدى تهوراً بتسرعه في قتالهم الأمر الذي أدى إلى نكبته ، فإنه أثبت في محاربته للمرتدين من أهل مهرة أنه محارب من الدرجة الأولى ، وأبلى في قتاله لهم بلاء حسناً ، فبعد أن أعان حذيفة بن محصن الغلفاني وعرفجة البارقي في محاربة أهل عمان ، وكان عاملاً رئيسياً من عوامل انتصار المسلمين ، سار إلى أهل مهرة ، فاقتحم عليهم بلادهم ، وقاتل المصبح أحد بني محارب قتالاً شديداً انتهى بهزيمة المرتدين ومصرع زعيمهم [٣] ، وقد كان لانتصاره في ذلك اليوم أعظم الأثر في استرجاع الثقة بسطوته الحربية وكفايته .

وفي البحرين تمكن العلاء بن الحضرمي من إيقاع الهزيمة بربيعة بحصن جواثا ، فافتتح الحصن وقتل الحطم وهو شريح بن ضبيعة بن عمرو بن مرثد زعيم المرتدين بالبحرين ، وكان العلاء قد كتب إلى الخليفة أبي بكر يستمده ، فسيّر إليه خالد ابن الوليد الذي قدم بعد مصرع الحطم . واشترك خالد مع العلاء في افتتاح الخط واستنزال من بها من فلول ربيعة ، وقتل المنذر بن النعمان [٤] .

---

(١) البلاذري ، ص ١١٧ ـ ابن الأثير ، ج٢ ص ٣٥١

(٢) نفس المصدر ، ج ١ ص ١٢١ ـ ابن الأثير ، ج ٢ ص ٣٨١

(٣) نفس المصدر ، ص ٩٣ ـ ابن الأثير ، ج ٢ ص ٣٧٣

(٤) نفسه ، ص ١٠٣ ـ ابن الأثير ، ج ٢ ص ٣٦٩ ، ٣٧٠

وهكذا استطاع أمراء الجند الذين سيّرهم أبو بكر لقمع حركة الردة أن يقضوا على المرتدين في أمد قصير ، ويسترجعوا للمدينة نفوذها على سائر قبائل العرب في الجزيرة ، وتحقق بذلك هدف أبي بكر ، ودخل العرب في الإسلام طوعاً وكرهاً ، وحمد الصحابة لأبي بكر رأيه، وعرفوا فضله في قتال أهل الردة [١]. والواقع أن شجاعة أبي بكر ورباطة جأشه وقوة إرادته كانت العامل الرئيسي لإنقاذ الموقف ، فقد كانت حركة الردة تشكل أعظم خطر هدد الدولة العربية الفتية ، وكان في إمكان المرتدين لو أنهم تضامنوا فيما بينهم أن يقضوا على النظام الجديد الذي جهد الرسول ﷺ في سبيل إنشائه وتدعيمه . كذلك كانت صلابة أبي بكر وشدته في معاملة من أصر على ردته من تحريق وتمثيل أكبر الأثر في إعادة المرتدين إلى صوابهم وإنابتهم إلى رشدهم ، وتحريك مشاعرهم القومية ، ومن العجيب حقاً أن يتولد من حركة الردة التي كانت تهدف إلى تدمير وحدة العرب والقضاء على نظام دولة الرسول في المدينة ، مبادىء مثالية وقيم أخلاقية لم تكن واضحة عند العرب من قبل كالجهاد في سبيل الله والشعور الجارف بالقومية العربية ، فما يكاد المسلمون يقمعون حركة الردة حتى يندفعون إلى الحدود الشمالية مع الروم ومع الفرس لتأديب الغساسنة والمناذرة أو لتحقيق الوحدة السياسية مع مناطق نفوذ هذين الشعبين العربيين، ومن العجيب أيضاً أن يشترك في الجهاد رجل كان يدعي النبوة وكان رأساً من رؤوس الردة هو طليحة الأسدي الذي أبلى بلاء حسناً في فتوح العراق وفارس .

---

(١) ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، ص ٢٠

الفصل الرابع

الفتوحات الاسلامية

(١) الدوافع المباشرة والعوامل المساعدة

ا — الدافع الاقتصادي

ب — دافع الجهاد

حـ — الدافع القومي

د — العوامل المساعدة

(٢) فتوح الشام ومصر والمغرب

(٣) فتوح العراق وفارس والجزيرة وأرمينية

(٤) تنظيم عمر بن الخطاب للفتوح

الفصل التاسع

الفتوحات الاسلامية

- ١ -

الدافع الرئيسي والعوامل المساعدة

كان من الطبيعي وقد تمكنت المدينة من قمع حركة الردة، وقضت على المرتدين قضاء مبرماً ، وبسطت نفوذها على سائر أنحاء الجزيرة ، أن يسترجع العرب وحدتهم السياسية والدينية ، وتستعيد الدولة العربية الإسلامية قوتها التي تصدعت بعد وفاة الرسول ، وكان من الطبيعي أيضاً أن يستشعر العرب المسلمون بكيانهم وقوميتهم ، ويتطلعوا إلى العالم المحيط بهم خارج الجزيرة العربية .

وقد اختلف الباحثون في تعليل حركة الفتوحات العربية الإسلامية وتفسير دوافعها ، وذهبوا في هذا التفسير مذاهب شتى، فبعضهم يرجع ظاهرة الفتوحات إلى أسباب اقتصادية ، وجمهور آخر يرى أنها تمت بدافع الجهاد ، وفريق ثالث يرجح العامل القومي . وسنبحث فيما يلي الآراء المختلفة ونناقشها ونخرج من هذه المناقشة برأي يمكن أن يتفق مع الشواهد التاريخية .

الدافع الاقتصادي :

يرى بعض المؤرخين أن الفتوحات الإسلامية لا تعدو أن تكون موجة سامية إلى بلاد الهلال الخصيب شأنها في ذلك شأن الموجات السامية القديمة التي أدت إلى استقرار الأكديين في العراق في القرن الثلاثين قبل الميلاد، والأموريين في بابل في القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد ، والفنيقيين في الساحل اللبناني فيما يقرب من ١٦٠٠ ق.م ، وغير ذلك من الموجات . ويعتقد أصحاب هذا الرأي أن هذه الموجات هي هجرات اقتصادية إلى المناطق الغنية الخصبة الواقعة إلى الشمال الشرقي والغربي من الحجاز ونعني بها منطقة الهلال الخصيب ، نتيجة لتدهور الأحوال الاقتصادية في الجزيرة . ويستند أصحاب هذا الرأي - ومنهم كيتاني وسبرنجر وونكلر وبيكر والأب لامنس وأرنولد وبرنار لويس وفيليب حتي - لتدعيم نظرية العامل الاقتصادي إلى نص أورده البلاذري ذكر فيه بأن أبي بكر إذ أخذ في إعداد الجيوش الإسلامية وتسييرها إلى الشام « كتب إلى أهل مكة والطائف واليمن وجميع العرب بنجد والحجاز ، يستنفرهم للجهاد ويرغّبهم فيه وفي غنائم الروم ، فسارع الناس إليه بين محتسب وطامع وأتوا المدينة من كل أوب » [١] ، كذلك يستندون على نص آخر أورده البلاذري وهو جملة وجهها القائد الفارسي رستم إلى المغيرة بن شعبة رسول سعد بن أبي وقاص إليه، نصّها : «قد علمت أنه لم يحملكم على ما أنتم فيه إلا ضيق المعاش وشدة الجهد ، ونحن نعطيكم ما تتشبعون به ونصرفكم ببعض ما تحبون » [٢] ، أو على نص أورده الطبري عند حديثه عن موقعة الولجة التي دارت بين خالد بن الوليد والاندرزغر الفارسي ، ويتضمن هذا النص خطبة ألقاها خالد في المسلمين ليرغبهم في بلاد العجم ويزهدهم في بلاد العرب ، فقال : « ألا ترون إلى الطعام كرفغ التراب ؟ وبالله لو لم يلزمنا

---

(١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ج ١ ص ١٢٨

(٢) نفسه ، ج ٢ ص ٣١٥ ـ الطبري ، ج ٤ ص ١٠٨ ـ ابن الأثير ، ج ٢ ص ٤٦٥

الجهاد في الله والدعاء إلى الله عز وجل ، ولو لم يكن إلا المعاش لكان الرأي أن نقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به ، ونولى الجوع والإقلال من تولاه من أثاقل عما انتم عليه » (١) .

وإذا بحثنا في مضمون النصوص التاريخية التي يعتمد عليها أصحاب هذا الرأي لاثبات رأيهم وجدنا أنها في معظم الأحوال عبارات حماسية قالها إما الخليفة أبو بكر إلى المجاهدين أو القائد خالد بن الوليد لجنده ليحثهم على الغزو ، بغية ثواب الجهاد أو غنائم الروم ؛ ونلاحظ أن المحاربين العرب حتى خلافة عمر بن الخطاب كانوا يعتمدون على الغنائم ، فلم يكن للجند عطاء على عهد الرسول وعلى أيام أبي بكر ، وإنما جرى تقسيم الغنائم خمسة أقسام : خمس منها لبيت مال المسلمين والأخماس الأربعة الأخرى توزع بالعدل على الجند . ثم إن جدب معظم أنحاء جزيرة العرب وضيق معاش البدو الضاربين في الصحاري لا يعني أن العرب كانوا يعانون جميعهم الجوع والجفاف والعسر ، فليس لدينا من النصوص التاريخية ما يشير إلى قحط أصاب الجزيرة او مجاعة ألمت بالعرب كما حدث مثلاً في عام الرمادة ، بل إننا نجد على العكس من ذلك أن موارد العرب المالية تزايدت في الفترة التي سبقت الاسلام وفي عصر النبوة نتيجة لاشتغال المسلمين بالتجارة ، ثم إن مواسم الحج كانت من عوامل انتعاش مكة اقتصادياً ، بالإضافة إلى أن الإسلام نظم الحياة الاجتماعية عند العرب ، وطبق نظام التكافل الاجتماعي بين طبقات المجتمع الإسلامي . حقيقي إنه تمت هجرات عربية سابقة على الإسلام إلى مناطق الهلال الخصيب نتيجة لاضطراب الأحوال الداخلية أو بسبب الحروب الطاحنة بين الأحباش أو الفرس وبين العرب كما حدث في هجرة الأزد وتنوخ و كندة؛ وحتى هذه الهجرات لم تتخذ شكل موجات عنيفة ، وإنما كانت مجرد هجرات بطيئة وعلى المدى الطويل ، ولكن الفتوح العربية الإسلامية تختلف عن الهجرات

---

(١) الطبري ، ج ٤ ص ٩

السابقة لأنها لم تتم نتيجة اضطرابات داخلية أو بسبب أزمات اقتصادية، وإنما تمت نتيجة عوامل أخرى سنذكرها فيما بعد. وإذا كان العرب الفاتحون قد اختاروا منطقة الهلال الخصيب، فلم يكن ذلك ناتجاً عن رغبة اقتصادية ملحة، أو بناء عن تفكير مسبق للتوطن والاستقرار في مناطق كثيرة الخيرات، وإنما نفسر توجيههم هذه الوجهة بأمرين: الأول أنهم سلكوا طرقاً لم تكن غريبة عليهم في الماضي، كانت تسلكها قوافل قريش نحو الشام او تجارة اليمن نحو عمان والعراق، بدليل أن خالد بن الوليد تلقى وهو باليمامة أمر أبي بكر بالمسير إلى العراق أو بمعنى أصح إقليم السواد الممتد من دجلة والفرات حتى الخليج الفارسي، وتمكن بعد انتصاره في موقعة ذات السلاسل من الاستيلاء على ثغر الأبلة[1]، أما فيما يختص بالشام فقد كان أبو بكر قد عقد لخالد بن سعيد بن العاص إلى مشارف الشام وذلك بعد أن انتقضت العرب في الجزيرة بعد وفاة رسول الله، وأمره بالإقامة في تيماء وعدم مفارقتها إلا بأمره، كما أمره بأن يدعو من حوله من العرب إلا من ارتد، وألا يقاتل إلا من قاتله، فاجتمعت لخالد بن سعيد حشود كثيرة من العرب، وبلغ خبره الروم[2]، وكان ذلك سبباً في الاحتكاك بين العرب والروم. أما الأمر الثاني فهو أن العراق من الناحية الجغرافية يتصل اتصالاً وثيقاً بجزيرة العرب، ولا يوجد قط أي فاصل طبيعي بين الإحساء ونجد والحجاز من جهة وبين العراق من جهة أخرى، وانعدام الحواجز واختلاط القبائل كان السبب في قيام النزاع بين البدو الخاضعين لسلطان الدولة العربية الإسلامية بزعامة المثنى بن حارثة الشيباني وبين البدو الخاضعين للأكاسرة[3]. وكما أن العراق متصل ببلاد العرب من الوجهة الجغرافية فإن الشام أوثق بها اتصالاً، لأن بادية الشام ليست في

---

(١) عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسي للدولة العربية، ج ١ القاهرة ١٩٦٠ ص ١٧٠

(٢) ابن الأثير، ج ٢ ص ٤٠٢

(٣) محمد أحمد حسونة، أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الاسلامية، القاهرة، ١٩٦٠ ص ٢١

الواقع إلا امتداداً طبيعياً لصحراء النفوذ، وسلسلة جبالها الشرقية امتداد لسلسلة جبال السراة (١)، ثم إنه كان يسكن في جنوب غربي العراق وجنوبي الشام قبائل عربية يمنية كانت قد استقرت في هاتين المنطقتين منذ عهد سابق على ظهور الاسلام وكانوا على اتصال اجتماعي واقتصادي وسياسي في بعض الاحيان مع عرب الجزيرة . لهذا كله لا نعجب أن تتجه الفتوح الاسلامية هاتين الوجهتين دون أن يكون في الامر ما يشير قط إلى تخطيط مدبر للنزول في المناطق الخصبة من الهلال الخصيب . وعلى هذا الاساس لا يمكننا أن نقبل التفسير السابق لظاهرة الفتح الاسلامي بدوافع اقتصادية .

دافع الجهاد :

ويرى فريق آخر من الباحثين ، أن حركة الفتوحات كان وراءها باعث عسكري ديني هو الجهاد، فقد خرجت جيوش المسلمين ورلء تيار إسلامي عربي ، وكان أبو بكر قد أوصى المسلمين يوم بايعوه بالخلافة بالجهاد في سبيل الله ، وقال يومئذ : «إن شاء الله لا يدع أحد منكم الجهاد فإنه لا يدعه قومٌ إلا ضربهم الله بالذل » (٢) . وذكر البلاذري أن أبا بكر لما فرغ من أمر أهل الردة « رأى توجيه الجيوش إلى الشام ، فكتب إلى أهل مكة والطائف واليمن وجميع العرب بنجد والحجاز يستنفرهم للجهاد ويرغّبهم فيه وفي غنائم الروم ، فسارع الناس إليه من بين محتسب وطامع » (٣) . ويرى هذا الفريق من الباحثين أن حملة أسامة التي جهزها الرسول لإنفاذها إلى جنوب الشام أكبر دليل على رغبته في التوسع خارج الجزيرة ، وأن كتبه إلى الملوك والأمراء المجاورين لبلاد العرب

---

(١) محمد حسونه ، ص ٣٠ - أحمد الشريف ، دور الحجاز، ص ١٦٦

(٢) ابن الأثير ، ج ، ص ٣٣٢

(٣) البلاذري ج ١ ص ١٢٨

دليل واضح على رغبته في نشر الإسلام خارج الجزيرة [١] . ويستند أصحاب هذا الرأي على آيات قرآنية تؤكد أن الله بعث النبي صلى الله عليه وسلم إلى كافة الناس بشيراً ونذيراً ،منهـــا قوله تعالى « لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين » [٢] ، وقوله تعالى : « وما أرسلناك إلا كافــة للناس بشيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون » [٣] ، وقوله تعالى : « إنا أرسلناك شاهـداً ومبشراً ونذيراً. لتؤمنوا بالله ورسوله ،وتعزرُوه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا » [٤] وقوله تعالى عزوجل: « يا ايها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً. وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً » [٥] . والواقع أن الجهاد كان يقصد به الدفاع عن الإسلام ومحاربة المشركين أعداء الرسول الذين عارضوه واضطهدوا أتباعـــه وأرغموهم على الهجرة إلى الحبشة مرتين ، ودفعوا الرسول إلى البحث عن دار هجرة ، ويتمثل هذا المعنى في قوله تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله » [٦] . ولم يكن تشريع الجهاد يعني نشر الاسلام في جميع انحاء العالم عن طريق الحرب ، فقد ظهر الإسلام في زمن اشتدت فيه الاضطهادات الدينية في فارس وبيزنطة ، وفي الأقطار التابعة لهما ، فأتاح الإسلام بمبادئه الكريمه الحرية والتسامح في البلاد التي كانت خاضعة للدولتين ، ولذلك حرص العرب الفاتحون على ترك أهل البلاد المفتوحة على دينهم ، ولم يرغموا احداً على اعتناق الاسلام

---

(١) عبد العزيز الدوري ، مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ، ص ٤٤ - محمد جمـــال الدين سرور ، الحياة السياسية في الدولة العربية الاسلامية خلال القرنين الأول والثاني بعد الهجرة ، القاهرة ١٩٦٠ ص ٣٣ - علي حسني الخربوطلي ، الدولة العربية الاسلامية ، ص ٧٣

(٢) سورة يس ٣٦ آية ٧٠

(٣) سورة سبأ ٣٤ آية ٢٨

(٤) سورة الفتح ٤٨ آية ٨-٩

(٥) سورة الأحزاب ٣٣ آية ٤٥ - ٤٦

(٦) سورة الحج ٢٢ آية ٣٩

ما داموا يدفعون الجزية [1] ، ثم إن الإسلام دعا إلى حرية العقيدة ، فلم يكره أحـــداً من أهل الكتاب على اعتناقه ، واتبع المسلمون السياسة التي رسمها الإسلام ونص عليها في القرآن الكريم بقوله تعالى : لا إكراه في الدين ، قـــد تبيّن الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم » [2] . ولهـذا السبب كان المسلمون إذا أقبلوا على أعدائهم من الروم والفرس يعرضون عليهم أحد خصال ثلاث : إما الإسلام أو الجزية أو الحرب ، ولهذا السبب أيضاً بقي على المسيحية واليهودية أعداد كبيرة دخلوا في ذمة المسلمين واصبحوا أهل عهدأو أهل ذمة ،وتمتعوا في العهود الأسلامية الأولى بحرية ممارسة عقائدهم ، بل إن بعضهم شارك في إدارة البلاد الاسلامية [3] ، وفي بعض الفتوحات الاسلامية وخاصة الأقباط في مصر الذين لعبوا دوراً كبيراً في فتوح المغرب [4] . وإن عهود الصلح التي كتبهـا المسلمون تعبر تعبيراً صادقاً عن غلبة روح التسامح التي جرى عليها المسلمون الفاتحون : ففي العهد الذي كتبه عمر بن الخطاب لأهل إيلياء ورد مـــا يلي :

---

(١) وفي ذلك يقول الله عز وجل : « قـــاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » سورة التوبة ٩ آية ٢٩.

(٢) سورة البقرة ٢ اية ٢٥٦

(٣) اتخذ عمر بن الخطاب جماعة من سبي قيسارية كتاباً وأدخلهم في خدمـــة الدولة ؛ (البلاذري ج١ص١٦٨) واتخذ ابو موسى الأشعري له كاتباً نصرانيـــاً (ابن قتيبة . عيون الاخبار ، ج القاهرة ١٩٢٥ ص ٤٣). واختار معاوية كاتباً أعجمياً هو سرجون بن منصور وكان متولي كتابة الخراج في الشام سوريا وفي ايران فارسياً (ترتون ، أهل الذمة في الاسلام ترجمة حسن حبشي ، القاهرة ١٩٤٩ ص ٢٠) كذلك كان للاقباط نصيب وافر في حكم مصر في عصر الولاة (سيدة كاشف ، مصر في عصر الولاة ، القاهرة ص١١٣)

(٤) المالكي ، كتاب رياض النفوس ، القاهرة ، ١٩٥١، ص١٠، ١١ ، ١٥ - السيوطي حسن المحاضرة ج ١ ص ٥٢ - المغرب الكبير ، ج ٢ ص ١٥٦

Cheira, La lutte entre Arabes et Byzantins, Alexandrie, 1947, p. 62

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان أعطاهم أماناً لانفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها أنه لا تسكن كنائسهم ، ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيّزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ... » [١] . كذلك فتح شرحبيل طبرية صلحاً بعد أن أمّن أهلها على أنفسهم وأموالهم وأولادهم وكنائسهم ومنازلهم إلا ما جلوا عنه وخلّوه [٢]. وهكذا وقف الإسلام من النصرانية في الشام موقف التحبب والود وآمنهم على عقائدهم وأموالهم، وأسهم بذلك في بناء مجتمع يستمتع بالحرية الخصبة والانطلاق. [٣] كذلك صالح أبو عبيدة بن الجراح السامرة اليهود بالاردن وفلسطين ، وكانوا عيوناً وأدلاء للمسلمين ، على جزية رؤوسهم وأطعمهم أرضهم [٤] ، كما اتخذ طارق بن زياد من يهود إشبيلية حراساً على قصبتها [٥] ، وكانت غرناطة تزخر بأكبر جالية يهودية ، فسميت لذلك باغرناطة اليهود [٦]. ولم يكن في خطة المسلمين الفاتحين تكوين امبراطورية ، ولكن الظروف السياسية والعسكرية أرغمتهم على المضي قدماً في الفتوحات ، وكان عمر بن الخطاب لا يسعى إلى التوسع في الفتوحات بعد وقعة القادسية ، فقد كتب سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب يبشره بالفتح، فكتب إليه عمر «أن قف ولا تطلبوا غير ذلك»، فلما أعاد إليه سعد الكتابة ليستأذنه الاستمرار الفتح ، كتب إليه عمر

---

(١) الطبري ، ج ٤ ص ١٥٩

(٢) البلادري ، ج ١ ص ١٣٨

(٣) شكري فيصل ، المجتمعات الاسلامية في القرن الأول ، القاهرة ١٩٥٢ ص ٦٥

(٤) البلاذري ، ج ١ ص ١٨٧

(٥) ابن الاثير ، ج ٤ ص ٥٦٤ ـ ابن الخطيب ، اللمحة البدرية في الدولة النصرية ، القاهرة ١٩٢٨ ص ١٦ ـ الإحاطة في أخبار غرناطة ، طبعة القاهرة ١٩٠١ ج ١ ص ١٧

(٦) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ، ص ١٣٣

من جديد يأمره بأن يقف مكانه ولا يتبعهم[١]. والظاهر أيضاً أنه عارض بادىء ذي بدء في فتح مصر ، وغضب عندما بلغه أن عمرو بن العاص زحف إلى مصر من تلقاء نفسه ، وكتب إليه يوبخه ويعنفه على افتياته عليه برأيه[٢]. وعندما أرسل إليه عمرو بن العاص يستأذنه في غزو أفريقية كتب إليه عمر بن الخطاب ينهاه عنها ويقول : « ما هي بإفريقية ولكنها مفرقة غادرة مغدور بها »[٣] .

ونخرج من ذلك كله بأن الجهاد والرغبة في نشر الاسلام في العالمين الروماني والساساني عن طريق الحروب ، في وقت خرج فيه العرب من حروب الردة مثخنين بالجراح ، وفي ظروف لم يسمح فيها ابو بكر للقبائل التي كانت قد أعلنت ردتها ثم عادت إلى الطاعة أن تشارك في الفتوحات ، لم يكن الدافع الرئيسي على الفتح ، وإنما يمكن اعتباره من العوامل المساعدة ، ولا يخفى ما للأديان من آثار عميقة في قيام الحضارات وقوة دافعة للشعوب تحقق المعجزات ، ولا أحد ينكر أن الإسلام هو صاحب الفضل في بعث الروح القومية عند العرب ، وهو الذي نبّههم إلى وحدتهم في الجنس واللغة ، وهو الذي ربط بين المسلمين وألف بين قلوبهم وجعلهم يشعرون بأنهم أخوة ، والاسلام هو الذي أمد المحاربين المسلمين بقوة نضالية لا حدود لها ، وزوّدهم بمشاعر فياضة من الكرامة والعزة[٤] ، كما أمدهم بطاقة من الايمان كانت عاملا فعالاً فيما أحرزوه من انتصارات تجاوزت كل تقدير في الحسبان .

---

(١) الطبرى ، ج ٤ ص ١٤١

(٢) البلاذرى ، ج ١ ص ٢٤٩

(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، تحقيق عبد المنعم عامر ، ص ٢٣٢ - البلاذرى ، فتوح البلدان ، ج ١ ص ٢٦٦

(٤) هذا الشعور بالعزة والكرامة يتجلى بوضوح في وصف مقابلة رسل سعد بن أبي وقاص للقائد الفارسي رستم (راجع الطبري ج ٤ ص ١٠٦ - ١١٢)

العامل القومي :

وإذا كنا لم نقبل كل من الدافعين الاقتصادي والديني فإننا لا ننكر أثرهما العميق في سير الفتوح الاسلامية ، ومع ذلك فهناك عامل قومي أخذ به فريق من الباحثين لا يمكننا أن نتجاهله ، إذ هو في اعتقادنا العامل الرئيسي والدافع الأول للفتوحات الاسلامية .

فقد رأينا فيما سبق أن ذكرناه كيف أن رسول الله ﷺ بدأ منذ العام السادس بعد الهجرة يطبق سياسة خارجية ترمي إلى نشر الإسلام في مجالات بعيدة ، وتوحيد شبه جزيرة العرب في ظل الدولة العربية الاسلامية ، كما رأينا كيف أنه اراد أن يبشر بدين الإسلام في العالم ، فكتب إلى الملوك والأمراء من جيران العرب يدعوهم إلى الإسلام والاعتراف به ، غير أن الموقف العدائي الذي اتخذه شرحبيل بن عمرو الغساني أمير مؤتة من النبي ، عندما قتل رسوله إليه وموقف المنذر بن الحارث بن أبي شمر الغساني الذي تهدد النبي وأفصح عن عزمه على السير لغزو بلاد العرب[1] ، كان سبباً رئيسياً في قيام النبي بتسيير حملة زيد بن حارثة إلى مؤتة مستهدفاً من ورائها تأديب الغساسنة . أما بالنسبة لكسرى فارس الذي مزق رسالة النبي إليه وعلق قائلا : « يكتب إليّ هذا وهو عبدي ؟ »[2] ، فقد اكتفى رسول الله بأن دعا الله تعالى أن يمزق ملكه ، ويشاء الله أن يتم ذلك على يد خليفتيه أبي بكر وعمر . وشهد المسلمون في مؤتة تحركات مريبة لجيوش الروم وقد انضمت إليهم حشود ضخمة من المستعربة من لخم وجذام وبلقين وبهراء وبلي ، وعلى الرغم من أن موقعة مؤتة انتهت بهزيمة جيش المسلمين فقد اعتبرها رسول الله

---

(١) ابن سعد ، ج ١ ص ٢٦١ ــ الطبري ، ج ٣ ص ٨٨

(٢) نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٦٠ ــ الطبري ، ج ٣ ص ٩٠

جولة تعقبها كرة، وقال : « ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله » [١]
ثم كانت غزوة تبوك رد فعل لقيام صاحب تبوك بحشد جموع كبيرة من الروم ومتنصرة العرب [٢] . ولما تم للرسول توحيد شبه جزيرة العرب ، وأدى الحج الأكبر في العام العاشر للهجرة ، وجه اهتمامه إلى تأمين الحدود الشمالية للدولة العربية من أي اعتداء عسكري يقوم به الروم ، ولذلك أمر رسول الله بإعداد جيش لغزو أطراف الشام الجنوبية ، وأسند قيادة هذا الجيش إلى أسامة بن زيد ابن حارثه [٣]. لم يتهيأ للنبي أن يشهد خروج هذه الحملة إلى غايتها ، فقد توفي ﷺ ولم يسر الجيش بعد من معسكره بالجرف ، وأبى أبو بكر إلا أن يحقق رغبة رسول الله في إنفاذ هذه الحملة إلى مقصدها ، فمضى أسامة إلى الشمال وأوقع بقبائل من قضاعة كانت قد ارتدت عن الاسلام [٤] ،ثم أغار على آبل وهي قرية من قرى مؤتة وقتل من تعرض لجيشه من أهلها وغنم غنائم كثيرة [٥] .
ولم يكتف أبو بكر بما حققه أسامة في حملته ، فعندما اشتدت حركة الردة عقد لخالد بن سعيد بن العاص وسيره إلى مشارف الشام ،في حين عقد لعمرو بن العاص وأرسله إلى قضاعة ، ويعتبر لواء خالد أول لواء عقده إلى الشام ، ولكن أبا بكر لم يلبث أن عزله عن الإمارة وأمّر مكانه يزيد بن أبي سفيان ،ومع ذلك فقد جعله ردءاً للمسلمين بتيماء وأمره أن يقيم بها ولا يغادرها إلا بأمره ، كما أمره بأن يدعو جيرانه العرب لنصرته ، ولا يقاتل إلا من قاتله . وذكر المؤرخون أن أنباء تحركاته وصلت إلى مسامع الروم فحشدوا إليه حشوداً ضخمة من قبائل

---

(١) الطبري ، ج ٣ ص ١١٠

(٢) البلاذري ، ج ١ ص ٧١

(٣) كان أبوه زيد بن حارثة ،مولى رسول الله، أول من أسلم من الرجال (البلاذري ، أنساب الأشراف ص ١١٢)

(٤) ابن الأثير ، ج ٢ ص ٣٣٥

(٥) الطبري ، ج ٣ ص ٢١٣

العرب الضاربة بجنوب الشام من بهراء وسليح وغسان وكلب ولخم وجذام . فأمره أبو بكر بأن يتقدم دون أن يقتحم ، فلما دنا منهم خالد تفرقوا . ثم واصل خالد تقدمه فيمن خرج معه من تيماء ومن انضم اليه، حتى نزلوا فيما بين آبل وزيزاء والقسطل ، فاعترضه « بطريق من بطارقة الروم يدعى باهان فهزمه وقتل جنده »[1] . فكتب خالد بن سعيد إلى أبي بكر بذلك وطلب منه أن يبعث إليه إمدادات . وكان قد قدم على أبي بكر أوائل مستنفري اليمن وفيهم ذو الكلاع ، كما قدم عكرمة بن أبي جهل فيمن معه من مجاهدي تهامة وعمان والبحرين والسرو ، فسيرهم أبو بكر إلى خالد . ومنذ ذلك الحين اهتم أبو بكر بالشام وعناه أمره[2] ، فاستنفر المسلمين للقتال ووجه لفتح الشام البعوث والحملات التي سنتحدث عنها بعد قليل .

أما بالنسبة للعراق فالأمر يختلف ، ذلك أن الذين بدأوا سياسة الاعتداء على الفرس ومناهضتهم جماعة من عرب بني شيبان وبني عجل على رأسهم الحارثة بن المثنى الشيباني وسويد بن قطبة العجلي ، فقد كانوا يغيرون على تخوم فارس بدافع من الشعور القومي ، وكان يدفعهم عاملان : عامل الانتقام من الفرس الذين أذلوا ملوك الحيرة وتحرشوا بالعرب واشتبكوا معهم في موقعة ذي قار ، وفيها انتصر العرب على الفرس انتصاراً حاسماً شجعهم على المضي في السياسة الانتقامية ضد فارس وملوكها . وعامل قومي يرمي إلى تحرير الحيرة من النفوذ الفارسي والدخول في فلك الدولة العربية الاسلامية . وكان من الطبيعي ان تتحرك حكومة المدينة لنصرة هؤلاء المجاهدين العرب ، وتنتصر لهم خوفاً من أن يتغلب عليهم الفرس فيستردوا البحرين ويتهددوا جزيرة العرب[3] ،

---

(١) الطبري ، ج ٥ ص ٢٩ - ابن الأثير ، ج ٢ ص ٤٠٣

(٢) نفسه - ابن الاثير ، ج ٢ ص ٤٠٣

(٣) أحمد الشريف ، ص ١٧٤

ثم إن ابا بكر لم يتردد في استغلال هذه الفرصة لاستكمال توحيد الجزيرة العربية وجمع شتات القبائل العربية المتوزعة في جنوب غربي العراق وجنوبي الشام ويعمل على تحريرها من ذل الولاء للروم او ضعة الحلف مع الفرس [١]. وعلى هذا النحو فإن العامل الرئيسي للفتوحات الاسلامية هو عامل قومي أسابه نضوج قومية العرب وارتفاع روحهم المعنوية بعد استرجاع وحدتهم التي هددتها حركة الردة ؛ وكانت الفتوح الأولى مغامرة حربية خرجت إلى حيز الوجود دون تدبير سابق او وفقاً لخطة موضوعة، وإنما جاءت نتيجة لظروف خاصة تحكمت في الأحداث ولم يكن العرب يقصدون فتح الشام وفارس ومصادمة أكبر دولتين في العالم كانوا يتهيبونها .

د - العوامل المساعدة :

ساعد على الفتوح الإسلامية عوامل مختلفة يمكن أن نلخصها في العاملين التاليين :

١ - عوامل نفسية :

هناك عدة عوامل نفسية ساعدت العرب الفاتحين على انتصاراتهم المذهلة ، وأول هذه العوامل رسوخ إيمان العرب بدينهم وارتفاع روحهم المعنوية بفضل الاسلام الذي ربط بينهم ، ورفع من كرامتهم، ودعاهم إلى الاعتزاز بقوميتهم ، فهم خير أمة أخرجت للناس [٢]، وهم أمة لها رسالتها في الدعوة إلى الخير [٣].

---

(١) شكري فيصل ، حركة الفتح الاسلامي في القرن الأول ، ص ٦ - عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسي للدولة العربية ، ج ١ ص ١٦٦

(٢) يقول الله تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون » سورة آل عمران ٣ آية ١١٠

(٣) يقول الله تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا . وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون. ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » سورة آل عمران ٣ آية ١٠٣ - ١٠٤

وكان الظفر بالاستشهاد غاية ما يـ . العربي المسلم ، ولذلك كان العرب المسلمون في فتوحهم لا يبالون بالموت في ساحة الحروب ، ما دام هـــذا الموت يؤدي إلى الاستشهاد ، ولم يكن انتصـار العرب المسلمين على جيوش الروم والفرس رغم تفوقهم على العرب في العدد والسلاح مرجعه أنهم كانوا لخشونتهم وزهدهم أجمع لصفات الحرب كالبرابرة فحسب [١] ،و إنما كانوا يقابلون أعداءهم بقلوب عامرة بالإيمان العميق ونفوس رخيصة في سبيل الله وفي سبيل الجنة التي وعد الله بهـا المجاهدين ، وهذا يفسر الانتصارات الرائعة التي أحرزها العرب المسلمون تحت لواء الرسول على المشركين وهم عرب مثلهم ، كما يفسر الانتصارات السريعة التي حققها المسلمون على خصومهم الفرس والروم على الرغـم من تفوق هؤلاء على المسلمين من حيث الكثرة العددية للجيوش ، ومن حيث الكفاية التدريبيـة على فنون القتال ، ومن حيث نوعية السلاح .

ومن العوامل النفسية أيضاً حرص أبي بكر على ملأ الفراغ الهائـــل الذي ترتب على وفاة رسول الله ، فقد زعزعت وفاة رسول الله كيان الدولة العربية وساعد عليها التنازع على الخلافة وحركة الردة ،ولولا حكمة أبي بكر وحنكته السياسية ، لما أمكنه إعادة توحيد العرب و تقويم البناء، ويبدو أن أبا بكر كان يميل إلى شغل القوى التي تمكنت من قمع حركة الردة بمهام جديدة ، حتى لا يتفرغوا للفتن التي ألفها العرب في أوقات فراغهم ، فـلم يجد أنسب من تسخير هذه الطاقة الكبيرة التي أثبتت قدرتها و كفايتها في حرب الردة في مشروعات حربية تحقق للدولة العربية الفتية أهدافها . ولم يشأ أبو بكر أن يشرك المرتدين المنهزمين الذين قهرهم بالسيف في صفوف المحاربين حتى لا يدخـل الوهن في جيوش المسلمين وحتى لا يهيىء المجال لكي يتسبب هؤلاء المنهزمون في نسف المهمة الكبرى الملقاة على عاتق المحاربين من قواتـه . وإذا كان إبقاء المنهزمين في

---

(١) أحمد الشريف ، دور الحجاز ، ص ١٧٩

أماكنهم قد يؤدي إلى وثوبهم وانتقاضهم من جديد مستغلين فرصة غياب قادة المسلمين وقواتهم في ساحات القتال فإن وجودهم في مواضعهم كان يعتبر أقل الخطرين احتمالاً على الدولة العربية ، فقد سبق لأبي بكر في ظروف أسوأ بكثير القضاء على حركة الردة في سائر أنحاء الجزيرة في وقت كان جيش المسلمين بقيادة أسامة بن زيد غائباً في البلقاء ، والثورات تشتعل في كل مكان، ثم أن أبا بكر لم يكن يقبل أنصاف الحلول،فقد قضى على حركة الردة قضاء مبرماً وعاقب المرتدين عقاباً صارماً واصطنع في ذلك كل وسائل الإرهاب من قتل وحرق وتمثيل ، بل لم يتردد في إصدار أمره إلى زياد بن لبيد بأن يقطع أيدي وأرجل بعض نسوة بالنجيرة شمتن بوفاة الرسول منهن الشجاء الحضرمية وهند بنت يامين اليهودي[1].

ومن العوامل النفسية أيضاً التي ساعدت على الانتصارات الاسلامية وقوف أهل البلاد المفتوحة إلى جانب الفاتحين المسلمين ، ومن المعروف أن سكان الشام الجنوبية وجنوب غرب العراق كانوا عربا متنصرة ، وقد عانى هؤلاء كثيراً في ظل الروم والفرس على النحو الذي أوضحناه فيما سبق ، وكانوا بحكم انتسابهم إلى جذور عربية وعلى الرغم من تنصرهم يميلون إلى إخوانهم عرب الجزيرة الفاتحين ، وقد دلت الشواهد على أنهم انضموا إلى العرب الفاتحين منذ اللحظة الأولى بدافع من الشعور بالقومية العربية أو العصبية ،ففي العراق اشترك حشد كبير من النمر وهم نصارى مع قوات المسلمين بقيادة المثنى بن حارثة في موقعة البويب التي حدثت في سنة ١٣هـ، كما اشترك مع المسلمين في هذه الموقعة أيضاً إناس من بني تغلب النصارى، وعبروا عن اشتراكهم مع المسلمين في المعركة بقولهم : « نقاتل مع قومنا»[2]. كذلك اعتبرت القبائل العربية التي استوطنت في سورية وعلى حافة الصحراء العرب الفاتحين من بني جنسهم، فاختاروا عند نشوب القتال صفوف المسلمين للرابطة الجنسية والعرقية التي كانت تربطهم بهم ،

---

(١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ج١ ص ١٢٢

(٢) الطبري ، ج٤ ص ٧٣

وتلقوا الجيوش العربية الاسلامية بالترحاب [١]، واعتبروهم المخلصين لهم من ظلم وعسف كانوا يئنون تحت ثقلها في العصر البيزنطي [٢]، خاصة بعد أن قطع هرقل المعونات المالية التي كان الأباطرة البيزنطيون يؤدونها للغساسنة والقبائل العربية الموزعة جنوبي البحر الميت ما بين تبوك وغزة . ولذلك لم يلق العرب الفاتحون بعد موقعة اليرموك من جانب العرب المتنصرة مقاومة تذكر إلا في قنسرين ، إذ اشتركوا مع الروم بقيادة ميناس ومع الأرمن في مقاتلة المسلمين ، فلما انتهت معركة قنسرين بهزيمة الروم، وقع عدد كبير من متنصرة العرب أسرى في أيدي المسلمين ، فأرسلوا إلى خالد ،« أنهم عرب وإنهم إنما حشروا ولم يكن من رأيهم حربه »[٣]، فأطلقهم . كذلك كان العدد الأعظم من أهل الشام ومصر يدينون بالمذهب المونوفيزيتي أو اليعقوبي مخالفين في ذلك مذهب كنيسة القسطنطينية، وتدخل أباطرة بيزنطة في هذا الصراع المذهبي واعتبروا المذهب اليعقوبي كفراً وإلحاداً وخروجاً عن الدين الصحيح ، وأمعنوا في سياستهم التعسفية نحو الأهالي والتنكيل بهم،وكان لإسراف البيزنطيين في اضطهاد المصريين والعرب المتنصرة في الشام أثر كبير في تحامل هؤلاء عليهم ومعاداتهم لهم [٤] ، وفي تمهيد السبيل أمام قوة جديدة للظهور على مسرح الأحداث في المنطقة هي

---

(١) ذكر البلاذري أن أبا عبيدة بن الجراح لما فرغ من أمر مدينة دمشق سار إلى حمص فمر ببعلبك، فخرج أهلها له مسالين مصالحين. كذلك خرج أهل معرة النعمان يستقبلونه ويستقبلون جيوش المسلمين بالفرح والابتهاج

(٢) قال أهل حمص للمسلمين :« لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم » . كذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود ، وقالوا:« إن ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا إلى ما كنا عليه ، وإلا فإنا على أمرنا ما بقي للمسلمين عدد » البلاذري ، ج ١ ص ١٦٢

(٣) الطبري ، ج ٤ ص ١٥٥

(٤) نورمان بينز ، الامبراطورية البيزنطية ، تعريب الدكتور حسين مؤنس والأستاذ محمود زايد ، القاهرة ، ١٩٥٧ ص ٣٦٣

القوة الاسلامية الفتية . وقد رأينا من قبل كيف أن أقباط مصر وقفوا موقفاً مؤيداً من العرب الفاتحين ، بل إن أعداداً كبيرة منهم أسهمت مساهمـــة فعالة بالقتال في صفوف العرب ضد البيزنطيين، وأصبحوا أعواناً للعرب على ماأرادوا من قتال الروم [1] .

٢ – ضعف الدولتين البيزنطية والساسانية واضطراب الأحوال فيهما :

كانت الدولتان البيزنطية والساسانية منذ القرن السادس الميلادي قد اعتراهما الضعف والوهن بسبب الحروب المتبادلة التي اضطرت الدولتان إلى خوض غمارها وأدت هذه الحروب طويلة الأمد إلى إنهاك قوى الدولتين واستنزاف طاقاتهما ، كما أدت إلى شيوع الفوضى والإضطراب في جميع المرافق الاقتصادية في البلدين، فمن انقسامات مذهبية عاتية، إلى كساد شنيع في التجارة والصناعة والزراعة، إلى إفلاس في الخزانة ، إلى حروب أهلية طاحنة بسبب التنافس على العرش ، إلى تباين في التكوين الاجتماعي ، وإرهاق في الضرائب ، وإنهاك شديد بسبب الحروب الطويلة ، كل ذلك أدى إلى سيطرة حالة من الاعياء والركود الشديد الذي يقتضي بالضرورة وقتاً طويلاً للإفاقة والابلال، لأنهما كانتا قد جف معينهما في الرجال والمال [2]

وقد ترتب على هذا الضعف الشامل الذي منيت به دولتـا الفرس والروم بالاضافة إلى تعرض السكان العرب في تخوم العراق وفي بادية الشام لصنوف العذاب

---

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، ص ١٠٦ ، ١٠٧

(٢) أومان ، الامبراطورية البيزنطية ، تعريب الدكتور مصطفى طه بدر، القاهرة ١٩٥٣ ص ١٢٤ – ابراهيم أحمد العدوي ، الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم ، القاهرة ، ١٩٥٨ ص ٣٤ – ٤٠ . عبد العزيز الدوري ، مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ، ص ٤٧ – السيد الباز العريني ، الدولة البيزنطية ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ١٣٥

والاضطهاد أن تخلى العرب في هاتين المنطقتين عن حراسة الحدود الفاصلة بين بلاد الحجاز وبين كل من الحدود الجنوبية للشام والعراق ، فعرب شيبان أخذوا يعيثون فساداً في نواحي الحيرة والأنبار بعد الانتصار الذي أحرزه العرب على الفرس في يوم ذي قار ، وعرب غسان تفرقوا في البادية وقرى حوران ، في الوقت الذي أهمل فيه الروم تحصين البلاد الواقعة ما بين جبال الكرمل وبحيرة طبرية ، بعد أن سحبوا حامياتها لتعزيز المناطق الشمالية المواجهة للدولة الساسانية .

ثم كشف العرب باشتباكهم مع الروم والفرس عن ضعف خصومهم ،فتتابعت انتصارات العرب ، وتمكنوا في أقل من عشر سنوات من إنشاء امبراطورية عربية إسلامية يسودها العدل والتسامح ويرفرف عليها الأمن والسلام .

- ٢ -

فتوح الشام ومصر والمغرب

١ — فتوح الشام :

الاشتباكات الأولى :

رأينا في الصفحات السابقة كيف انهزمت طلائع المسلمين بقيادة خالد بن سعيد بن العاص على أيدي الروم ومتنصرة عرب الشام من بهراء وسليح وغسان وكلب ولخم وجذام بقيادة القائدالبيزنطي باهان Bannes، وكيف كتب إلى أبي بكر يعلمه بالهزيمة ويستمده ، فسيّر إليه أبو بكر بعثاً من المسلمين بقيادة ذي الكلاع الحميري وعكرمة بن أبي جهل ، ثم لحق بها الوليد بن عقبة في جيش لمساندته . وبينما كان أبو بكر يستنفر أهل مكة والطائف واليمن وجميع عرب

الحجاز ونجد للجهاد وترغيبهم فيه، كان المدد الذي أرسله إلى خالدبن سعيد يتجه إلى تيماء.ثم زحف خالد بن سعيد إلىجنوبي البحر الميت لمقاتلة الروم، فاستدرجه باهان ، فتبعه خالد ومعه ذو الكلاع وعكرمة والوليد ، إلى أن وصلت قوات المسلمين إلى مرج الصفر الواقع إلى الشرق من بحيرة طبرية [١] ، وعندئذ طوقتها قوات باهان وقطعت على المسلمين خط الرجعة ، واضطر خالد إلى أن يشتبك مع البيزنطيين في إحدى المواقع، فانهزم وقتل إبن له، وفر بنفسه إلىذي المروةقرب المدينة ، تاركاً جيشه تحت رحمة الروم ، ولكن عكرمة بن أبي جهل نجح في تغطية انسحاب قوات المسلمين إلى حدود الحجـــاز ، وظل مقيماً هناك ردءاً للمسلمين [٢] . أمـا خالد بن سعيد ، فقد اتهمه أبو بكر بالجبن في الحرب وأمره بالبقاء في المدينة وعدم مغادرتها[٣].وفي تلكالأثناء أخذت حشود المطوعةتتوافد من سائر أنحـاء الجزيرة العربية وتتجمع في المدينة في معسكرين بالجرف ، وتم تجمعها في شهر المحرم سنة ١٣ هـ[٤] (٦٣٤ م). وعندئذ عقد أبوبكرأربعة ألوية وذلك في مستهل صفر سنة ١٣ هـ ، أحدهـــا لشرحبيل بن حسنة [٥] ، والثاني لعمرو بن العاص بن وائل السهمي الذي آثر الجهادعلى العمالة، أما الثالث فقدعقده ليزيد بن أبي سفيان ، في حين عقد الرابع لأبي عبيدة بن الجراح . وألحق أبوبكر الوليد بن عقبة بشرحبيل ، وألحق علقمة بن مجزر ببعث عمرو بن العاص، وألحق

---

(١) William Muir , The Caliphate ; its rise, decline and fall, Beirut, 1963, p. 66

(٢) الطبري ، ج ٤ ، ص ٣٠ — ابن الأثير ، ج ٢ ص ٤٠٥

(٣) نفس المصدر ، ج ٤ ص ٣١

(٤) البلاذري ، ج ١ ص ١٢٨

(٥) هو شرحبيل بن عبدالله بن المطاع الكندي ، وحسنة اسم أمه . وكان شرحبيل قد قدم من قبل خالد بن الوليد في العراق، فأمره أبو بكر، وندب معه الناس، واستعمله على عمل الوليد ابن عقبة (ابن الأثير ، ج ٢ ص ٤٠٦)

معاوية بن أبي سفيان ببعث يزيد بن أبي سفيان وسيّر معه جماعة من المجاهدين ، ومر معاوية وشرحبيل بخالد بن سعيد وفصلا عنه بأجناده . ثم أمر أبو بكر عمرو بن العاص وأبا عبيدة بأن يسلكا طريق أيلة، على أن يتوجه عمرو إلى فلسطين وأبو عبيدة إلى حمص ، وأمر يزيد وشرحبيل أن يسلكا طريق تبوك الذي ينتهي إلى معان على أن يتوجه شرحبيل إلى الأردن ويتوجه يزيد إلى دمشق [١] . وحدثت عدة اشتباكات متفرقة مع البيزنطيين ، أولها وقعة كانت بين المسلمين بقيادة يزيد والبيزنطيين بقيادة سرجيوس بطريق فلسطين بقرية من قرى غزة يقال لها داثن وانتهت بهزيمة البيزنطيين وانسحابهم إلى غزة [٢] ، وبينما سار يزيد ابن أبي سفيان مطارداً فلول البيزنطيين بلغه أن بالعربة [٣] من أرض فلسطين حشوداً بيزنطية ، فسيّر إليها يزيد قائداً من قواده يعرف بأبي أمامة الصدي بن عجلان الباهلي تمكن من الإيقاع بهم وقتل أحد قوادهم [٤] . ولما بلغ هرقل وهو بحمص توافد قوات المسلمين على جنوب الشام أعدلهم أجناده وعمد إلى لقاء بعوث المسلمين كل على حدة، ويذكر الطبري أنه « أراد اشتغال بعضهم عن بعض لكثرة جنده وفضول رجاله ، وأرسل إلى عمرو أخاه تذارق لأبيه وأمه ، فخرج نحوهم في تسعين ألفاً ، وبعث من يسوقهم حتى نزل صاحب الساقة ثنية جلق بأعلى فلسطين ، وبعث جرجة بن توذرا نحو يزيد بن أبي سفيان ، فعسكر بإزائه ، وبعث الدراقص ، فاستقبل شرحبيل بن حسنة ، وبعث الفيقار بن نسطوس في ستين ألفاً نحو أبي عبيدة ، فهابهم المسلمون، وجميع فرق المسلمين واحدوعشرون

---

(١) الطبري ج ٤ ص ٣٠

(٢) فيليب حتي ، تاريخ العرب المطول ج ١ ، بيروت ١٩٦١ ص ٢٠٠

(٣) وادي عربة منخفض كبير يمتد الى الجنوب من البحر الميت

(٤) البلاذري ، ج ١ ص ١٣٠

ألفاً سوى عكرمة في ستة آلاف »(١) ، وأمام هذا التفوق العددي الرهيب ، فزع المسلمون إلى عمرو بن العاص فنصحهم بالاجتماع وتوحيد البعوث وقال : « إن الرأي الإجتماع ، وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لم يغلب من قلة ، وإذا نحن تفرقنا لم يبق الرجل منا في عدديقرن فيه لأحدمن استقبلنا وأعد لنا لكل طائفة منا (٢) » ، وكانوا قد كاتبوا الخليفة ، فردّ عليهم بمثل رد عمرو ، وكتب يقول : «اجتمعوا فتكونوا عسكراً واحداً ، والقوا زحوف المشركين بزحف المسلمين ، فإنكم أعوان الله ، والله ناصر من نصره ، وخاذل من كفره ، ولن يؤتى مثلكم من قلة ، وإنما يؤتى العشرة آلاف والزيادة على العشرة آلاف إذا أتوا من تلقاء الذنوب ، فاحترسوا من الذنوب ، واجتمعوا باليرموك متساندين ، وليصلّ كل رجل منكم بأصحابه » . وكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد وهو بعين التمر بالعراق يستحثه على المسير إلى المسلمين في الشام على أن يصحب معه نصف عدد المسلمين ويترك النصف الآخر مع المثنى بن حارثة . فسار خالد بن الوليد في شهر ربيع الأول سنة ١٣ هـ ، واختلفوا في تحديد عدد من رافقه من مقاتلة المسلمين فالبعض يذكره بثمانمائة وقيل في ستمائة وقيل في خمسمائة ، وذكر بعضهم أنه قدم الشام في تسعة آلاف وهو الأرجح وقيل في ستة آلاف ، واخترق خالد الصحراء الفاصلة ما بين العراق والشام في ثمانية أيام(٣) ، ماراً بقراقر ، وهو ماء لكلب ، وسوى ، وهو ماء لكلب وبهراء والكواثل ، وقرقيسياء وأرك ودومة الجندل وقصم وتدمـر وحوارين ومرج راهط وثنية دمشق إلى أن وصل إلى بصرى (٤) وعليها شرحبيل بن

---

(١) الطبري ، ج ٤ ص ٣١ - ابن الاثير ، ج ٢ ص ٤٠٦ . وذكر البلاذري أن عدد قوات المسلمين بلغ ٢٤ ألفاً من المقاتلين (البلاذري ، ج ١ ص ١٢٩) أما الطبري فيجعل عدد المسلمين قبل وصول خالد بن الوليد سبع وعشرين ألفاً (ج ٤ ص ٣٢)

(٢) الطبري ، نفس الصفحة - ابن الاثير ، ص ٤٠٦

(٣) اليعقوبي ، ج ٢ ص ١٣٤ . ويجعل فيليب حتي المسافة ما بين قراقر وسوى خمسة أيام (تاريخ العرب المطول ، ج ١ بيروت ١٩٦١ ص ٢٠٢)

(٤) راجع التفاصيل في : البلاذري ، ج ١ ص ١٣١ ، ١٣٣ - ابن الاثير ، ج ٢ ص ٤٠٩

حسنة ويزيد بن أبي سفيان وأبو ع .دة بن الجراح، فاشترك خالد في محاصرتها ، فصالحه أهلها . ثم افتتح المسلمون جميع المناطق التـابعة لكورة حوران ، كما تمكن أبو عبيدة من فتح مآب .

وقعة أجنادين :.

أما عمرو بن العاص فقـد عزم بعد نزوله وادي العربة أو العربات أو غمر العربات على مهاجمة جنوبي فلسطين، وكان قد قدم لنجدته من قادة المسلمين خالد ابن الوليد وعكرمة بن أبي جهل وشرحبيل بن حسنة ويزيد وأبو عبيدة، وتجمعت حشود البيزنطيين في أجنادين، وهي بلدة تقع بين الرمـلة وبيت جبرين من أرض فلسطين ، فزحف المسلمون نحو أجنادين ، ونزلوا بها، وتم اللقاء بين البيزنطيين بقيادة تيودور أخي هرقل (تذارق) [١] والفيقار وقيل الأرطبون [٢]، وكان أدهى الروم وأبعدها غوراً وأنكاها فعلاً ، وبين المسلمين بقيادة أمراء البعوث مجتمعين في جمادي الآخرة سنة ١٣ (يوليو ٦٣٤). واشتد القتال بين الفريقين، وأبلى خالد بن الوليد يومئذ بلاء حسناً ، وانتهت المعركة بهزيمة نكراء مني بهـا البيزنطيون وقتل الفيقار وتذارق وأعداد هائلة منهم، واستشهد من الجـــانب الإسلامي بعض شخصيات إسلامية بارزة منها: عبدالله بن الزبير بن عبدالمطلب، وعمرو بن سعيد بن العاص بن أمية وأخوه أبان بن سعيد . ولما انتهى خبر هذه الواقعة إلى هرقل سقط في يده ، وامتلأت نفسه رعباً ، فنقل مقر قيـادته من حمص إلى أنطاكية [٣] .

---

(١) ابن الاثير ، ج ٢ ص ٤١٧

(٢) الطبري ، ج ٤ ص ١٥٧

(٣) البلاذرى ، ج ١ ص ١٣٦ - ابن الأثير ،ج ٢ ص ٤١٧

وقعة اليرموك :

وبلغ المسلمين أن هرقل ، امبراطور الدولة البيزنطية ، قادم بنفسه على رأس جيش ضخم قدّره المؤرخون بما لا يقل عن مائتين وأربعين ألفاً وقيل مائتي الف [١] ، وقيل مائة ألف وهو رقم أقرب إلى الصحة ، وذكر الطبري أن جيش المسلمين كانت عدته ٤٦ ألفاً ، فمن الأجناد الأربعة ٢٧ ألفاً، ومن فلال خالد بن سعيد ثلاثة آلاف ، ومن أمداد أهل العراق مع خالد بن الوليد عشرة آلاف ، ومن المسلمين الذين استمروا تحت قيادة عكرمة بعد هزيمة خالد بن سعيد ستة آلاف [٢] . وكان يتولى قيادة جيوش بيزنطة القائد الأرمني باهان وكان يعرف عند البيزنطيين بشدة بلائه ، وكان من بين الفرق البيزنطية فرقة من الغساسنة ومستعربة الشام من لخم وجذام يتقدمهم جبلة بن الأيهم الغساني ، وفرقة من أهل أرمينية والجزيرة ، واشتركت في جيش المسلمين عدد من نساء المسلمين قاتلن معهم ، منهن هند بنت عتبة، أم معاوية بن أبي سفيان، مع زوجها أبي سفيان الذي خرج متطوعاً [٣] ، ومنهن جويرية بنت أبي سفيان .

ثم اجتمع المسلمون شمالي نهر اليرموك في سهل فسيح يعرف بالواقوصة على حد تسمية الطبري ، والياقوصة على تسمية البلاذري . ويبدو أن نظام الجيش الاسلامي بتقسيماته الأربعة تحت قيادة أربعة من أمراء المسلمين لم يحظ برضاء خالد، وكان يرى توحيد القيادة الاسلامية ليلقى المسلمون الروم صفاً واحداً، فخطب في المسلمين قائلا : « إن هذا يوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي ، أخلصوا جهادكم وأريدوا الله بعملكم، فإن هذا يوم له ما بعده ، ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتعبية على تساند وانتشار ، فإن ذلك لا يحل ولا ينبغي ، وإن من

---

(١) البلاذرى ، ج ١ ص ١٦٠

(٢) الطبرى ، ج ٤ ص ٣٢ - ابن الاثير ، ج ٢ ص ٤١٠

(٣) البلاذرى ، ج ١ ص ١٦١

وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا ، فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذي ترونه أنه الرأي من واليكم ومحبته » . فسأله المسلمون عن خطته واستشاروه الرأي ، فقال: «إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى إنا سنتياسر ، ولو علم بما كان ويكون لقد جمعكم ، إن الذي أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم ،وأنفع للمشركين من إمدادهم ، ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم ، فالله الله ، فقد أفرد كل رجل منكم ببلد من البلدان لا ينتقصه منه أن دان لأحد من أمراء الجنود ولا يزيده عليه أن دانوا له . إن تأمير بعضكم لا ينقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله ﷺ ، هلموا ، فإن هؤلاء قد تهيأوا ،وهذا يوم له ما بعده إن رددناهم إلى خندقهم اليوم ، لم نزل نردهم ، وإن هزمونا لم نفلح بعدها [1] ، فهلموا فلنتعاور الامارة ، فليكن عليها بعضنا اليوم والآخر غداً والآخر بعد غد حتى يتأمر كلكم ، ودعوني أليكم اليوم »،فأمّروه على أنفسهم [2]، ثم وزع خالد جيوش المسلمين إلى كراديس يتراوح عددها ما بين ٣٦ كردوساً وأربعين [3] ، ثم قسم الكراديس إلى ثلاثة أقسام: ميمنة وعليها عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة ، وميسرة وعليها يزيد بن أبي سفيان ، وقلب وأقام عليه أبا عبيدة بن الجراح . ثم ولى على كل كردوس قائداً من قواد المسلمين أمثال القعقاع بن عمرو جعله على أهل العراق ومعه عياض بن غنم ، وهاشم بن عتبة كل منهم على كردوس ، كما قدّم على فالة خالد بن سعيد بن العاص دحية بن خليفة وامرىء القيس ويزيد ابن يحنس وعكرمة بن أبي جهل وذا الكلاع ومعاوية بن حديج . وقبل ان يشتبك المسلمون مع البيزنطيين قرأ المقداد بن الأسود سورة الأنفال وهي سورة

---

(١) هذه العبارة تدل دلالة واضحة على بعد نظر خالد وعلى تقديره لأهمية المعركة ، فهو يعتبرها معركة مصير

(٢) الطبري ، ج ٤ ص ٣٣ ــ ابن الأثير ، ج ٢ ص ٤١١

(٣) يبدو أن كل كردوس كان يتألف من ألف جندى

الجهاد ، وأخـــذ أبو سفيان يقف على الكراديس ويقول : «الله الله إنكم ذادة العرب وأنصار الاسلام وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك . اللهم إن هذا يوم من أيامك . اللهم انزل نصرك على عبادك » ،وجعل خالد بن الوليد على مجنبتي القلب عكرمه والقعقاع [١]

ثم أمر خالد مجنبتا القلب بقيادة عكرمة والقعقاع ببدء القتال،ومـــا كاد القائدان يبدآن بالهجوم حتى نشب القتال ، والتحم الجند . وفي هذه الأثناء قدم البريد من المدينة فأبلغ خالد بوفاة أبي بكر في ليلة النصف من جمـــادي الآخرة سنة ١٣ هـ ، وخلافة عمر ، كما أبلغه نبأ عزله عن الإمارة وتولية أبي عبيدة ، فأخفى خالد خبر وفاة أبي بكر وأخذ الكتاب من البريدي وجعله في كنانته .

ثم كر البيزنطيون على المسلمين، وحملوا عليهم حملة عنيفة أرتد المسلمون على أثرها من خطوطهم ومواقفهم ، باستثناء المحامية وعليهم عكرمه وعمه الحارث بن هشام ، فصرخ عكرمه ونادى قومه قائلاً : « من يبايع على الموت » ، فبايعه الحـــارث بن هشام وضرار بن الأزور في ٤٠٠ من وجوه المسلمين وفرسانهم وقاتلوا أمام فسطاط خالد ، وثبت المسلمون أمام البيزنطيين ، فبادر خـــالد بالهجوم بقلب الجيش ، فانهزم فرسان العدو وتركوا مشاتهم تحت رحمة المسلمين، فأذرع المسلمون فيهم بالسيوف واقتحموا في خندقهم ، فاقتحمه خالد عليهم ، فمددوا إلى سهل الواقوصة ،فتلقاهم المسلمون بالقتل ،وانتهى اليوم بنصر حاسم للمسلمين ، أبادوا فيه العدد الأعظم من جيش البيزنطيين ، وذكر الطبري أنه قتل منهم نحو مائة وعشرون ألفاً [٢] سوى من قتل من الخيل ، واستشهد من المسلمين ثلاثة آلاف من بينهم عكرمه بن أبي جهل وعمرين مكرمة وضرار بن

---

(١) الطبري ، ج ٤ ص ٣٤ - ابن الاثير ، ج ٢ ص ٤١٢

(٢) نفس المصدر ، ص ٣٦

الأزور . وانحاز جبلة بن الأيهم إلى الأنصار وقال لهم: أنتم إخوتنا وبنو أبينا ، ثم أظهر الاسلام هو وجماعة من قومه [١] . ولما بلغ هرقل ما أصاب جيشه من هزيمة رحل إلى القسطنطينية ، فلما جاوز الدرب الذي يصل أرض الشام بأرض بيزنطة قال : « عليك يا سورية السلام ! ونعم البلد هذا للعدو » [٢]

فتح دمشق :

وبوقعة اليرموك انهار سلطان الروم ، وزحف أبو عبيدة إلى دمشق [٣] ، فنزل بمرج الصفر ، متتبعاً فلول الروم ،بقيادة باهان، الذين لاذوا بفحل، وبلغه أيضاً أن مدداً بيزنطيا قد أتى أهل دمشق من حمص ، فلم يدر أبو عبيدة إلى أيها يقصد ؟ إلى دمشق التي أصبحت المركز الرئيسي للمقاومة البيزنطية في الشام؟ أم إلى فحل وبيسان وطبرية وهي مدن حصينة تجمعت فيها فلول الروم؟، فكتب إلى عمر يستطلع رأيه ، فجاءه رأي عمر بأن يبدأ بدمشق لانها حصن الشام؟ وبيت ملكهم وفي نفس الوقت يشغل أهل فحل بخيل تقف بإزائهم [٤] فإذا فتحت دمشق سار إلى فحل ، فإذا نجح في افتتاحها سار هو وخالد إلى حمص وترك شرحبيل بن حسنة وعمرو بن العاص بالاردن وفلسطين . ونفذ أبو عبيدة نصيحة عمر ، فزحف بمعظم جيوش المسلمين إلى دمشق في المحرم سنة ١٤ ، وترك على فحل طائفة من المسلمين لمحاصرتها ، فبثّ البيزنطيون المياه حول فحل ، فوحلت الأرض وعاق ذلك تقدم المسلمين . أما أبو عبيدة فقد طوّق دمشق وأحكم الحصار حولها ، ثم جعل خالد بن الوليد على رأس

---

(١) البلاذري ، ج ١ ص ١٦١ - اليعقوبي ، ج ٣ ص ١٤٢

(٢) نفسه،ص ١٦٢ .وذكر ابن الأثير أن هرقل رحل إلى القسطنطينية بعد أن افتتح أبو عبيدة قنسرين (ابن الأثير ، ج ٢ ص ٤٩٤)

(٣) تولى أبو عبيدة إمارة الجيوش الإسلامية بعد وقعة اليرموك تنفيذاً لأمر عمر ابن الخطاب

(٤) ابن الاثير ، ج ٢ ص ٤٢٨

فرقة من الجيش قوامها خمسة آلاف مقاتل على بابهـا الشرقي ، وأنزل عمراً على باب تومـا ، وأنزل شرحبيل على باب الفراديس ، وأنزل يزيد على الباب الصغير المعروف بباب كيسان ، أمـا أبو عبيدة نفسه فقد نزل على باب الجابية[١] .
ويذكر مؤرخو العرب أن خالد كان يقظاً لا ينام ولا ينيم ولا يخفى عليه من أمور أهل دمشق شيئاً ، فانتهز فرصة اشتغال الروم بأحد احتفالاتهم ،وغفلتهم عن حراسة البـاب الشرقي ليقتحمها ،وكان قد اتخذ سلالم من الحبال ، وبفضل هذه الحبـال تمكن نفر من المسلمين من الصعود بأعلى السور ثم كبروا ، وفتح خالد الباب الشرقي بعد أن قتل حراسه ، ولما أيقن الروم أن المدينة اقتحمت عنوة بادروا بمصالحـة أبي عبيدة وفتحوا له باب الجابية ، فصالحهم دون يعلم بأمر خالد ، فالتقى خالد والقواد في وسط دمشق ، بالمقسلاط وهو موضع النحاسين بدمشق [٢] .

فتح مدن الشام الشمالية :

ثار المسلمون بقيادة أبي عبيدة بعد فتح دمشق إلى فحل ، فجعـل خالداً على المقدمـة ، واشتبك المسلمون مع البيزنطيين في معركة انتهت بهزيمة البيزنطيين،واستولى المسلمون على فحل ، ثم استولوا على بيسان وطبرية ، وفتح شرحبيل جميع مدن الأردن وتغلب على سواده . ثم زحف أبو عبيدة وخالد إلى حمص ، فصالح أهلها على مثل ما صالح به أهل دمشق ، ثم قصد بعلبك وحماة وشيزر فخرج إليه أهلها مسالمين مصالحين ، وواصل أبو عبيدة زحفه فسار إلى معرة النعمان وافتتحها صلحاً . وعهـد أبو عبيدة بفتح سواحل سورية إلى عبادة بن الصامت ففتحهـا عنوة [٣]، ثم

---

(١) البلاذري ، ج ١ ص ١٤٤

(٢) ابن الاثير ،ج ٢ ص ٤٢٨ . ويختلف البلاذري عنه في تفاصيل فتح دمشق ، فيذكر أن أبا عبيدة افتتحها من باب الجابية عنوة وأن خالد افتتحها من الباب الشرقي صلحا (البلاذري ص ١٤٥)

(٣) البلاذري ، ج ١ ص ١٥٧ ـ ابن الاثير ج ٢ ص ٤٩٢

افتتح أنطرطوس وكانت خالية من سكانها ، وافتتح جبلة عنوة ، وأوكل بالحفاظ عليها والدفاع عنها حفظة وحراساً في فترة الصيف . أمـــا أبو عبيدة فقد سار وعلى مقدمته خالد إلى قنسرين وكانت لتنوخ،فغلب المسلمون على أرضها وقراها وقتلوا ميناس قائد جيش الروم . وصالح أبو عبيدة أهلها على مثل صلح حمص ، ثم دعاهم إلى الإسلام فأسلم بعضهم ، واقـــام على النصرانية بنو سليح بن حلوان [١] . ورحل أبو عبيدة إلى حلب وعلى مقدمته عياض بن غنم وافتتحها صلحاً ، ومن هناك زحف إلى انطاكية ، واشتبك مع اهلها وألجأهم إلى المدينة، فصالحوه على الجزية والجلاء [٢] .

وما زال أبوعبيدة يفتتح المدن ويستنزل القلاع حتى بلغ الفرات،وسيّر قواده في بعوث إلى منبج ودلوك ورعبان وبالس ، فافتتحوها صلحاً، ثم عبرت جيوش المسلمين درب بغراس من أعمال أنطـــاكية إلى بلاد بيزنطة بقيادة ميسرة بن مسروق العبسي وهو أول من سلك هـذا الدرب من المسلمين [٣]، وسيّر خالد بن الوليد إلى مرعش فافتتحها وصالح أهلها على الأمان والجلاء ، ثم أخربها .

فتح بيت المقدس ومدن فلسطين :

كان أرطبون قائد الروم قد فر بعد أجنادين إلى إيليـــاء (بيت المقدس) ، فمضى عمرو بن العاص يفتتح مدن فلسطين ، وتمكن في أمد قصير من الاستيلاء على نابلس ولد ويبني وعمواس وبيت جبرين ويافا ومرج عيون ، وعكا وعسقلان وغزة ورفح دون قتال . ثم زحف عمرو نحو إيلياء وحاصرها زهاء ٤ أشهر لم ينقطع فيها القتال ، وقدم عليه أبو عبيده بعد أن أتم فتح قنسرين ونواحيها في سنة

---

(١) البلاذري ، ص ١٧٢

(٢) نفس المصدر – ابن الاثير ، ص ٤٩٥

(٣) ابن الاثير ، ص ٤٩٦

١٦ هـ ، فاشترط صفرونيوس بطريق إيلياء على أبي عبيدة أن يأتي عمر بن الخطاب بنفسه ليتسلمها ويوقع معـــاهدة الصلح خوفاً من أن تتعرض كنيستهم العظمى لأعمال التخريب ، فقدم عمر بن الخطاب في سنة ١٦ هـ وعقد عهد الصلح لأهل إيلياء أورد الطبري نصه [١] . ولما بعث عهد الأمان إلى أهل إيلياء ودخلها جند المسلمين شخص عمر إلى بيت المقدس من الجابية ، وتم فتح إيلياء على يد عمر بن الخطاب في ربيع الآخر سنة ١٦هـ. أما عمرو فقد مضى إلى قيسارية وحاصرها، ولكنه لم يتمكن من افتتاحها إذ كانت تتلقى الامدادات من البحر، ويكاد يجمع المؤرخون على أن معاوية هو الذي فتحها قسراً في شوال سنة ١٩هـ [٢] .

فتح سواحل الشام الجنوبية :

ما إن انتهى المسلمون من فتح دمشق حتى وجه يزيد بن أبي سفيان همه إلى فتح مدن الساحل الشامي، ولم يأت عام ١٧هـ حتى كان قد افتتح صيدا وعرقا وجبيل وبيروت — وهي سواحل — فتحاً يسيراً، ولم يلق خلال هذه الفتوحات مقاومة ذات شأن من جانب سكان هذه المدن التي جلا معظمهم عنها . وكان يزيد يقيم على الحصن « اليومين والأيام اليسيرة ، فربما قوتل قتالاً غير شديد وربما رمى » ، وساعد على فتح هذه السواحل أخوه معاوية ، بل إن معاوية نفسه هو الذي تولى فتح عرقة في ولاية أخيه يزيد [٣] . ويبدو أن طرابلس استعصت على المسلمين في ولاية يزيد لمناعتها ووثاقة تحصيناتها، فقد ذكر البلاذري أن « يزيد بن أبي سفيان وجه معاوية إلى سواحل دمشق سوى أطرابلس فإنه لم يكن يطمع فيها [٤] » ،

---

(١) الطبري ، ج ٤ ص ١٥٩

(٢) البلاذري ، ص ١٦٧ ، ١٦٩

(٣) نفس المصدر ، ج ١ ص ١٥٠

(٤) نفسه ، ص ١٥٢

وكان فتح طرابلس يستلزم حصاراً من البر والبحر في آن واحد قد يطول أمده، كما حدث في حصار المسلمين لقيسارية الذي استغرق ما يقرب من سبع سنوات (من ١٣هـ إلى ١٩هـ) ، ولذلك رأى يزيد أن يرجىء فتح طرابلس إلى أن تتوفر له الإمكانيات ، فلم يكن للعرب بعد خبرة بشؤون الحصار البحري ، ثم إن طرابلس بالذات كانت تتطلب لفتحها حصاراً بحرياً خاصاً ، لأنها كانت تمتد على شبه جزيرة الميناء ، وكانت تتلقى الامدادات البيزنطيه بانتظام عن طريق البحر. ولم يطل العهد بيزيد إذ توفي في آخر عـــام ١٨ هـ بدمشق في طاعون عمواس وخلفه أخوه معاوية على ولاية دمشق الساحل، ولم يتهيأ لمعاوية إتمام فتح طرابلس إلا في خلافة عثمان بن عفان [١] .

كذلك تولى يزيد بن أبي سفيان قبل وفاته فتح سواحل الشام الجنوبية، وأبلى معاوية في ذلك بلاء حسناً ، فبعد أن تم للمسلمين فتح دمشق تمكن يزيد من فتح صيدا وعرقة وجبيل وبيروت وهي سواحل دمشق ، فتحها فتحاً يسيراً ، وجلا عنها كثير من أهلها. وعلى الرغم من أن البيزنطيين استرجعوا بعض هذه السواحل في آخر خلافة عمر وبداية خلافة عثمان، فقد تيسر لمعاوية افتتاحها من جديد ثم رمّها وشحنهـــا بالمقاتلة [٢] .

وذكر البلاذري نقلاً عن الوضين بن عطاء أن شرحبيل فتح في جملة ما فتحه من مدن الأردن عكا وصور وصفورية [٣] وإن كان هناك قولاً آخر ينسب فتح سواحل الأردن إلى يزيد بن أبي سفيان [٤] . وينسب المؤرخون فتح عسقلان إلى عمرو بن العاص، ولكن أهلها لم يلبثوا أن انتقضوا، وأمدهم الروم، ففتحها معاوية

---

(١) السيد عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام في التـــاريخ الاسلامي، الاسكندرية، ١٩٦٧ ص ٣٢ - ٣٦

(٢) البلاذري ، ج ١ ص ١٥٠

(٣) نفسه ، ص ١٣٩

(٤) نفس المصدر

وأسكنها الروابط ووكل بها الحفظة (١) .

طاعون عمواس :

تم فتح بلاد الشام في سنة ١٧هـ ، ثم حدث في العام التـــالي أن انتشر وباء الطاعون بصورة مريعة في الشام ، وعرف هذا الطاعون بطاعون عمواس نسبة إلى قرية من قرى فلسطين (٢) ، وقد تسبب هذا الطاعون في وفاة ٢٥ ألفاً (٣) ، وتوفي به جماعة من كبـــار الصحابة منهم أبو عبيدة بن الجراح ، ومعاذ بن جبل أحد بني سلمة من الخزرج وتوفي بناحية الأقحوانة من الأردن ، والفضل بن العباس ابن عبد المطلب ، وشرحبيـــل بن حسنة ، وسهيل بن عمرو ، ويزيد بن أبي سفيان ، وعامر بن غيلان الثقفي . وكان عمر بن الخطـــاب يهم بدخول الشام قادماً من المدينة في صحبة عدد من المهاجرين والأنصار ، عندما قابل جماعة من المسلمين نصحوه بالعودة إلى المدينة ، فتأهب للرجوع ، فقيل له « : أفرار من قدر الله ؟ » فقال: « نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله » ، فسمع عبد الرحمن بن عوف الحديث ، فقال: « إن النبي ﷺ قال : إذا سمعتم بهذا الوباء ببلد ، فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع وانتم فيه فلا تخرجوا فراراً منه » . فانصرف عمر بالناس إلى المدينة (٤) .

ب – فتح مصر :

الأسباب :

ذكر الطبري أن أرطبون بطريق الروم على بيت المقدس فـــر من

---

(١) البلاذري ، ج١ ص ١٦٩

(٢) نفسه ج ١ ص ١٦٥ – ابن الاثير ، ج ٢ ص ٥٥٨ – ياقوت ، معجم البلدان ج ٣ مادة عمواس

(٣) ابن الاثير ، ج ٢ ص ٥٦٠

(٤) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٥٦٠

هذه المدينة قبل أن يسلمها صفرونيوس إلى العرب، ولاذ بمصر[١] ، فانتهز عمرو ابن العاص فرصة وفود عمر بن الخطاب إلى الشام في سنة ١٧هـ للمرة الثالثة ، وقدم الجابية ، فخلا به ، واستأذنه في السير إلى مصر لفتحها . ويشير مؤرخو العرب إلى أن فكرة فتح مصر كانت من وحي عمرو بن العاص، وأنه حاول إقناع الخليفة عمر بضرورة فتحها وحرضه عليها ، وقال : « إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعوناً لهم ، وهي أكثر الأرض أموالاً ، وأعجزها من القتال والحرب »[٢] . وكان عمر متخوفاً من الدخول في مغامرة جديدة قد تنتهي بكارثة ، وكان كارها لغزوها إشفاقاً على المسلمين ، فلم يزل عمرو يعظم أمرها عنده ويهون عليه فتحها حتى استجاب له عمر ، فعقد له أربعة آلاف رجل وقيل على ثلاثة آلاف وخمسمائة ، واتفق معه الخليفة على أن يشرع في السير ، ثم يرسل إليه عمر كتاباً برأيه النهائي ، فإذا وصله كتاب الخليفة يأمره فيه بالقفول عن مصر قبل أن يدخلها فعليه بالانصراف ، إما إذا كان قد دخلها قبل أن يصله كتاب الخليفة فليمض في خطته . فسار عمرو بن العاص بجيشه نحو مصر ، ويبدو أن عمر عدل عن موافقته فكتب إلى عمرو على الفور يأمره بالقفول ، وأدرك الكتاب عمراً وهو برفح ، فخاف عمرو ، إن هو أخذ الكتاب وفتحه وجد ما يدعوه إلى العودة ، فلم يأخذه من الرسول وواصل سيره حتى دخل حدود مصر ، فأمر بالكتاب فقرأه على المسلمين[٣] . ويزعم بعض المؤرخين أن عمراً سار إلى مصر بغير إذن ، ثم كتب إلى الخليفة يستأذنه وهو في طريقه إلى مصر ، وجاءه رد عمر وهو دون العريش ، فلم يقرأ الكتاب حتى بلغ العريش ، ثم طالع فيه أمر عمر بأن ينصرف إذا لم يكن قد تجاوز حدود

---

(١) الطبري ، ج ٤ ص ١٦١

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٨١

(٣) نفس المصدر، ص ٨٢

مصر [١] . وذكر بعضهم أنه مضى إلى مصر من تلقــاء نفسه في ثلاثة آلاف وخمسمائة ، فغضب عمر لذلك وكتب إليه يوبخه ويأمره بالرجوع إلى موضعه من فلسطين إن وافاه كتابه دون مصر ، فورد كتاب الخليفة عليه وهــو بالعريش [٢] .

وهناك فريق آخر من الرواة يرجعون الفكرة إلى عمر بن الخطاب ويذكرون ان عمر وهو بالجابية كتب إلى عمرو بن العاص يــأمره بالشخوص إلى مصر ، فوافاه كتــابه وهو بقيسارية ، وذكروا ان عمر كتب إلى عمرو يأمره بندب الناس إلى المسير معه إلى مصر ، فندبهم عمرو ، فأسرعوا بالسير معه إلى وجهته ، فلما علم عثمان بن عفان بذلك أفصح عن مخاوفه ، وقــال : « يا أمير المؤمنين ، إن عمراً لجرأ وفيه إقدام وحب للإمــارة ، وأخشى ان يخرج في غير ثقة ولا جماعة فيعرض المسلمين للهلكة رجــاء فرصة لا يدري تكون أم لا » ، فندم عمر على كتابه إلى عمرو إشفاقاً مما قال عثمان ، فكتب إليه « إن أدركك كتابي قبل ان تدخل مصر فارجع إلى موضعك وإن كنت دخلــت فامض لوجهك » [٣] .

والظاهر ان فكرة فتح مصر أثيرت لأول مرة عندما قدم عمر بن الخطاب إلى الجابية في سنة ١٧هـ (٦٣٨ م) للإشراف على آخر ما وصلت إليه الفتوحات الاسلامية ، ومن المعتقد استناداً إلى النصوص السابقة ان عمراً – وكان قــائداً قديراً وسياسياً بعيد النظر – أدرك ضرورة فتح مصر من الوجهــة العسكرية اولاً للإفلات من تطويق الروم للمسلمين من جهــة الجنوب والغرب خاصة وان أرطبون أحد كبار القادة البيزنطيين قد لاذ بها ، وبالاضافة إلى هذا العامل كان

---

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٨٢

(٢) البلاذري ، ج ١ ص ٢٤٩

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ٨٣

العرب على علم تام بعظم ثروة مصر ، أهمية موقعها الجغرافي ، فقد وفد إليها في العصر الجاهلي عدد كبير من العرب للتجارة كعمرو بن العاص وعثمان بن عفان والمغيرة بن شعبة ، ويضاف إلى هذا العامل الاقتصادي عامل آخر سياسي، ذلك أن الشام ومصر كانت وما زالت تربطهما مصالح سياسية وحربية وتجارية واحدة، وكثيراً ما ارتبط الشام ومصر معاً في وحدة تاريخية وثيقة، وكان مصيرهما واحداً خلال فترات طويلة من التاريخ القديم والوسيط ، ولا شك ان الموقع الجغرافي لكل من مصر والشام هو الذي حتم عليهما هذا التعاون والالتقاء إلى ابعد مدى. وما زال عمرو يلح على الخليفة ، والخليفة منصرف عن الاستجابة لرغبته خوفاً من فتح جبهة حربية جديدة في وقت كانت جيوش العرب موزعة في جبهات متعددة ؛ إلى ان انثنى أمام إلحاحه الشديد ، واذن له . ولعل موافقة عمر كانت مشروطة حتى يترك لنفسه فرصة لاستخارة الله والتفكير في الأمر، وقد يكون قد اتفق مع عمرو على ان يكتب إليه بما استقر عليه رايه . وسواء وصل كتاب عمر قبل ان يدخل عمرو أرض مصر أو لم يصل ، فان عمراً سار بجيشه في ١٨هـ في الطريق المحاذي لساحل البحر المتوسط ، فوصل إلى العريش ومنها إلى الفرما وكانت تعرف قديماً بحصن بيلوز ، وكان بها قوم من الروم مستمدون للقتال ، فاشتبك المسلمون مع الحامية البيزنطية ، واستمر حصار المسلمين لها ما يقرب من شهر إلى ان سقطت في ايدي المسلمين [١] . وذكروا ان بنيامين بطريرك الاسكندرية [٢] ، عندما بلغه دخول العرب ارض مصر ، كتب الى الأقباط

(١) إبن عبد الحكم ، ص ٨٥ ؛ البلاذري ، ج ١ ص ٢٤٩

(٢) يسميه مؤرخو العرب أبو بنيامين ، وكان على المذهب المونوفيزيتي ، وقد تعرض بنيامين لاضطهاد قيرس حاكم مصر من قبل هرقل، الذي لجأ إلى سياسة تقوم على الشدة والتعسف، وأمام هذا الاضطهاد الرهيب اضطر البطريرك القبطي بنيامين إلى الفرار من الاسكندرية من بابها الغربي إلى الصحراء ، ولاذ بدير صغير لا يبعد كثيراً عن قوص (بتلر ، فتح العرب لمصر ، ترجمة محمد فريد أبو حديد، القاهرة ١٩٣٣، ص ١٣٣). وعندما افتتح عمرو الاسكندرية دعاه الى الحضور آمناً مطمئناً، فلما حضر الى كرسيه البطريركي احتفل به عمرو بن العاص وأطلق يده في الاشراف على شؤون القبط (شكري فيصل ، المجتمعات الاسلامية ص ١٢١).

سكان البلاد يعلمهم بأن ملك الروم قد انقطع ، ويأمرهم بتلقي عمرو. والظاهر ان فريقاً من الأقباط اطاع بنيامين ، وانضموا إلى جانب المسلمين ، وكانوا لهم أعواناً [١] .

موقعة حصن بابليون :

واصل عمرو زحفه نحو حصن بابليون دون أن يلقى مقاومة تذكر، إلى أنه نزل القواصر [٢]، فدخلها ثم سار إلى حصن بلبيس ، فقاتل البيزنطيين نحو شهر حتى افتتحها،ثم مضى في طريقه حتى أتى أم دنين وهي قرية تقع إلى شمال حصن بابليون ، وهناك اشتبك عمرو مع البيزنطيين في قتال عنيف،انتهى بهزيمة الروم فتحصنوا داخل الحصن،فحاصرهم،وقاتلهم قتالاً شديداً. وكان حصن بابليون من المناعة والحصانة بحيث لا يمكن اقتحام أسواره أو تخريب أبراجه ، فلما تعذر على عمرو فتح الحصن ، وطال أمد الحصار كتب عمرو إلى عمر يستمده ، فأمده عمر بأربعة آلاف رجل وكتب إلى عمرو : « إني قد أمددتك بأربعة آلاف رجل على كل ألف منهم رجل مقام الألف: الزبير بن العوام ، والمقداد بن عمرو، وعبادة بن الصامت ، ومسلمة بن مخلد » [٣] . ولما طال الحصار على قيرس حاكم مصر أخذ يفاوض عمراً في شروط الصلح ، وأرسل قيرس هذه الشروط إلى هرقل ، فغضب هرقل وأرسل إلى قيرس وقواد الروم يعنفهم على تخاذلهم أمام العرب ، ورفض الروم الصلح واستؤنف القتال من جديد . وفي هذه الأثناء عمد الزبير إلى اصطناع الحيلة،فوضع سلما إلى جانب الحصن،ثم صعد وأصعد معه جماعة ،

---

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٨٦

(٢) بلدة قديمة من أعمال مركز التل الكبير تعرف اليوم بالقصاصين ، وحددها ياقوت بين الفرما والفسطاط (معجم البلدان مجلد ٤ ص ١٠ ٤)

(٣) ابن عبد الحكم،ص ٩١ وقيل أن عمراً أرسل إليه الزبير في اثني عشر الفا(ابن عبد الحكم ص ٩٢ - البلاذري ، ص ٢٥١)

وأمر المسلمين إذا سمعوا تكبيره ان يجيبوه جميعاً، فكبر الزبير وكبّر من معه ، فأجابهم المسلمون من خارج ، فلما سمع البيزنطيون التكبير لم يشكوا قط في ان العرب قد اقتحموا الحصن، ففر الحراس والمدافعون عن تلك الجهة ، فنزل الزبير وأصحابه إلى باب الحصن ففتحوه فتدفق المسلمون في الحصن[1]، وتم فتح الحصن بعد ما يقرب من سبعة أشهر ، وعقد العرب مع المصريين معاهدة تعرف بمعاهدة حصن بابليون الأولى في سنة ١٩ هـ (٦٤٠ م) . وكان لسقوط حصن بابليون أهمية عظمى للفاتحين لأنه كان يعني سقوط مركز الدفاع الأول في مصر ، وتفتح الطريق للزحف إلى الاسكندرية، ويبدو ان قيرس سافر إلى بيزنطة لينقل إلى هرقل شروط المعاهدة ، ولكن الامبراطور رفض هذه الشروط وطلب من البيزنطيين استئناف القتال. وكان عمرو قد استغل فرصة غياب قيرس في بيزنطة ، فاستولى على الفيوم وعين شمس والأشمونين وإخميم وقرى الصعيد وعلى تنيس ودمياط ودميرة وغيرها ، ثم عبر المسلمون نهر النيل متوجهين إلى الاسكندرية حاضرة مصر .

فتح الاسكندرية :

بمقتضى الصلح مع الأقباط فرض عمرو عليهم دينارين عن كل شخص بلغ الحلم « ليس على الشيخ الفاني ولا على الصغير الذي لم يبلغ الحلم ، ولا النساء شيء » ، واشترط عمرو على الأقباط أن يكون للمسلمين الحق في النزول عليهم حيث نزلوا ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو اكثر من ذلك كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام مفترضة عليهم ، وفي مقابل ذلك لا يتعرض المسلمون لأراضيهم وأموالهم ، وتعهد القبط باقامة الانزال للمسلمين والضيافة وإقامه الجسور واصلاح الطرق ما بين الفسطاط إلى الاسكندرية [2]. سار عمرو إلى الاسكندرية في ربيع الأول سنة ٢٠ هـ (٦٤٢ م) بعد ان استخلف على

---

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٩٣

(٢) نفسه ص ١٠٣ ، ١٠٧

حصن بابليون خارجة بن حذافة بن غانم [١] ، واشتبك عمرو مع الروم في نقيوس الواقعة على الشاطىء الشرقي لفرع النيل الغربي بالقرب من منوف الحالية، ثم في سلطيس (وصحتها سنطيس) الواقعة على بعد ستة أميال جنوبي دمنهور الحالية ، وانهزم البيزنطيون في كل من هذين الحصنين. ثم التقى عمرو بالبيزنطيين في حصن الكريون، وكان أهم معقل بيزنطي أمام الاسكندرية، وكانت الكريون تشرف على ترعة الاسكندرية التي يعتمد عليها اهل الاسكندرية في السقيا ونقل المؤن ، وهناك قامت معركة حامية استمرت عدة أيام انتهت بانتصار عمرو على تيودور قائد القوات البيزنطية انتصاراً حاسماً تراجع البيزنطيون على اثره بعد ان قتل منهم عدد كبير [٢] ، وتحصنت فلول الجيش البيزنطي في الاسكندرية . وكانت الاسكندرية مدينة حصينة لها اسوار محكمة البناء ، ولها حصن منيع كان الفرس قد اقاموه في فترة احتلالهم للاسكندرية في شرق المدينة من جهة الميناء الشرقية [٣] . وادرك عمرو استحالة استيلائه على الاسكندرية لمناعتها فآثر ان يترك عليها فرقة للرباط ما بين حلوة وهو موقع بشرق الاسكندرية إلى قصر فارس ، ويسير هو على رأس جيشه لفتح بقية الوجه البحري .

وذكر ابن عبد الحكم ان عمراً حاصر الاسكندرية مدة ثلاثة اشهر حتى صالحه المقوقس (قيرس) عن اهلها ، وان هذا هو الفتح الأول [٤] ، وذكر ايضاً ان عمراً اقام على حصار الاسكندرية بضعة اشهر ، فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب قال : « ما ابطأوا بفتحها إلا لما احدثوا» [٥]. وذكر ايضاً ان عمرو فتح

---

(١) البلاذري ، ص ٢٥٩

(٢) السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٥٢

(٣) بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص ٦٧

(٤) ابن عبد الحكم ، ص ١٠٦

(٥) نفسه ، ص ١١٤

الاسكندرية صلحاً يوم الجمعة لمستهل المحرم سنة عشرين ، وخلف بها الف رجل من اصحابه ، ومضى عمرو ومن معه في طلب من هرب من الروم في البحر إلى الاسكندرية ، فقتلوا من كان فيها من المسلمين الا من هرب منهم ، وبلغ ذلك عمراً فكر راجعاً ، ففتحها واقام بها [١] . والمتفق عليه ان عمرو بن العاص حاصرها مدة ١٤ شهراً : منها تسعة اشهر بعد موت هرقل ، وخمسة قبل ذلك ، وان فتحها تم في اول المحرم سنة ٢١ هـ (٦٤٢ م) [٢] .

وساعد على فتح العرب للاسكندرية موت الامبراطور هرقل وضعف الحكومة البيزنطية بعد وفاته في ٢٣ صفر سنة ٢٠ هـ (١١ فبراير سنة ٦٤١م) ، وقيام المنازعات في القسطنطينية من اجل العرش ، مما اضطر البيزنطيين الى العمل على إنهاء حالة الحرب ، وذلك بعقد صلح مع المسلمين حتى يتفرغوا لمشاكلهم الداخلية ، وذكر حنا النقيوسي ان البطريق قيرس الذي عاد من بيزنطة وبيده تفويض من الامبراطور يخوله عقد الصلح مع عمرو ذهب الى عمرو في بابليون ليفاوضه في الصلح ، وتم الاتفاق بينهما على ان يدفع اهل الاسكندرية للعرب جزية شهرية وان يقدموا لعمرو ١٥٠ جندياً و ٥٠ مدنياً بمثابة رهائن، وفي مقابل ذلك يتعهد المسلمون بعدم التدخل في شؤون المسيحيين وكنائسهم ، والسماح لليهود بالبقاء في الاسكندرية ، وان يبقى المسلمون مدة ١١ شهراً خارج المدينة حتى يبحر عنها الروم . ووقعت المعاهدة بين الطرفين في طليعة نوفمبر سنة ٦٤١ ، وتم إبحار الروم في ١٧ سبتمبر سنة ٦٤٢ م [٣] .

---

(١) السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٥٢

(٢) المقريزي ، كتاب المواعظ والاعتبار ، ج ١ طبعة بيروت ١٩٥٩ ص ١٦٥

(٣) بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص٢٣٥- Lane - Poole, a histroy of Egypt in the Middle ages ,London 1936 , p . 11

ج – فتح برقة وافريقية :

فتح برقة :

بعد أن استكمل عمرو بن العاص فتح مصر كان من الطبيعي أن يفكر في فتح برقة وطرابلس الغرب لعاملين ،الأول :أن برقة كانت تعتبر امتداداً طبيعياً لمصر، وإقليماً متمماً لها ، إذ هي تجاور لوبيا ومراقية ، وهما كورتان من كور مصر الغربية [١] . وكانت برقة وطرابلس قد انفصلتا عن ولاية إفريقية منذ عهد الإمبراطور البيزنطي موريق (٥٨٢ - ٦٠٢) وأصبحتا رسمياً تابعتين لمصر ، وإن كانتا في حقيقـــة الأمر مستقلتين . ولما اشتعلت نيران الثورة في المغرب ضد الامبراطور المغتصب فوقاس كانت برقة وطرابلس في مقدمـــة الولايات المغربية التي آزرت جريجوريوس [٢] على الانفصال عن الإمبراطورية البيزنطية [٣] ، ولذلك كان لا بد لعمرو بن العاص بعد أن استكمل فتح مصر أن يبادر بفتح برقة وطرابلس تأميناً لحدود مصر الغربية من الخطر البيزنطي. والعامل الثاني هو رغبة عمرو في تطبيق سياسة الإستمرار في الفتح نحو الغرب، وهو أمر يدل عليه سير الفتوحـــات العربية في الشام ومصر وبرقة ثم إفريقية والمغرب والأندلس وجنوبي فرنسا ، ولم يكن المحـــاربون العرب يزهدون في مواصلة القتال بعد انتهائهم من فتح مصر، التماساً المغانم التي كانت تعود عليهم من الغزو . ولم ينتظر عمرو حتى ينتهي تماماً من فتح مصر ، ويتفرغ لفتح برقة ، فنراه يبـــادر بإرسال عقبة بن نافع الفهري على رأس حمـــلة استطلاعية إلى برقـة و انطابلس » .

ويذكر ابن عذارى أن عمراً بعد أن افتتح مصر في سنة ٢٠٠ هـ وجه عقبة

---

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٢٢٩

(٢) استقل البطريق جريجوريوس بن نيقيتاس حاكم إفريقية عن الامبراطورية البيزنطية في سنة ٦٤٦ م وتلقب بالامبراطور بموافقة الشعب المغربي . ثم نقل الحاضرة من قرطاجنة إلى سبيطلة (السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ج ٢ ص ٧٧)

(٣) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، القاهرة ، ١٩٤٧ ص ٥٠

ابن نافع الفهري إلى زويلة وبرقة فافتتحها [١] ،ويؤيد ابن أبي دينار القيرواني هذه الرواية في كتابه المؤنس [٢] ، والظاهر أن عمرو بن العاص اطمأن إلى تقرير عقبة بن نافع عن بلاد برقة ، فعجل بتسيير جيوشه لفتحها .

سار عمرو على رأس جيش من فرسانه غرباً حتى قدم برقة ، وكانت وقتئذ أشبه بولاية بربرية مستقلة عن الدولة البيزنطية ، وكان يسكنها بطون من قبيلة لواتة البترية وهي من أكبر قبائل البربر شأناً وأشدها بأساً . وكان بربر لواتة ساخطين على البيزنطيين، كارهين لحكمهم الجائر، وتعسفهم في جباية الضرائب، كما نقموا منهم لكثرة مظالمهم ؛ فعملوا على التخلص من الحكم البيزنطي ،وكانت قد بلغتهم الأخبار باستيلاء العرب على بلاد الشام ومصر ، فتطلعوا إلى الخلاص على أيدي العرب ، وهذا يفسر مبادرتهم بتقديم فروض الولاء لجيش المسلمين واستسلامهم لهم طائعين مختارين ، فصالحهم عمرو نظير جزية يؤدونها إليه وهي دينار على كل حالم [٣] .

فتح طرابلس :

وما إن أتم عمرو فتح برقة حتى شرع في فتح طرابلس تمهيداً للدخول في إفريقية ، وقد استلزم الأمر تجهيز جيشين : أحدهما يسير بحذاء الساحل بهدف

---

(١) ابن عذاري ، البيان المغرب ، تحقيق ليفي بروفنسال وكولان ، ج ١ ص ٨

(٢) ابن أبي دينار القيرواني، المؤنس في تاريخ افريقية وتونس ،تونس، ١٢٨٦هـ، ص ٢٢

(٣) ابن عذاري ، ج ١ ص ٨ . وذكر مؤرخو العرب أنه صالح أهلها على ١٣ ألف دينار على أن يبيعوا من أحبوا من أبنائهم في جزيتهم (ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٢٩ ـ البلاذري ، فتوح البلدان ج ١ ص ٢٦٤ ـ البكري ، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، الجزائر ،١٩١١، ص ١١) ويستبعد الدكتور مؤنس ذلك من العرب، ويعتقد أن بيع الذراري عند البربر كان أمراً شائعاً في ذلك الحين (فتح العرب للمغرب ، ص ٥٦)

الاستيلاء على طرابلس وما يليها من مدن الساحل ، والثاني يتجه نحو الداخل بقصد الاستيلاء على الواحات التي تؤلف مراكز للمقاومة في قلب البلاد والتي لو تركت وشأنها لأصبح من السهل على أهلها أن يقطعوا على المسلمين طريق العودة . فسير عمرو قائده عقبة إلى فزان فافتتحها ، ثم واصل زحفه حتى بلغ زويلة . ويبدو أن عمل عقبة اقتصر على الاستيثاق من طاعة أهل هذه الواحات أو على الأقل من وقوفهم موقفاً حيادياً [١] . ونجح عقبة في مهمته ، وأصبحت المنطقة الممتدة ما بين برقة وزويلة مأمونة الجانب ، لا خوف على المسلمين من سكانها [٢] .

وبينما كان عقبة يفتتح فزان كان عمرو يغزو إقليم طرابلس ، فبدأ بمدينة سرت وتقع (بين برقة وطرابلس) فاستولى عليها ، ثم زحف على لبدة ، فوجدها قليلة العمران ، فاستولى عليها . ثم مضى نحو طرابلس وكانت مدينة حصينة مسورة من سائر الجهات ما عدا الجهة الشمالية المطلة على البحر ، فحاصرها شهراً ، فامتنعت عليه . ويتفق مؤرخو العرب على أن جماعة من جند عمرو من بني مدلج فاجأوا الروم من جهة ساحل طرابلس حيث انحسرت مياه البحر بسبب حركة الجزر ، ومهدوا السبيل أمام عمرو لدخول طرابلس [٣] ومعاهدة أهلها . ولما ظفر عمرو بمدينة طرابلس سير فرقة من الفرسان إلى سبرت معقل قبيلة نفوسة الأمنع ، ففاجأوا أهلها وقد غفلوا عن حمايتها ، فدخلها المسلمون . كذلك أرسل عمرو قائده بسر بن أرطأة إلى واحة ودان ، فافتتحها في سنة ٢٣ هـ [٤] .

---

(١) مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٦٠

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٢٣٠ ـ البلاذري ، فتوح البلدان ، ج ١ ص ٢٦٥ ـ البكري ص ١٠

(٣) نفس المصدر ، ص ٢٣١ ـ البلاذري ، ص ٢٦٦

(٤) البكري ، ص ١٢

وبذلك تم للعرب فتح برقة والقسم الشرقي من ولاية طرابلس ، دون أن يتدخل جريجوريوس ويدافع المسلمين ، وكانت أخبار انتصارات العرب في برقة وطرابلس وفزان وودان قد وصلت إليه فاحتاط لنفسه ، وبادر بتحصين بلاده وإقامة المحارس والمسالح والحاميات فيما يلي سبرت،تعزيزاً للدفاع عن إفريقية ، واستعداداً لملاقاة العرب [١] . ونستدل من تجنب العرب مهاجمة قابس في حملة عبدالله بن سعد وإتجاههم مباشرة إلى سبيطلة أن جريجوريوس حصّنها بقلاع منيعة لا ترام ، فتفاداها العرب بعد ذلك ، ويبدو أن عمرو بن العاص حاول فتح بعض هذه الحصون المتناثرة فيما يلي سبرت غربا ولكنهـــا استعصت عليه لمناعتها ، فكتب يستأذن الخليفة في فتح افريقية ، فجاءه رد الخليفة ينهيه عن ذلك ، فاضطر عمرو إلى الانصراف إلى مصر بعد أن أقام قائده عقبة بن نافع على هذه البلاد ببرقة يدعو إلى الإسلام ، وأصبحت برقة قاعدة لجيوش المسلمين في غرب مصر .

حملة عبدالله بن سعد على أفريقية :

أدرك البطريق جريجوريوس الخطــــر الذي يتهدد بلاده من الحدود الشرقية ، فرأى أن ينقــــل عاصمته الواقعة في أقصى الطرف الشمالي الشرقي من ولاية افريقية على الساحل ، إلى موضع آمن في جوف البلاد حتى لا تتعرض لغزو العرب من جهـة الشرق وغزو البيزنطيين من جهة البحر [٢] ، ثم انه كان يعمل على التقرب من البربر طمعـــاً في أن ينصروه على العرب ، فأراد أن يحتمي بينهم ، فاختار مدينة سبيطلة لهذا الغرض وجعلهـا حاضرة لولايته في سنة ٢٤ هـ (٦٤٦ م) . وفي نفس الوقت حصّن المدن الشرقية مثل قابس وسفاقس وقفصة حتى تؤلف خطاً دفاعياً أمامياً ، يعرقل

---

(١) مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٦٧ ـ ٦٨ عبدالعزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ص ٢٨

(٢) نفس المرجع ص ٧٥ ، ٧٦

جيوش العرب ويؤخر من تقدمهم . ويبدو أن طرابلس خرجت عن طاعة المسلمين ولكن سرت ظلت قاعدة لقوات المسلمين في برقة ومركزاً لعقبة بن نافع الذي صرف همه إلى غزو الواحات القريبة من فزان وودان وزويلة والسودان[١].

ولعل عبدالله بن سعد كان على علم بكل ما يجري في برقة ، فكتب إلى عثمان ابن عفان (وكان قد تولى الخلافة) يخبره بما تعرض له المسلمون من عدوهم ويستأذنه في غزو افريقية [٢] ، والظاهر أنه طلب من الخليفة أن يرسل إليه مدداً يعينه على مهمته المقبلة ، فاجتمع الخليفة عثمان بوجوه الصحابة وذوي الرأي في سنة ٢٧ هـ (٦٤٧ م) واستشارهم فيما عرضه عليه عبدالله بن سعد ، فأجمعوا على موافقته باستثناء الأعور بن سعيد بن زيد الذي تمسك برأي عمر بن الخطاب في ألا يغزوها أحد من المسلمين[٣] ، وكان عثمان يميل إلى إجابة طلب عبدالله بن سعد أخيه في الرضاع ليكسبه بذلك مجداً يزيد من هيبته ، فما إن أقر الصحابة رأي الخليفة في إجابة عبدالله بن سعد إلى طلبه حتى استنفر المسلمين ، وندبهم إلى الغزو إلى إفريقية ، وفتح مستودعات السلاح ، فتوافى الناس وانضموا إلى الجيش ، فأمّر عليهم الحارث بن الحكم حتى يقود الحملة إلى مصر ، فلما وصلت إلى مصر ضم اليه ابن أبي سرح جيوش مصر وفيهم بعض الأقباط [٤] ، فكمل عدد الجيش عشرين ألفاً [٥] ، ثم استخلف ابن ابي سرح على مصر عقبة بن عامر الجهني وخرج في مقدمة جيشه إلى

---

(١) البكري ، ص ١٤٥

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٢٤٦

(٣) المالكي ، رياض النفوس ، ص ٨ ، ٩

(٤) نفس المصدر ، ص ١١

(٥) نفسه ص ١٠ - ابن عذاري ، ص ٩ - نص عبيدالله بن صالح بعنوان : نص جديد عن فتح العرب للمغرب ، نشره ليفي بروفنسال ، بصحيفة المعهد المصري للدراسات الاسلامية في مدريد ، مجلد ٢ ، ١٩٥٤ ص ٢١٦

افريقية . وفي برقة استقبله عقبة بن نافع فيمن معه من المسلمين [١] ، ومن هناك أرسل سرية تقدمت الجيش إلى طرابلس ، وكان اهل هذه المدينة قد تحصنوا داخل اسوارهم عندما أقبل العرب . ثم حاول المسلمون اقتحام المدينة ، ولكنها استعصت عليهم ، فعدلوا عن ضرب الحصار عليها حتى لا يعطلهم هذا الحصار عن هدفهم الأصلي ، وواصلوا السير نحو افريقية . فلما وصلوا إلى قابس وجدوا البيزنطيين قد تحصنوا داخل أسوارهم ، فأشار المسلمون على عبدالله بن سعد الا يبدأ بمهاجمة الحصون قبل ان يشتبك مع جيوش الروم [٢] ، فعدل عبدالله عن محاصرة قابس ، وبث السرايا في آفاق افريقية ، فغنموا في كل وجه [٣] . وعندئذ اضطر البطريق جريجوريوس إلى الخروج من سبيطلة لملاقاة جيوش العرب ، فخرج في جيش عدته مائة وعشرون الف مقاتل في قول [٤] ، ومائة الف في قول آخر [٥] ، والتقى الجيشان بالقرب سبيطلة ، ونستنتج من الروايات المختلفه التي روت تفاصيل المعركة أن عبدالله بن سعد بعد أن استعصت عليه قابس واصل زحفه بحذاء الساحل التونسي حتى وصل إلى بلدة قمونية وهي موضع القيروان [٦] ولعلها ميناء Caput Vada البيزنطي القريبة من القيروان ، وهناك أرسل رسله إلى جريجوريوس يدعوه إلى إحدى خصال ثلاثة: الاسلام أو الجزية أو القتال [٧] ، وهي عادة اتبعها الفاتحون العرب في كل فتوحاتهم

---

(١) ابن الاثير ، ج ٣ ص ٨٩

(٢) نص عبيدالله بن صالح ، ص ٢١٦

(٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ٩

(٤) ابن الاثير ، ج ٣ ص ٨٩ ـ نص عبيدالله بن صالح ص ٢١٦ ـ ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠

(٥) المالكي ، ص ١١

(٦) نفس المصدر ، ص ١٢

(٧) نفس المصدر ، ص ١٠

فلما رفض جريجوريوس ماعرضه عليه ابن سعد بدأت الاشتباكات بين الطرفين، وتهيأ القوم للقتال . ويبدو ان جيش الروم تضخم بمن انضم إليه من الروم والبربر الموالين لهم ، من العاصمة ومن الحصون القريبة من سبيطلة، وبدا جيش المسلمين ضئيلا بالنسبة لجيش الروم ، وخاف ابن سعد أن يلقي العرب وهم قلة جيوش الروم والأفارقة مجتمعة ، فينتهي الأمر بهزيمة قد تقضي على جيش المسلمين ، فعظم عليه الأمر . وتصور الروايات العربية شدة ما اصابه من غم وضيق واختلاف المسلمين عليه في الرأي ، وانزوائه في فسطاطه مفكراً . وفي نفس الوقت كان جريجوريوس يخاف أن يشتبك مع العرب في موقعة فاصلة فتدور عليه الدائرة ، فقد كانت أنباء انتصاراتهم الخاطفة في الشام ومصر والعراق وفارس وبرقة قد وصلت إليه ، ولذلك اقتصر القتال بادىء ذي بدء على مجرد اشتباكات فاترة ، استغرقت أياماً . والظاهر أن هذه الاشتباكات كشفت عن تفوق جيوش الروم على جيوش المسلمين ، مما دعا ابن الزبير إلى التفكير في وسيلة تكفل للمسلمين النصر ، فاتفق مع عبدالله بن سعد على أن يفاجىء ابن الزبير الروم بالهجوم بعد الانتهاء من القتال اليومي عندما يكون التعب والجهد قد أخذا منهم مأخذاً عظيماً [١] . ونجحت خطة ابن الزبير فاخترق واصحابه معسكر الروم وهم متعبون لا يتوقعون القتال ، واستطاع ان يصل في يسر إلى معسكر البطريق ، وتمكن اخيراً من قتله ، وانهزم الروم بعد مصرع ملكهم هزيمة شنعاء ، وسبقتهم خيول المسلمين إلى باب الحصن ، فحالوا بينهم وبين دخوله ، وأذرع فيهم المسلمون قتلا [٢] .

ثم زحف عبدالله بن سعد بعد ذلك نحو سبيطلة العاصمة، فحاصرها حصاراً محكماً وتمكن من الاستيلاء عليها ، وغنم غنائم كثيرة، ثم بث جيوشه في البلاد

(١) ابن الأثير ، ج٣ ص ٩٠

(٢) المالكي ، ص ١٢

فبلغت قفصة ، وسير عسكراً إلى حصن الأجم ويقع جنوبي القيروان وحاصره وفتحه على الأمان[1]. فلما رأى رؤساء المدن في إفريقية ذلك طلبوا من ابن سعد أن يأخذ منهم ثلاثمائة قنطار من ذهب على أن يكف عنهم ويعود من حيث أتى ، ففعل [2] وتأهب للعودة إلى مصر ، دون أن يتخذ بالمغرب قيروانا ، ويستغل هذا النصر العظيم في اقامة قاعدة للمسلمين في إفريقية [3] . وكانت قد وصلته أنباء بقيام الروم في المسالح والحصون شمالية بالتجمع لقصده [4] ، فخاف أن يشتبك معهم في قتال قد ينتهي بهزيمته ، خاصة وأنه كان قد فقد في موقعة سبيطلة عدداً كبيراً من عسكره ؛ يضاف إلى ذلك أن غيبته عن مصر ، مقر ولايته ، كانت قد طالت إلى ١٥ شهراً ، وكان لا بد من العودة إلى مصر للنظر في شؤون ولايته من جهة ، وللقضاء على مظاهر الاضطراب الناشئة من سخط المسلمين على سياسة عثمان عامة من جهة أخرى ، ثم إن جيش المسلمين كان قد غنم غنائم هائلة كانوا يحرصون على العودة بها إلى مصر . هذه الدوافع حركت عبدالله بن سعد وحملته على التفكير في العودة إلى مقر إمارته ، فكتب إلى نائبه بمصر يأمره بأن يرسل إليه بطرابلس مراكب في البحر لتحمل غنائم المسلمين ، وسار هو وجيشه إلى طرابلس حيث وافته السفن بها [5] .

وكانت غزوة عبدالله بن سعد على هذا النحو تجربة مفيدة للعرب ، إذ أوقفتهم على حالة هذه البلاد وعلى مدى أهميتها البالغة اليهم ، وسيعقب جهود ابن سعد جهود أخرى موفقة في عصر الدولة الأموية تنتهي بفتح المغرب كله وتعريبه .

---

(١) ابن الأثير ، ج ٣ ص ٩٠ ، ٩١

(٢) البلاذري ، ج ١ ص ٢٦٨

(٣) نفسه

(٤) المالكي ص ١٧ - Julien(A.) , Histoire de l'Afrique du nord, depuis la conquête arabe, Paris , 1952 p.14

(٥) نفس المصدر ، ص ١٠

- ٣ -

فتوح العراق وفارس والجزيرة وأرمينية

١ - فتوح العراق :

الأسباب :

في نفس الوقت الذي شرع فيه العرب في فتح بـــلاد الشام ، كانت القوات العربية الاسلامية تخوض معارك طاحنة في العراق ضد الفرس ، انتصرت فيهـا الجيوش العربية انتصارات حاسمة ، وكانت هذه الانتصارات في العراق وفارس وفارس أعظم بكثير وأبعد أثراً من انتصاراتهم في الشام ، لأنها أدت إلى انهيار الامبراطورية الساسانية بأكملها، في حين لم تؤد انتصارات العرب في الشام وفي مصر بل وفي ليبيا والمغرب إلا إلى اقتطاع بعض ممتلكات الدولة البيزنطية .

خرج العرب إلى أرض الحيرة استجابة لنداء بعض القبائل العربية التي كانت تابعة للدولة الساسانيه ثم انتقضت عليها ، ونخص بالذكر منها قبيلة بكر ، فأدى تدخل جيوش الخلافة إلى الاعتداء على حدود الدولة الساسانية، واضطر الفرس إلى رد الاعتداء ، وجرّ هذا إلى اشتباكهم مع العرب في مواقع عديدة . ويعلل مؤرخو العرب انتقاض القبائل العربية على الفرس،بأنه لما توفى كسرى شيرويه تولى العرش الساساني من بعده ابنه شيرزاد ، وكان طفلا ، وقد هيأ ذلك المجال لشهريار أحد قادة الفرس إلى التخلص من الملك الطفل ومن الوصي عليه فقتلهما ، وتولى الملك ودعا لنفسه، ولكن أمراء فارس لم يلبثوا أن ثاروا على هذا المغتصب وقتلوه ، ونصبوا عليهم طفلا اسمه جوان شيرين ابن كسرى أبرويز ، فتولى هذا الطفل الملك حولاً ثم توفي،فخلفته على العرش أخته بوران بنت كسرى أبرويز،

وبتوليها الملك وهي سلطان فارس، وضعف أمر ملوك الفرس، وفلّت شوكتهم[١]، وعندئذ تجرأت قبائل العرب على الفرس ، فخرج رجلان من بكر بن وائل هما المثنى بن حارثة الشيباني وسويد بن قطبة العجلي ، فنزلا في حشودهما بتخوم أرض فارس ، وأخذا يغيران على الدهاقين ، فيغنمان ما استطاعا التوصل إليه ، وكان المثنى يغير من ناحية الحيرة ، في حين كان سُويد يشن غاراته من ناحية الأبلة، فكتب المثنى إلى أبي بكر« يعلمه ضراوته بفارس، ويعرفه وهنهم، ويسأله أن يمده بجيش » ، فلما انتهى كتاب المثنى الى أبي بكر كتب الى خالد بن الوليد، وقد كان قد فرغ من أهل الردة ، يأمره بالسير الى الحيرة ومحاربة الفرس ، على أن يضم معه المثنى ورفاقه [٢] . والأرجح أن عرب بكر بن وائل وشيبان وعجل وغيرهم من القبائل العربية الضاربة في بادية العراق أخذوا يتجرأون على الدولة الساسانية منذ أن انتصروا على الفرس في يوم ذي قار . ويذكر البلاذري أن المثنى بن حارثة الشيباني كان يغير على السواد في رجال من قومه ، وكانت أخبار غاراته على هذا الاقليم ومناهضته للفرس ، وانتصاراته عليهم تصل الى المدينة ، وكان أبو بكر يتتبع بانتظام أخبار هذا القائد العربي الذي دفعه شعوره القومي بعروبته الى تحقيق انتصارات لقومه وللعرب جميعاً، فسأل الصحابة عنه فقال له قيس بن عاصم بن سنان المنقري : « هذا رجل غير خامل الذكر ولا مجهول النسب ، ولا ذليل العماد ، هذا المثنى بن حارثة الشيباني »[٣]. ولا نستبعد أن يكون أبو بكر قد اتصل بالمثنى بن حارثة ، وأيده في مواقفه القومية ، وعرض عليه الاسلام ، بدليل أنه قدم الى المدينة ، وقابل أبا بكر ، وقال له : « يا خليفة رسول الله ! استعملني على من أسلم من قومي أقاتل هذه

---

(١) أبو حنيفة الدينوري . الاخبار الطوال ، تحقيق الأستاذ عبد المنعم عامر . القاهرة ١٩٦٠ ص ١١١

(٢) نفس المصدر . ص ١١٢

(٣) البلاذري ، فتوح البلدان ، ج ٢ ص ٢٩٥

الأعاجم من أهل فارس » ، فكتب له أبو بكر في ذلك عهداً ، فسار حتى نزل خفّان ، ودعا قومه الى الاسلام ، فأسلموا [١] . وبادر أبو بكر بعد ذلك بإرسال أول بعث حربي اسلامي الى خارج شبه جزيرة العرب نحو الشمال الشرقي لنصرة المثني بن حارثة ، فكتب الى خالد بن الوليد المخزومي وهو باليمامة يحارب أهل الردة يأمره بالمسير الى العراق [٢] ، فسار خالد في المحرم سنة ١٢ هـ في ألفين من المسلمين ، وضم اليه ٨ آلاف من ربيعة ومضر ، فأصبح معه ١٠ آلاف ، وكان أبو بكر قد كتب الى المثني يأمره ببذل الطاعة لخالد والانضمام اليه ، كما كتب الى قائد آخر من بني عجل كان قد انتقض هو الآخر على الفرس يدعى مذعور بن عدى العجلي يأمره بأن ينضم الى خالد فيقيم معه اذا أقام ، ويشخص معه اذا شخص [٣] .

الاشتباكات الأولى:

ويبدو أن وصول خالد الى العراق رفع من الروح المعنوية عند القبائل العربية الثائرة على الفرس ، كما أذكى روح النضال عند عرب العراق ضد الفرس ، فقد طلب زعيم ثالث من بكر بن وائل وجماعه من قومه كانوا ينزلون في الموضع الذي تقوم عليه البصرة اسمه سويد بن قطبة بن قتادة الذهلي ، من خالد أن

---

(١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ج ٢ ص ٢٩٥

(٢) ذكر بعض الرواة ومن بينهم الواقدي ، أن أبا بكر وجه خالداً من المدينة ، وذلك بعد أن قدم خالد من اليمامة ، فخرج خالد من المدينة إلى العراق عن طريق فيد والثعلبية ثم أتى الحيرة (البلاذرى ، ج ٢ ص ٢٩٦ ـ الطبرى ، ج ٣ ص ٢) ولكننا نرجح الرأى القائل بسيره إلى العراق من اليمامة

(٣) ذكر الطبرى أن مذعور بن عدى المذكور نازع المثني بن حارثة ، فتكاتبا إلى أبي بكر فكتب أبو بكر إلى العجلي يأمره بالمسير مع خالد إلى الشام ، وأقر المثني على حاله . فبلغ العجلي مصر ، فشرف بها وعظم قدره (الطبرى ، ج ٣ ص ٣)

يساعده في التغلب على أهل الأبلة العجم ، وذكروا أنه قال لخالد : « إن أهل الأبلة قد جمعوا لي ، ولا أحسبهم امتنعوا مني إلا لمكانك » فأجابه خالد بقوله : « فالرأي أن اخرج من البصرة نهاراً ثم أعود ليلاً ،فأدخل عسكرك بأصحابي، فإن صبّحوك حاربناهم » ، ففعل خالد ذلك ، وتوجه نحو الحيرة . فلما أقبل عليه الليل قفل عائداً إلى البصرة ، وانضمت قواته إلى قوات سويد ، وظن أهل الأبلة أن خالد قد انصرف عن البصرة ، ووجدوا في ذلك فرصة مواتية ليهاجموا سويد ويقضوا عليه ، ثم إنهم هاجموا معسكر سويد ، فحمل عليه خالد وسويد مع قواتها المشتركة ، فانهزم أهل الأبلة ، وقتل المسلمون عدداً كبيراً منهم ، كما لقي العدد الأعظم منهم حتفه غرقاً في مياه دجلة البصرة ، واستغل خالد هذا الانتصار ، فاستولى على الخريبة ، وهي مسلحة للفرس ، وسبى من فيها ، واستخلف بها قائداً من قواده ذكر الكلبي أنه شريح بن عامر من بني سعد بن بكر بن هوازن (١) .

فتح الحيرة والأنبار :

ومضى خالد نحو الحيرة فافتتح كسكر ودرني وهرمزجرد بالأمان ، وسار إلى ألّيس ، فتصدى له جابان صاحب أليس ، فبعث إليه خالد المثنى بن حارثة ، فقاتله وهزمه وقتل جل عسكره إلى جانب نهر عرف بنهر دم بسبب كثرة ما سفك من دماء الفرس ، ثم صالح خالد أهل ألّيس على أن يكونوا عيوناً للمسلمين على الفرس وأدلاء وأعواناً (٢).

وواصل خالد زحفه نحو الحيرة حتى دنا منها ، فخرجت إليه فرسان آزاذبة صاحب خيل كسرى التي كانت مرابطة في المسالح الواقعة على الحدود

---

(١) البلاذري ج ٢ ص ٢٩٦
(٢) نفسه ، ص ٢٩٧ - الطبري ، ج ٣ ص ٣

بين الفرس والعرب ، فقاتله المسلمون في موضع يعرف بمجتمع الأنهار ، وهزموه. ونزل المسلمون على الحيرة فتحصن اهلها في القصر الأبيض وقصر ابن بقيلة وقصر العدسيين [١] ، فخرج إليهم عبد المسيح بن عمر بن قيس بن بقيلة من الأزد ، وهانىء بن قبيصة بن مسعود الشيباني ، وإياس بن قبيصة الطائي ، وإياس هذا كان عاملاً لكسرى أبرويز على الحيرة بعد النعمان بن المنذر ، فصالحوا خالداً على مائة ألف درهم ، وقيل على ٨٠ ألفاً في كل عام على أن يكونوا عيونا للمسلمين على أهل فارس ، وأن لا يهدم لهم بيعة ولا قصراً [٢] ، ونزل خالد بقصر الخورنق [٣] .

ثم أغزى خالد بشير بن سعد الأنصاري إلى بانقيا ، فاشتبك معه فرسان الفرس بقيادة فرخبنداد ، ورشقوا من معه بالسهام ، فحمل عليهم وهزمهم ، وقتل فرخبنداد في المعركة ، وأصيب بشير بن سعد إصابة بالغة ، لم يلبث أن توفى بسببها وهو بعين التمر . فبعث خالد جرير بن عبدالله البجلي ليحارب أهل بانقيا ، وعندئذ خرج إليه بصبهري بن صلوبا [٤] ، فاعتذر إليه عن القتال ، وعرض عليه الصلح ، فصالح جرير على الف درهم وطيلسان ، فوجه خالد بالطيلسان إلى أبي بكر مع مال الحيرة والألف درهم التي صالحه عليها ابن صلوبا ، فوهب

---

(١) البلاذري ، ج٢ ص ٢٩٨

(٢) البلاذري ، ج ٢ ص ٢٩٧ - أبو حنيفة الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص ١١٢ - وذكر الطبري أنه صالحهم على ١٩٠ ألف درهم فكانت أول جزية حملت من العراق إلى المدينة (الطبري ، ج ٣ ص ٤) وجعلها ابن الاثير ٩٠ ألف درهم (ابن الاثير ج ٢ ص ٣٨٤)

(٣) اليعقوبي ، ج ٢ ص ١٣١

(٤) ذكر الطبري أن الذي خرج لمصالحته هو صلوبا بن نسطونا (الطبري ج ٣ ص ١٦)

أبو بكر الطيلسان للحسين [١] . وسار خالد إلى الأنبار فتحصن أهلها ، وقدم إليه بها المثني بن حارثة ، فحاصرا أهلها ، وأحرقا نواحيها ، واضطر أهـــل الأنبار وقائد حاميتها الفارسية شيرزاد إلى مصالحـــة خالد على ما أحب [٢] . كذلك وجه خالد بن الوليد المثني للاغارة على سوق يقال لهـــا سوق بغداد الواقعة عند قرن الصراة ، وكان يجتمع بها طوائف من كليب وبكر بن وائل وقضاعة ، فأغار عليها وأصاب ما فيها . وكان أبو بكر قـــد كتب إلى خالد يأمره بالشخوص إلى الشام ليمد ابا عبيدة بن الجراح بمن معه من المسلمين، فلم يتردد خالد في تلبية أمر الخليفة وخلف بالحيرة عمرو بن حزم الأنصاري مع المثني ، فسار إلى الأنبار ، ثم رحل عنها إلى عين التمر ، وهي بـــلدة في طرف البادية غربي الفرات كانت مسلحة لأهل فارس ، وكان يتولى الدفاع عنها مهران بن بهرام جوبين في جمع عظيم من العجم وعقة بن أبي عقة في حشد كبير من العرب من النمر وتغلب وأياد ، فخرج أهل الحصن لمقاتلة المسلمين ، ونشب قتال عنيف انتهى بهزيمة أهـــل الحصن ، فانسحبوا إلى حصنهم ولزموه ، فحاصرهم خالد حتى طلبوا الأمان ، فأبى أن يؤمنهم واستنزل الحصن عنوة ، فقتل المدافعين عنه وسبى ذراريهم ، ومن بين من سباهم يسار جد محمد بن اسحاق ، ونصير والد موسى نصير فاتح المغرب والاندلس [٣] ثم. وجه خالد وهو بعين التمر النسير بن ديسم بن ثور إلى ماء لبني تغلب ، ففاجأهم بالغارة فقتل منهم جماعة كبيرة واسر طائفة ، ومن هناك أغار النسير على حي من ربيعة ، ثم على تكريت وعكبرا وغنم غنائم كثيرة [٤]

---

(١) البلاذري ، ج ٢ ص ٢٩٩ .وذكر الطبري أنه صالحه على عشرة آلاف دينار بالاضافة إلى خرزة كسرى (الطبري ص ١٦)

(٢) البلاذري ، ج ٢ ص ٣٠١ ـ الطبري ، ج ٣ ص ٢٠ ـ ابن الاثير ج ٢ ص ٣٩٤ . وعرفت موقعة الأنبار بذات العيون لكثرة ما فقأت سهام المسلمين من أعين الفرس .

(٣) البلاذري ، ج ٢ ص ٣٠٢ وما يليها ـ الطبري ،ج ٣ ص ٢٢ ـ ابن الأثير ، ج ٢ ص ٣٩٥

(٤) نفسه ص ٣٠٤

وسار خالد من عين التمر إلى الشام بعد أن أمر المثنى بن حارثة بـأن يعود إلى مقر قيادته بالحيرة ، وكان سيره في شهر ربيع الآخر سنة ١٣ هـ. وذكر الطبري أن المثنى شيعه إلى قراقر ثم رجع إلى الحيرة في المحرم [١].

هزيمة المسلمين في موقعة الجسر :

ولم يزل المثنى بن حارثـة وعمرو بن حزم يتطرفان أرض السواد ويغيران فيها حتى توفي أبو بكر في ٢٢ جمادي الآخرة سنة ١٣ هـ[٢] ، وبويع عمـر بن الخطاب بالخلافة ، فعزم عمر على توجيه الإمدادات إلى العراق ، فعقد لأبي عبيد ابن مسعود الثقفي على خمسة آلاف رجل ، وأمره بالسير إلى العراق ، وفي نفس الوقت كتب إلى المثنى بن حارثة يأمره بالانضمام بمن معه من العسكر إلى أبي عبيد ، ووجه الخليفة مع أبي عبيد سليط بن قيس من بني النجـار وسعد بن عبيد ، ومضى أبو عبيد الثقفي نحو الحيرة لا يمر بحي من أحيـاء العرب إلا استنفرهم ، فتجمع لديه حشد كبير من العرب ، فلما اقترب من العذيب خرج جابان الفارسي على رأس جيش كبير لمحاربته ، وتم الاشتباك بالقرب من العذيب وانتهى بهزيمة جابان ، وتصدى له في موضع يسمى درني جمع من الفرس فهزمهم ، ثم صالح الفرس في باروسما على الجزية ، وصالح دهقان الزوابي على مثل ذلك[٣]. فلما وصل أبو عبيد الثقفي إلى قس الناطف [٤] ويعرف أيضاً بالمروحة استقبله المثنى فيمن معه ، فنزل بها ، فبعث الفرس قائداً من قوادهم هو مردان شاه في أربعة آلاف فارس ، وكان يفصل بـين الجيشين جسر قديم معتل مقطوع كان

---

(١) الطبري ، ج ٣ ص ٤٢

(٢) الأخبار الطوال ، ص ١١٢

(٣) البلاذري ، ج ٢ ص ٣٠٧ ـ الطبري ، ج ٣ ص ٦٥

(٤) موضع قريب من الحيرة على الضفة الشرقية للفرات

يستخدمه أهل الحيرة قديماً للعبور عليه إلى ضياعهم ، فأصلحه أبو عبيد ليعبر عليه جيشه من المروحـة [١] ؛ وذكر الطبري أن بهمن بن جاذويه (وهو نفس مردان شاه) بعث إليه يتحداه ويقول : « إما أن تعبروا الينـا وندعكم والعبور واما أن تدعونا نعبر اليكم» ، فقبل التحدي وعزم على العبور [٢]. فنصحه المثنى بالبقـاء حتى لا يجعل نفسه ومن معه من المسلمين هدفاً للفرس ، فغضب أبو عبيد ووصمه بالجبن ، وعبر الى الفرس بمن معه من المسلمين في آخر رمضان سنة ١٣ بعد أن ولى أبا محجن الثقفي الخيل وتولى هو القلب ،فاشتبكوا مع مردان شاه وهو في أربعة آلاف من الفرسان ومعه عدد من الفيلة ، في قتال عنيف ، وكاد المسلمون يظفرون بالنصر لولا أن وقع أبو عبيد فبرك عليه الفيل فمات ،وكر الفرس على المسلمين وكثرت الجراحـات في صفوفهم ، فانهزموا والسيوف تأخذهم من خلفهم ، فبادر رجـل من ثقيف اسمه عبدالله بن مرثد الثقفي الى الجسر فقطعه لعله يرغم المسلمين على الصمود أو ليمنع مرور الفرس [٣]، ولكنه قطع على المسلمين خط الرجعـة ، فتهافتوا في الفرات وقتل يومئذ من المسلمين نحو أربعة آلاف بين قتيل وغريق ، وظل المثنى يحمي المقاتلة حتى عقد النـاس الجسر ، وعبر المسلمون عليه ، فأقاموا بالمروحة ، وقيـل نزل بأليس ، وأصيب المثنى بجراح كما أصيب عدد كبير من قادة المسلمين مع المثنى ، وكان ممن قتل يوم الجسر أبو زيد الأنصاري أحد من جمع القرآن على عهـد لرسول ، كما قتل معه وجوه المسلمين ، منهم الحكم بن مسعود الثقفي ، وقيس ابن حبيب الثقفي ، وسليط بن قيس الأنصاري [٤] .

---

(١) البلاذرى ، ج ٢ ص ٣٠٨ ـ الطبرى ، ج ٣ ص ٦٧

(٢) الطبرى ، ج ٣ ص ٦٧

(٣) نفس المصدر ص ٦٩ . وقيل قطعه الفرس (البلاذرى ، ج ٢ ص ٣٠٩)

(٤) البلاذرى ، ج ٢ ص ٣٠٩ ـ الأخبار الطوال ، ص ١١٣ ـ الطبرى ، ج ٣ ص ٦٩

يوم النخيلة أو البويب :

ثم كتب المثني الى عمر بن الخطاب يعلمه بخبر هذه الهزيمة ، فاستنفر عمر الناس الى العراق، فلما تكاثر الناس لديه عقد لجرير بن عبدالله البجلي عليهم ، فسار بهم حتى وافى الثعلبية ، ثم واصل السير حتى بلغ العذيب ، حيث انضم اليه المثني فيمن معه ، وسار المسلمون الى الحيرة وعسكر جرير بدير هند ، ثم بث الخيل تغير في أراضي السواد . وعندما علمت بوران ملكة فارس بخبر هذه الغارات أعدت حملة مؤلفة من اثني عشر ألف فارس ولت عليهم مهران بن مهروية ، وحدث الاشتباك بين الفرس والعرب في موضع يقال له البويب[١] ، وصمد المسلمون أمام الفرس،وأبلى المثني في هذه الموقعة بلاء حسناً ، ونجح في قتل مهران. وبمصرع قائد الفرس انفرط عقد جيشهم ودارت عليهم الدائرة ، وطاردهم المسلمون ، حتى الجسر ، ولحقت فلول الفرس بالمدائن ، أما المسلمون فقد قفلوا الى معسكرهم .

وبانتصار المسلمين في البويب ثبتت أقدامهم في السواد ، وأخذوا يشنون الغارات فيما بين الحيرة وكسكر ، وما بين كسكر وبربيسما وصراة جاماسب ، وما بين الفلوجتين والنهرين وعين التمر ، وبلغ بعضهم كلواذي [٢].

فتح الابلة وتخطيط البصرة :

علم سويد بن قطبة العجلي بما ظفر به المثني من انتصار يوم مهران ، فكتب إلى عمر بن الخطاب يعلمه بما حل بالمسلمين من وهن في منطقة

---

(١) البلاذري ، ص ٣١١ - الأخبار الطوال ، ص ١١٥ - الطبري ، ج ٣ص ٧١ومايليها

(٢) البلاذري ج ٢ ، ص ٣١٢

نفوذ سويد ويسأله أن يمده بجيش ، فندب عمر بن الخطاب لذلك عتبة بن غزوان المازني الصحابي في ألفي رجل من المسلمين ، فمضى عتبة بن غزوان إلى وجهته ونزل الخريبة بأصحابه في الأخبية والقباب ، ثم سار حتى نزل موضع البصرة « وهي إذ ذاك حجارة سود وحصى » ولذلك سميت بالبصرة ، ثم سار حتى أتي الأبلة ، فافتتحها عنوة. ثم مضى إلى المذار واشتبك مع مرزبانها فهزمه وأسره، ثم ضرب عنقه ، ومـــا زال يفتتح مدينة إثر مدينة وحصناً بعد حصن ، حتى أصبح يسيطر على كل إقليم البصرة وفي هـذه الأثناء تولى أبو موسى الأشعري بأمر الخليفة عمر بناء مدينة البصرة ، ووزع الخطط بين الناس [1] .

ب - فتح فارس :

وقعة القادسية :

ثار الفرس على ملكتهم ،فاجتمعوا على يزدجرد الثالث بن شهريار بن كسرى أبرويز ، وكان غلاماً في السادسة عشرة من عمره ، فعمل عـــلى توحيد الجبهة الفارسية ، واسترجاع السواد ، فولى على قيادة جيوشه رستم بن هرمز « وكان محنكاً قد جربته الدهور »[2]،فسار رستم إلى القادسية ، وقـد صمم على مقاتلة العرب. فلما بلغ جرير البجلي والمثنى بن حارثة ذلك كتبا إلى الخليفة يستمدانه، فاستنفر عمر العرب ، فاحتشد نحو عشرين ألف رجل ولى عليهم سعد بن أبي وقاص[3]،فسار سعد بالجيوش في سنة ١٤هـ وقيل في سنة ١٥ حتى قدم العذيب،وكان

---

(١) الأخبار الطوال ، ص ١١٨

(٢) نفس المصدر ، ص ١١٩

(٣) الأخبار الطوال ، ص ١١٨ . والرقم مبالغ فيه ، والأرجح أنه أخرج نحو تسعة آلاف (البلاذري ج ٢ ، ص ٣١٤) وذكر ابن الأثير أن عـــدة من خرج معه ٤ ، لاف ، ثم أمده عمر بعد خروجه بألفي يماني وألفي نجدي (ابن الأثير ، ج ٢ ، ص ٤٥٢)

المثنى مريضاً ، فأشار عليه بأن يقاتل الفرس ما بين القادسية والعذيب ، ثم توفى المثنى قبل أن يصل رستم إلى القادسية .

عسكر المسلمون ، بعد أن تجمعت جيوش سعد مع جيش جرير والمثنى في شراف، ثم سارت فنزلت ما بين العذيب والقادسية. أما الفرس فقد نزلوا مابين الحيرة والسيلحين، بينما قدم رستم قائده ذا الحاجب فعسكر في طيزناباد ، ويبالغ المؤرخون في تضخيم جيش الفرس بالنسبة لجيش المسلمين ، فالبلاذري يجعل جيش الفرس ١٢٠ ألف مقاتل معهم ثلاثون فيلاً ، ويجعل جميع عساكر المسلمين ما بين تسعة وعشرة آلاف [1] ، اشترك معهم طليحة بن خويلد الذي سبق أن ارتد بعد وفاة الرسول وتنبأ ثم ركدت ريحه . ثم سار سعد إلى القادسية ونزلها وأقام بها شهراً دون أن يحدث اشتباك بينه وبين الفرس . ومن القادسية بث سعد الغارات بين كسكر والأنبار ، وغنم غنائم كثيرة ، وتزودت الجيوش الاسلامية بما يكفيها من الأطعمة فترة طويلة [2] .

أقام رستم بدير الأعور معسكراً زهاء ربعة أشهر، مستهدفاً من وراء ذلك بث الملل والضجر في نفوس المسلمين فيرحلوا ، ولكن المسلمين كانوا إذا نضبت أزوادهم جردوا الخيل وأغاروا على النواحي ، فيعود المغيرون بما يكفيهم من العلف والطعام . ثم زود عمر سعداً بألف فارس يقودهم المغيرة بن شعبة من قبل أبي موسى الأشعري، وألف فارس أخرى بقيادة قيس بن مكشوح من قبل

---

(١) البلاذري ، ج ٢ ، ص ٣١٤

والرقم أيضاً غير صحيح ، لأنه إذا اعتبرنا أن حملة سعد بن أبي وقاص كانت تضم تسعة آلاف ، أو على أقل تقدير ثمانية آلاف ، فان جيش المثنى كان يضم ثمانية آلاف أخرى (ابن الأثير ج ٢ ، ص ٢٥٤) ثم انضم إلى جيوش المسلمين من بني أسد ثلاثة الاف، ولحقه الأشعث بن قيس في ألف وسبعمائة من أهل اليمن. ويذكر ابن الأثير أن جميع من شهد القادسية من المسلمين بضعة وثلاثين ألفاً

(٢) ابن الأثير ، ج ٢ ص ٤٥٥

أبي عبيدة بن الجراح في الشام [١] ، فانضم هذا المدد إلى جيوش المسلمين .

وجاءت اللحظة التي أمر فيها يزدجرد قائده رستم بمناجزة العرب بعد ان ازدادت غاراتهم في البلاد ، فتحركت قوات الفرس حتى نزلت القادسية ولم يعد يفصل بينهم وبين المسلمين سوى ميل واحد [٢] ، ثم ترددت رسل سعد إلى معسكر رستم شهراً استجابة لطلب رستم ، فلم يكن العرب يبدأون بمحاربة جيش من الجيوش قبل أن يعرضوا عليهم إما الدخول في الاسلام أو الجزية أو القتال . وفشلت المفاوضات ، واستعد الفريقان للقتال ، واشتبك الجيشان في آخر سنة ست عشرة ، ودامت المعركة يومين وليلة وانتهت بهزيمة الفرس ، وقتل رستم وولى رجاله هاربين . وتعتبر القادسية من المواقع الحاسمة في تاريخ الفتح الاسلامي للعراق لأنهـــا أدت إلى انتصارات أخرى متلاحقة ، وفتحت للمسلمين أبواب فارس . وقد تغنى شعراء الاسلام بهذا الانتصار الحاسم ، فقال عروة بن الورد ، يصف بطولاته في القادسية :

لقد علمت عمرو ونبهان أنني ∴ أنا الفارس الحامي إذا القوم أدبروا

وأني إذا كروا شددت أمامهم ∴ كأني أخو قصباء جهم غضنفر

صبرت لأهل القادسية معلمـــاً ∴ ومثلي إذا لم يصبر القرن يصبر

فطاعنتهم بالرمح حتى تبددوا ∴ وضاربتهم بالسيف حتى تكركروا [٣]

وقال قيس بن هبيرة بن المكشوح الذي قاد القوة الشامية :

جلبت الخيل من صنعاء تردي ∴ بكل مدجج كالليث حامي

---

(١) وذكر اليعقوبي أنه قدم ستة الاف من جيش أبي عبيدة بن الجراح ، وهم الذين كانوا مع خالد بن الوليد (اليعقوبي ص ١٤٤)

(٢) الأخبار الطوال ، ص ١٢٠

(٣) نفس المصدر ص ١٢٥

إلى وادي القرى فديار كلب .·. إلى اليرموك والبلد الشآمي
فلما أن زوينا الروم عنها .·. عطفناها ضوامر كالجلام
فأبنا القادسية بعد شهر .·. مسوّمة دوابرها دوامي
فناهضنا هناك جموع كسري .·. وأبناء المرازبة العظام
فلما أن رأينا الخيل جالت .·. قصدت لموقف الملك الهمام
فأضرب رأسه فهوى صريعاً .·. بسيف لا أفل ولا كهام (١)

وتبع انتصار المسلمين في القادسية سقوط المدائن عاصمة الدولة الساسانية ، فقد زحفت قوات المسلمين نحوها حتى انتهوا إلى دجلة ، فرفع الفرس السفن والمعابر إلى الجيزة الشرقية وحرقوا الجسر ، فانتدب رجل من المسلمين فسبّح فرسه وعبر ، فسبح المسلمون وراءه ثم أرغموا أصحاب السفن على حمل الاثقال وإجارتها إلى الضفة الشرقية . وكان يزدجرد قد فر من العاصمة ومضى إلى حلوان ومعه وجوه أساورته ، وما استطاع حمله من أموال ومتاع ، وحاول خرزاد بن هرمز أخو رستم قتيل القادسية أن يصمد أمام الحصار ، فلما رأى ألا فائدة من المطاولة اضطر إلى الخروج من الباب الشرقي ليلاً في جنوده بعدما يقرب من شهر ونصف (٢) واتجه إلى جلولاء ، ودخل المسلمون المدائن ، ونزل سعد القصر الأبيض وسرّح في آثار الفرس قائده زهرة بن حوية ، واتخذ سعد إيوان كسرى مصلى ؛ وكانت أول صلاة جمعة صليت في المدائن في صفر سنة ١٦ هـ.(٣) . وأصاب المسلمون في المدائن غنائم لا حصر لها ولا يمكن أن تقدر لنفاستها (٤) .

---

(١) الأخبار الطوال ، ص ١٢٥ ـ البلاذري ج ٢ ، ص ٣٢٠

(٢) اليعقوبي ، ج ٢ ص ١٤٥ . وذكر ابن الاثير أن المسلمين أقاموا على المدائن شهرين يرمون الفرس بالمجانيق ويدبون إليهم بالدبابات (ابن الأثير ، ج ٢ ص ٥٠٩)

(٣) ابن الأثير . ج ٢ ص ٥١٤

(٤) نفس المصدر ، والقصر الأبيض أو إيوان كسرى المعروف أيضاً بطاق كسرى ما زالت آثاره قائمة حتى اليوم ، بناه سابور الأول ذو الأكتاف في منتصف القرن الثالث الميلادي ، ثم جدد كسرى انو شروان بناءه وأضاف إليه. وتقع آثار الايوان على بعد ٤٠ كم جنوبي بغداد (فرج بصمه جي ، نبذة تاريخية عن طيسفون ، بغداد ١٩٦٤)

وقعة جلولاء :

أقام المسلمون بالمدائن بضعة أيام، ثم بلغهم أن يزدجرد قد حشد جوعاً ضخمة تجمعت في جلولاء بقصد مهاجمة المسلمين ، فوجّه هاشم بن عتبة بن أبي وقاص إليهم في اثني عشر ألفاً [١] ، وقيل عمر بن مالك بن نوفل [٢]، فلما وصل جيش المسلمين إلى جلولاء وجدوا الفرس بقيادة خرزاد قد تحصنوا وخندقوا، وتعاهدوا على الثبات حتى الموت ، وكانت الامدادات تصل إليهم من حلوان والجبال ، فعجل المسلمون بالهجوم قبل أن يستفحل خطرهم . واشتد القتال بين الفريقين ، ولكنه انتهى بهزيمة الفرس ، فتراجعوا منهزمين وقد ركب المسلمون أكتافهم يقتلونهم قتلاً ذريعاً ، وحدثت وقعة جلولاء في آخر سنة ١٦ هـ .

وما إن تم للمسلمين النصر في جلولاء حتى ضم هاشم بن عتبة إلى جرير البجلي خيلاً كثيرة ، وعهد إليه بالبقاء في جلولاء ليحمي جيوش المسلمين، ثم وجه سعد إليهم نحو ٣ آلاف من المسلمين ، وأمر جرير البجلي بأن يزحف إلى حلوان ، فلما اقترب جرير منها أسقط في يد يزدجرد ففر إلى ناحية أصبهان في سنة ١٩ ، وتم لجرير فتح حلوان صلحاً، ثم مضى إلى الدينور فلم يفتحها ولكنه نجح في الاستيلاء على قرماسين [٣] .

وقعة نهاوند :

فرّ يزدجرد من حلوان في سنة ١٩ هـ إلى أصبهان ، ومن هناك وجه رسله في

---

(١) البلاذري ، ج ٢ ص ٣٢٤ - ابن الأثير ج ٢ ص ٥٢٠

(٢) الأخبار الطوال ، ص ١٢٧

(٣) البلاذري ، ج ٢ ص ٣٧٠

البلدان يستجيش أمته ، فاجتمعت إليه جموع كثيفة [١] ، من قومس وطبرستان وجرجان ودنباوند والرى وأصفهان وهمذان والماهين في سنة ٢٠ هـ ،فولى عليهم مردان شاه بن هرمز ، ووجههم إلى نهاوند تمهيداً للسير إلى الكوفـــة والبصرة بقصد طرد المسلمين من العراق . فلما بلغ عمر ذلك أمر كل مصر بتسيير الثلث من قوته ، وولى إمارة هذا الجيش النعمان بن مقرن المزني من خيار الصحابة ،وسارت الامدادات إلى نهاوند، فنزل المسلمون بموضع يسمى الإسفيذبان من قرى أصبهان، وأقبلت قوات الفرس فعسكرت بالقرب من المسلمين وخندقوا على أنفسهم ، ثم تظاهر المسلمون بالانسحاب، فخرج الفرس من خنادقهم في أثر المسلمين ، وعندئذ اشتبك هؤلاء معهم في معركة ضارية استمرت ثلاثة أيام ، وانتهت بهزيمة ساحقة أصيب بها الفرس ، فتراجعت فلولهم إلى حصن نهاوند فامتنعوا فيه ،وكان النعمان ابن مقرن قد قتل في المعركة ، فتولى الإمارة من بعده حذيفة بن اليمان ، فحاصر الفرس في الحصن ، ولم يلبث أصحاب الحصن أن صالحوا المسلمين على الأمان [٢]. وتعتبر موقعة نهاوند خاتمة المعارك الفاصلة في تاريخ الفتح العربي لفارس ولذلك سميت فتح الفتوح ، وبها انهار سلطان الفرس نهائياً . وقد اختلف المؤرخون في تحديد تاريخها ، والأرجح أنها وقعت في سنة ٢١ هـ .

وترتب على انتصار المسلمين في نهاوند سقوط عدد من المدن ، منهـا الدينور التي أقر أهلها بالجزية والخراج وسألوا الأمان على أنفسهـم وأموالهم وأولادهم . فأجابهم أبو موسى الأشعري إلى طلبهم ، ومنها ماسبذان التي صولح أهلها على مثل صلح أهل الدينور ، كذلك صالحه أهل السيروان على الجزية والخراج [٣] .

---

(١) ذكر البلاذري أن جملة من استنفرهم يزدجرد بلغوا ستين ألفاً وقيل مائة ألف ، (ج ٢ ص ٣٧١)

(٢) البلاذري ، ج ٢ ص ٣٧٥ - الدينوري ، ص ١٣٧

(٣) البلاذري ، ج ، ص ٣٧٧

وقام جرير بن عبدالله البجلي بفتح همذان قسراً على مثل صلح نهاوند في آخر سنة ٢٣ هـ ، كما افتتح أبو موسى الأشعري مدينة قم وقاشان عنوة ، ثم أصبهان في سنة ٢٣ هـ . ولم تستعص على المسلمين سوى اصطخر التي لاذ بها يزدجرد ، ثم انتقض أهل اصطخر عليه فهرب يزدجرد إلى خراسان ، ولكنه لقي مصرعه في مرو في سنة ٣٠ هـ [١] . وبمصرع يزدجرد فقد الفرس كل أمل في استرجاع فارس ، ودالت دولتهم .

ج - فتح الجزيرة وأرمينية :

فتح الجزيرة :

كانت بعض بلدان الجزيرة تابعة للروم مثل سنجار ، فكان الإستيلاء عليها ضرورة حربية لتأمين فتوح الشام . وكان أبو عبيدة بن الجراح قد بعث عياض ابن غنم إلى الجزيرة لفتحها ثم توفي أبو عبيدة فخلفه عياض ، وورد عليه كتاب عمر بن الخطاب بتولية حمص وقنسرين والجزيرة ، فسار إلى الجزيرة في النصف من شعبان سنة ١٨ هـ في خمسة آلاف مقاتل ، واشترك معه في هذه الغزاة ميسرة بن مسروق العبسي وكان على مقدمة جيشه ، وسعيد بن عامر الجمحي وكان على الميمنة ، وصفوان بن المعطل السلمي على الميسرة . وتمكنت جيوش عياض من

---

(١) الأخبار الطوال ، ص ١٣٩ ، ١٤٠
وكان يزدجرد قد لاذ بكرمان ، فاتبعه بعض القادة العرب ،ومنهم مجاشع بن مسعود السلمي وهرم بن حيان العبدي ، ثم انتقل يزدجرد إلى سجستان عندما أحس بحرج مركزه في كرمان وعندما أهانه مرزبانها ، ثم ترك سجستان بعد أن تنكر له مرزبانها ، فسار إلى خراسان ، فتلقاه ماهويه مرزبانها بالتبجيل والتفخيم ، ولكن يزدجرد وقد ظن أن الدنيا صفت له أخذ يستبد بماهويه ويحاسبه على الخراج ، فتآمر ماهويه مع نيزك طرخان أحد رؤساء الأتراك على قتله ، فأقبل نيزك طرخان في جموع من الترك فحاربوه فانهزم يزدجرد وقتل عسكره ، فأتى إلى مرو فلم تفتح له أبوابها ، فاضطر إلى أن يدخل في بيت طحان ، فدس ماهويه إلى الطحان فأمره بقتله (راجع البلاذري ، ج ٢ ص ٣٨٧ ، ٣٨٨)

الوصول إلى الرقة ، ونزلت باب الرها من أبوابها ، فصالح بطريق المدينة بعد بضعة أيام على الجزية ، وأمّن جميع سكانها على أنفسهم وذراريهم وأموالهم ومدينتهم [١]. ثم واصل عياض زحفه إلى حران، فتحصن أهل المدينة ، فتركها إلى الرها ونجح في الإستيلاء عليها صلحاً ، وكتب الى أهلها أمانا واشترط عليهم أن يصلحوا جسور المسلمين ويرشدوا من ضل الطرق منهم . وقد أورد البلاذري نسخة من كتاب الصلح والأمان في كتابه فتوح البلدان[٢]. كذلك صالح أهل حران المسلمين على مثل صلح الرها ، ففتحوا أبوابها للمسلمين . ثم زحف عياض إلى سميساط ، فصالحه أهلها على مثل صلح الرها [٣] . وسير عياض أبا موسى الأشعري إلى نصيبين في سنة ١٩ فافتتحها ، كما افتتح قرقيسياء وسنجار وميافارقين وقرى الفرات [٤] ، وآمد وحصن كفرتوثا وماردين ودارا صلحاً على مثل صلح الرها وحران والرقة . ثم افتتح عياض أرزن صلحاً ، وبلغ في فتوحه بدليس وجاوزها إلى خلاط وصالح بطريقها[٥]. ثم عاد إلى الرقة، وقفل منها إلى حمص حيث توفى في سنة عشرين للهجرة. وقام عمير بن سعد الانصاري والي الجزيرة من بعده بفتح عين الوردة بعد قتال عنيف ، ففتحها على صلح، كما افتتح رأس العين عنوة ، ثم صالح أهلها بعد ذلك على الجزية والخراج .

وهكذا تم فتح الجزيرة في سهولة ويسر بحيث سببت تلك السهولة استهانة الناس بفاتحيها من المسلمين، وقد رد عياض بن غنم على ذلك بهذه الأبيات الشعرية، مبرراً أهمية فتوح الجزيرة :

---

(١) البلاذري ، ج ١ ص ٢٠٥

(٢) البلاذري ، ج ١ ص ٢٠٧

(٣) نفس المصدر ، ص ٢٠٧ ـ الطبري ، ج ٤ ص ١٩٧

(٤) ويقصد بها جسر منبج

(٥) البلاذري ، ص ٢٠٩

من مُبلغٌ الاقوام أن جموعنا .·. حوت الجزيرة يوم زحام
جمعوا الجزيرة والغياث فنفّسوا .·. عمّن بحمص غيابَة القُدّام
ان الأعزة والأكارمَ معشرٌ .·. فضّوا الجزيرة عن فراخ الهام
غلبوا الملوكَ على الجزيرة فانتَهَوا .·. عن غزو من يأوي بلاد الشام[١]

فتح أرمينية :

بدأت فتوح العرب لأرمينية في خلافة عثمان بن عفان ، فعندما استخلف كتب إلى معاوية عامله على الشام والجزيرة يأمره أن يوجه حبيب بن مسلمة الفهري إلى أرمينية . وكانت معظم بلاد أرمينية خاضعة للبيزنطيين وتدخل في أعمال قائد ثغر الأرمنياق (أرمنياقس) [٢] ، فخرج إليها في ستة آلاف وقيل ثمانية آلاف من أهل الشام والجزيرة فوصل إلى قاليقلا [٣] ، وقاتل أهلها قتالاً شديداً وأرغمهم على التحصن في مدينتهم ، فحاصرهم ، ثم صالحوه على الجلاء والجزية ، فجلا كثير منهم ورحلوا إلى الدولة البيزنطية . ولكن قائد ثغر الأرمنياق لم يلبث أن حشد للمسلمين قوات كثيفة بعضها من الخزر والبعض الآخر من اللان ، فكتب حبيب بن مسلمة إلى عثمان بن عفان يسأله أن يمده بقوات من المسلمين ، كما كتب إلى معاوية يسأله أن يشخص إليه من أهل الشام والجزيرة قوماً ممن يرغبون في الجهاد والغنيمة ، فسيّر اليه معاوية ألفي رجل ، أسكنهم حبيب قاليقلا ، وأقطعهم بها القطائع وجعلهم مرابطة بها [٤] . اما الخليفة فقد كتب إلى سعيد بن العاص عامله على الكوفة يأمره بإمداد حبيب

---

(١) الطبري ، ج ٤ ص ١٩٨

(٢) البلاذري ، ج ١ ص ٢٣١

(٣) بلدة بأرمينية العظمى من نواحي خلاط (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٤ ص ٢٩٩)

(٤) البلاذري ، ج ١ ص ٢٣٤

بجيش بقيادة سلمان بن ربيعة الباهلي ، فسار سلمان في ستة آلاف [١] من أهل الكوفة ولكنه اشتبك مع البيزنطيين على نهر الفرات ، فهزمهم وقتل قائدهم .

وواصل حبيب بن مسلمة فتوحاته في أرمينية ، ونجح في الاستيلاء على دبيل وصالح بطريقها على إتاوة [٢] يدفعها ، كذلك افتتح النشوى [٣] وجرزان [٤] وتفليس [٥]، وصالح أهلها على مثل صلح دبيل ، وساعده سلمان بن ربيعة الباهلي في فتح بقية مدن أرمينية ، ولكن سلمان اشتبك مع خاقان الخزر في معركة طاحنة لقي فيها مصرعه مع أربعة آلاف من المسلمين .

- ٤ -

تنظيم عمر بن الخطاب للفتوح

ـ التنظيمات المالية :

الديوان :

كان لا بد للخليفة عمر بن الخطاب أن يقوم بتنظيم الدولة العربية الإسلامية

---

(١) ذكر ابن الأثير أنه خرج في اثني عشر ألفاً إلى أهل أرمينية (ابن الأثير ، ج ٣ ص ٨٣)

(٢) البلاذري ، ج ١ ص ٢٣٤ ـ ابن الأثير ، ج ٣ص ٨٥

(٣) هي قصبة كورة بسفرجان وتلاصق أرمينية (ياقوت، معجم البلدان ، ج ٥ ص٢٨٦)

(٤) ناحية بأرمينية ، قصبتها تفليس (ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ص ١٢٥)

(٥) من أكبر مدن أرمينية،وتقع اليوم في بلاد القوقاز

بعد أن اتسعت اتساعاً هائلاً بفتوحات الشام والعراق وفارس ومصر ، فانتهز فرصة وجوده بالشام في المرة الرابعة واجتمع في الجابية مع قواد الفتوحات لدراسة الموقف ووضع أنظمة جديدة للدولة العربية في الظروف الجديدة تتناول الشؤون المالية للمحاربين ، فقد أدت الفتوحات الإسلامية في الشام والعراق وقتئذ إلى ضرورة استقرار الجند في الولايات المفتوحة ، وضرب معسكراتهم إما في المصرين وهما مدينتا البصرة والكوفة — لأن الفسطاط لم تكن قد بنيت بعد في العراق اللتان أمر بإنشائها لتكونا معسكرات ثابتة للفاتحين وقاعدتين حربيتين للفتوحات الفارسية وفتوح الجزيرة ، وفي نفس الوقت مراكز اسلامية لإشعاع الإسلام والحضارة الاسلامية في بلاد فارس ، وإما في الأجناد ، وهي مناطق نزول المحاربين المسلمين في الشام ، وتقابل ما يعرف عند البيزنطيين بنظام البنود [١] أو Themes ، أو الثغور ، وهي المواقع الحصينة التي تقع على التخوم البيزنطية كدرب بغراس والمصيصة وغيرها من ثغور الشام . وفي هذه القواعد عاش العرب الفاتحون كما كانوا يعيشون من قبل في البادية ، إذ توزعوا فيها الخطط على أساس ما ألفوه في جزيرة العرب أي على أساس الوضع القبلي . وكان المسلمون يحاربون حتى عهد عمر بن الخطاب بدون عطاء أو رزق معين ، وإنما كانوا إذا غزوا بلداً أخذوا نصيبهم من

---

(١) قسمت بلاد الشام إلى خمس وحدات إدارية تسمى الأجناد ، هي : جند فلسطين والأردن ودمشق وحمص وقنسرين ، وهي على هذا النحو لا تختلف كثيراً عن التقسيمات الإدارية البيزنطية . وكان جند دمشق يشتمل على المناطق الشرقية الواقعة على حافة البادية ، والتي بدأ العرب بفتحها وأحسوا بأنها لا تختلف عن بلادهم ، أما جند فلسطين فكانت حدوده من رفح إلى اللجون ، ويضم القدس وغزه وعسقلان . بينما كان جند الأردن يضم منطقة الجليل . أما جند حمص وقنسرين فكانا يشتملان على اقاليم الشام الشمالية حتى منطقة الثغور (محمد كرد علي ، خطط الشام ، دمشق ١٩٢٦ ج ٣ ص ٢٣٤)

الفيء [١] والغنيمة [٢] . فلما توالت الفتوحات ، واتسعت الدولة أصبح هـذا النظام بالياً ، واستلزم الأمر تطبيق نظام جديد ، وهنا اقتبس عمر بن الخطاب من الفرس نظام الديوان لضبط دخل الدولة ونفقاتها ، وأصبحت مهمة الديوان على حد قول الماوردي « حفظ ما يتعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال ، ومن يقوم بها من الجيوش والعمال [٣]» . وقد حدد ابن خلدون عمل الديوان

---

(١) الفيء هو كل مال وصل من المشركين عفوا من غير قتال ولا بإيجاف خيل ولا ركاب ، فهو كمال الجزية وأعشار متاجرهم ، ويوزع خمس الفيء على أهل الخمس أي يقسم على خمسة أسهم متساوية : سهم لرسول الله ينفق منه على نفسه وأزواجه ويصرفه في مصالحه ومصالح المسلمين ، وينفق بعد وفاته في مصالح المسلمين ، وسهم لذوي القربى أي لبني هاشم وبني عبد المطلب ، وثالث لليتامى من ذوي الحاجات ، ورابع للمساكين الذين لا يجدون ما يكفيهم ، وخامس لأبناء السبيل وهم المسافرون من أهل الفيء ، امـا الأخماس الاربعة الأخرى ففيها قولان : أحدهما أن توزع على الجيش لايشاركهم فيه غيرهم ليكون معدا لأرزاقهم ، والقول الآخر أنه مصروف في المصالح التي منها أرزاق الجيش وما غنى للمسلمين عنه (راجع : أبو يوسف ، كتاب الخراج ، القاهرة ، ١٣٥٢ هـ ص ٢٤ ـ الماوردي ، ص ١٢٢ ـ ١٢٣)

(٢) الغنيمة تشتمل على الاسرى والسبي والارضين والاموال ، فالأسرى يطبق عليهم حكم القتل أو الاسترقاق أو الفداء أو المن عليهم بغير فداء ، فإن أسلموا سقط القتل عنهم وأصبحوا به في أحد الأحكام الثلاثة الأخرى . والسبي هم النساء والأطفـال ، ولا يجوز قتلهم اذا كانوا أهل كتاب لنهى رسول الله قتل النساء والولدان ، ولكن يتخذهم المسلمون سبيا مسترقـاً يقسمون مع الغنائم ، واذا كانت النساء من غير أهل كتاب كالدهرية وعبدة الأوثان وامتنعن عن الاسلام فعنـد الشافعي يقتلن وعند أبي حنيفة يسترققن . وفي الامكان مفاداة السبي ، ويصبح مال الفداء مغنوما . أما الأرضون فهي الأراضي التي استولى عليها المسلمون وتقسم ثلاثة أقسام ، ما ملكت عنوة وقهراً وفارقها أصحابها بقتل أو بأسر أو بجلاء ، وقد تصبح هذه الأراضي وقفاً على المسلمين لا يجوز قسمتها بين الفاتحين في (رأي مالك أو تقسم بين الغانمين فتكون أرضاً عشرية أو تعاد إلى المشركين بخراج فتكون أرض خراج . أما القسم الثاني من الأرضين ما ملك منهم عفوا لانجلائهم عنها خوفاً فتصير بالاستيلاء عليها وقفاً . والقسم الثالث ما ملك منها صلحاً على أن تقر في أيديهم بخرج يؤدونه عنها .

أما الأموال المنقولة فهي الغنائم المألوفة (أبو يوسف ، ص ٢٢ ـ الماوردي ، ص ١٢٦-١٢٦)

(٣) الماوردي ، ص ١٩١

بأنه يلتزم« القيام على أعمال الجبايات، وحفظ حقوق الدولة في الدخل والخرج، وإحصاء العساكر بأسمائهم، وتقدير أرزاقهم وصرف أعطياتهم في إباناتها، والرجوع في ذلك إلى القوانين التي يرتبها قومة تلك الأعمال وقهارمة الدولة، وهي كلها مسطورة في كتاب شاهد بتفاصيل ذلك في الدخل والخرج مبني على جزء كبير من الحساب لا يقوم به إلا المهرة من أهل تلك الأعمال، ويسمى ذلك الكتاب بالديوان »[١].

بدأ الخليفة عمر بإنشاء ديوان الجند المعروف بديوان العطاء وذلك بعد أن تم للمسلمين الانتصار على الفرس في القادسية، وبينما يذكر الطبري أن الخليفة عمر فرض الفرض للمسلمين ودوّن الدواوين في العام الخامس عشر للهجرة[٢]، يؤكد البلاذري أن نظام الديوان طبق في المحرم سنة عشرين[٣].

ويشير الطبري إلى أن عمر فرض العطاء حين فرض لأهل الفيء الذين أفاء الله عليهم وهم أهل المدائن والقادسية والشام الذين انتقلوا إلى الكوفة والبصرة ودمشق وحمص والأردن وفلسطين ومصر، وقال: « الفيء لأهل هؤلاء الأمصار ولمن لحق بهم وأعانهم وأقام معهم ولم يفرض لغيرهم[٤]». وقد اختلف الرواة في سبب وضع ديوان العطاء، فأرجعه بعضهم إلى أن أبا هريرة قدم على عمر بمال من البحرين، فسأله عمر عن قيمته فأخبره أنها ٥٠٠ ألف درهم، فاستكثره عمر، ثم خاطب المسلمين بقوله: « أيها الناس، قد جاء مال كثير، فإن شئتم كلنا لكم كيلا، وإن شئتم عددنا لكم عدا »، فقام إليه رجل فقال: « يا أمير المؤمنين قد

---

(١) ابن خلدون، المقدمة ص ٤٣٠

(٢) الطبري، ج٤ ص ١٦٢، ١٦٣

(٣) البلاذري، ج٣ ص ٥٥٠

(٤) الطبري، ج ٣ ص ١٦٣

رأيت الأعاجم يدوّنون ديواناً لهم ، فدوّن أنت لنا ديوانا » (١) . وأرجع آخرون سبب وضع ديوان العطاء إلى أن عمر بعث بعثا ، وكان عنده الهرمزان، فقال لعمر : هذا بعث قد أعطيت أهله الأموال . فإن تخلف منهم رجل وآجل بمكانه فمن أين يعلم صاحبك به ، فاثبت لهم ديوانا » . وذكر أبو يوسف أن عمر حين شاور الصحابة في تدوين الدواوين قال : « رأيت أنه لم يبق شيء يفتح بعد أرض كسرى ، وقد غنمنا الله أموالهم وأرضهم وعلوجهم ، فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله ، وأخرجت الخمس فوجهته على وجهه ، وأنا في توجيهه، وقد رأيت أن أحبس الأرضين بعلوجها ، وأضع عليهم فيها الخراج وفي رقابهم الجزية يؤدونها ، فيكون فيئاً للمسلمين : المقاتلة والذرية ولمن يأتي بعدهم . أرأيتم هذه الثغور لا بد لها من رجال يلزمونها ، أرأيتم هذه المدن العظام كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر لا بد لها من أن تشحن بالجيوش وإدرار العطاء عليهم، فمن أين يعطى هؤلاء إذا قسمت الأرضون والعلوج» ، فقالوا جميعاً الرأي رأيك، فنعم ما قلت وما رأيت . فرأى عمر الامتناع عن قسمة الارضين بين من افتتحها (٢) .

وذكر بعض الرواة أن عُمَراً استشار المسلمين في تدوين الديوان،فقال له علي ابن أبي طالب: « تقسم كل سنة ما اجتمع إليك من المال، ولا تمسك منه شيئاً». وقال عثمان : « أرى مالاً كثيراً يتبع الناس فإن لم يحصوا حتى يعرف من أخذ ممن لم يأخذ خشيت أن ينتشر الامر». فقال خالد بن الوليد(في روايةالماوردي) وقيل الوليد بن هشام بن المغيرة (في رواية البلاذري) : « قد كنت بالشام فرأيت ملوكها قد دوّنوا ديوانا وجندوا جنوداً ، فدوّن ديواناً وجند جنوداً » فأخذ بقوله . ثم أنه دعا عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم ،

---

(١) البلادري ، ج ٣ ص ٥٥٤ ـ الماوردي ، ص ١٩١

(٢) أبو يوسف ، ص ٢٥ ـ ٢٧

وكانوا من شباب قريش وأمرهم بكتابة الناس على منازلهم ، فبدأوا ببني هاشم ثم أتبعوهم أبا بكر وقومه ثم عمر وقومه ، وكتبوا القبائل ووضعوها على الخلافة ، ثم رفعوا ذلك السجل إلى عمر فأنكر ذلك ، وأمر أن يكون البدء بقرابة رسول الله الأقرب فالأقرب [١] . وقيل أنه بدأ ببني هاشم وبني عبد المطلب ، ثم بمن يليهم من قبائل قريش بطن بعد بطن حتى استوفى جميع قريش ، ثم انتهى إلى الانصار ، فبدأ برهط سعد بن معاذ من الأوس ثم الاقرب فالاقرب لسعد [٢] .

وهكذا تم وضع الديوان على أساس البدء ببني هاشم في الدعوة ثم الاقرب فالاقرب برسول الله ، فإذا استوى القوم في القرابة قدم أهل السابقة . ثم فرض لاهل الديوان ففضل أهل السوابق والمشاهد في الفرائض ، فبدأ بمن شهد بدراً من المهاجرين والانصار لكل رجل خمسة آلاف درهم في كل سنة ، حليفهم ومولاهم معهم بالسواء ، وفرض لمن كان له إسلام كإسلام أهل بدر ومن مهاجرة الحبشة ممن شهد أحداً ٤ آلاف درهم لكل رجل ، وفرض لمن بعد بدر إلى الحديبية أربعة آلاف ، ولمن بعد الحديبية ولمن شهد الفتح وقاتل قبل القادسية ثلاثة آلاف ، ولاهل القادسية والشام ألفين ألفين ، ولأهل البلاء البارع منهم ألفين وخمسمائة ، ولمن بعد القادسية واليرموك ألفاً ألفاً [٣] ، وفرض للعباس بن عبد المطلب ٥ آلاف لقرابته برسول الله وقيل سبعة آلاف ، ولم يفضل على أهل بدر سوى أزواج رسول الله ، فجعل لكل منهن عشرة آلاف ما عدا عائشة ، ففرض لها اثني عشر ألفاً ، ثم فرض للناس على منازلهم وقراءتهم القرآن وجهادهم ، ولم ينقص أحداً عن عن ثلاثمائة [٤] . ولم يغفل الديوان حتى من أسلم من العجم في

---

(١) أبو يوسف ، كتاب الخراج ، ص ٤٤ - البلاذري ، ج ٣ ص ٥٤٩ - الماوردي ، ص ١٩٢

(٢) البلاذري ، ج ٣ ص ٥٦٠ - الماوردي ، ص ١٩٢

(٣) الطبري ، ج ٤ ص ١٦٢ ، ١٦٣

(٤) البلاذري ، ج ٣ ص ٥٥٠ - ٥٥٢ ، الماوردي ، ص ١٩٢ - ١٩٤

العطاء، فقد فرض عمر لدهقان نهر الملك ببغداد ولابن النخيرجان ولخالد وجميل ابنى بصبهري دهقان الفلاليج، ولبسطام بن نرسي دهقان بابل وخطرنية، وللرفيل دهقان العال، وللهرمزان ولجفينة العبادي ألفاً ألفاً، ويقال إنه فضل الهرمزان ففرض له ألفين [١]. ونخرج من ذلك بأن نظام الديوان قام من حيث الترتيب العام على ثلاثة أسس متتالية : ١ - أساس النسب والقرابه برسول الله قبيلة بعد قبيلة ٢ - أساس السابقة في الإسلام وحسن الأثر في الدين ٣ - التفضيل عند انقراض أهل السوابق بالتقدم في الشجاعة والبلاء في الجهاد. ومن حيث الترتيب الخاص، فهو ترتيب الواحد بعد الواحد حسب السابقة في الإسلام، فإن تكافئوا في السابقة ترتبوا بالدين، فإن تقاربوا فيه فبالسن، فإن تقاربوا فيها فبالشجاعة، فإن تقاربوا فيها فبالخيار بين القرعة والاجتهاد. على أن تقدير العطاء كان يخضع في ذلك كله للكفاية حتى يستغنى بها عن التماس مادة تقطع عن حماية الدين، والكفاية تتوقف على عدد من يعوله المحارب من الذراري والمماليك وعدد ما يرتبط من الخيل، وعلى مدى الغلاء في الموضع الذي يحل به [٢].

بيت المال :

وأنشأ عمر بن الخطاب بيتاً للمال قصد به حفظ الأموال الفائضة عن حاجة الجند، وقد تطور نظام بيت المال في عصر عمر بن الخطاب وتعددت موارده، وكانت هذه الموارد تعتمد أساساً على الزكاة أو الصدقات التي تفرض على المسلمين وتعتبر رصيداً مالياً لجماعة المسلمين للإنفاق منه على الفقراء والمساكين وأبناء السبيل وفي الرقاب وفي سبيل الله. ولما اتسعت الدولة العربية الاسلامية في زمن عمر بن الخطاب، وتدفقت الأموال على العرب، حدث تطور في نظام بيت

---

(١) البلاذرى، ص ٥٦٠

(٢) الماوردي، ص ١٩٧، ١٩٨

المال ومصادره ، فأصبحت موارده من الفائض من مال الخراج والجزية والعشور بعد استبعاد النفقات على الجيش والمشروعات العامة كما كانت تضم إليه الأراضي التي جلا أهلها عنها وسميت الصوافي والقطائع [1] .

وقد أقر عمر بن الخطاب النظم المالية الساسانية في العراق وفارس بينما أقر النظم البيزنطية في الشام ومصر ، وكان ذلك سبباً في الاختلاف الواضح بين أحكام الجزية والخراج وعشور الأرض وعشور التجارة في العراق وفارس عنها في الشام ومصر ، وقد حمل على إيجاد هذا الاختلاف اختلاف لغات الدواوين فيما بينها في الأراضي المفتوحة ، وكان من العسير على عمر أن ينقل هذه الدواوين إلى العربية ويستخرج منها نظاماً موحداً يفرضه على الدولة العربية كلها .

أما الجزية فضريبة على الرؤوس يلتزم بها أهل الذمة من النصارى واليهود والمجوس والصابئة واسمها مشتق من الجزاء ، وتسقط إذا دخل الذمي في الإسلام ، ولا تجب الجزية إلا على الرجال الأحرار العقلاء ، ولا تجب على امرأة ولا صبي ولا مجنون ولا عبد [2] ، وقد فرضت الجزية على أهل الذمة في مقابل تعهد المسلمين بالدفاع عنهم والمنعة لهم. أما الخراج فهو ما وضع على الأرض من حقوق تؤدي عنها ويختلف الخراج باختلاف ما صولح عليه المغلوبون من أرضهم عنوة أو صلحاً بغير قتال ، مع مراعاة نوعية الأرض بالنسبة للزروع تزيد أو تقال من المحاصيل والغلات ، ونوعية الزرع ، ونوعية السقي سواء بالأمطار أو الدوالي والنواضح [3] .

نظام العملات :

أبقى عمر على نظام العملات المتداولة في البلاد المفتوحة رومية أو فارسية

---

(١) أبو يوسف ، الخراج ، ص ٥٧

(٢) الماوردي ، ص ١٣٨ ، ١٣٩

(٣) أبو يوسف ، ص ٣٧ ، ٤٨ ، الماوردي ، ص ١٤٣ ، ١٤٤

أو حميرية ، وهي عملات كان يتعامل بها العرب في الجاهليـــة وصدر الإسلام ، فبقيت صورة الصليب منقوشة على الدنانير الذهبية والفلوس البرونزية البيزنطية ، وصورة معبد النار (آتش كاه) ممثلا على ظهر الدراهم الفارسية التي كانت تصنع من الفضة ، فلم يكن للعرب قبل الإسلام نقود عربية قاصرة عليهـــم ، ومن المعروف أن رسول الله ﷺ أقر السكة [١] على مـا كانت عليه ، وأن المسلمين كانوا يتعاملون في عهد الرسول بهذه السكة لأنه لم يكن من اليسير على العرب في هذه المرحلة أن يسكوا عملات جديدة لأنفسهم في وقت شغلوا فيه بتوحيـــد الجزيرة العربية سياسياً ودينياً ، ويعلـــل ابن خلدون ذلك بسذاجة العرب وبداوتهم [٢] ، والواقع أن الإسلام لم يعمل على سك عملات إسلامية الطابع في ذلك العهد لان العرب كانوا يتعاملون تجارياً مع البيزنطيين والفرس ، وكان من الطبيعي أن يستخدموا عملات هذين الشعبين في معاملاتهم معهم [٣] ، ولذلك استمر التعامل في زمن الرسول ﷺ بالدنانير البيزنطية على أنهـا عين والدراهم الفارسية على أنها ورق [٤] ، بدليل أن الرسول زوّج علي بن أبي طالب من ابنته فاطمة في سنة ٢هـ بمهر قدره ٤٨٠ درهماً كسروية .

وظلت الدنانير البيزنطية أساساً لمعامـــلات المسلمين التجارية في الجزيرة وخارجها زمن خلافة أبي بكر ، ولم يفكر المسلمون في تغيير السكة ذات

---

(١) السكة هي الحديدة التي تطبع عليهـا الدراهم ولذلك سميت الدراهـــم المضروبة سكة (الماوردي ، ص ١٥٠)

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ٤٦٢

(٣) ذكر البلاذري أن دنانير هرقل كانت ترد على أهـل مكة في الجاهلية وترد عليهم دراهم الفرس البغلية (وتبلغ قيمتها ٨ دوانق)، فكانوا لا يتبايعون إلا على أنها تبر ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك وأقره أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ، ثم أقره معاوية حتى ضرب عبد الملك بن مروان الدراهم والدنانير الاسلامية الخالصة (البلاذري ، ج ٣ ص ٥٧٢)

(٤) الماوردي ، ص ١٤٩

النقوش المسيحية بعد أن وضعوا أيديهم على بلاد الشام ومصر ، أو تغيير السكة ذات الطابع المجوسي بعد فتوح العراق وفارس مـا دامت هذه السكة مألوفة لديهم ، وما دامت تؤدي الغرض منها بين الغالبين والمغلوبين ، وما دام الإبقاء على هذه العملات يساعد على استقرار البنـاء الاقتصادي في الدولة العربية الاسلامية ، فأقر عمر هذه العملات الفارسية بنقوشها البهلوية ، والبيزنطية بنقوشها اليونانية. ومع ذلك فقد حرص عمر بن الخطاب على إضافة بعض نقوش عربية مما يقتضيه الإسلام مثل : « الحمد لله » ، و « محمد رسول الله » ، كما أضاف على نقوش الفلوس البرونزية المضروبة في دمشق كلمـة « جايز » وعلى الفلوس المضروبة في حمص كلمة « طيب » أو « واف » إشارة إلى الوزن الصحيح ، ونلاحظ أن أسماء المدن كانت تنقش باليونانية والعربية معاً كدمشق وحمص وطبرية وبعلبك وإيليـا وقنسرين [١] . ومن المعروف أن عمر بن الخطاب ضرب هذه العملات الإسلامية ذات الطابع البيزنطي أو الفارسي ، لان هذه العملات الجديدة كانت تساعد على توفير كميات النقد اللازمة لإجراء المعاملات التجارية .

وعندما رأى عمر بن الخطاب اختلاف الدراهم وأن منها البغلي وهو ثمانيـة دوانق ومنها الطبري وهو أربعة دوانق ومنها المغربي وهو ثلاثة ، جمع بين الدرهم البغلي والطبري ، وجعل الدرهم الاسلامي ستة دوانق [٢]

ب - التنظيمات العسكرية والادارية :

اتبع عمر بن الخطاب مبدآن قامت عليهما السياسة العربية : **الأول** ، أن الجندية قاصرة على العرب وحدهم دون أهل الذمة ، وفي سبيل ذلك منع المحاربين العرب من امتلاك الأراضي في الشام ومصر والعراق خشية أن يفتر حماسهم الحربي

---

(١) عبد الرحمن فهمي ، النقود العربية ، القـاهرة ١٩٦٤ ص ٢٨ - فجر السكة العربية ، القاهرة ١٩٦٥ ص ٣٧

(٢) الماوردي ، ص ١٤٩ - ابن خلدون ، ص ٤٦٤

في غمرة الاستقرار ، فأقامهم في معسكرات منعزلة عن العمران مستهدفاً من عدم اختلاطهم بالمغلوبين إبقاء أصولهم العربية ، وقد راعى أن يدمج في هذه المعسكرات القبائل بعضها في بعض حتى يخفف بذلك من النزعات العصبية . والمبدأ الثاني : ترك المغلوبين على ما كانوا عليه من الناحيتين الإدارية والمالية .

أما عن المبدأ الأول فلم يقدر له أن يطبق إلا في عهد عمر ، فعاد العرب بعد وفاته إلا شراء الأراضي والقصور والاستقرار فيها بعد أن كانوا يقيمون في معسكرات الجابية وحمص وعمواس وطبرية واللد والرملة ، وقد ترتب على التفريط في هذا المبدأ أن ضعف العنصر العربي وظهر جيل مترف من العرب استقروا في الأمصار وتفرغوا لصراع العصبيات القبلية .

على أن عمر بن الخطاب كان حريصاً على إقامة قواعد حربية في العراق ومصر ، أما الشام فلم تنشأ فيه أمصار إسلامية لأن الشام كان يزخر بالدور التي هجرها أصحابها وجلوا عنها فراراً من جيوش العرب ، فاستولى عليها هؤلاء وصارت أخائذ لهم تغنيهم عن بناء دور جديدة . وأساس إنشاء هذه المدن أو الأمصار أن تكون قواعد حربية ومعسكرات للجند ، وقدر لهذه المدن بعد ذلك أن تكون مراكز إشعاع للغة العربية والدين الاسلامي في قلب الأقطار المفتوحة . وأولى هذه المدن التي أنشأها العرب بعد فتح العراق مدينة البصرة ، اختطها المسلمون في زمن عمر بن الخطاب في سنة ١٤ هـ [٢] ؛ ففي هذه السنة وجه عمر

---

(١) الطبري ، ج ٤ ص ١٤٨ . وذكر الطبري في رواية أخرى أن البصرة مصرت في ربيع سنة ١٦ هـ (ج ٤ ص ١٤٨) وقيل مصرت سنة ١٥ هـ (ابن حوقل ، صورة الارض ، بيروت ١٩٦٢ ص ٢١٢ — ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ، تحقيق دى غويه ليدن ، ١٨٨٥ — المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ١١٧ — يعقوب سركيس ، مقال عن البصرة ، بمجلة سومر ، ج ١ مجلد ٤ بغداد ١٩٤٨)

عتبة بن غزوان إلى البصرة وأمره بنزولها بمن معه وقطع مادة أهل فارس عن الذين بالمدائن ونواحيها . وقد سميت البصرة بهذا الإسم بسبب كثرة حجارتها السّود والحصى [١] ، وإن كان هناك من يختلف رأيه في تفسير هذا الإسم [٢] .
ويرجع الفضل في تمصير البصرة وتمصيرها إلى واليها أبي موسى الأشعري الذي أمره عمر بن الخطاب بالخروج إليها وصرف الخطط لمن استقر بأرضها من العرب، وتحديد مواضع نزول كل قبيلة ، كما أمره بأن يأذن للناس بالبناء وأن يبني لهم مسجداً جامعاً [٣] ، وكان المسجد قد بني في الأصل زمن عتبة بن غزوان من القصب ، وقيل أنه تولى اختطاطه بيده، كذلك أقام عتبة دار الإمارة أيضاً من القصب ، ولكن أبا موسى الأشعري أقامهـــا باللبن والطين وسقّفها بالعشب ، وأزاد في المسجد [٤] . وكان عمر بن الخطاب قد أمر أبا موسى بأن يحتفر لأهل البصرة نهراً، فابتدأ أبو موسى حفر نهر الأبلة من الإجانة وهو غور البصرة الذي كان يبعد عنها بنحو ٣ فراسخ ، وقاده أبو موسى حتى وصل به الى البصرة [٥] .

وثاني هذه الأمصار الكوفة ، وكان سبب بنائها أن عمر بن الخطاب كتب الى سعد بن أبي وقاص يأمره بأن يتخذ للمسلمين دار هجرة وأن لا يجعل بينه وبينهم بحراً ، « فأتى الأنبار وأراد أن يتخذها منزلا ، فكثر على الناس الذباب فتحول إلى موضع آخر فلم يصلح ، فتحول الى الكوفة فاختطها وأقطع الناس المنازل وأنزل القبائل منازلهم ، وبنى مسجدها وذلـــك في سنة سبعة عشرة » [٦] .

---

(١) الدينوري ، ص ١١٧

(٢) راجع يعقوب سركيس ، البصرة ، مجلة سومر ، ١٩٤٨

(٣) الدينوري ، ص ١١٨

(٤) البلاذري ، ج ٢ ص ٤٢٦

(٥) نفس المصدر ،ج ٢ ص ٤٣٨

(٦) نفسه ، ص ٣٣٨ ـ الطبري ج ٢ ص ١٨٩

وقد سميت الكوفة كذلك لاختلاط الحصباء والرمل بها [١] ، أو من تكوّف الرمل بها أي تكوّمه [٢] ،أو من الكوفان أي الرملة المستديرة [٣] . وكان بالكوفة قبل بنائها ثلاثة أديرة : دير حرقة ودير أم عمر ودير سلسلة .

وقد اختط سعد بن أبي وقاص الكوفة في سنة ١٧ هـ بين الحيرة والفرات، وبدأ الناس يبنون الدور من القصب. وحدث أن وقع بالكوفة والبصرة حريق، وكان أشدهما حريقاً الكوفة ،فاحترق ثمانون عريشاً ولم يبق فيها قصبة ،فاستأذن سعد من عمر بن الخطاب في البناء باللبن ، فأجابه بشرط الا يزيد الواحد من من الناس على ثلاثة أبيات ولا يتطاول في البنيان ، فبدىء ببناء الجامع ، وأقيمت له ظلة في مقدمته لا مجنّبات لها ، وكان يدعم الظلة أساطين رخام كانت للأكاسرة ، ثم توزعت القبائل حول الجامع. ووسع الجامع في ولاية المغيرة ابن شعبة وأقيمت بجواره دار للإمارة . وذكر البلاذري أنه وجد في قراطيس هدم قصور الحيرة التي كانت لآل المنذر أن المسجد الجامع بالكوفة بني ببعض نقض تلك القصور وحسبت لأهل الحيرة قيمة ذلك من جزيتهم [٤] . وكانت الكوفة منذ نشأتها مركزاً عسكريا يتجمع فيها جند المسلمين ولذلك سماها بعض الشعراء بكوفة الجند حيث يقول :

إن التي وضعت بيتاً مهاجرة .·. بكوفة الجند غالت ودها غول [٥]

---

(١) البلاذري ج٢،ص٣٣٨.وراجع أيضاً أسباب تسميتها بالكوفة في: كاظم الجنابي،تخطيط مدينة الكوفة ، بغداد ١٩٦٧، ص١١ - ١٦

(٢) السيد عبد العزيز سالم ، تخطيط مدينة الاسكندرية ، بيروت ١٩٦٤ ص ١١

(٣) ياقوت، معجم البلدان ، مجلد ٤ مادة كوفة ، ص ٤٩٠

(٤) البلاذري ، ص ٣٥٠

(٥) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٤ ص ٤٩١

وسكن الكوفة بعد انشائها المحاربون العرب ثم فرقة فارسية من فرق القائد رستم عدتها أربعة آلاف كانت تعرف باسم جند شهانشاه ، فاستأمنوا على أن ينزلوا حيث أحبوا ، ويحالفوا من أحبوا ، ويفرض لهم في العطاء ، فأنزلهم سعد بحيث اختاروا وفرض لهم في الف الف ، وكان لهم نقيب منهم يقال له ديلم ، فقيل حمراء ديلم [١] . كذلك نزل الكوفة طائفـــة من السريان وهم الذين كانوا يسكنون الأديرة القائمة في أطراف الحيرة والنجف [٢] ، ثم نزل الكوفة جماعة من يهود نجران ومسيحيّيها أجلاهم عمر بن الخطاب عن الجزيرة العربية ، فأقاموا بمحلة عرفت بالنجرانية [٣] في الكوفة .

وثالث الأمصار الاسلامية الفسطاط ، التي أسسهـــا عمرو بن العاص في سنة ٢١ هـ في موضع حصين يقع بين الحصن الرومـــاني المعروف بحصن بابليون وجبل المقطم ، ويذكر المقريزي ان موضع الفسطاط كان أرضاً فضاء ومزارع فيما بين النيل والجبل الشرقي المعروف بالمقطم ، ولم يكن بهذا الموضع من البناء سوى حصن بابليون ويقع قديماً على النيل ، وكانت السفن تصل إلى بابه القبلي ، وهو الباب الذي خرج منه قيرس حاكم مصر ومن صحبه من رجاله بعد استيلاء المسلمين عليه [٤] . وبدأ عمرو ببناء جامعه الموسوم باسمه ، وهو أول جامع أقيم بمصر فسمي بجامع الفتح أو تاج الجوامع حيناً ، وبجامع [٥] ، مصر وجامع عمرو أو الجامع العتيق حيناً آخر ، ثم انزل عمرو الناس منازلهم وجعل لكل قبيلة خطّة تقيم بها مثل قبيلة أسلم وبلى والليثيون وبنو معاذ بن مدلج

---

(١) البلاذري ، ج ٢ ص ٣٤٣ ، ٣٤٤

(٢) كاظم الجنابي ، ص ٢٦

(٣) البلاذري ، ج ١ ص ٧٨

(٤) المقريزي ، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، مجلد ٢ طبعـــة الشياح ، ص ٥١

(٥) ابن دقماق ، الانتصار لواسطة عقد الامصار ، القاهرة ، ١٨٩٣ ص ٤٠٣

وعنزة بن ربيعة وبنو بجر الأزد وهذيل وعدوان إلى آخره [١] ، وتألفت من هذه الخطط أحياء الحاضرة الجديدة لمصر الاسلامية وأطلق عليها اسم الفسطاط ، ويعتقد بتلر أن لفظ الفسطاط مشتق من اللفظ اللاتيني Fossatum ومعناه المدينة الحصينة [٢] ، ولكن مؤرخي العرب يرجعون سبب تسمية الفسطاط بهذا الاسم إلى أن المسلمين أقروا فسطاط عمرو في موضعه [٣] .

وهكذا اقترن عصر الفتوحات العربية بإنشاء الأمصار ، وقدّر لهذه الأمصار أن تلعب دوراً هاماً في الحياة السياسية للدولة العربية الاسلامية ، وأن تصبح مراكز علمية هامة في العصر الاسلامي . ونلاحظ في بناء المدن الاسلامية أن العرب حرصوا عند تخطيط هذه المدن أن تكون في داخل البلاد بعيداً عن السواحل حتى لا تتعرض للغزوات البحرية ، كما راعوا فيه أيضاً أن يتوفر فيها ما يتناسب مع حياتهم البدوية من مراعي الابل وما يصلح لها ، وفي ذلك يقول ابن خلدون : « وقد يكون الواضع غافلاً عن حسن الاختيار الطبيعي ، أو إنما يراعي ما هو أهم على نفسه وقومه ، ولا يذكر حاجة غيرهم ، كما فعله العرب لاول الإسلام في المدن التي اختطوها بالعراق وافريقية ، فإنهم لم يراعوا فيها إلا الاهم عندهم من مراعي الإبل وما يصلح لها من الشجر والماء الملح ولم يراعوا الماء ولا المزارع ولا الحطب ولا مراعي السائمة من ذوات الظلف ولا غير ذلك كالقيروان والكوفة والبصرة وأمثالها ، ولهذا كانت أقرب إلى الخراب لما لم تراع فيها الامور الطبيعية » [٤] . وقد أورد البلاذري ما يشير إلى ذلك ، فذكر أن عمر بن الخطاب كتب إلى سعد بن أبي وقاص عندما هم باختيار موضع

---

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، ص ١٦٠ - ١٦٤

(٢) راجع مقال عن الفسطاط في دائرة معارف الشعب عدد ٧٩ ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٤٥

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ١٣٣ - المقريزي ، الخطط ، ج ٢ ص ٦٠ - ابن دقماق ، ص ٢

(٤) ابن خلدون ، المقدمة ص ٦٢٠

الكوفة يقول : « إن العرب بمنزلة الإبل لا يصلحها إلا ما يصلح الإبل ، فارتد لهم موضعاً عدنا ، ولا تجعل بيني وبينهم بحراً » [١] ، فلما انتهى المسلمون إلى موضع الكوفة وجدوا أرضها ينبت بها الخزامى والاقحوان والشيح والقيصوم والشقائق، فاختاروها موضعاً للكوفة واختطوها [٢] . وعندما نزل عتبة بن غزوان بموقع البصرة ووجدها أرضا كثيرة القضبـــة في طرف البر إلى الريف وفيها قصباء كتب إليه عمر قائلاً « هـــذه أرض نضرة قريبة من المشارب والمراعي والمحتطب » وأمره أن ينزلها بالناس [٣] ، واتضح فيما بعد ما ينتقص البصرة من المرافق وخاصة المياه ، فكتب الأحنف بن قيس إلى الخليفة عمر : « إنا نزلنا سبخة نشاشة لا يجف نداها ولا ينبت مرعاها ، ناحيتها من قبـــل المشرق البحر الأجاج ، ومن قبل المغرب الفلاة ، فليس لنـا زرع ولا ضرع، تأتينا منافعنا وميرتنا في مثل مريء النعامة : يخرج الرجل الضعيف فيستعذب الماء من فرسخين ، وتخرج المرأة لذلك فتربق ولدها كما يربق العنز يخاف بادرة العدو وأكل السبع»،فكتب عمر إلى أبي موسى الأشعري يأمره بأن يحتفر لهم نهراً [٤] .

★ ★ ★

أما عن المبدأ الثاني فنلاحظ أن عمر أقر الاحتفاظ بالنظم الادارية السابقة على الإسلام في البلاد المفتوحة حتى لا تضطرب الأمور وتسود الفوضى ،ولكنه استبعد من هذه النظم مالا يتفق مع تقاليد العرب ؛ فقد أقر نظـــام الديوان

---

(١) البلاذري ، ج ٢ ص ٣٣٩

(٢) نفسه ، ص ٣٤١

(٣) نفسه ، ص ٤٢٥

(٤) نفسه ص ٤٣٧

الفارسي ، وطبق التقسيم البيزنطي للشام إلى أجناد ، كما أبقى على نظام الكورة في مصر وهي كلمة يونانية Curia معناها المركز ، وجسطال الكورة ، وموازيت القرى . ولفظة جسطال مشتقة من الكلمة اليونانية أوجستاليوس كما أن كلمة موازيت مشتقة من الكلمة اليونانية ميزوتروس[١] ، والجسطال هو المشرف على مالية الكورة أي مندوب ديوان الخراج ، والموازيت هم رؤساء القرى أو مشايخها . أما في فارس فقد استخدمت كلمة الرساتيق للدلالة على الولايات ، والروستاق مشتقة من الكلمة الفارسية روستاي[٢].

وكان يتولى أجنـاد الشام في عصر الفتوحات ولاة ورد ذكرهم في المصادر العربية ، فتولى دمشق في خلافة عمر ثلاثة ولاة هم على الترتيب يزيد بن أبي سفيان ، فسويد بن كلثوم ، فمعاوية بن أبي سفيـان ، أما جند حمص فتولاه أبو عبيدة ثم عبادة بن الصامت ثم عياض بن غنم ثم سعيد بن عامر بن جذيم ، ثم عمير ابن سعد ثم عبدالله بن قرط . أما جند قنسرين فتولاه خالد بن الوليد فعمير ابن سعد. وتولى جند فلسطين يزيد بن أبي سفيان فعلقمة بن مجزر ، وتولى جند الأردن شرحبيل بن سعد فيزيد بن أبي سفيان فمعاوية[٣] . ونلاحظ أن عمر ولى معاوية عامـــلا على دمشق والأردن بعد وفاة يزيد في طاعون عمواس سنة ١٨ هـ ، ثم استأثر معاوية بولاية الشام في خلافة عثمان . على أن عمر بن الخطاب عمل على فصل السلطة القضائيـــة عن السلطة التنفيذية وذلك باسناد منصب القضاء إلى رجال يختارون من أفاضل الناس بقصد إمامة المسلمين في الصلاة

---

(١) راجع: Grohmann, Arabic papyri in Egyptian Library, vol. III, Cairo, 1938, p. 15 - 17 ـ سيدة كاشف ، مصر في عصر الولاة ، ص ٢٥

(٢) Steingass, Persian English dictionary, London 1947, p. 594.

(٣) صالح احمد العلي ، موظفو بلاد الشام في العهد الأموي ، مجلة الأبحاث ، بيروت ١٩٦٦ ص ٧١

وإقامة العدل بينهم ، ويعتبر عمر بذلك أول من ولى القضاء في الإسلام [١].
وكان القاضي يعمل مستقلاً عن الوالي ومن مهمته أيضاً الاشراف على الفيء
والغنائم [٢] .

وكان عمر يحاسب عماله في مواسم الحج بمكة على أعمالهم ويسأل النـاس عن
سيرتهم فيهم ،وكتب مرة إلى عمرو بن العاص يقول : « أما بعد ؛ فإنكم معشر
العمال قعدتم على عيون الأموال ، فجبيتم الحرام ، وأكلتم الحرام ، وأورثتم
الحرام ، وقد بعثت إليك محمد بن مسلمة الأنصاري ليقاسمك مالك ، فأحضره
مالك والسلام »[٣]. كذلك قاسم عمر جماعة من عماله أموالهم منهم سعد بن أبي
وقاص والنعمان بن عدي[٤] ،وذكروا أن سبب مقاسمة عمر بن الخطاب العمال
قصيدة أرسلها الشاعر خالد بن الصعق إلى عمر جاء فيها :

أبلغ أمير المؤمنين رسالة ∴ فأنت ولي الله في المال والأمر
فلا تدعن أهل الرساتيق والجزي ∴ يسيغون مال الله في الأدم الوفر
فأرسل إلى النعمان فاعلم حسابه ∴ وأرسل إلى جزء وأرسل إلى بشر
ولا تنسين النافعين كليهما ∴ وصهر بني غزوان عندك ذا وفر
إذا التاجر الهندي جاء بفارة ∴ من المسك راحت في مفارقهم تجري
نبيع إذا باعوا ونغزو إذا غزوا ∴ فأنى لهم مال ولسنا بذي وفر[٥]

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٣٩١
(٢) عبد المنعم ماجد ، ص ٢٣٧ - الخربوطلي ، ص ٨٦
(٣) ابن عبد الحكم ، ص ١٩٩
(٤) اليعقوبي ، ج ٢ ص ١٥٧
(٥) ابن عبد الحكم ، ص ٢٠٠

ج - التنظيمات الدفاعية :

أحس العرب بعد أن افتتحوا بلاداً تطل على البحر المتوسط بضرورة اصطناع سياسة بحرية لمواجهة الغارات البحرية التي يشنها الروم ، وكانت لهؤلاء الروم السيطرة الفعلية في البحر المتوسط . ولم يكن عمر بن الخطاب يرهب البحر ويخشاه أو يشفق على المسلمين من ركوبه [١] كما يزعم الرواة والأخباريون [٢] ، ولكنه كان بعيد النظر سديد الرأي ، فالعرب كانوا بعد حديثي عهد بما بلغوه من حدود بحرية ، والعدو الذي يواجهونه خصم عنيد متمرس في شؤونه متدرب على ركوبه وخوض مياهه ، ولا شك أن الخليفة عمر أدرك أن العرب في هذا التاريخ المبكر لا يستطيعون مجاراة الروم والفرس في البحر لقلة خبراتهم البحرية ، وقد دفعه هذا الادراك إلى تأديب العلاء بن الحضرمي والي البحرين لتغريره بالمسلمين في الخليج الفارسي ، وتعريضهم للهلاك في سنة ١٧هـ ، ولوم عرفجة ابن هرثمة الأزدي سيد بجيلة لما أغزاه عمان فبلغه غزوه في البحر . ولذلك عمد الخليفة عمر إلى تأسيس الأمصار الاسلامية في داخل البلاد ، كما عمل على انتهاج سياسة بحرية دفاعية لمواجهة الخطر البيزنطي على ثغور المسلمين ، فاهتم بتحصين السواحل ، وترتيب المقاتلة فيها وإقامة الحرس على مناظرها [٣] ، متوسلاً في ذلك كله بوسائل برية . فأمر بمرمة حصونها ، وإقامة الأربطة والمناظر والمسالح على طول الساحل ، وشحنها بالمقاتلة لمراقبة النواحي التي يقبل منها البيزنطيون

---

(١) Aly Fahmy, Muslim sea - Power in the eastern Mediterranean, Cairo , 1966 , p. 78 - Cheira , La Lutte entre Arabes et Byzantins, p. 88

(٢) السيد عبد العزيز سالم ، وأحمد مختار العبادي ، تاريخ البحرية الاسلامية في المغرب والأندلس ، بيروت ١٩٦٩ ص ١٥

(٣) البلاذري ، ج ١ ص ١٥٢ .. Cheira, op. cit. p. 85

في البحر ، والإنذار باقتراب العدو ليلاً عن طريق إيقاد النيران في مواقيد خاصة بأعلاها ، تنبيهاً للمرابطة بالخطر ، وتوجيهاً لهم للاستعداد والتأهب لرد الغزاة . وكان هذا النظام الدفاعي البحري ضرورياً في العهد الأول الذى تبع الفتوحات عندما كان العرب - وإن كانوا يعرفون قليلاً عن ركوب البحر - يجهلون الحروب وأساليب القتال فيه ضد الروم الذين كانت لهم حتى ذلك الحين السيطرة الفعلية على البحر ، بالإضافة إلى أن العرب كانوا لا يثقون بالمغلوبين من أهل البلاد المفتوحة ، مما حمل معاوية على إبدال سكان السواحل الشامية بسكان من العرب أو الموالين للعرب [١] . وعلى هذا النحو أصبحت سواحل الشام مبثوثة بالقلاع والأبراج التي كانت أشبه بسور [٢] يمتد بحذاء الساحل ، اعتمد عليه العرب في الدفاع عن البلاد من جهة البحر. وحظيت سواحل الاسكندرية ورشيد والبرلس وتنيس ودمياط وعكا وصور وصيدا وطرابلس وعرقة وجبيل وأنطاكية بقلاع ومحارس ، ووضعت في هذه المدن حاميات مرابطة ، تنقسم كل منها إلى عرافات أي مجموعات ، وكل عرافة تتألف من مائة رجل . وكان المرابطة يقومون بالرباط أثناء فصل الصيف عندما يصبح البحر صالحاً للملاحة ، أما في فصل الشتاء وهو فصل انغلاق البحر بسبب العواصف والانواء ، فكانت الحاميات تعود إلى قواعدها في دمشق أو الفسطاط ولا يبقى منها في الثغور البحرية إلا جماعات قليلة . وشجع عمر بن الخطاب المسلمين على المرابطة على السواحل ، وقرن المسلمون أسماء بعض السواحل بالثواب والجهاد والجنة ، حتى عمرت بمن وفد إليها من المرابطة [٣] .

---

(١) عبدالعزيز سالم ، دراسة في تاريخ مدينة صيدا في العصر الاسلامي ، بيروت ١٩٧٠ ص ٦١

(٢) Cheira, op. cit. p. 87

(٣) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي ، طبعة ثانية الاسكندرية ١٩٦٩ ص ٩٣ وما يليها ، وراجع أيضاً ما كتبته في المغرب الكبير ، ج ٢ ص ٤٤٩ - ٤٥٤

ثم مضت مرحلة الدفاع البحري بوسائـــل برية عندما فشلت بيزنطة في استرداد الساحل الشامي سنة ٢٣هـ والمصري في سنة ٢٥ هـ أمام قوة الدفـــاع العربي ، واستقرت دعـائم السيادة العربية الاسلامية في الشام ومصر ، وآن للعرب أن يبدأوا بدورهم الهجوم . وكان لزاماً عليهم في تلك الحالة أن يكون لديهم أسطول قوي يضمن لهم إحباط أي محاولة بيزنطية لاسترداد الشام ومصر من جهة البحر ، ويمهد لهم السبيل للدفـاع عن مكاسبهم وتأمين مناطق النفوذ البحرية ضد البيزنطيين الذين كانوا ما يزالوا يحتفظون بالسيادة البحرية في البحر المتوسط . ويرجع الفضل الأعظم في إنشاء الأسطول العربي الإسلامي إلى معاوية ابن أبي سفيان عامل الشام في خلافة كل من عمر بن الخطـاب وعثمان بن عفان ، الذي أدرك فضل الأساطيل في الدفاع عن السواحل إبان غزو أخيه يزيد لسواحل الشام . وبدأ معاوية وهو بعد عامل على الشام بتحصين السواحل وشحنهـــا بالمقاتلة ، وإقطاع من ينزل من المسلمين بالسواحل القطائع والأخائذ[١] ، وتشجيع انتقال المسلمين إلى السواحل من كل مكان . ثم انتقل بعد ذلك إلى عملية بنـاء السفن في مصر ، فاستحضر الاخشاب من غابات الأرز بلبنان وأرسلها في السفن إلى الاسكندرية ، واستعان بالخبراء القبـط وببعض الملاحين من أهل مصر في صناعة السفن وتسييرها في البحر[٢] ، تمهيداً للسيطرة على جزر البحر المتوسط المواجهة لسواحل الشام ومصر ، لاتخاذهـــا قواعد بحرية أمامية لغزو بلاد البيزنطيين نفسها .

وإذا كان عمر بن الخطـاب قد نهى معاوية عن ركوب البحر وغزو أرواد عندما استأذنه معاوية في ذلك ، فإن عثمان بن عفان ، على الضد من ذلك ، أطلق

---

(١) البلاذري ، ج ١ ص ١٥٢

(٢) نفسه ، ص ١٤٠

لمعاوية يده في الشام ، وأذن له بغزو الروم بحراً في قبرص على ألا يحمل الناس على الغزو كرهاً ، وأن يصحب معه امرأته فاختة بنت قرظة . ويعتبر غزو المسلمين لقبرص في سنة ٢٨ هـ أول غزو بحري لهم في البحر المتوسط ، ولم يكن المسلمون قد ركبوا بحر الروم قبل هـذه الغزوة [١] . وفي نفس الوقت الذي تهمّم فيه معاوية بإنشاء أسطول عربي شامي كان عبدالله بن سعد عامل مصر في خلافة عثمان يقوم بدوره بإنشاء أسطول عربي مصري في الجزيرة ، ألقى عبئه على كاهل المصريين الأقباط. وقد اشترك الاسطول المصري مع الاسطول الشامي في غزو قبرص [٢] ، كما اشترك الاسطولان معاً في واقعة ذات الصواري التي حدثت في سنة ٣٤ هـ [٣] ، وفيها انتصر المسلمون انتصاراً حاسماً ثبّت لهم السيطرة في البحر المتوسط والتفوق على البيزنطيين. ويعلق الاستاذ فتحي عثمان على انتصار العرب في ذات الصوارى بأنها تعتبر « حـداً فاصلاً في تاريخ البحر المتوسط ، ذلك أن قنسطانز كان يرمي إلى تحطيم قوة المسلمين البحرية في مهدها ، ولو أنه وفق في ذلك لظلت سيادة البحر الابيض أو حوضه الشرقي بيد البيزنطيين دون المسلمين » [٤] . غير أن معاوية لم يفد من هذا النصر الذي أحرزه في مواصلة الغزو البحري ، فقد شغل بالمطالبة بدم عثمان منذ سنة ٣٥ هـ ، ومناوءة علي بن أبي طالب من أجل الظفر بالخلافة عن مواجهة البيزنطيين ، أما هؤلاء فقد اغتنموا تلك الفرصة لتدعيم جبهتهم ، ثم وجهوا هجوماً عاتياً على سواحل الشام في سنة ٤٩هـ.

---

(١) البلاذري ، ج ١، ص ١٨١

(٢) ابن الأثير ، ج ٣ ص ٩٦ ـ فتحي عثمان، الحدود الاسلامية البيزنطية ، القاهرة ١٩٦٧ ج ٢ ص ٣٣٨

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ٢٠٥

(٤) فتحي عثمان ، ج ٢ ص ٣٣٨

ويبدو أن البيزنطيين سببوا بهذا الهجوم خسائر كبيرة للمسلمين حملت معاوية على إقامة دار لصناعة الاسطول في عكا، لتنتج له سفناً بدلاً من الاعتماد على دار صناعة مصر وحدهـا . وظلت عكا دار صناعة الشام حتى نقلت في زمن بني مروان إلى صور [1] .

★ ★ ★

---

(١) البلاذري ، ج ١ ص ١٤٠

الفتنة الكبرى

١ – بداية الانقسام بين المسلمين إلى هاشمية وعثمانية

٢ – أسباب الفتنة

٣ – مقتل عثمان

٤ – الصراع بين علي ومعاوية وقيام الدولة الأموية .

الفصل الخامس

الفتنة الكبرى

- ١ -

بداية الانقسام بين المسلمين إلى هاشمية وعثمانية

وجد الناس أنفسهم بعد أن طعن أبو لؤلؤة فيروز المجوسي غلام المغيرة بن شعبة [١] الخليفة عمر بن الخطاب طعنته القاتلة التي أفضت إلى وفاته، سواء في نفس اليوم الذي طعن فيه أم في صبيحة اليوم التالي، أمام مشكلة اختيار خليفة لهم من بين ستة نفر من الصحابة رشحهم عمر بن الخطاب قبيل وفاته، هم: علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وطلحة بن عبيدالله، والزبير بن العوام،

---

(١) ابن عبد البر، الاستيعاب، ج ٤ ص ١١١٥. وذكر كل من الطبري وابن الأثير أن أبا لؤلؤة كان نصرانياً من نهاوند وأنه كان يعمل نجاراً وحداداً ونقاشاً (الطبري، ج ٥ ص ١٢ - ابن الأثير، ج ٣ ص ٤٩)، وقد أجمع الرواة على أن أبا لؤلؤة فيروز طعن عمر وهو يصلي في جامع المدينة صلاة الصبح من يوم ٢٦ من ذي الحجة بخنجر ذي رأسين ثلاث طعنات، وقيل ستة، أدت إلى وفاته (ابن قتيبة، الإمامة والسياسة ص ٢٤ - الطبري، ج ٥ ص ١٢ - ابن الأثير، الكامل، ج ٣ ص ٥٠ - ابن الأثير، أسد الغابة، طبعة طهران، ج ٤ طهران ١٣٣٤ ص ٧٦)

وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف . فعندما حمل المسلمون عمر وهو جريح وأدخلوه داره طلب من عبد الرحمن بن عوف أن يدعو علياً وعثمان والزبير وسعد ، وكان طلحة غائباً ، فلما قدموا عليه خاطبهم بقوله : « إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم ، وقد قبض رسول الله ﷺ وهو عنكم راض . إني لا أخاف عليكم إن استقمتم ، ولكني أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم ، فيختلف الناس . فانهضوا إلى حجرة عائشة بإذن منها ، فتشاوروا ، واختاروا رجلاً منكم » . ثم نزف دماً ، فظن القوم أنه قد مات ، ولكنه لم يلبث أن أفاق من غشيته ، وواصل حديثه قائلاً : « فإذا مت فتشاوروا ثلاثة أيام ، وليصلّ بالناس صهيب [1] ، ولا يأتين اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم » [2] . وذكر ابن قتيبة الدينوري أنه خاطبهم فقال : « يا معشر المهاجرين الأولين ، إني نظرت في أمر الناس فلم أجد فيهم شقاقاً ولا نفاقاً ، فإن يكن بعدي شقاق ونفاق فهو فيكم . تشاوروا ثلاثة أيام ، فإن جاءكم طلحة إلى ذلك وإلا فأعزم عليكم الله أن لا تتفرقوا من اليوم الثالث حتى تستخلفوا أحدكم » [3] . ثم أوصى عمر هؤلاء المرشحين الستة بأن يحسن من يقع عليه الاختيار خليفة من بعده بالأنصار ، فهم الذين تبوأوا الدار والإيمان ، وأن يحسن إلى محسنهم وأن يعفو عن مسيئهم ، كما أوصاه بالعرب خيراً باعتبارهم مادة الإسلام [4] . وأوصى

---

(١) هو صهيب بن سنان الرومي ، ولم يكن رومياً وإنما نسب إليهم لأنهم سبوه وباعوه ، وقيل لأنه كان أحمر اللون ، وهو من النمر بن قاسط ، وكان ممن اضطهدته قريش إبان الدعوة وعذبته عذاباً شديداً ، وعندما أراد الهجرة منعته قريش فافتدى نفسه منهم بجميع أمواله ، وجعله عمر ابن الخطاب عند موته يصلي بالناس إلى أن يستخلف بعض أهل الشورى . وتوفي صهيب بالمدينة في شوال سنة ٣٨ (راجع : ابن الأثير ، الكامل ، ج ٢ ص ٦٨)

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣ ص ٦٦

(٣) ابن قتيبة ، ص ٢٧ . وقد لخص كل من الطبري وابن الأثير ذلك النص (راجع الطبري ج ٥ ص ١٣ ـ ابن الاثير ، ج ٣ ص ٥٠)

(٤) ابن الأثير ، أسد الغابة ج ٣ ص ٣٨١

الجميع بأن يتولى صهيب الصلاة بهم في الأيام الثلاثة التي يتشاورون فيها ، وأشار عليهم بأن يحضر في اجتماعهم جماعة من شيوخ الأنصار، إذ لا خوف من الأنصار أن ينازعوهم الأمر ، وأن يحضر معهم الحسن بن علي وعبدالله بن عباس لقرابتهما الوثيقة برسول الله من جهة وليتبرك أهل الشورى بهما من جهة ثانية ، وأخيراً أوصى بأن يحضر ابنه عبدالله مستشاراً دون أن يكون له من الأمر شيء ، ولما طلبوا منه أن يستخلفه عليهم من بعده وأظهروا رضاءهم به، أبى عمر بن الخطاب إباء شديداً ، ونهى ابنه من التلبس بالخلافة ، ثم أوصاه بأن يكون مع الأكثرية إذا اختلف القوم ، ومع الحزب الذي يكون فيه عبد الرحمن بن عوف إذا تساوى أهل الشورى ثلاثة ثلاثة (١) .

فخرجوا وقد أيقن علي بن أبي طالب أن الأمر قد خرج من الهاشمية ما دام عمر قد أوصى بأن يختار المرشحون من كان عبد الرحمن بن عوف في جانبه ، لأن عبد الرحمن كان يرتبط بعثمان برابطة المصاهرة (٢) ، كما أن سعد بن أبي وقاص كان ابن عم عبد الرحمن بن عوف. ولما خرج علي قابله عمه العباس ولامه على أنه لم يأخذ برأيه ، إذ كان قد أشار عليه بان يدخل على النبي ﷺ في لحظة انتقاله ويسأله فيمن يلي الخلافة من بعده فلم يفعل ، كذلك عرض عليه مرة أخرى بأن يقبل بيعته بعد وفاة رسول الله فلم يفعل ، فضاعت الخلافة من بني هاشم لامتناعه عن قبول المبايعة في الوقت الذي اجتمع فيه الأنصار والمهاجرون في السقيفة ، ثم أوصاه من جديد بألا يدخل مع من سماهم عمر في الشورى ، فخالفه ودخل . ومع ذلك كله فقد نصحه نصيحة أخيرة بقوله : « احفظ عني واحدة : كلما عرض عليك القوم فقل لا ، إلا أن يولوك » ، ثم حذره من بني

---

(١) ابن قتيبة ، ص ٢٨ — الطبري ، ج ٥ ص ١٣ ، ٣٤ — ابن الأثير ، ج ٣ ص ٦٨

(٢) كان عبد الرحمن بن عوف قد تزوج أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط أخت عثمان لأمه

أمية بقوله : « واحذر هؤلاء الرهط فإنهم لا يبرحون يدفعوننا عن هذا الأمر حتى يقوم به لنا غيرنا ، وأيم الله لا يناله الا بشر لا ينفع معه خير » [١] .

ثم توفي عمر في ٢٧ ذي الحجة سنة ٢٣ هـ ، وأخرجت جنازته وصلى عليه صهيب ، وحمل إلى بيت عائشة ، ودفن عند قبر رسول الله في أول المحرم سنة ٢٤ [٢] . أما القاتل فقد قتل نفسه ؛ وأشيع في المدينة أن مقتل عمر حدث نتيجة مؤامرة مدبرة اشترك فيها الهرمزان وجفينة ،وكان صاحب هذه الاشاعة عبد الرحمن بن أبي بكر ،فقد أذاع غداة مقتل عمر أنه رأى عشية اليوم السابق الهرمزان وأبا لؤلؤة وجفينة وهم يتناجون ، فلما رأوه انتفضوا فسقط منهم خنجر له رأسان هو الذي ضُرب به عمر [٣] . وعز على عبيد الله بن عمر أن يهدر دم أبيه ،ودفعته شهوة الانتقام من قتلة أبيه إلى قتل ابنة أبي لؤلؤة والهرمزان وجفينة النصراني ، وعلم عمر وهو يحتضر بما اجترمه ابنه فأمر بحبسه وترك أمر الفصل في شأنه إلى الخليفة الجديد .

ولما تم دفن عمر جمع المقداد بن الأسود أهل الشورى في بيت المسوّر بن مخرمة ، وقيل في بيت المال ، وقيل أيضاً في بيت عائشة بإذنها ، وتشاور القوم ثلاثة أيام دون أن يتوصلوا لأية نتيجة ، وأوشك الأجل الذي حدده عمر قبل وفاته أن ينتهي دون أن يستخلف القوم عمراً ، فاقترح عبد الرحمن بن عوف على أهل الشورى أن يتنازل عن حقه في الترشيح على أن يتولى هو أمرهم فيعهدون إليه باختيار أفضلهم ، فسلم عثمان باقتراحه ، ووافق عليّ بعد أن طلب منه أن يعطيه موثقاً بأن يؤثر الحق ،ولا يتبع الهوى ،ولا يخص ذا رحم ،ولا

---

(١) الطبري ، ج ٥ ص ٣٥ – ابن الاثير ، ج ٣ ص ٦٨

(٢) أسد الغابة ، ج ٤ ص ٧٧

(٣) ابن الاثير ، ج ٣ ص ٧٥

يألو الأمة ، ففعل . ثم بدأ عبد الرحمن بن عوف يختلي بأهـل الشورى واحدا واحداً،وظهر بعد اتصالاته بهم أن أهل الشورى قد حصروا الاختيار في شخصي علي وعثمان ، فقد اختار الزبير علياً ، واختار طلحـة عثمان ، وامتنع سعد عن الاختيار تاركا أمره إلى عبد الرحمن بن عوف [١] . وهكذا انقسم أهل الشورى إلى فريقين : فريق يؤيد عثمان وفريق يؤيد علي ، وبمعنى أصـــح انقسموا إلى حزبين:حزب أموي وحزب هاشمي،وأصبح من الضروري أن يتدخل عبدالرحمن ابن عوف فيحسم الموضوع ويرجح أحد الحزبين على الآخر تنفيذاً لوصيـــة عمر بن الخطاب،ولكنه لم يشأ أن يعلن اختياره للخليفة قبل أن يعرف مشاعر الناس ويستشف رأيهم دون أن يعرفوه ،« فخرج يتلقى الناس في أنقاب المدينة متلثماً لا يعرفه أحد ، فما ترك أحداً من المهاجرين والأنصار وغيرهم من ضعفاء الرأي ورعاعهم إلا سألهم واستشارهم،أما أهل الرأي فأتاهم مستشيراً، وتلقى غيرهم سائلاً يقول : « من ترى الخليفة بعد عمر ؟ فـلم يلق أحداً يستشيره ولا يسأله إلا ويقول عثمان » . فلما رأى اتفاق الناس واجتماعهم على عثمان عـــاد إلى المسجد وعاود اتصاله من هناك بكل من علي وعثمان على انفراد حتى الصباح [٢]، ثم أدى الجميع صلاة الصبح ، وعلى أثر ذلك جمع عبد الرحمن الرهط وبعث إلى المهاجرين وأهل السابقة والفضـــل من الأنصار وأمراء الأجناد ، فاجتمعوا في المسجد وبدأوا يتناقشون فيما بينهم فيمن يختارونه ، واحتدم النقاش فنصح سعد ابن ابي وقاص عبد الرحمن بن عوف ان ينهي الموضوع قبل ان يفتتن الناس ، فأعلن عبد الرحمن اختياره فقال : « اني قد نظرت وشاورت فلا تجعلن ايهـا الرهط على انفسكم سبيلا » ، ثم دعا علياً وقال له : « عليـك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنـة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده » فأجابه بالقبول ،

---

(١) ابن قتيبة ، ص ٢٩ - ابن عبد البر ، ج ٣ ص ٣٨١ . وذكر الطبرى أن طلحة كان غائباً ثم قدم في اليوم الذى بويع فيه لعثمان ، فبايع عثمان بالخلافة (الطبرى ، ج ٥ ص ٣٨)

(٢) ابن قتيبة ، ص ٢٩

ثم دعا بعثمان وأوصاه بمثل ما أوصى به علياً فقبل . ثم رفع عبد الرحمن رأسه إلى سقف المسجد ويده في يد عثمان وقال: « اللهم اسمع واشهد ، اللهم اني قد جعلت ما في رقبتي من ذلك في رقبة عثمان » فبايعه [١] ، فازدحم الناس يبايعون عثمان حتى غشوه عند المنبر ، فقعد عبد الرحمن مقعد النبي من المنبر ، واقعد عثمان على الدرجة الثانية ، فأخذ الناس يبايعونه .

ومن الواضح ان القوم أيدوا عثمان لجملة أسباب: منها سابقته في الإسلام [٢]، وإصهاره النبي ﷺ مرتين في ابنتيه رقية ثم أم كلثوم [٣]، ولهجرته مع المهاجرين الأولين إلى الحبشة [٤] ، وبالإضافة إلى ذلك راعى القوم النتائج التي قد يؤدي إليها اختيار علي خليفة للمسلمين وأولها احتمال بقاء الخلافة وراثية في بيت بني هاشم لا تخرج منهم ابداً [٥]، وهو أمر تجنبه كل من أبي بكر وعمر .

وكان من الطبيعي أن يحتج علي بن أبي طالب على تحيز عبد الرحمن بن عوف لعثمان ، ويفسر ذلك التحيز بالتنازع القديم الذي كان قائماً في الجاهلية بين بني أمية وبني هاشم ، واتهم عليّ عبد الرحمن بن عوف بأنه ما حابى عثمان إلا لكي يخلفه من بعده ، ثم أعلن احتجاجه بقوله : « حبوته حبو دهر . ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا (فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) [٦] . والله ما وليتَ عثمان إلا ليرد الأمر إليك ، والله كل يوم وهو في شأن » . فرد عليه ابن عوف ينصحه بألا يتورط بكلامه في مآخذ تؤخذ عليه ، فمضى على

---

(١) الطبري ، ج ٥ ص ٣٧ - ابن الأثير ج ٣ ص ٧١

(٢) كان عثمان أول الناس إسلاما بعد أبي بكر وعلي وزيد بن حارثة ، وهو الذي جهز جيش العسرة بماله ، وحفر بئر رومه بماله

(٣) سمي لذلك بذى النورين (ابن كثير، البداية والنهاية ، ج ٥ ص ٣٠٩)

(٤) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ١٠٤

(٥) الطبرى ، ص ٣٨ - ابن الأثير ، ج ٣ ص ٧٢

(٦) سورة يوسف ١٢ آية ١٨

وهو يردد قائلاً : « سيبلغ الكتاب أجله » [١] . كذلك أعلن بعض الصحابة سخطهم على إقصاء علي من الخلافة ، فقال المقداد بن الأسود : « ما رأيت مثل ما أتى أهل هذا البيت بعد نبيّهم ؛ إني لأعجب من قريش أنهم تركوا رجلاً ما أقول ولا أعلم أن أرى رجلاً أقضى بالعدل ولا أعلم منه ، أما والله أجد أعواناً عليه » ، فحذره عبد الرحمن من عاقبة الفتنة [٢] .

تلكأ علي إذ وجد أهل الشورى يبايعون عثمان بالخلافة ، فأخذ عبد الرحمن يذكره بعهده الذي قطعه على نفسه وقال له : « ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً » ، فبادر علي بمبايعة عثمان وهو يقول : « خدعة وأيما خدعة » [٣] . ويذكر ابن كثير أن علياً كان أول من بايع عثمان بالخلافة من أهل الشورى ، ويستبعد ابن كثير الروايات التي قيلت في احتجاجه على انتخاب عثمان [٤] .

وهكذا قامت خلافة عثمان وسط مظاهر التحزب والانشقاق ، فقد انقسم المسلمون إلى هاشمية وأموية ، ووجد حزب معارض وحزب مؤيد في الوقت الذي كان الخليفة طاعناً في السن [٥] ليّن ، العريكة بطبعه ، قد فات ، ن القوة والحزم . ثم ان خطبته في الناس بعد أن بايعه أهل الشورى في الثالث من المحرم سنة ٢٤هـ هي خطبة دينية بحتة أقرب ما تكون إلى المواعظ ، لم تتضمن

---

(١) الطبرى ، ج ٥ ص ٣٧ - ابن الأثير ، ج ٣ ص ٧١

(٢) الطبري ، ج ٥ ص ٣٨

(٣) نفسه ، ص ٤١

(٤) ابن كثير ، ج ٧ ص ١٤٦

(٥) كان عثمان يوم بيعته قد تجاوز السبعين عاما

أي برنامج سياسي ، فقد دعا فيها الناس إلى طلب الآخرة والزهد عن الدنيا والاعتبار بمن لفظتهم [١] .

- ٢ -

أسباب الفتنة

سياسة التساهل واللين بعد التشدد والتضييق :

كان عمر بن الخطاب يحرص كل الحرص على أن يلتزم العرب بعد الفتوحات حياتهم الأولى القائمة على الخشونة والتقشف والزهد خشية أن تجرفهم حياة الترف في المدن المفتوحة في تيارها ، فقد ترتب على فتح الشام والعراق ومصر أن تفتحت أعين الفاتحين على بيئات حضارية جديدة لم يشهدوها من قبل ، فهموا بالخروج عن بداوتهم والاستمتاع بما أتت به الحياة الحضارية من ألوان الترف المباح الذي لا يتعارض مع الإسلام ، ولكن عمر نهاهم عن ذلك وفرض عليهم الإقامة في معسكرات خارج المدن يعيشون فيها على النمط البدوي ، حفاظاً على خشونتهم التي جعلت منهم محاربين أشداء . على أن السياسة التي التزمها عمر لم تلبث أن انتهت بانتهاء عصره ، فلما تولى عثمان الخلافة لم يتشدد كما كان يفعل عمر ، وإنما اتبع مع المسلمين سياسة تقوم على التساهل ، فانطلق العرب في عصره إلى حياة الترف وحرصوا على الاستمتاع بها في الحدود المشروعة ، فتأنقوا في مآكلهم ومشربهم وفي ملبسهم ، وشيدوا القصور السامقة منمّقة الجدران ، موزونة الأبعاد ، بدلاً من الدور الساذجة التي كانوا يعيشون فيها في البادية . وهكذا

---

(١) الطبري ، ج ٥ ص ٤٣

أدت سياسة التساهل واللين التي اتبعها عثمان بعد شدة عمر وتضييقه على المسلمين إلى انطلاق كبار الصحابة والتابعين إلى الأمصار الاسلامية [١] ومشاركتهم في إنشاء ارستقراطية دينية ، فقد أثروا ثراء فاحشاً ، وابتنوا القصور وتوزعوا الأراضي والخطط ، بينما كانت هناك طبقة فقيرة معدمة من المحاربين استقرت في الأمصار بعد الفتح . ويعلل المسعودي إقبال عمال عثمان وكثير من أهل عصره على الترف بأن عثمان كان في غاية الجود والكرم والسماحة والبذل في القريب والبعيد ، فسلك عماله وكثير من أهل عصره طريقته ، وتأسوا به في فعله ، ومن المعروف أن عثمان بنى داره بالمدينة في سنة ٢٧ هـ بالحجر والكلس ، وجعل أبوابها من الساج والعرعر ، واقتنى أموالاً وجناناً وعيوناً بالمدينة [٢] . وذكروا أنه تطاول في البنيان حتى عدوا سبع دور بناها بالمدينة [٣] ، وقد حذا كثير من الصحابة حذوه ، ففي أيامه اقتنى جماعة من الصحابة الضياع والدور : فمروان بن الحكم بنى القصور بذي خشب [٤] ، والزبير بن العوام بنى داره بالبصرة تنزلها التجار وأرباب الأموال وأصحاب الجهاز من البحريين وغيرهم ، كما ابتنى دوراً بمصر والكوفة والاسكندرية [٥] ، وابتنى طلحة بن عبيد الله التيمي داره بالكوفة المعروفة بالكناسة بدار الطلحيين ، وشيّد

---

(١) ذكر الطبري أن عمر بن الخطاب كان قد حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج في البلدان إلا باذن وأجل ، وكان عمر يقول : إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة انتشارهم في البلاد . فلما ولى عثمان لم يأخذهم بالذي كان يأخذهم به ، فخلى عنهم ، فانساحوا في البلاد واضطربوا في الأمصار ، فلما رأوها ورأوا الدنيا ورآهم الناس انقطع من لم يكن له طول ولا مزية في الإسلام (الطبرى ، ج ٥ ص ١٣٤)

(٢) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٣٣٢ - ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٣٦٢

(٣) ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، ص ٣٣

(٤) نفس المصدر ، ص ٣٣ وذو خشب واد على مسيرة ليلة من المدينة (ياقوت ، معجم البلدان ج ٢ ص ٣٧٢)

(٥) المسعودي ، ج ٢ ص ٣٣٢

داراً بالمدينة بناها بالآجر والجص والساج . كذلك ابتنى عبد الرحمن بن عوف الزهري داره ووسّعها ، وابتنى سعد بن أبي وقـاص داره بالعقيق ، فرفـع سمكها ، ووسع فضاءها ، وجعل أعلاها شرفات . وذكروا أن زيد بن ثابت حين توفى خلف من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس غير ما خلف من الأموال والضياع بما قيمته مائة ألف دينار ، كذلك ذكروا أن المقداد بن الأسود ابتنى داره بالمدينة في الموضع المعروف بالجرف على أميال من المدينة ، وجعل أعلاها شرفات وجصصها من الظاهر والباطن . وأحصوا ما خلف يعلي ابن منية بعد وفاتـه فوجدوه قد ترك خمسمائة ألف دينار وديونـاً على الناس وعقارات بما قيمته ثلاثمائة ألف دينار [١] .

وكان من الطبيعي أن ينكر المسلمون على عثمان ذلك وينتقدوا سماحه لكبار الصحابة بالإثراء واقتناء القصور ،وإسرافه في إدرار القطائع والأرزاق والأعطيات على أقوام بالمدينة لم يكونوا من الصحابة ولم يذبوا عن الدين [٢] ، مما أدى إلى ظهور الترف بوضوح في المجتمع العربي الإسلامي ، وعودة الحجاز إلى حياة الحواضر الحجازية القديمة، وانتشار نوع من الرفه الذي لا يتناسب قط مع ما ساد الدولة العربية من تقشف في خلافة الشيخين : فتدفق الثروات على الحجاز أغرى الناس بالاستمتاع بالحيـــاة والتنعم بسماع قصائد الحب واقتناء القيان الفارسيات ، وأمهر المغنين والموسيقيين الفرس والروم إلى المدينة أمثال نشيط الفارسي وسائب خاثر الفارسي [٣]، وابن محرز وطويس وابن سريج ، فأين ذلك من أيام عمر بن الخطاب التي ساد فيها الزهد والقيم الدينية.ويذكرون أن عمر أنفق في ذهابه ومجيئه إلى المدينة عندما أدى فريضة الحج في سنة ٢٣ هـ

---

(١) نفس المصدر ، ص ٣٣٣ . يذكر ابن عبد البر أن المال كثر في زمن عثمان إلى حد أن جارية بيعت بوزنها وأن فرسا بيع بمائة ألف (ابن عبد البر ، ج ٤ص ١٠٤١) .

(٢) ابن قتيبة ، ص ٣٤

(٣) مقدمة ابن خلدون، ص٧٦٥

ستة عشر ديناراً، فقال لولده عبد الله يومئذ: «لقد أسرفنا في نفقتنا في سفرنا هذا» [١] ؛ وعندما أسس سعد بن ابي وقاص قصر الكوفة من نقض آجر قصر كان للأكاسرة في ضواحي الحيرة، وشيده ،على أساطين من رخام كانت لكسرى بكنائس ، وأغلق باب القصر من جهة الأسواق بقصد منع ضجيج الغوغاء من إزعاجه ، بلغ عمر بن الخطاب ذلك ، كما بلغه أن الناس تسميه قصر سعد ، فأمر محمد بن مسلمة بحرقه ، فقدم محمد بن مسلمة إلى الكوفة ،ووضع حطباً على باب القصر واحرق الباب ، وسلم سعد كتاباً من عمر بن الخطاب جاء فيه : «بلغني أنك بنيت قصراً اتخذته حصناً ويسمى قصر سعد، وجعلت بينك وبين الناس باباً ، فليس بقصرك ، ولكنه قصر الخبال ، انزل منه منزلاً مما يلي بيوت الأموال واغلقه ، ولا تجعل على القصر باباً يمنع الناس من دخوله ...» [٢] .

إساءة اختيار العمال :

أنكر الناس على عثمان قيامه بعزل العمال القدامى الذين كانوا يتولون الأمصار الإسلامية وتولية آخرين من بني أعمامه وأقربائه أساءوا السيرة وتجاوزوا الحدود، ووضعوا حداً للتقاليد السائدة في عصر عمر ، فاستقدم عثمان عمه الحكم بن أبي العاص وابنه مروان وغيرهما من بني أمية ، والحكم هو طريد رسول الله ، كان قد غرّبه عن المدينة ونفاه عن جواره [٣] ، وخرج الحكم من دار عثمان وعليه جبة خز وطيلسان بعد أن كان قد دخلها وعليه قزر خلق [٤] ، وكان من بين عمال عثمان الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، وهو ممن أخبر رسول الله أنه من أهل النار ، وذكروا أنه شرب مع ندمائه ومغنيه يوماً من

---

(١) المسعودي، ص ٣٣٤ - السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ١٣٢
(٢) الطبري ج ٤ ص ١٩٣ - المسعودي ،ج ٢ ص ٣٣٤
(٣) المسعودي ، ج ٢ ص ٣٣٤
(٤) اليعقوبي ، ج ٢ ص ١٦٤

أول الليل حتى الصباح ، فلما آذنه المؤذنون بالصلاة خرج في غلائله فتقدم إلى المحراب في صلاة الصبح ، فصلى بهم أربع ركعـــات ، ثم قال : أتريدون أن أزيدكم ؟ وفي ذلك يقول الحطيئة :

شهد الحطيئة يوم يلقى ربه ∴ أن الوليد أحق بالعذر
نادي وقد تمت صلاتهم ∴ أأزيدكم ؟ ثملا ومـا يدري
ليزيدهم أخرى ، ولو قبلوا . لقرنت بـين الشفع والوتر

وأشاع الناس في الكوفة فعاله الذميمة ، وتجلت لهم مظاهر فسقه ومداومته على شرب الخمر ، فهجم عليه جماعة من المسلمين ، فوجدوه ثملا وقد اضطجع على سريره لا يعقل ، فأيقظوه من رقدته فلم يفق ، فانتزعوا خاتمه من يده ، ورحل منهم اثنان إلى المدينة ، فأخبرا عثمان بخبره وأخرجا له خاتمه ، فزجرهما ودفع في صدريهما ، فخرجا إلى علي بن أبي طالب وأخبراه بقصة الوليـد بن عقبة ، فخرج علي إلى عثمان وقال له : « دفعت الشهود وأبطلت الحدود » ، فطلب منه عثمان المشورة فيما ينبغي عليه عمله ، فأشار عليه بأن يبعث إلى عقبة من يستقدمه ، فإذا وجهت إليه التهمة ووُجه بالشاهدين ولم يستطع الرد يقام عليه الحد. فأمر عثمان باستقدام الوليد فاستقدم ، وأقام عليه الشاهدان الشهادة فلم يدل بحجة ، فألقى عثمان السوط إلى علي فأخذه وجلده به أربعين جلدة [٢] ، وقيـــل جلده عبدالله بن جعفر بن أبي طالب . ثم ولى عثمان بعده سعيد بن العاص ، فاستبد بالأموال وعبث بها ، وأساء السيرة ، وذكروا أنه كتب مرة إلى عثمان يقول : « إنما هذا السواد قطين لقريش ، فرد عليه الأشتر بن الحارث النخعي : أتجعل ما أفاء الله علينا بظلال سيوفنا ومراكز رماحنا بستاناً لك ولقومك ؟ » [٣] فقدم

(١) ابن الأثير ، ج ٣ ص ١٠٧
(٢) المسعودي ، ج ٢ ص ٣٣٦ ـ ابن الأثير ، ج ٣ ص ١٠٧
(٣) نفس المصدر ، ص ٣٣٧ ابن الاثير ج٣ ص١٣٨

الأشتر النخعي في سبعين رجلا من أهل الكوفة إلى عثمان ، وأبلغوه سوء سيرة سعيد بن العاص ، وطالبوا عثمان بعزله عنهم ، فكره عثمان أن يعزله ، ولكنه اضطر إلى ذلك اضطراراً ، فولى أهل الكوفه على أنفسهم أباموسى الأشعري[١].

كذلك استبد عبدالله بن سعد بن أبي السرح بأهل مصر وأساء اليهم ، فشكاه جماعة منهم إلى عثمان ، فأمره عثمان بأن يحسن معاملتهم ، ولكن عبدالله بن سعد أبى أن يقبل ما نهاه عنه عثمان ، وضرب بعض من أتاه من قبل عثمان فقتله[٢] .

تصرفات عثمان الشخصية :

لم يقتد عثمان بالشيخين في سياستهما التقشفية ، فكان يلبس الخز والطيلسان وفاخر الثياب ، فأين ذلك من زهد عمر وتقشفه عندما كان يلبس وهو خليفة جبة من صوف مرقوعة بعضها بأدم ويطوف في الأسواق وعلى عاتقه الدرة يؤدب بها الناس[٣] . ويذكر المؤرخون أنه شد أسنانه بالذهب[٤] ، وكان يأكل ألين الطعام من الدرمك الجيد (الدقيق المنخول) وصغار الضأن[٥]. صحيح أنه كان يأكله من ماله الخاص إذ كان أكثر قريش مالاً وأجدهم في التجارة ، ولكنه بحكم منصبه كخليفة للمسلمين كان عليه أن يصطنع الزهد ليكون مثلاً للأمة الاسلامية ، ولذلك أخذ عليه أبو ذر الغفاري إقباله على الدنيا ، وكان أبو ذر يذهب إلى أن المسلم لا ينبغي له أن يكون في ملكه أكثر من قوت يومه

---

(١) المسعودي ، ج ٢ ص ٣٣٨

(٢) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ١٤٧

(٣) ابن الأثير ، ج ٣ ص ٦٠ ـ السيوطي ، ص ١٢٠

(٤) اليعقوبي ، ج ٢ ص ١٧٦ ـ ابن عبد البر ، ج ٤ ص ١٠٤٢ ـ ابن الأثير ، أسد الغابة ، ، ج ٣ ص ٣٨٣ ـ السيوطي ، ص ١٤٠

(٥) الطبري ، ج ٥ ص ١٣٦

وليلته أو شيء ينفقه في سبيل الله أو يعده لكريم ، ويأخذ بظاهر القرآن (الذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم)[١]. فكان يقوم بالشام ويقول: «يا معشر الأغنياء واسوا الفقراء» بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاو من نار تكوي بها جباههم وجنوبهم وظهورهم » ، فما زال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك وأوجبوه على الأغنياء [٢] ، فأمر عثمان معاوية بنفيه إلى الربذة من أعمال المدينة ، فنفي إليها وأقام بها حتى توفي في سنة ٣٢ هـ.

وذكروا أن عثمان اتخذ الضياع والأموال من مال المسلمين، واتهموه بأنه إذا أجاز أحداً من أهل بيته بجائزة جعلها فرضاً من بيت المال [٣] . وذكروا أيضاً بأنه عندما زوج ابنته من عبدالله بن خالد بن أسيد أمر له بستمائة ألف درهم ، وكتب إلى عبدالله بن عامر يأمره بأن يدفعها إليه من بيت مال البصرة [٤] ، كما أخذ الناس عليه أنه كتب لابن عمه مروان بن الحكم بخمس غنائم افريقية التي غنمها المسلمون في سبيطلة [٥] . وعلى الرغم من أن عثمان أمر ابن أسيد بردخمسين ألف دينار، ومروان بن الحكم برد ١٥ ألف دينار إلى بيت المال ، فإن ذلك لم يحدث إلا بعد أن أرغمه الصحابة على ذلك [٦] .

وكان عثمان عاطفياً فهو بالإضافة إلى ضعفه من جهة قرابته رجل شديد التأثر تغلب عليه العاطفة ، إلى حد أنه أهدر دم الهرمزان الذي قتله عبيدالله بن عمر ظلماً ، فلم ينفذ فيه الشرع ويقتله ، عندما سمع بعض المهاجرين يقول :

---

(١) القرآن الكريم ، سورة التوبة ٩ آية ٣٤
(٢) الطبري ، ج ٥ ص ٦٦ - ابن الأثير ، ج ٣ ص ١١٤
(٣) اليعقوبي ، ج ٢ ص ١٦٨ ، ١٧٤
(٤) نفس المصدر ، ج ٢ ص ١٦٨
(٥) ابن قتيبة ، ص ٣٣ ـ اليعقوبي ، ص ١٦٦ ـ السيوطي ، ص ١٤٦
(٦) ابن الأثير ، ج ٣ ص ١٥٧

« أيقتل أبوه بالأمس ويقتل هو اليوم؟» ، وكان عمر بن الخطاب قد أمر قبل وفاته بسجن ولده ليحكم فيه الخليفة من بعده، فلما تولى عثمان خلى سبيل عبيدالله، ودفع لذوي القتلى ديات من ماله[1] ، ولم يغفر المسلمون لعثمان تساهله في هذه القضية وأكثروا الحديث في المطالبة بدم الهرمزان الذي قتل ظلماً ، وتقاعس عثمان عن محاكمة قاتله ، بل وسعيه على أن يفلت بنفسه فيبعث به إلى الكوفة[2].

ومن الأمور التي أخذت على عثمان أنه تجاوز الخيزران والدرة إلى السوط، وانه أول من استخدم السوط لضرب ظهور الناس ، وكان الخليفتان أبو بكر وعمر يأمران باستخدام الدرة والخيزران ، وزعموا بأنه أمر بضرب عمار بن ياسر عندما تجرأ عليه بدفع كتاب كتبه عشرة من أصحاب رسول الله إلى عثمان ينكرون فيه سياسته ، فضربه من كان في حضرته من بني أمية ، وضربه عثمان معهم « حتى فتقوا بطنه فغشي عليه ، فجروه حتى طرحوه على باب الدار »[3] . وذكروا أيضاً أنه أساء إلى ضابيء بن الحارث البرجمي ، فعزره وحبسه حتى مات في السجن[4] ، كما أساء إلى عبدالله بن مسعود عندما امتنع ابن مسعود وهو بالكوفة عن دفع مصحفه إلى عبدالله بن عامر ، فأمر عثمان باستقدامه إلى المدينة ، فقدم إليها ، فأمر به عثمان فجر برجله حتى كسر له ضلعان ، ثم منعه عطاءه ، فاعتل ابن مسعود بعدها وأقام مغاضباً لعثمان حتى توفي[5] ، ولم يغفر بنو المغيرة — وكان عمار بن ياسر يرتبط معهم برابطة الحلف — لعثمان سوء معاملته لعمار[6] ، كما لم ينس بنو هذيل وبنو زهرة

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ٧ ص ١٤٩

(٢) اليعقوبي ، ج ٢ ص ١٦٤

(٣) ابن قتيبة ، ص ٣٤

(٤) ابن الأثير ، ج ٣ ص ١٨٣

(٥) اليعقوبي ، ج٢ ص ١٧٠

(٦) ابن قتيبة ، ص ٣٤

لعثمان هناته لابن مسعود [١] .

وروى بعضهم أن عثمان أجاز الرجم ، وذلك أن امرأة من جهينة ولدت لستة أشهر من زواجها ، فأمر عثمان برجمها ، فلما أخرجت من حضرته لتنفيذ الحكم ، دخل عليه علي بن ابي طالب ، فقال : « إن الله عز وجل يقول وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ، وقال في رضاعـه حولين كاملين » ، فأرسل عثمان في أثر المرأة ولكن بعد فوات الأوان [٢] .

ومن المآخذ التي أخذوها عليه أنه استعمل أقرباءه وأهل بيته في السنين الست الأخيرة من خلافته ، فاستعمل مروان بن الحكم على المدينة وزوجه بنته ، وعزل عمرو بن العاص عن مصر وولى مكانه عبدالله بن سعد أخاه في الرضاع ؛ وعزل أبا موسى الأشعري عن البصرة وأقام مكانه عبدالله بن عامر ابن خـال عثمان وكان عمره يومئذ ٢٥ عاماً ، وعزل المغيرة بن شعبة عن الكوفة وجعـل مكانه سعد بن أبي وقاص ثم عزله بعد سنة وولى مكانه الوليد بن عقبة أخـا عثمان لأمـه ، ثم عزل الوليد ونصب مكانه سعيد بن العاص وهو من أقربائه . وللأسف أن معظم من أقامـه على الأمصار كان فاسداً استغلوا قرابتهم لعثمان في الاستبداد وسوء السيرة ، بينما عزل رجالاً أكفياء أثبتوا قدرتهم في القيادة والإدارة مثـل عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وأبو موسى الأشعري ، وقد كان لهذا التصرف أكبر الأثر في تحريك عوامل السخط عليه في الأمصـار الاسلامية ، وتنمية روح العداء عليه في قلوب المسلمين .

---

(١) السيوطي ، ص ١٤٧

(٢) اليعقوبي ، ج ٢ ص ١٧٤

حركة السبئية :

هم أتباع عبدالله بن سبأ ، وكان يهودياً من أهل صنعاء ثم أسلم في الظاهر نفاقاً وذلك في زمن عثمان للكيد للإسلام ، وبث الفرقة بين المسلمين . عمد ابن سبأ إلى تأليب الأمصار على عثمان مستهدفاً إشعال نار الفتنة لصرف المسلمين عن أعمال الإصلاح والبناء والتشييد إلى تدمير الرباط المتين الذي كان يربطهم منذ أن قامت الدولة العربية الاسلامية في زمن النبي ﷺ ،وكان من أسباب انتصار المسلمين على دولتي الروم والفرس ، فأخذ يطوف بأقاليم الدولة العربية ملتمساً انضمام أصحاب النفوس الضعيفة إلى زمرتـــه ، ويحاول ضلالتهم ونثر بذور الفتنة . فبدأ بالحجاز ثم البصرة فالكوفـة فالشام ، ولم يستطع في الشام أن يحقق أهدافه لانضواء أهلها تحت لواء معاوية ، فأتى إلى مصر وهناك وجـد الطريق ممهداً أمامه للثورة على عثمان ، فأخذ ينشر تعاليمه الهدامة ومبادئـــه السامة في النفوس ، فذهب إلى القول بمذهب الرجعـة أي رجوع الرسول مرة أخرى ، مستنداً في ذلك على قوله تعـالى عز وجل : (إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) ، كما قال بالوصاية ، ويذهب في ذلك إلى أن علياً كان وصي محمد، ولما كان محمد خاتم الأنبياء ،فعلي خاتم الأوصياء، واتهم عثمان بأنه انتزع من علي حقه،لأنه لم يجز وصية الرسول،وأخذيحرض المصريين على الثورة على عثمان، ودعاهم إلى النهوض في هذا الأمر وتحريكه والبدء بالطعن على أمرائهم مع التظاهر بالقول بالمعروف والنهي عن المنكر بغية استمالة الناس ، فاستجاب له عدد كبير من أهل مصر [١] ، فبث دعاته في سائر الأمصار يؤلبون المسلمين على عثمان ، وكاتب من كان قد استفسد منهم وكاتبوه ، ودعوا في السر إلى ما عليه رأيهم ، وأخذوا يكتبون إلى الأمصار كتباً تتضمن عيوب ولاتهم . وكان عثمان يجهل هذه الحركة ، ولكنها وصلت إلى مسامع الصحابة بالمدينه ،فأبلغوها

---

(١) الطبري ، ج ٥ ص ٩٨ ، ابن الأثير ، ج ٣ ص ١٥٤

عثمان فسألهم المشورة،فأشاروا عليه بأن يبعث رجالاً ممن يثق بهم إلى الأمصار للتحقيق في ذلك ، فأرسل محمد بن مسلمة إلى الكوفة ، وسيّر أسامة بن زيد إلى البصرة ، وعمار بن ياسر إلى مصر وعبدالله بن عمر إلى الشام . أما عمار فقد استماله السبئية فبقي بمصر وانضم إلى حركتها السرية [١].

وكان لا بد لعثمان من الاجتماع بعماله ، لبحث القضية في حضورهم ، فبعث يستقدمهم إليه ، فقدموا عليه ، وهم : عبدالله بن عامر ومعاوية بن أبي سفيان وعبدالله بن سعد . وأدخل عثمان معهم في المشورة سعيد بن العاص وعمرو بن العاص ، وسألهم عثمان عن حقيقة الأوضاع في الأمصار .وعما أشيع فيها من من مساوىء العمال ، فأجمعوا على أنها فرية وأراجيف مفرضة لا هدف من ورائها سوى إثارة الفتنة . فلما تحقق عثمان من ذلك ورحل عماله، بقي معاوية، فعرض على عثمان أن يصحبه معه إلى الشام خوفاً من أن يتركه وحيداً في المدينة فيهاجمه من لا طاقة له بهم ، ولكن عثمان أبى أن يرحل من المدينة دار الهجرة .

ولقد نجحت السبئية فعلاً في تحقيق أهدافها من إثارة الفتنة التي انتهت بالاطاحة بحكم عثمان ، وراح الخليفة المظلوم ضحية هذه المؤامرة .

قضية وفد مصر :

في سنة ٣٥ هـ خرجت جماعات من الثوار على عثمان من مصر والكوفة والبصرة إلى المدينة لتطالبه بالإصلاح ، وكان هذا التصرف يعني تدخلاً صريحاً من الأمصار في أمور السياسة العليا واجتراء على هيبة الخلافة . وتفصيل الأمر أنه لما انصرف عمال عثمان من المدينة عائدين إلى مراكز أعمالهم انفرد معاوية بعثمان، ودعاه إلى الخروج معه إلى الشام قبل أن يستفحل خطر الثوار،

---

(١) الطبري ، ص ٩٩ ـ ابن الاثير ، ج ٣ ص ١٥٥

ويتجرأوا على مهاجمته ، فأبى عثمان أن يبيع جوار رسول الله بشيء وإن كان خيط عنقه ، فعرض عليه معاوية أن يبعث إليه جنداً من أهل الشام يقيمون في المدينة للدفاع عنه ، عدتهم أربعة آلاف فارس «يكونون له رداء» [١]، فاعترض عثمان على هذا العرض أيضاً بحجة أنه لا يرغب في التضييق على أهل المدينة بهؤلاء الجند ، كما انه لا يقبل أن يقتّر على جيران الرسول الأرزاق بجند يساكنهم . فلما يئس معاوية من إقناعه برأيه أخذ يتأهب للقفول إلى دمشق ، وقبل أن يرحل خرج وهو في ثياب السفر وقابل نفراً من المهاجرين فيهم علي وطلحة والزبير ، فأوصاهم بعثمان ، ثم هددهم قائلاً : « فو الله لئن قتل بين أظهركم لأملأنها عليكم خيلاً ورجالاً » [٢] ، ثم مضى إلى غايته [٣] .

وكان السبئية قد تضامنوا فيما بينهم وأجمعوا على الوثوب على عثمان في الأمصار جميعاً في يوم واحد مستغلين اجتماع عمالهم في المدينة ، غير أن ثورتهم لم يتهيأ لها أن تتحقق إما لاختلافهم في الرأي أو لاحتراز نواب العمال منهم ، ومع ذلك فقد اتفقوا مع من تبعهم من سكان الأمصار الساخطين على عثمان على السير إلى المدينة في وفود ضخمة ، لمواجهة عثمان بما أخذوه عليه من مآخذ ، وسؤاله عن أشياء لتطير في الناس [٤] . فخرج وفد في خمسمائة وقيل في ألف ومعهم عبد الرحمن بن عُديس البلوي ، وقدم معهم محمد بن أبي بكر أحد زعماء الفتنة في مصر ، كما خرج كل من وفدي البصرة والكوفة في مثل هذا العدد ، وذلك في شوال من سنة ٣٥هـ ، وزعم هؤلاء الوافدون أنهم يريدون أداء العمرة ، حتى لا يستعد الخليفة لردهم . ولكنهم نزلوا المدينة وحاصروها

---

(١) ابن قتيبة ، ص ٣٤

(٢) نفسه ، ص ٣١

(٣) ابن الأثير ، ج ٣ ص ١٥٨

(٤) نفس المصدر ، ص ١٥٨

فلزم أهل المدينة بيوتهم ، ثم توسط علي بن أبي طالب بين عثمان ووفد مصر ، وأخبرهم بأن عثمان قد تاب ، فسأله أهل مصر أن يعزل عبدالله بن سعد ويقيم مكانه محمد بن أبي بكر ، فأبلغ علي عثمان بذلك ، وأقنعه به ، فكتب عهده وولاه ، فعاد وفد مصر ومعهم ثلاثون نفراً من المهاجرين والأنصار للنظر فيما يمكن أن يحدث بين ابن أبي سرح وأهل مصر [١] .

ثم أعلن عثمان أمام وفدي العراق بأنه تاب ، وقال : « أنا أول من اتعظ ، أستغفر الله مما فعلت وأتوب إليه ، فمثلي نزع وتاب ، فإذا نزلت فليأتني أشرافكم فليروا فيّ رأيهم ، فوالله لئن ردني الحق عبداً لأستنن بسنة العبد ، ولأذلن ذل العبد ، وما عن الله مذهب إلا إليه ، فوالله لأعطينكم الرضا ولأنحين مروان وذويه ولا أحتجب عنكم » ، ثم بكى ، فرقّ الناس وبكوا حتى اخضلوا لحاهم [٢] .

ولكن هذا الأثر الطيب الذي أحدثته خطبة عثمان لم يلبث أن تبدد وتلاشى عندما خرج مروان بن الحكم وخطب في قوم قدموا على باب عثمان ، فقال : « ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم قد جئتم لنهب ؟ شاهت الوجوه ألا من أريد ؟ جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا ، اخرجوا عنا ، والله لئن رمتمونا ليمرن عليكم منا أمر لا يسركم ولا تحمدوا غب رأيكم . ارجعوا إلى منازلكم فإنا والله ما نحن بمغلوبين على ما في أيدينا » [٣] .

ثم حدث أن عاد وفد مصر إلى المدينة حانقاً على عثمان ، وسبب ذلك أنهم لما شرعوا في القفول إلى مصر بعد أن ظفروا بعهد من عثمان بتولية صاحبهم محمد بن أبي بكر ، وأصبحوا على مسيرة ثلاثة ليال من المدينة إذا هم بغلام أسود على

---

(١) ابن قتيبة ، ص ٣٩

(٢) ابن الأثير ، ج ٣ ص ١٦٤

(٣) نفس المصدر ، ص ١٦٥

بعير يخبطه كالوكان يودالفرار.فاستوقفه القوم وفتشوه فوجدوا معه كتاباًصادراً من عثان إلى عبدالله بن سعد،فقرأوا الكتاب في حضورجماعة المهاجرين والأنصار فألفوا مكتوباً به : « إذا أتاك محمد بن أبي بكر وفلان وفلان فاقتلهم وأبطل كتابهم وأقر على عملك حتى يأتيك رأيي » [١] . فانزعجوا لذلك وأقبلوا حتى قدموا المدينة ، وقرأوا الكتاب في محضر من الصحابة ، فلم يبق أحد من أهل المدينة إلا وقد حنق على عثان ، ومضى علي إليه وواجهه بما ورد في الكتاب ، فأقسم بالله أنه ما كتبه قط ولا علم له به . وكان وفدا العراق ما زالا يحاصران دار عثان ، فانضم إليهم المصريون ، وأحكموا الحصار على الدار، ومنعوا عثان الماء والخروج هو ومن كان معه [٢] .

وبالاضافة إلى الأسباب سالفة الذكر نضيف أسباباً أخرى سياسية من بينها : — إحساس المسلمين في الأمصار الإسلامية بأن عثان انتزع من علي حقه في الخلافة ، ولا شك أن علي بن أبي طالب كان يتمتع بشعبية كبيرة في العراق ومصر لقرابته الوثيقة برسول الله ولأنه زوج فاطمة بنت النبي ووالد الحسن والحسين سبطي الرسول ، ثم إن أهالي الأمصار الاسلامية كانوا ينظرون إلى نظام الشورى على أنه سلاح قصد به إقصاء علي من الخلافة ، وهذا يفسر نجاح حركة السبئية وانتصارها في العراق ومصر . اما الشام فقد كانت تربطه ببني أمية صلات تجارية وثيقة للغاية منذ العصر الجاهلي ، فكانت قوافل أبي سفيان وأبي أحيحة تتردد على البلقاء وجنوب الشام ، وقد أدرك رسول الله طبيعة هذه الصلات والروابط بين أهل

---

(١) ابن قتيبة ، ص ٣٩ . وذكر ابن الأثير أن عثمان كتب إلى عبدالله بن سعد يأمره بجلد عبد الرحمن بن عديس وعمرو بن الحمق وعروة بن البياع وحبسهم وحلق رؤوسهم ولحاهم وصلب بعضهم (ابن الأثير ج ٣ ص ١٦٨) وذكر الطبري أنه جاء في الكتاب على لسان عثمان وعليه خاتمه إلى عامله على مصر أن يصلبهم أو يقتلهم أو يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف (الطبري ، ج ٥ ص ١٠٨ — اليعقوبي ، ج ٢ ص ١٧٥)

(٢) ابن قتيبة ، ص ٣٩

الشام وبني أمية ، فاستعان بعمال من بني أمـــية ممن عرفوا بنفوذهم الواسع في المناطق الواقعة شمالي الحجاز تمهيداً لضم هذه البلاد للدولة العربية ، فجعل عمرو ابن سعيد بن العاص على أهل وادي القرى : تيماء وخيبر وفدك وتبوك [١] ، وبعث عمرو بن العاص إلى أرض عمان بالقرب من الشام حيث كان ينزل اقوام من بلي وعذرة ، وكانت تربط عمرو بهؤلاء العرب صلات من القرابة [٢] ، ونجحت سياسة الرسول ، بدليل أن قبائل بلي وعذرة [٣] اشتركت في صفوف المسلمين يوم مؤته [٤] . واشترك بنو أمية في حروب الشام اشتراكاً فعلياً وقتل منهم عدد كبير ، كما اشتركت بعض نسائهم في اليرموك ، وحارب أبو سفيان نفسه كمقاتل تحت قيادة ابنه يزيد ، ولذلك اكتسب بنو أمية أدبيـاً في حروب الشام وأصبحوا موضع ثقة الخليفتين أبي بكر وعمر ، كما نجحوا في الاستئثار بحكم الشام ، فعندما توفي يزيد عهد عمر بن الخطاب إلى معاوية بإدارة ما كان خاضعاً ليزيد من بلاد الشام ، ثم ضم إليه ولاية الأردن ، وفي خلافـــة عثمان عهد معاوية إلى تثبيت السلطان الأموي على الشام وشجعه عثمان على ذلك إذ أطلق له العنـــان في إدارة الشام كلها .

ومن الاسباب السياسيه أيضاً حسد القبائل العربية لقريش لما اصابها من ثراء ولما كانت تتمتع به من نفوذ سياسي : فالخلافة استأثرت بها قريش ، وأكثر اموال العطاء كانت تقرض القرشيين ، ولهذا أخذت هذه القبائل تعلن سخطها على قريش خاصة بعد أن شهدت انقسام قريش على نفسها بين أمويين وهاشميين [٥] ،

---

(١) البلاذري ، ج ١ ص ٤٠

(٢) كانت أم عمرو من بلي

(٣) ابن الأثير ، ج ٢ ص ٢٣٢

(٤) كان على ميمنة المسلمين قطبة بن قتادة العذري

(٥) الدوري ، مقدمة ، ص ٥٧

وليس أدل على ذلك مما رواه ابن الاثير إذ ذكر انه كان يسمر عند سعيد بن العاص وجوه أهل الكوفة ، فقال سعيد : « إنما هذا السواد بستان قريش » فقال الاشتر النخعي : « أتزعم ان السواد الذى أفاءه الله علينا بأسيافنا بستان لك ولقومك ؟ » . وكان رد القوم على سعيد سبباً في انه منعهم من السمر عنده ابداً ، ولذلك كانوا يجلسون في مجالسهم يشتمون عثمان وسعيداً ، وما زال سعيد يسعى إلى إخراجهم من الكوفة حتى نجح في إلحاقهم بمعاوية . فسألهم معاوية يوماً عن سبب نقمتهم على قريش فانه لو لم تكن قريش لكانوا أذلة ، فرد عليه رجل منهم اسمه صعصعة : « أما ما ذكرت من قريش فانها لم تكن أكثر العرب ولا أمنعها في الجاهلية فتخوفنا... » فرد عليه معاوية معظماً لقريش وفضلها في الجاهلية وفي الاسلام ، وسبه وسب قريته ، وقال له في النهاية : « أما أنت يا صعصعة فان قريتك شر القرى ، أنتنها بيتاً ، وأعمقها وادياً وأعرفها بالشر والأمها جيراناً . حتى إذا أبرزك الاسلام وخلطك بالناس أقبلت تبغي دين الله عوجاً ، وتنزع إلى الذلة ، ولا يضر ذلك قريشاً ولا يضعهم ولن يمنعهم من تأدية ما عليهم .. »[1] .

— ٣ —

مقتل عثمان

١ — مطالبة الثوار بعزل عثمان وإبانه :

دخل وفد مصر برئاسة عبد الرحمن بن عديس على عثمان ، فلم يسلموا له بالخلافة ، ثم تحدث رئيس الوفد فذكر ما فعله ابن سعد بالمسلمين وأهل الذمة من

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣ ص ١٣٨ — ١٤٤

استئثاره بالغنائم ، ثم ذكر قدومهم بنية قتل عثمان لولا أن توسط علي ومحمد بن مسلمة بينهم وبينه ، وأنهما ضمنا لهم تحقيق مطالبهم ، ولما عادوا في طريقهم إلى بلدهم رأوا غلام الخليفة ومعه كتاب عثمان وعليه خاتمه إلى عبدالله بن سعد يأمره فيه بجلدهم والمثلة بهم . فقاطعه عثمان وأقسم أنه ما كتب ولا أمر ولا علم، فردوا عليه قائلين : « ما أنت إلا صادق أو كاذب ، فان كنت كاذباً فقد استحققت الخلع لما أمرت به من قتلنا بغير حق، وإن كنت صادقاً فقد استحققت أن تخلع نفسك لضعفك عن هذا الأمر وغفلتك وخبث بطانتك ، ولا ينبغي لنا أن نترك هذا الأمر بيد من تقطع الأمور دونه لضعفه وغفلته . فاخلع نفسك منه كما خلعك الله »[1] . فمارضهم عثمان وأبى أن يخلع نفسه وقال : « لا أنزع قميصاً ألبسنيه الله ، ولكني أتوب وأنزع » ، فأجابوه بأنها لو كانت التوبة الأولى لكان في إمكانهم قبولها ، ولكنهم رأوه يتوب ثم يعود ، وأعلنوا عن تصميمهم على موقفهم وعدم استعدادهم للعودة إلا بخلعه أو قتله أو الإستشهاد . فلما رأى علي ابن أبي طالب منهم ذلك الإصرار أخرجهم ، ثم مضى إلى داره . فكتب عثمان إلى معاوية بن أبي سفيان وابن عامر وامراء الاجناد يستنجدهم، ويأمرهم بالمبادرة بارسال الجنود إليه . وكتب إلى معاوية هو بالشام كتاباً جاء فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد : فان أهل المدينة قد كفروا وأخلفوا الطاعة ونكثوا البيعة ، فابعث إلى من قبلك من مقاتلة أهل الشام على كل صعب وذلول »[2] . فلما وصل الكتاب إلى معاوية لم يبادر بنجدته ، وكره إظهار خروجه على ما أجمع عليه الصحابة[3] ، ولعله كان يهدف من وراء ذلك أن يترك عثمان دون

---

(١) ابن الأثير ، ج ٣ ص ١٦٩

(٢) الطبري ، ج ٥ ص ١١٦ — ابن الأثير ، ج ٣ ص ١٧٠

(٣) نفس المصدر

نصرة فيقتله الثوار ، وعندئذ يتولى معاوية المطالبة بدمه مستنداً في ذلك على أهل الشام ، ويتخذ من المطالبة مبرراً لمحاربة من يتولى الخلافة من بعده ، بغية أن تؤول الخلافة إليه ، وسواء انتهت هذه الحرب بتغلبه على خصومه المستقبلين وظفره بالخلافة أو انتهت على عكس ذلـك فهو على الاقل كان ينوي الاحتفاظ ببلاد الشام لنفسه . فلما أبطأ أمر معاوية على عثمان كتب إلى يزيد بن أسد بن كرز القسري وإلى أهل الشام يستنفرهم ويعظّم حقه عليهم، ويسألهم المبادرة السريعة إلى نجدته . ولم يتردد يزيد القسري في تلبية ندائه ، فجمع حشداً من الناس وسار إلى المدينة ، فلم يكد يصل إلى وادي القرى حتى بلغه نبأ مقتل عثمان ، فعاد بجموعه من حيث أتى .

كذلك أرسل عثمان نسخة من كتابه السابق الى عبدالله بن عامر يأمره بندب أهل البصرة لنجدته ، فلبى أهل البصرة نداء عثمان ، وخرج حشد كبير منهم بقيادة مجاشع بن مسعود ، فما كاد يصل الى الربـــذة وصرار حتى أتاه نعي عثمان [١] .

ولما استبطأ عثمان وصول النجدات من الشام ومن البصرة أشار عليه نصحاؤه بأن يطاول القوم حتى تأتيه النجدات ، فاستدعى علياً إليه ، فسأله أن يحميه من جمهور الأمصار على أن يحقق لهم ما يريدون ، فرد عليـه علي بأنه سبق أن أعطاهم عثمان عهداً ثم نكث به ،وأنهم لم يعودوا يثقون في عهوده بعد ذلك. ومع ذلك فقد خرج علي إلى الناس وطلب منهم أن يمهلوا عثمان ثلاثة أيام حتى يحقق لهم مطالبهم ، فكف الناس عنه . وفي أثناء ذلك أخذ عثمان يستعد بالسلاح، واتخذ جنداً ، فلما انتهى الأجل ولم يحقق الإصلاح المطلوب اشتدغضب الناس عليـــه

---

(١) الطبري ، ج ٥ ص ١١٦

وانضم إليهم جماعة من أهل المدينة ، وكان أكثر الناس تأليباً عليه طلحة والزبير وعائشة [١] ، وطالبوا عثمان من جديد بأن يعزل عماله ويرد مظالمهم أو يخلع نفسه أو يقتلوه . فرفض عثمان أن يرغموه على عزل عماله ففي ذلك إضعاف لهيبة الخليفة وإنقاص من مكانته ، ورفض أن يخلع نفسه قائلا : « لا أنزع سربالا سربلنيه الله » [٢]. فعزم القوم على قتله إذ خافوا أن تأتيه نجدات من الشام والبصرة وغيرها ويأتيه الحجاج فيهلكوا [٣] ، فشددوا عليه الحصار ، وتولى الدفاع عن باب داره نحو مائة نفر على رأسهم الحسن بن علي وابن عباس ومحمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن سلام ومروان بن الحكم وأبو هريرة .

ب استشهاد عثمان :

منع الثوار الماء عن عثمان وأهل بيته ، ولكن علي بن أبي طالب وأم حبيبة زوج رسول الله كان يبعثان إليه الماء ، فمنعهما الثوار ، ولم يعد يسقيه سوى آل حزم جيرانه في الغفلات. وعز على عثمان أن يمنع الناس الماء عنه ، فأشرف عليهم ورجاهم ألا يمنعوا الماء عنه وهو الذي كان قد اشترى بئر رومه من ماله ليستعذب بها [٤] ، كما رجاهم ألا يمنعوه من الصلاة في جامع الرسول ، وهو الذي اشترى

---

(١) اليعقوبي ، ج ٢ ص ١٧٥. وذكروا أن عائشة كرهت عثمان وكانت بينها وبينه منافرة لأنه أنقصها مما كان يعطيها عمر بن الخطاب وجعلها مثل غيرها من نساء النبي. وذكروا أيضاً أنها سمعته يخطب يوماً في المسلمين، فأدلت قميص رسول الله ونادت : « يا معشر المسلمين ، هذا جلباب رسول الله لم يبل وقد أبلى عثمان سنته » ، وعندما اشتد هياج الحاصرين لدار عثمان عليه ، التمس مروان بن الحكم منها أن تصلح ما بين عثمان وبين المسلمين ، فقالت : « قد فرغت من جهازي وأنا أريد الحج » . ثم تمنت أن تراه مقطعاً في غرارة من غرائرها (راجع اليعقوبي ، ج ٢ ص ١٧٥ ، ١٧٦)

(٢) الطبري ، ج ٥ ص ١١٧ ـ ابن الاثير ، ج ٣ ص ١٧١

(٣) ابن الاثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ص ٣٨٣ (طبعة طهران)

(٤) ابن عبد البر ، الاستيعاب ، قسم ٣ ص ١٠٣٩ ـ ابن الاثير ، الكامل ، ج ٣ ص ١٧٣

موضع خمس سوار زادها في المسجد في حياة الرسول[١] . وبينما كانت وفود مصر والعراق وجماعة من أهل المدينة يحاصرون عثمان إذ أتاهم آت ينذرهم بأن معاوية قد بعث من الشام يزيد بن أسد القسري مدداً لعثمان أربعة آلاف من خيل الشام ، كما بلغهم أن الحجاج الذين قدموا من أطراف الجزيرة لأداء مناسك الحج يريدون قصدهم والدفاع عن عثمان ، فلما سمعوا ذلك عزموا على حسم الأمر بقتله ، فقوبلوا عند باب دار عثمان بمقاومة عنيفة ، من أبناء الصحابة والمدافعين عن عثمان ، وكثرت جراح هؤلاء وسقط مروان جريحاً في رقبته ، فخاف الثوار أن يطول بهم الأمر للتغلب على حراس الباب ، فأشعلوا النار بالباب وعلى السقيفة المتصلة به[٢] .

ولما علم عثمان بذلك وبما تعرض له أبناء الصحابة الذائدون عنه من سيوف الثوار طلب منهم أن يكفوا عن الدفاع عنه ويعودوا إلى بيوتهم إشفاقاً عليهم من القتل ، ولكنهم أصروا على البقاء للدفاع عنه ، ثم دخل عليه المغيرة بن شعبة وعرض عليه أن يفتح له خوخة فيخرجه إلى مكة أو ليلحق بالشام ، ففيها معاوية وأنصار عثمان من أهل الشام ، فأبى عثمان أن يخرج من دار الهجرة[٣] .

وفي هذه الأثناء اصيب عدد من أبناء الصحابة بجراح بالغة ، وأصاب الحسن ابن علي سهم فخضبه الدم ولطخ وجهه وثيابه بالدماء ، فخشي محمد بن أبي بكر أن يغضب بنو هاشم للحسن فيهبوا لنصرة عثمان ، وبذلك تنتهي حركة الأمصار بالفشل ، ويذكر ابن قتيبة أنه اقترح على صاحبيه أن يتسوروا على عثمان فيقتلوه دون أن يعلم احد ، فاقتحم الناس دار عثمان من دار عمرو بن حزم الملاصقة لدار عثمان حتى ملأوها دون أن يشعر بهم احد من المدافعين عن عثمان بذلك ، ولم

---

(١) ابن عبد البر ، ص ١٠٤٠

(٢) ابن قتيبة ، ص ٤٠ ـ الطبري ، ج ٥ ص ١٢٣ ـ ابن الاثير ، ج ٣ ص ١٧٥

(٣) ابن قتيبة ، ص ٤١ ـ السيوطي ، ص ١٥١

يكن مع عثمان سوى امراته نائلة بنت الفرافصة ، فدخل عليه محمد بن ابي بكر وأخذ بلحيته ، وهزها بيده وقال : « يا نعثل ، ما أغنى عنك بمعاوية ، وما أغنى عنك ابن عامر ، وابن أبي سرح » ، فقال له عثمان : « لو رآني أبوك رضي الله عنه لبكاني ولساءه مكانك مني » ، فتراخت يد ابن أبي بكر عنه [١] .

وأيقن عثمان أنه هالك لا محالة فأخذ مصحفاً فوضعه على حجره ليتحرم به [٢] ، ثم دخل عليه رجل من الكوفة بمشقص في يده فوخز به منكبه مما يلي الترقوة فأدماه ، وجاء آخر فضربه برجله ، وجاء ثالث فوجأه بقائم سيفه فغشي عليه ، فتصايحت نساؤه ورششن الماء على وجهه ، فلما أفاق أقبل رجل من أهل مصر فأخذ بلحيته وانتزع منها خصلة وعلاه بالسيف ، فتلقاه عثمان بيده ، وضربه كنانة بن بشر التجيبي بعمود على جبهته [٣] . ثم دخل سودان بن حمران فسل سيفه وهوى به على عثمان ، فأكبت امرأته نائلة واتقت السيف بيدها ، فقطع أصابعها [٤] ، ومضى السيف في حبل عاتقه فقتله ، وقيل قتله كنانة بن بشر التجيبي . وذكر المسعودي أن عمرو بن الحمق وثب على صدر عثمان — وكان به رمق — فطعنه تسع طعنات وأجهز عليه ، ومال عليه عمير بن ضابيء وخضخض السيف في أحشائه [٥] . وأراد بعضهم قطع رأسه فوقعت نائلة

---

(١) ابن قتيبة ، ص ٤٥ — ابن عبد البر ، الاستيعاب ، ج ٤ ص ١٠٤٥ — المسعودي ، ج ٢ ص ٣٤٥ — ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ٣ ص ١٧٨ — السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ١٥٠

(٢) ابن قتيبة ، ص ٤٥

(٣) المسعودي ، ج ٢ ص ٣٤٦

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٣ ص ١٧٨

(٥) المسعودي ، ج ٢ ص ٣٤٦

وأم البنين عليه وصاحتا ، فتركوه . وكان قتله في ١٨ ذي الحجة سنة ٣٥ هـ [١].

ولما بلغ الخبر علياً وطلحة والزبير وسعداً ومن كان بالمدينة من كبار الصحابة بهتوا ، فدخلوا عليه وأكبوا على جثته يبكونه ويعولون حتى غشي على علي . ولما افاق عنّف ولديه لتفريطهما في الدفاع عن عثمان ، وقيل لطم الحسن . وبقي عثمان ثلاثة أيام لا يدفن ، ثم تولى دفنه علي وطلحة وجماعة من الصحابة ، وأخرج نفر من الصحابة جثته على لوحة باب ودفنوه بحسر كوكب أو حش كوكب [٢] . وكتبت نائلة إلى معاوية تصف مقتل عثمان وما صنع به ابن أبي بكر ، وأرسلت قميص عثمان ملطخاً بالدم ممزقاً ، والخصلة التي انتزعت من لحيته وبعثت ذلك مع النعمان بن بشير الأنصاري ، فمضى بالقميص حتى أسلمه ليزيد بن أسيد الذي كان معاوية قد بعثه لنصرة عثمان .

أما أهل المدينة فقد ندموا على ما اجترموه في حق عثمان ، وكثر الندم والتأسف على عثمان ، وتألمت السيدة عائشة إذ علمت بقتله وخرجت باكية تقول « قتل عثمان رحمه الله » فقيل لها « بالأمس تحرضين عليه واليوم تبكينه » [٣] . وكان لا بد للمسلمين من اختيار خلف لعثمان ، فأتوا علياً في داره ودعوه ليتلقى بيعتهم فأبى أن يبايعهم حتى يتم الأمر بطريق الشورى ، فانصرف القوم ، وهم يحسون بخطورة الموقف ، فالدولة بدون خليفة وظل الفتنة منتشر في أنحاء البلاد ، ولكنهم لم يلبثوا أن عادوا إلى علي ، وترددوا على الأشتر النخعي الذي أخذ يمارس على عليّ نوعاً من الضغط ، ولم يزل به يكلمه ويخوفه من عواقب الفتنة حتى قبل عليّ بيعته ، ثم بايعه طلحة مكرهاً فالزبير فعامة الناس .

---

(١) اليعقوبي ، ج ٢ ص ١٧٦ ـ ابن الاثير ، ج ٣ ص ١٧٩ ـ السيوطي ، ص ١٥٠

(٢) الحش أي البستان ، وحش كوكب موضع بالبقيع .

(٣) ابن قتيبة ، ص ٤٩

- ٤ -

الصراع بين علي ومعاوية وقيام الدولة الأموية

أ - نكث طلحة والزبير ببيعتهما لعلي وامتناع معاوية عن بذل الطاعة :

لم تكن بيعة كل من طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام لعلي بالخلافة بيعة صادقة ، والظاهر أنهما أكرها على ذلك ، فقد ذكر المؤرخون أنه بعد أن بايع الأشتر علياً خرج هو ومن معه فأتوا طلحة ، فطلبوا منه الخروج لمبايعة علي فتلكأ ، وقال : « تجتمع الشورى وتنظر » [١] ، فدفعوه دفعاً لمبايعة علي ، فبايعه مكرهاً .

وذكر ابن الأثير أن علي بن أبي طالب لم يكن يرغب في الخلافة بعد مقتل عثمان ، فلما قدم إليه أصحاب رسول الله وطلبوا منه ان يقبل الخلافة زهد فيها قائلاً : « لا حاجة لي في أمركم ، فمن اخترتم رضيت به » . ولما ألحوا عليه وذكروا أنهم لا يعلمون أحداً أحق بها منه سواء من حيث سابقته في الاسلام او من حيث قرابته برسول الله ، قال : « لا تفعلوا فإني أكون وزيراً خيراً من ان أكون أميراً » [٢] . وما زالوا به حتى بايعوه . وعندما بايعه طلحة والزبير قال لهما : « إن أحببتما ان تبايعاني وإن أحببتما بايعتكما » ، فقالا : « بل نبايعك » . ولم تكد تمضي على بيعتهما أربعة اشهر حتى هربا إلى مكة ، ونكثا بالبيعة ، وبررا مبايعتهما السابقة له بخوفهما على نفسيهما . وهناك من الرواة من يذكر أن طلحة

---

(١) ابن قتيبة ، ص ٤٨

(٢) ابن الاثير ، ج ٣ ص ١٩٠ ، ١٩١

والزبير لم يبايعا علياً إلا والسيف على عنقيهما، وأنه لما جيء بطلحة ليبايع قال: « إنما أبايع كرهاً »، فبايع ، ثم بايع الزبير. وقال نفر ممن نفروا من المبايعة: « نبايع علي إقامة كتاب الله في القريب والبعيد والعزيز والذليل»(١) . وامتنع عدد من الصحابة عن مبايعة على نذكر من بينهم سعد بن أبي وقاص ، وعبدالله ابن عمر ، ومن الأنصار حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك، ومسلمة بن مخلد وأبو سعيد الخدري ، ومحمد بن مسلمة ، والنعمان بن بشير ، وزيد بن ثابت ، ورافع بن خديج ، وفضالة بن عبيد وكعب بن عجرة ، وكانوا عثمانية ، فحسان بن ثابت رثا عثمان ودعا إلى الأخذ بثأره في قوله :

من سره الموت صرفاً لا مزاج له .·. فليأت مأسدة في دار عثمانا
مستشعري حلق الماذي قد شفعت .·. قبل المخاطم بيض زان أبدانا
صبراً فدى لكم أمي وما ولدت .·. قد ينفع الصبر في المكروه أحيانا
فقد رضينا بأهل الشام نافرة .·. وبالأمير وبالإخوان إخوانا
إني لمنهم وإن غابوا وإن شهدوا .·. ما دمت حياً وما سميت حسانا
لتسمعن وشيكاً في ديارهم : .·. الله أكبر يا ثارات عثمان
ضحوا بأشمط عنوان السجود به .·. يقطع الليل تسبيحاً وقرآنا (٢)

وبكاه كعب بن مالك قائلا :

أمسى مقيما بالبقيع وأصبحوا .·. متفرقين قد أجمعوا بخفوف
النار موعدهم بقتل إمامهم .·. عثمان ظهراً في البلاد عفيف
يا كعب لا تنفك تبكي مالكا .·. ما دمت حيا في البلاد تطوف

---

(١) ابن الأثير ، ج٣ ص ١٩٤
(٢) الطبري ، ج ٥ ص ١٥١ - ابن الاثير ، ج ٣ ص ١٨٩

فابكي أبا عمرو عتيقاً واصلا .·. ولواءهم إذ كان غير سخيف
وليبكه عند الحفاظ المعظم .·. والخيل بين مقانب وصفوف
قتلوك يا عثمان غير مدنس .·. قتلاً لعمرك واقفاً بسقيف [١]

ولم يبايع علياً أيضاً بعض الصحابة عبد الله بن سلام ، وصهيب بن سنان ، وأسامة بن زيد ، والمغيرة بن شعبة . أما طلحة والزبير وهما من أهل الشورى فقد بايعاه مكرهين وهما يطمعان في ولاية ، فالزبير كان لا يشك في ولاية العراق وطلحة في ولاية اليمن [٢] ، فلما تجاهلهما علي ، خرجا إلى مكة ، فلقيا عائشة فسألتهما عما صنع الناس بعد مقتل عثمان فأجابها طلحة : « بايعوا علياً ثم أتوني فأكرهوني وليّبوني حتى بايعت » . فقالت : « وما لعلي يستولي على رقابنا لا أدخل المدينة ولعلي فيها سلطان » ، فرجعت [٤] . فلما أتاها خبر أهل الشام بأنهم ردوا بيعة علي عندما أرسلها وأبوا أن يبايعوه ، أخذت تدعو لطلب الثأر من قتلته .

وكان لا بد لعلي أن يستقر على رأي في مشكلة عماله على الأمصار ، فأتاه المغيرة بن شعبة واختلى به ، وأشار عليه بإقرار معاوية على الشام ، وابن عامر على البصرة ، وجميع عمال عثمان على أعمالهم حتى تأتيه بيعتهم ويسكن الناس ، فإذا ما تم ذلك أصبح في مقدوره عزل من شاء منهم ، فعارضه علي وتمسك بالاستقامة في التصرف وقال : « لا أداهن في ديني ولا أعطي الدنيّة في أمري » [٤] ، فاقترح عليه المغيرة أن ينزع من شاء من عمال عثمان باستثناء معاوية أقوى عمال عثمان وأكثرهم جرأة بمن يؤيده من أهل الشام . ثم قدم إليه المغيرة في اليوم التالي

---

(١) الطبري ، ج ٥ ص ١٥١
(٢) ابن قتيبة ، ص ٥٣
(٣) نفس المصدر ، ص ٤٩
(٤) ابن الأثير ، ج ٣ ص ١٩٧

يستعديه على معاوية ويدفعه إلى عزله وتعيين من شاء من أهل ثقته، فإنه أهون شوكة مما يظنه الناس . ثم قدم ابن عباس بعد عودته من مكة لمبايعته بالخلافة ، فروى له ما كان من أمر المغيرة ، فقال له ابن عباس : « أما المرة الأولى فقد نصحك ، وأما المرة الثانية فقد غشك » ، وبرر قوله بأن معاوية وأصحابه أهل دنيا وسلطان ، وفي سبيل بقائهم في مناصبهم لا يبالون بمن يلي الخلافة بعد عثمان ، فإذا عزلهم علي ، نددوا به وهاجوه ، وادعوا عليه أنه إنما ظفر بالخلافة بغير شورى واتهموه بقتل عثمان ، وألّبوا عليه ، فيثور عليه أهل الشام وأهل العراق في الوقت الذي لا يمكنه فيه من الوثوق بأمثال طلحة والزبير . ثم أشار عليه ابن عباس بتثبيت معاوية في عمله [1] . ولكن علياً ـ فيما رواه مؤرخو العرب ـ لم يأخذ بنصيحة ابن عباس وأبى أن يداهن معاوية ويلجأ إلى الخداع لأمرين : الأول أنه كان على يقين بأن معاوية كان يخطط لنفسه مقدماً للظفر بالخلافة والاحتفاظ بها في البيت الأموي ، والدلائل على ذلك كثيرة ، منها أن أبا سفيان قال في جماعة من بني أمية قدموا إليه بعد مبايعة عثمان بالخلافة : « أفيكم أحد من غيركم ؟ وقد كان عمي ، قالوا : لا . قال : يا بني أمية تلقفوها الكرة ، فو الذي يحلف به أبو سفيان ما زلت أرجوها لكم ، ولتصيرن إلى صبيانكم وراثة » [2] ، ومنها أن أبا حنيفة الدينوري يذكر أن معاوية كان جالساً ذات يوم « إذ دخل عليه رجل ، فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ، فقال معاوية : وعليك ، من أنت ، لله أبوك ؟ فقد روعتني بتسليمك علي بالخلافة قبل أن أنالها . فقال : أنا الحجاج بن خزيمة بن الصمة . قال : ففيم قدمت ؟ . قال : قدمت قاصداً إليك بنعي عثمان . ثم أنشأ يقول :

إن بني عمك عبد المطلب .·. هم قتلوا شيخكم غير الكذب
وأنت أولى الناس بالوثب فثب .·. وسر سير الحزئل المتلئب

---

(١) ابن قتيبة ، ص ٥٠ ـ المسعودي ، ج ٢ ص ٣٥٤ ـ ابن الاثير ، ج ٣ ص ١٩٧
(٢) المسعودى ٢ ، ج ص ٣٤٣

قال : ثم إني كنت فيمن خرج مع يزيد بن أسد لنصر عثمان ، فلم نلحقه ، فلقيت رجلا ، ومعي الحارث بن زفر ، فسألناه عن الخبر ، فأخبرنا بقتل عثمان ، وزعم أنه ممن شايع على قتله ، فقتلناه . وإني أخبرك ، أنك تقوى بدون ما يقوى به علي ، لأن معك قوماً لا يقولون إذا سكت ، ويسكتون إذا نطقت ، ولا يسألون إذا أمرت ، ومع علي قوم يقولون إذا قال ، ويسألون إذا سكت ، فقليلك خير من كثيره ، وعلي لا يرضيه إلا سخطك ، ولا يرضى بالعراق دون الشام ، وأنت ترضى بالشام دون العراق» [1]. وهذا النص الأخير يوضح حقيقة الصراع المقبل بين علي ومعاوية ، وهو صراع بين تيارين تيار إسلامي يمثله علي وتيار قبلي يمثله معاوية .

لهذا كان على علي أن يبادر بمواجهة خطط معاوية قبل أن يفلت منه زمام المبادرة ، ولهذا فرق عماله على الأمصار ، فبعث عثمان بن حنيف على البصرة ، وعمارة بن شهاب على الكوفة ، وعبيد الله بن عباس على اليمن ، وقيس بن سعد على مصر ، وسهل بن حنيف على الشام ، أما سهل بن حنيف فقد رده فرسان معاوية عند أيلة وقيل عند تبوك فعاد إلى المدينة ، كما أن طليحة بن خويلد رد عمارة بن شهاب في زبالة فعاد هو الآخر إلى المدينة [2]. والأمر الثاني أن علياً لم يخرج عن تطبيق السياسة الإسلامية التي جرى عليها قبله أبو بكر وعمر ، وكانت أولى خطواته في ذلك وهي عزل ولاة عثمان أمراً طبيعياً وتطبيقاً سليماً لسياسته الإسلامية على الرغم من تحذيرات ابن عباس له بنتائجها الخطيرة ، وإذا كان هناك من يتهم هذا التصرف بأنه جاء نتيجة تفكير متسرع بعيد عن الدهاء السياسي فهو اتهام باطل فنده الدكتور عبد العزيز الدوري على اساس ان انتخاب الخليفة يعتمد على الأمصار ، وانه لم يكن للأمصار

---

(١) أبو حنيفة الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص ١٥٥

(٢) أبو حنيفة الدينوري ، ص ١٤١ - ابن الأثير ، ج ٣ ص ٢٠١

أي رأي في ذلك عند استخلاف كل من عمر وعثمان ، بل إن تصرف علي رغم صيحات المطالبة بدم عثمان ورغم الاضطرابات العنيفة التي تمخضت عن فتنة الأمصار، كان سليماً من وجهة التقاليد الخلافية ، ولكن الظروف التي استخلف فيها علي كانت مختلفة عن الظروف التي عاصرت استخلاف عمر وعثمان ، فقد جاء علي في وقت بلغ فيه الاتجاه القبلي ذروته ، عندما طالب أفراد البيت الأموي وأشياعهم بدم عثمان دون أن يتركوا هذه المهمة على عاتق الدولة ، وهكذا اصطدم علي في بداية خلافته بالتيار القبلي ، وكان عليه أن يغادر المدينة بعد ذلك لمحاربة الخارجين عليه إلى بلد يتوفر له فيه السند المادي وهو المال والسند العسكري وهو الرجال ، تمهيداً للمواجهة الحربية ، ولكن الظروف أرغمته إلى قصد الكوفة التي تموج بالتيارات القبلية ، وهناك تحكمت فيه أهواء شيعته، وكلهم ممن يفكرون بمصلحتهم وبمصلحة إقليمهم ويريدون الاحتفاظ بتنظيماتهم القبلية ، وعلى هذا النحو لم تناسبهم الاتجاهات الاسلامية التي جرى عليها علي ، ولم تلبث اتجاهاته أن اصطدمت مع اتجاهاتهم في عدة مناسبات[1].

لم يبدأ علي بمهاجمة معاوية في عرينه ، بل آثر أن يصطنع الرفق في معالجة أمور الخلافة في وقت كانت أعصاب المسلمين متوترة للغاية في أعقاب الفتنة ، ثم إنه كان يسعى إلى تثبيت أقدامه والاعتماد على عناصر تدعمه قبل أن يقبل على فرض سطوته بالقوة على المعارضين في خلافته ، فكتب إلى معاوية بدمشق كتاباً يمنيه فيه ويعده ويطلب منه بيعة أهل الشام ، كما كتب إلى أبي موسى الأشعري بالكوفة ، أما أبا موسى فقد رد عليه بطاعة أهل الكوفة وبيعتهم ، وأما معاوية فلم يجبه بشيء . فكتب إليه مرة ثانية : « أما بعد فقد وليتك ما قبلك من الأمر والمال ، فبايع من قبلك ثم أقدم إليّ في ألف رجل من أهل الشام» ،فتباطأ معاوية عن الاجابة عليه حتى مضت ثلاثة أشهر ، ثم دعا بطومار كتب فيه : من معاوية إلى علي ـ أما بعد ، فإنه :

(١) عبد العزيز الدوري ، مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ، ص ٥٧ ـ ٦١

ليس بيني وبين قيس عتاب .·. غير طعن الكلى وضرب الرقاب(١)

وعندئذ تكشفت لعلي نوايا معاوية العدائية وعزمه على مواجهته ، ولما كان من العسير على عليّ أن يواجه معاوية ومن ورائه أهل الشام ومن تأبش إليه من من بني أمية في وقت كان يفتقد الأنصار ولهذا السبب كتب إلى معاوية كتاباً مع الحجاج بن غزيّة الأنصاري يخيره فيه بين الدخول في الطاعة أو الحرب ، فلما اطلع معاوية على كتاب علي أمر الحجاج بن غزية بالقفول إلى المدينة ، ثم أمر بطومارين وصل أحدهما بالآخر ولفّا ، ولم يكتب فيها شيئاً إلا « بسم الله الرحمن الرحيم » . ثم بعث به مع رجل عبسي ، قدم على عليّ وعنده وجـــوه الناس وناوله الكتاب ، ففتحه ، فلم ير فيه شيئاً سوى البسملة . ثم قام العبسي وقال : « إني قد خلفت بالشام خمسين(٢) ألف شيخ خاضبي لحاهم بدموع أعينهم تحت قميص عثمان (٣) ، رافعيه على أطراف الرماح ، قد عاهدوا الله ألا يشيموا سيوفهم حتى يقتلوا قتلته أو تلحق أرواحهم بالله (٤) ».

ويذكر المؤرخون أن علياً عزم على غزو الشام لإخماد فتنة معاوية قبل أن يستفحل خطرها، فلما بلغ ذلك طلحة والزبير استأذناه في العمرة فأذن لهما، فلحقا بمكة على النحو الذي أشرنا إليه . أما على فأخذ يجهز حملته المقبلة إلى بلاد الشام ، فدفع اللواء إلى ابنه محمد بن الحنفية ، وولى عبدالله بن عباس على

---

(١) ابن قتيبة ، ص ٥٠

(٢) يجعل ابن الاثير هذا العدد ستين ألفاً

(٣) كان النعمان بن بشير الانصاري قد أخذ أصابع نائلة التي قطعت ، وقميص عثمان الذي قتل فيه ، وهرب به ، فلحق بالشام ، فكان معاوية يعلق قميص عثمان وفيه الاصابع ، فإذا رأى أهل الشام ذلك ازدادوا غيظاً وجدا في أمرهم (ابن الاثير ، ج ٣ ص ١٩٢)

(٤) أبو حنيفة الدينوري ، الاخبار الطوال ، ص ١٤٣ - ابن الاثير ، ج ٣ ص ٢٠٣

ميمنته،وعمر بن أبي سلمة على ميسرته ، وأبا ليلى بن عمر بن الجراح على مقدمته. ثم استخلف قثم بن العبـاس على المدينة ، ودعا أهلها إلى قتال أهل الشام ، كما كتب إلى قيس بن سعد ، وإلى عثمان بن حنيف وإلى أبي موسى الأشعري يدعوهم إلى ندب الناس لمحاربة أهـل الشام . وبينما كان في طريقه إلى الشام إذ وصله كتاب من أخيه عقيل يخبره بإن طلحة والزبير نكثا ببيعتهما له وانضمت إليهما عائشة ، وأنهم خرجوا في جموع كثيفة نحو البصرة . فاضطر عليّ إلى تغيير وجهته إلى الكوفة [١] ، وسار في تسعمائة من أهل البصرة والكوفة[٢] ممن كانوا في المدينة إبان الفتنة ، وقيل من وجوه المهاجرين والأنصار[٣] ، ونظرا لقلة هذا العدد فإننا نعتقد أن المقصود به جماعة من المهاجرين والأنصار.

وكانت عائشة أول من طالبت بدم عثمان على الرغم من أنهـا كانت من أكثر خصومه عداء له ، وقـد استجاب لها عبدالله بن عامر الحضرمي عامل عثمان على مكة ، وتبعه عدد كبير من بني أمية على ذلك ، وكانوا قد تسللوا من المدينة هاربين ولاذوا بمكة ، وتبعهم المغيرة بن شعبة وسعيد بن العاص ، كما قدم إليهم عبدالله بن عامر من البصرة بمـال كثير ، ويعلي بن منية من اليمن ومعه ستمائة بعير وستمائة ألف درهم، فأناخ بالأبطح . ثم قدم إليها طلحة والزبير بحجة قضاء العمرة ، وأعلنا فيها نكثهما لبيعتهما لعلي ، واستقر رأي الجميـع

---

(١) ابن قتيبة ، ص ٥٧ ـ ابن الاثير ، ج ٣ ص ٢٢٢ ـ ويشير بعض المؤرخين إلى أن علياً علم بمسير عائشة وطلحة والزبير بعد خروجه من المدينة في طريقه إلى الكوفة (الاخبار الطوال ، ص ١٤٤) وقد برر أبو حنيفة الدينوري خروجه إلى العراق بأن « الاموال والرجال بالعراق ولاهل الشام وثبة أحب أن أكون قريباً منها » (الاخبار الطوال ، ص ١٤٣)

(٢) ابن الاثير ، ج ٣ ص ٢٢٢

(٣) ابن قتيبة الدينوري ، ص ٥٦

على السير إلى البصرة لكثرة من بها من صنائع ابن عامر [١] ، وساروا في ألف من أهل مكة والمدينة ، ولحقهم الناس، حتى أصبح عدة من معهم ثلاثة آلاف رجل . وما إن وصلت عائشة ومن معها إلى نواحي البصرة حتى أقامت بالحفير ، وكتبت إلى رجال أهل البصرة وإلى الأحنف بن قيس وغيره تدعوهم إلى الانضمام إليها في المطالبة بدم عثمان . ولما بلغ ذلك أهل البصرة دعا عثمان بن حنيف والي المدينة الناس إلى التأهب للقتال ، ثم أقبلت عائشة فيمن معها حتى انتهوا إلى المربد، وتم الاشتباك بين أتباع علي وعلى رأسهم عثمان بن حنيف وحكيم بن جبلة العبدي وبين أتباع عائشة وطلحة والزبير في ٢٥ ربيع الآخر سنة ٣٦ هـ ، وانتهت الاشتباكات بهزيمة أتباع علي ومقتل حكيم بن جبلة . أما عثمان بن حنيف فقد وقع أسيراً ، فأمر مروان بن الحكم بعثمان فنتفت لحيته وشعر رأسه وحاجباه ، وضرب أربعين سوطاً ، ثم أطلق سراحه ، فقابل علياً في ذي قار [٢] .

ب — موقعة الجمل :

ما كاد علي يصل إلى الربذة حتى علم بما أصاب عثمان بن حنيف وأتباعه من أهل البصرة على أيدي العثمانية ، فأقام بالربذة بعض الوقت ، وسيّر خلال ذلك رسولين من قبله هما محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر إلى الكوفة لدعوة أهلها إلى نصرته ، ثم تابع علي سيره إلى البصرة ماراً بفيد والثعلبية والأساد ، حيث بلغه هناك مصرع حكيم بن جبلة [٣] ، وواصل سيره بعد ذلك حتى بلغ ذا قار ، وهناك أقبلت عليه وفود من بكر بن وائل وطيء وأسد، وعرضوا عليه بذل

---

(١) الاخبار الطوال ، ص ١٤٤ . وذكر ابن قتيبة أن عبدالله بن عامر حث القوم على قصد البصرة لان بها ثلاثة رجال كلهم سيد مطاع هم : كعب بن سور في اليمن ، والمنذر بن ربيعة في ربيعة ، والاحنف بن قيس في البصرة (ابن قتيبة ص ٦٢)

(٢) ابن قتيبة ، ص ٧٢ — ابن الاثير ، ج ٣ ص ٢١٢ - ٢٢٦

(٣) ابن الاثير ، ج ٣ ص ٢٢٥ - ٢٢٦

النصرة والعون ، فشكرهم على عرضهم وأبلغهم بـأن لديه من يكفيه من المهاجرين . وفي ذي قار ادركه رسولاه إلى أبي موسى الأشعري بالكوفة يخبرانه بفشل مهمتهما ، فسيّر إلى الكوفة ولده الحسن في صحبة عمار بن ياسر ، فمادا هذه المرة ومعهما من أهل الكوفة نحو تسعة آلاف ، وقيل ١٢ ألفاً قدموا عليه بذي قار[١] .

وبلغت عدة من انضم إليه من المهاجرين والأنصار وأهل الكوفة والبصرة ممن كانوا في المدينة ومن أقبلوا عليه من الكوفه بعد وصوله إلى ذي قار عشرين ألفاً زحف بهم حتى دنا من البصرة ، فنزل الخريبة ، وهناك كتّب الكتائب وعقد من الألوية والرايات سبعاً لقبائل العرب ، وجعل على كل أصحاب راية قائداً ، ثم عقد لسائر قريش والأنصار والحجاز راية ، وولى عليهم عبدالله بن عباس ، ثم قسم هذه الألوية إلى ميمنة جعل في مقدمتها الاشتر النخعي ، وميسرة على رأسها عمار بن ياسر وقلب يتقدمه ابنه محمد بن الحنفية . ولما بلغ ذلك طلحة والزبير قاما بتعبئة حشودهما وعدتها على ما رواه المؤرخون ثلاثون ألفاً ، وقسموها إلى كتائب ، ثم عقدا الألوية واستعدا للقتال. وعز على عليّ أن يقاتل المسلمون بعضهم بعضاً ، فأقام ثلاثة أيام ورسله تتردد على أهل البصره يدعوهم إلى الرجوع إلى الطاعة والدخول في الجماعة ، ولكنهم لم يستجيبوا لندائه ، فزحف بقواته لخوض المعركة في ١٠ من جمادي الآخرة ، فلما دنت صفوفه من صفوف خصومه وهم وقوف تحت رايتهم العظمى ، وعائشة في هودجها في المقدمة قد كسي بصفائح الحديد والدروع[٢] محمولة جمل مجفف بتجفاف الحديد[٣] ، دعا القوم إلى الصلح وناشدهم حقن الدماء ، ولكنهم أصروا على الحرب ، فطلب

---

(١) ابن الاثير ، ص ٢٣١ .وذكر أبو حنيفة الدينوري أن عدة من انضم إليه من أهل الكوفة بلغ ٩٦٥٠ رجلاً وافوه بذي قار قبل أن يرتحل (الاخبار الطوال ص ١٤٥)

(٢) ابن قتيبة ، ص ٧٣ ـ ابن الاثير ، ص ٢٤٣

(٣) الاخبار الطوال ، ص ١٤٩

عليّ من طلحة والزبير أن يَدْنُوَا منه ليتحدث إليهما، فَدَنَوَا منه حتى اختلفت أعناق فرسيهما، فذكّر طلحة والزبير بأنهم إخوة في الإسلام يحرمان دمه ويحرم دمهما، ثم سألهما عن السبب في تحولهما عن الإخاء فأجابه طلحة بأن مرجع ذلك أنه ألب على عثمان، وأنه إذا كان قد بايع علياً فلأنه بايعه مكرهاً والسيف على عنقه. ثم ذكّر عليّ الزبير بأمور جرت في حياة رسول الله عندما قال ﷺ موجهاً حديثه للزبير بعد أن رآهما يحبان بعضهما بعضاً: «أما إنك تقاتله وأنت ظالم له»[1]. فلما ذكّره علي بذلك أبدى الزبير أسفه وأقسم ألا يقاتل علياً أبداً، ثم انصرف إلى اصحابه وهو ينوي اعتزال المعركة، ولكن ابنه عبدالله أثناه عن ذلك واتهمه بالجبن عندما رأى رايات ابن أبي طالب، فأحفظه هذا الاتهام، وكفّر عن يمينه لعلي بأن أعتق غلامه مكحولاً، ومع ذلك فقد ترك المعركة منذ بدايتها ولم يستطع أن يواصل القتال. وقيل أن الزبير أقبل إلى ولده عبدالله فأفضى إليه برغبته في الانصراف من المعركة، ودعا ولده إلى الانصراف معه، فأبى عبدالله أن يرجع حتى يحكم الله بين الفريقين، فتركه الزبير ومضى نحو البصرة وقد عقد النية على العودة إلى الحجاز[2]، وقدّر له أن يلقى مصرعه، كما قدر لابنه عبدالله أن يتلقى من الجراح والطعنات ٣٧ جرحاً ما بين طعنة ورمية[3]. ويجمع مؤرخو العرب على أن الزبير قتل غدرا بوادي السباع، استدبره عمرو بن جرموز أحد أتباع الأحنف بن قيس، ثم طعنه وقتله[4]. أما طلحة فقد أصابه سهم غرب فأصابه،

---

(١) ابن قتيبة، ص ٧٤ - أبو حنيفة، ص ١٤٧ - ابن الاثير، ج ٢ ص ٢٤٠

(٢) ابن قتيبة، ص ٧٥ - أبو حنيفة الدينوري، ص ١٤٨

(٣) ابن الاثير، ج ٣ ص ٢٥١

(٤) ابن قتيبة ص ٧٦ - أبو حنيفة الدينوري، ص ١٤٨ - ابن الاثير ص ٢٤٤

فاعتزل المعركة وهو جريح ينزف ، ونزل في دار خربة وظل ينزف حتى مات[١]، وقيل طعنه مروان بن الحكم بعد أن أيقن بالهزيمة [٢] .

وقع الاشتباك في أواخر شهر جمادي الآخرة سنة ٣٦ هـ [٣] ، وكانت المعركة عنيفة في بدايتها ، ولكنها انتهت سريعاً في يوم واحد [٤] بهزيمة الخلفاء الثلاثة ، واشتد القتـــال حول هودج عائشة ، وكثرت فيه السهام حتى أصبـــح كالقنفذ ، وحماها مروان في جماعة من قيس وكنانة وبني أسد ، فأحاط بهم علي ابن أبي طالب، وأرسل رجلاً من أهل الكوفة يقـال له أعين بن ضبيعة فعرقب جملها فسقط الجمل وله رغاء ، فمال الهودج بعائشة ، فأذن علي لمحمد بن أبي بكر بأن يتقدم إلى أخته وينزلها في دار عبدالله بن خلف الخزاعي ، ثم أتاهـا هناك وقال لها : « إيها يا حميراء ، ألم تنتهي عن هذا المسير ، فقالت يا ابن أبي طالب، قدرت فأسجح ، فقال : أخرجي إلى المدينة وارجعي إلى بيتك الذي أمـــرك رسول الله أن تقري فيه ، فقبلت ، ثم جهزها على بكل ما ينبغي لها من مركب وزاد ومتاع، وذكروا أنه سيّرمعها سبعين امرأة من عبد القيس في ثياب الرجال حتى وافوا بها إلى المدينة ، وقيل أربعين امرأة [٥] ، كما أمر علي محمد بن أبي بكر بأن يوصلها إلى المدينة [٦] .

---

(١) ابن الاثير ، ج ٣ ص ٢٤٣

(٢) ابن قتيبة ، ص ٧٩ - ابن الاثير ، ج ٣ ص ٢٤٤

(٣) ذكر المسعودي أن المعركة وقعت في الخميس ١٠ من جمادي الأولى سنة ٣٦،وهو تاريخ غير صحيح لأنه يتعارض مع تاريخ مغـــادرة السيدة عائشة البصرة في غرة رجب (ابن الأثير ، ص ٢٥٨)

(٤) المسعودي ، ج ٢ ص ٣٥١

(٤) ابن قتيبة ، ص ٨٠ - اليعقوبي ، ج ٢ ص ١٨٣ - ابن الأثير ، ج ٣ ص ٢٥٨

(٦) ابن الأثير ، ج ٣ ص ٢٥٨

ونهى عليّ أصحابه عن قتل جريح أو أسير أو فال، كما نهاهم عن انتهاب أي مال [١] ، وكان من بين الأسرى مروان بن الحكم وعمر بن عثمان وموسى بن طلحة وعمرو بن سعيد بن العاص ، فلما عرض عليّ عليهم أن يبايعوه أجابوه إلى ذلك ، فأخلى سبيلهم [٢] .

ج - موقعة صفين :

في الوقت الذي كان علي يواجه المشاكل التي ترتبت على مقتل عثمان كان معاوية ابن أبي سفيان يجمع صفوفه في بلاد الشام ويؤلب أهلها على علي، ويتهمه على منبر جامع دمشق بأنه تستر على قتلة عثمان وأن دمه في عنقه، ومبالغة منه في استثارة أهل الشام على علي واجتذابهم حوله، نصب قميص عثمان وقد خضب بدمه على منبر دمشق وعلى أردانه أصابع نائلة مدلاة، وكان يذكر لهم في خطبه ما صنعه قتلة عثمان به فيبكي الناس ، فينتهز هذه الفرصة ليدعوهم إلى الطلب بدمه، كما أن زواجه من ميسون بنت بحدل الكلبي النصرانية كان سنداً قبلياً قوياً له [٣]، وقد نجح معاوية في خطته نجاحاً لم يكن في الحسبان ، ، إذ أجمع أهـــل الشام على الالتفاف حوله ، وأقسم رجال منهم أن لا يمسهم المـاء إلا للغسل من الجنابة [٤] وأن لا يناموا على الفرش حتى يقتلوا قتلة عثمان، كما أجمعوا على مبايعة معاوية أميراً عليهم ، فبعث الرسل إلى كور الشام يطلب منهم أن يبايعوا له بالإمارة ، فبايعوا له بها باستثناء شرحبيل بن السمط الكندي والي حمص الذي بايعه بالخلافة هو وأهل حمص وكتب إليه يقول : « أما بعد فانك أخطأت خطئاً عظيماً حين

(١) الاخبار الطوال ، ص ١٥١

(٢) ابن قتيبة ، ص ٨٠

(٣) عبد العزيز الدوري ، ص ٦٠

(٤) ابن الأثير ، ج ٣ ص ٢٧٧

كتبت إلى أن أبايع لك بالإمرة وأنك تريد أن تطلب بدم الخليفة المظلوم وأنت غير خليفة وقد بايعت ومن قبلي لك بالخلافة»، ثم إن معاوية دعا الناس وأطلعهم على هذا الكتاب ودعاهم إلى بيعته بالخلافة فأجابوه [١] .

وكان علي قد استعمل الأشتر على الموصل ونصيبين ودارا وسنجار وآمد وميافارقين وهيت ، كما استعمل على مصر قيس بن سعد ، ثم عزله واستعمل الأشتر النخعي ، فتوفي بالطريق فبعث محمد بن أبي بكر. ثم بعث علي بعد فراغه من الجمل إلى جرير بن عبدالله البجلي وكان عاملاً لعثمان على همذان، وإلى الاشعث ابن قيس وكان عاملاً لعثمان على أذربيجان، يأمرهما بأخذ البيعة والحضور عنده، فقدما إليه ، فسير جرير رسولاً إلى معاوية يدعوه إلى الدخول في طاعته والبيعة له أو الإيذان بحرب [٣] ، فقدم جرير على معاوية فألفاه وعنده وجوه أهل الشام ، فلما اطلع على مضمون كتاب علي استشار أشراف أهل بيته ، فأشار عليه أخوه عتبة بأن يستعين بعمرو بن العاص، وكان مقيماً في ضيعة له بفلسطين معتزلاً الفتنة ، فأرسل إليه معاوية يستقدمه وكان عمرو يفضل معاوية على علي ، فأقبل مع ابنيه [٤] ، وأبدى قبوله لمساعدة معاوية في صراعه المقبل ضد علي، على

) ابن قتيبة ، ص ٨٢ – ابو حنيفة الدينوري ، ص ١٥٩ ، ١٦٠

(٢) الأخبار الطوال ، ص ١٠٤

(٣) ذكر له علي في هذا الكتاب بأن بيعته بالمدينة لزمت معاوية وهو بالشام لان من بايع علياً هم الذين سبق أن بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان، فليس من حق الغائب أن يرد، وإنما الشورى للمهاجرين والانصار ، فاذا اجتمعوا على رجل وبايعوه سموه إماما ، فان خرج منهم خارج ردوه إلى ما خرج منه فان أبى قاتلوه . ثم هدده بالحرب إن هو تعرض للبلاء ؛ ثم قال له : اعلم يا معاوية أنك من الطلقاء الذين لا تحل لهم الخلافة ولا تعقد معهم الامامة ولا تعرض فيهم الشورى» (راجع ابن قتيبة ، ص ٩٣ ، ٩٤)

(٤) الاخبار الطوال ، ص ٥٧ - ابن قتيبة ص ٩٥ - ابن الاثير ، ج ٣ ص ٢٧٦

أن يجعل له مصر طعمة(١) ، فلما بايع أهل الشام لمعاوية بالخلافة على النحو الذي أشرنا إليه ، أرسل جريراً إلى علي يخبره أن معاوية وأهل الشام لا يجيبونه إلى البيعة .

ثم عزم معاوية على السير إلى صفين ، فعبأ أهل الشام ، وجعل على مقدمته أبا الأعور السلمي ، وعلى ساقته بشير بن أرطأة ، وعلى الخيل عبيدالله بن عمر ابن الخطاب ، وعلى الميمنة يزيد العبسي ، وعلى الميسرة عبدالله بن عمرو بن العاص ، ثم سار في ٨٣ ألفاً من أهل الشام حتى نزل بصفين في النصف من المحرم (٢) .

أما علي فقد تجهز للسير نحو الشام عن طريق الجزيرة ، فدعا الناس إلى التجمع في المعسكر بالنخيلة ، واستخلف على الكوفة أبا مسعود الأنصاري ثم خرج إلى إلى النخيلة ، فأقام معسكراً ، وبعث زياد بن النضر الحارثي في طليعة من ثمانية آلاف مقاتل ، وبعث معه شريح بن هاني في أربعة آلاف (٣) ثم رحل في ثمانين ألف رجل حتى وافى المدائن فسيّر من هناك معقل بن قيس في ٣ آلاف من الرجال لموافاته عند الرقة (٤) .

ثم واصلت قوات علي السير حتى انتهت إلى موضع يدعى سور الروم ، وكان معاوية قد زحف بجيوش الشام حتى وصل صفين ، وهي قرية خربة من بناء الروم وعسكرت قواته هناك ، وأمر معاوية أبا الأعور السلمي بأن يقف في عشرة آلاف من أهل الشام على طريق الشريعة ليمنع من أراد ورود الماء من

---

(١) الأخبار الطوال ، ص ١٥٨ - ابن قتيبة ص ٩٦

(٢) ابن قتيبة ، ص ١٠٢ . وذكر المسعودي أن جملة عساكر معاوية بلغت ٨٥ ألفاً (المسعودي ، ص ٣٢٥)

(٣) الاخبار الطوال ، ص ١٦٦ - ابن الاثير ، ص ٢٨٠

(٤) نفسه ص ١٦٧ - ابن الاثير ، ص ٢٨١

جيش العراق ، ولكن قوات علي تمكنت من مهاجمة أبي الأعور السلمي ونجحت في التغلب على الماء ، ولكن علي أمر بألا يمنع أهـــل الشام من وروده ، فكانوا يسقون جميعاً ويختلط بعضهم ببعض ، بل كان عسكر بعضهم يدخل في عسكر بعض ، حتى ظن الناس أن الصلح وشيك [١] ، وقضى الفريقـان شهر المحرم من سنة ٣٧ دون حرب طمعـاً في الصلح ، واختلفت بينهما الرسل ، ولكن هذه المفاوضات لم تسفر عن أي نتيجة ، فلما انسلخ شهر المحرم استعد الفريقان للقتال ، وتم الاشتباك في أول صفر ، ودامت الحرب عشرة أيام تخللتها في بعض الأحيان مبارزات فردية ، وفي أحيان أخرى اشتباكات ضارية تبادل فيها الفريقان النصر والهزيمة وقتل من الجانبين أعداد هـائلة ، وفي اليوم العاشر من بداية المعركة رجحت كفة علي ، وأوشكت قواته على سحق قوات معاوية وعمرو [٢] ، فلما رأى عمرو أن أمر أهل العراق قد اشتد وخاف الهزيمة عمد إلى اصطناع الخديعة ، فأمر برفع المصاحف [٣] على الرماح والمناداة بتحكيم كتاب الله بين معاوية وعلي ،

---

(١) الاخبار الطوال ، ص ١٦٩ ـ المسعودي ، ص ٣٧٧ ـ ابن الاثير ، ص ٢٨٥

(٢) المسعودي ، ج ٢ ص ٣٩٠

(٣) ذكر ابن قتيبة أن عمرو أمر برفع المصحف ، (ص ١١٢) والمقصود به بطبيعة الحال مصحف دمشق أحد المصاحف التي وزعها عثمان على الامصار . وذكر أبو حنيفة أن معاوية أمر رجاله بربط المصاحف علي أطراف القنا فربطت ، وأن أول ما ربط مصحف دمشق الاعظم ، ربط على خمسة أرماح يحملها خمسة رجال ، ثم ربطت سائر المصاحف التي كانت معهم (الاخبار الطوال ، ص ١٨٩) . أما المسعودي فقد ذكر أن عمراً صاح في قومه داعياً كل صاحب مصحف أن يرفعه على رمح ، فرفع في عسكر معاوية نحو من خمسمائة مصحف ، والمسعودي وحده هو الذي ينفرد بهذا الرقم (المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٣٩٠) ، وأشار الطبري وابن الاثير إلى رفع المصاحف بالرماح دون أن يحدد كل منهما عددها (الطبري ، ج ٦ ص ٢٦ ، ٢٧ — ابن الاثير الكامل ، ج ٣ ص ٣١٦) . والظاهر أنه كان لدى عسكر معاوية أكثر من مصحف واحد ، منها مصحف عثماني على الاقل وهو مصحف دمشق أحد مصاحف تسعة نسخها عثمان بن عفان من مصحف أبي بكر ، ومن المعروف أن أبا بكر أمر زيد بن ثابت بجمع القرآن من الرقاع =

والظاهر ان عمراً ومعاوية دبراً ذلـــك مقدماً ، فأمرا أصحابهما بحمل نسخ من المصحف لترفع على الرماح عند الضرورة ، لعلمهما بأن جيش علي كان يضم فريقاً من القراء الذين يعملون بكتاب الله إذا دعاهم داع إلى ذلك ، وكان عمرو يرمي من وراء رفع المصاحف على الرماح إحداث انقسام في صفوف جيش علي ، وقد عبر عمر عن ذلك في قوله لمعاوية : « ترفع المصاحف ، ثم نقول لما فيها : هذا حكم بيننا وبينكم ، فإن أبى بعضهم ان يقبلها وجدت فيهم من يقول: ينبغي لنا ان نقبل ،فتكون فرقة بينهم ، وإن قبلوا ما فيها رفعنا القتال عنا الى أجل[1] » ، وفي رواية أخرى قال : « إني قد اعددت بحيلتي امراً أخرته إلى هـذا اليوم ، فإن قبلوه اختلفوا ، وإن ردوه تفرقوا . قال معاوية : وما هو ؟ قال عمرو : تدعوهم إلى كتاب الله حكماً بينك وبينهم ، فإنك بالغ به حاجتك » [2]. وهذه الرواية تؤكد ان عمراً كان قد دبر هذه الحيلة قبل ان ترحل قوات معاوية إلى

=والاكتاف والعسب وصدور الرجال ، في نسخة واحدة ، خوفاً من تعريضه للضياع بسبب استشهاد الكثيرين من حفظته وقرائه في الفتوحات ، وحفظت هذه النسخة التي سميت بالمصحف عند أبي بكر حتى مات ، ثم نقلت الى عمر فظلــت لديه حتي مات ، فانتقلت بعد وفـــاته إلى حفصة بنت عمر (السيوطي ، ص ٧٢) . فلما تولى عثمان الخلافة رأى المسلمين في الامصار يأخذون قراءاتهم من مصادر مختلفة ، بعضهم عن ابن مسعود والبعض عن المقداد والبعض عن أبي موسى ، الذي سمى مصحفه لباب القلوب ،فرأى عثمان أن يوحد المصحف حتى لا يقول الناس قرآن آل فلان ، فأمر بمصحف أبي بكر فأحضر من بيت حفصة ، ثم أمر زيد بن ثابت وعبدالله بن الزبير وسعيد ابن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوه في المصاحف الاربعة ، فلما تم نسخها ردت نسخة المصحف القديم إلى حفصة ، وأرسل إلى كل بلد مصحفه ، وكتب عثمان في جمع المصاحف الاخرى وأقصد بها المصاحف الخاصة من الآفاق فجمعت ثم سلقها بالماء الحار والخل وقيل أحرقها (اليعقوبي ج ٢ ص ١٧٠ - ابن الاثير ، ج ٣ ص ١١٦) والظاهر ان عثمان نسخ عدداً آخر من مصحفه ووزعها على مختلف الامصار حتى بلغ عددها بعثه على حــــد قول اليعقوبي تسع نسخ (اليعقوبي ص ١٧٠)

(١) ابن الاثير ، ص ٣١٦

(٢) الاخبار الطوال ، ص ١٨٨

صفين فقد وضع علياً بذلك موضعاً حرجاً ، فان قبل بتحكيم كتاب الله فان جماعة من جنده يفترقون عنه ، وإن واصل الحرب والقتال رغم المصاحف المرفوعة يكفره اصحابه ، وفي أي من هاتين الحالتين يتحول الموقف إلى صالح الأمويين .

ولقد فطن علي إلى الخدعة ، فأقبل على أصحابه يحذرهم من المكيدة ، ويؤكد لهم أن معاوية وعمراً وابن أبي معيط وحبيباً وابن أبي سرح والضحاك ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ، فهو يعرفهم كل المعرفة ، وأنهم لم يرفعوا هذه المصاحف إلا خديعة ووهنا ومكيدة [1] ، ولكن نفراً من رجاله ، هددوه إما أن يجيب إلى كتاب الله إذ دعي إليه أو يفعلوا به كما فعلوا بابن عفان ، وعز على علي أن يخير رجاله بين الأمرين ، فتركهم أحراراً في اختيار أحد أمرين : إما طاعته وتتمثل في مواصلة القتال ، وإما عصيانه فيفعلوا كما شاء لهم أن يفعلوا . فاختاروا التحكيم [2] ، ثم وقع اختيارهم على أبي موسى الأشعري ممثلاً لأهل العراق في التحكيم ، وحاول علي عبثاً أن يثنيهم عن هذا الاختيار ، ورشح لهم ابن عباس ، فان لم يرضوا به فالاشتر النخعي ، فأبوا إلا [3] أبا موسى ، وتمت كتابة صحيفة التحكيم التي تتضمن شروط الحكم وموعد اجتماع الحكمين في ١٧ من صفر سنة ٣٧ هـ ، بحضور عمرو بن العاص ممثلاً عن أهل الشام وأبي موسى الأشعري ممثلاً عن أهل العراق ، واتفق الطرفان على أن يكتب اسم علي بدون لقب أمير المؤمنين ، وفي ذلك اعتراف ضمني من جانب أهل العراق بنزول علي كخليفة للمسلمين إلى مرتبة

---

(١) ابن الاثير ، ج ٣ ص ٣١٦

(٢) إلا أن فريقاً من أهل العراق وهم القراء ومنهم عبدالله بن وهب الراسبي أبو الراسبي رفضوا التحكيم وقالوا بتفويض الحكم لله ومقاتلة أهل الشام بالسيوف حتى يحكم الله بينهم وبين أهل الشام ، وأنكروا حكومة الناس (ابن قتيبة ، ص ١٢٣)

(٣) المسعودي ، ص ٣٩١ - ابن الاثير ، ص ٣١٩

معاوية المطالب بالخلافه ،ونصّت الصحيفة على أن يحيي الحكمان ما أحيا القرآن ويميتا ما أمات القرآن ؛ وأن ينزلا عند حكم الله وألا يتبعا الهوى ولا يدهنا في شيء من ذلك ، فان فعلا فلا حكم لهما والمسلمون من حكمهما براء ، وجعل الطرفان أجل القضاء إلى شهر رمضان علي أن يجتمع الحكماء في مكان عدل بين أهل الكوفة وأهل الشام [١] ، وشهد من المسلمين شهود من الطرفين .

ثم أمر علي بالرحيل بسبب اختلاف الكلمة وانقسام الصفوف وتفاوت الرأي واحتدام النقاش بين الآخذين بالتحكيم والمعارضين له إلى حد التضارب بالمقارع ونعال السيوف [٢] ، وتبادل الفاظ السباب ، فمضى علي إلى الكوفة ، بينما لحق معاوية بدمشق .

ولكن المعارضين للتحكيم خرجوا على علي ، وعادوا من طريق أخرى غير الطريق التي سلكها أصحاب علي ، ويذكر ابن الأثير أنهم « عادوا وهم أعداء متباغضون ، وقد فشا فيهم التحكيم ، يقطعون الطريق بالتشاتم والتضارب بالسياط » [٣] . فلما دخل علي الكوفة لم يدخلها الخوارج معه ، فقد انحاز منهم عنه اثنا عشر ألفاً من القراء وغيرهم ، فلحقوا بقرية حروراء من قرى الكوفة وجعلوا عليهم شبيب بن ربعي التميمي ،وعلى صلاتهم عبدالله بن الكواء اليشكري ، وعرفوا بالحرورية نسبة إلى هذه القرية [٤] ، وهم أول من أنكر تحكيم الرجال من أصحاب علي ، ونادوا بشعارهم « لا حكم إلا لله » .

---

(١) اتفق الحكمان على أن يوافيا موضع الحكمين في دومة الجندل أو بأذرح في شهر رمضان واختار على دومة الجندل

(٢) المسعودى ، ص ٣٩٤

(٣) ابن الأثير ، ص ٣٢٢

(٤) نفسه ، ص ٣٢٦

د - صدور الحكم :

كان قبول علي للتحكيم أول وهن أصاب مركزه كخليفة للمسلمين ، وقد ترتب على ذلك ظهور حركة الخوارج أو المحكّمة [1] ، التي تعتبر في حد ذاتها ثورة على استئثار قريش بالسلطة ، فهم يذهبون إلى القول بأن « الأمر شوري بعد الفتح ، والبيعة لله عز وجل ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » [2] ، وهم بذلك ينكرون الخضوع للسلطان المركزي ويظهرون سخطهم على قريش لانفرادها بالخلافة [3] . وأيا ما كان الأمر فإن علياً وجد نفسه وقد أقحم في قضية رغم أنفه لم يجد مناصاً من متابعتها،فوجه مع أبي موسى شريح بن هانيء في أربعة آلاف من خاصته ،وبعث معاوية مع عمرو أبا الأعور السلمي في عدد مماثل إلى دومة الجندل،وسار إلى دومة الجندل بأذرح أيضاً فئة اعتزلت الحرب، منهم عبدالله بن عمر بن الخطاب ، وعبدالله بن الزبير، وسعد بن أبي وقاص، والمغيرة ابن شعبة، ليشهدوا إصدار قرار التحكيم . وسبق صدور الحكم مداولة بين الحكمين اتفقا خلالها على خلع علي ومعاوية وترك الخلافة شورى بين المسلمين [4] ،وافترقا على ذلك . ثم عقد الحكمان في صباح اليوم التالي مجلساً لإصدار الحكم في المسجد الجامع حضره عدد كبير من المسلمين ، فقدّم عمرو أبا موسى عليه في الكلام تظاهراً باحترامه لكبر سنه حتى يبدأ بإعلان خلع علي ومعاوية ، فصعد أبو موسى المنبر وقال : « أيها الناس إنا قد نظرنا فيما يجمع الله به ألفة هذه الأمة ويصلح أمرها،فلم نر شيئاً هو أبلغ في ذلك من خلع هذين الرجلين:علي ومعاوية، وتصييرها شورى ليختار الناس لأنفسهم من رأوه لها أهلاً ، وأني قد خلعت

---

(١) ابن الاثير، ص ٣٣٤

(٢) نفسه ، ج ٣ ص ٣٢٦

(٣) عبد العزيز الدوري ، مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ، ٦٠

(٤) الاخبار الطوال ، ص ٢٠٠ - المسعودي ، ص ٢٩٧ - ابن الاثير، ج ٣ ص ٢٣٣

علياً ومعاوية ، فاستقبلوا أمركم ، وولوا عليكم من أحببتم » ، ثم نزل ، فصعد عمرو ، وخاطب المسلمين قائلاً: « إن هذا قد قال ما سمعتم ، وخلع صاحبه ، ألا وأني قد خلعت صاحبه كما خلعه ، وأثبت صاحبي معاوية، فإنه ولي أمير المؤمنين عثمان ، والطالب بدمه ، وأحق الناس بمقامه » [١] ، وذكر المسعودي أن أبا موسى أعلن خلعه لعلي ومعاوية كخلعه لعمامته التي كانت على رأسه ، فأهوى إلى عمامته فخلعها ، وأنه استخلف عبدالله بن عمر ، ثم صعد عمرو وأعلن قبوله لخلع علي ولكنه يستخلف معاوية ، وحاول أبو موسى تكذيب عمرو ، ولكن عمراً قال : « بل كذب عبدالله بن قيس ، قد خلع علياً ولم أخلع معاوية » [٢] ، وانسل أبو موسى فركب راحلته وهرب حتى لحق بمكة ، في حين انصرف عمرو واهل الشام إلى معاوية فسلموا عليه بالخلافة .

وكان معاوية قد أرسل بعد صدور قرار التحكيم جيشاً إلى مصر بقيادة عمرو ابن العاص ، وكان يلي مصر في هذه الآونة محمد بن ابي بكر ، وكان محمد شاباً لا تجربة لديه ، جاهلاً بأمور السياسة وإدارة البلاد ، فأساء إلى العثمانية في مصر بدلا من ان يصطنعهم، فثار عليه معاوية بن حديج السكوني ومسلمة بن مخلد وطالبا بدم عثمان ، واجابهما إلى ذلك جمهور كبير من اهل مصر ، فاستغل معاوية هذه الفرصة ، وامر عمراً بن العاص بقيادة حملة مؤلفة من ستة آلاف رجل ، فسار عمرو إلى مصر وانضمت إليه العثمانية ، واشتبك مع قوات ابن ابي بكر في المسناة بالقرب من الفسطاط فانهزم ابن ابي بكر ، وآوى إلى خربة بنواحي الفسطاط ، فقبض عليه ابن حديج وهو يكاد يموت عطشاً فقتله ووضعه في جيفة حمار ثم احرقه بالنار [٣] ، وهكذا أصبحت مصر تابعة لمعاوية ، فولاها

---

(١) الأخبار الطوال ، ص ٢٠١

(٢) ابن قتيبة ، ص ١٣١ - المسعودي ، ص ٣٩٩

(٣) ابن الاثير ، ص ٣٥٧

عمراً ومنحه حق استغلالها مدى الحياة [١] .

وقد ترتب على صدور التحكيم أن تضعضع مركز علي بن أبي طالب بانقسام أهل العراق على أنفسهم في الوقت الذي قوي فيه مركز معاوية بضم مصر ومبايعته بالخلافة ، بل إن معاوية لم يكتف بذلك الانتصار ، بل هاجم البصرة من مناطق نفوذ علي في العراق ، في سنة ٣٨ هـ ، ووزع جيوشه في العام التالي في العراق ، فوجه النعمان بن بشير في ألف رجل إلى عين التمر ، كما وجه سفيان بن عوف في ستة آلاف رجل إلى هيت والأنبار والمدائن ، وعبدالله بن مسعدة في ١٧٠٠ إلى تيماء ، بل ذكروا أن معاوية خرج بنفسه في نفس سنة ٣٩ هـ ، حتى شارف دجلة ثم عاد [٢]. كذلك سيّر معاوية بعثا إلى الجزيرة فأغار على نواحي الرقة ، كما بعث السرايا إلى دارا والسماوة ودومة الجندل. وفي العام التالي بعث معاوية بسر ابن ابي ارطأة للإغارة على الحجاز واليمن ، ودخل بسر المدينة ولم يقاتله احد ، وهدم بها دوراً ، ثم سار إلى مكة وأكره الناس على البيعة لمعاوية ، ثم زحف إلى اليمن وقتل جماعات من الأبناء من شيعة علي باليمن [٣] . وهكذا استقر الأمر لمعاوية في الشام ومصر والحجاز واليمن وشمال الجزيرة. أما علي فقد شغل بمحاربة الخوارج ، فاشتبك مع الحرورية أتباع عبدالله بن وهب الراسبي في النهروان في سنة ٣٨ هـ وهزمهم وقتل زعماءهم في ساعة ، وكان ممن قتل زيد ابن حصين الطائي وعبدالله بن وهب الراسبي ، وحرقوص بن زهير ، وعبدالله بن شجرة السلمي. ثم حارب علي خوارج الأنبار وماسبذان وجرجرايا والبندنيجين بالقرب من المدائن و شهرزور [٤] .

---

(١) اليعقوبي ، ج ٢ ص ٢٢١

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٧٥ - ٢٧٧

(٣) نفسه ، ص ١٩٧ - المسعودي ، ج ٣ ص ٢٢ - ابن الاثير ، ج ٣ ص ٣٨٣ - ٣٨٥

(٤) الاخبار الطوال ، ص ٢١٠ - ابن الاثير ، ص ٣٧٢ - ٣٧٣

كذلك ترتب على صدور قرار التحكيم انقسام وحدة المسلمين وتفتتها ونشوء الحزبية ، والحزبية من مستلزمات الحياة السياسية ، وكانت معروفة في الجاهلية وفي زمن النبوة الأول ، ولكن اللون الحزبي ضاع بعد ان ارتبط المهاجرون والأنصار برابطة المؤاخاة ، وإبان الفتوح ، فنسى العرب في عصر الفتوحات عصبياتهم ونزعاتهم وظهروا متماسكين مرتبطين . فلما قامت فتنة الأمصار وما تبع ذلك من احداث عادت الحزبيه في صور جديدة ، نجملها فيا يلي :

الهاشمية :

وهو حزب بني هاشم الذي كان قد انتصر لعلي باعتباره الخليفة الشرعي ، لأن خلافته قامت على أساس انتخابي صحيح ، وعرف هؤلاء بالشيعة ، وقد بلور مقتل الإمام عليّ اتجاههم .

العثمانية :

هو الحزب المطالب بدم عثمان الذي قتل ظلماً،وهو نفس الحزب الذي ساند معاوية حين تولى بطولة هذا الدور ، وتحول فيا بعد إلى الحزب الأموي ، وكان يعضده أهل الشام .

الخوارج :

وهو حزب المحكّمة الذين انكروا على عليّ قبوله بتحكيم الناس [١] ، في خلافته ، وكانوا يقولون بأنه لا حاكم إلا الله . وقد تمسك هذا الحزب بالتقاليد الاسلامية الأولى وطالب باقامة الخلافة على أساس ديني،على ان تكون حقاً لكل عربي ، وهم في ذلك يخالفون نظرية الشيعة الذين يقصرون الحق في الخلافة على

---

(٦) ماجد ، التاريخ السياسي ، ج ١ ص ٢٦٦

البيت الهاشمي،وقد انقسم هذا الحزب فيابعد إلى فرق كثيرة كالصفرية والنجدية والإباضية والأزارقة .

المرجئة :

وهم الحزب الذي نادى بترك الحكم لله يوم الحساب ، وكانوا يتحرجون عن إدانة أي مسلم مهما بلغت ذنوبه ومعاصيه ، وقد اعتزل المرجئة الفتنة ولم يخوضوا غمارها ، ولم يتحيزوا لفريق على آخر ، وهم اساس المعتزلة الذين ظهروا في أواخر عصر الدولة الأموية .

الباب الثالث

عصر الدولة الأموية

الفصل السادس : الأحداث السياسية البارزة في عصر الدولة الأموية
الفصل السابع : الحضارة الأموية

الفصل السادس

الأحداث السياسية البارزة في عصر الدولة الأموية

١ – قيام الدولة الأموية .

ا – مظاهر تطلع معاوية بن أبي سفيان إلى الملك وهو بعد وال على الشام .

ب – مقتل علي بن أبي طالب وتنازل الحسن عن حقه في الخلافة لمعاوية.

ج – خروج معاوية على تقاليد الخلافة إلى اصطناع الملك.

د – جهود معاوية في تأسيس الدولة الأموية .

٢ الفتوحات الإسلامية في العصر الأموي

ا – اتساع رقعة الدولة العربية في شرق العالم الإسلامي

ب– « « « « في غرب العالم الإسلامي

٣ – أهم الاحداث السياسية في العالم الاسلامي زمن الدولة الأموية

ا – أحداث المشرق (العراق والحجاز والشام) .

ب– أحداث المغرب (مصر والمغرب والأندلس) .

الأحداث البارزة في عصر الدولة الأموية

- ١ -

قيام الدولة الأموية

١ - مظاهر تطلع معاوية بن أبي سفيان الى الملك وهو بعد وال على الشام :

تولى معاوية بعد وفاة أخيه يزيد على دمشق وأعمالها ، ثم ولاه عمر الأردن بدلاً من شرحبيل بن حسنة ، فعمل معاوية على كسب رضاء الخليفة عمر عليه ليبقيه على الشام ، فاهتم باستكمال فتح مدن الساحل كطرابلس وقيسارية وعسقلان(١) وأسكنها الروابط ووكل بها الحفظة ، وعمل وفقاً لرأي عمر بن الخطـــاب على تحصين الثغور الاسلامية باقامة نظام المرابطة على السواحل أثناء الصيف عندما ينفتح البحر ، ورأى معاوية ضرورة اصطناع سياسة بحرية مجاراة للروم ، وعمل

---

(١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ج ١ ص ١٦٩

على صناعتها في مصر، وتهيأ له على هذا النحو إنشاء عدد كبير من السفن، واستعان في ذلك بالبحريين من أهل الشام ومصر، وكتب إلى الخليفة عمر يسأله في أن يأذن له بغزو قبرص لقربها من الشام، فطلب عمر بن الخطاب من عمرو بن العاص والي مصر أن يصف له البحر، فكتب إليه: «إني رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير، إن ركن خرّق القلوب، وإن تحرك أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة، هم فيه كدود على عود، إن مال غرق، وإن نجا برق». فلما قرأ عمر كتاب عمرو كتب إلى معاوية يقول: «لا والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً»[1]. وقد امتثل معاوية لنهي عمر إرضاء له، وترك أمر الغزو البحري إلى فرصة أخرى. وعندما اضطر معاوية، بعد أن أصبح عاملاً على الشام، إلى أن يعدل من مظهره كحاكم للبلاد إما مجاراة للحضارة البيزنطية المتغلبة على الشام أو تشبهاً بحكام الروم، حتى يفرض هيبته في نفوس سكان الشام، فبدأ يتأنــق في ملبسه ويتخلى عن مظاهر الخشونة التي التزمهـا الصحابة، ثم أصبح لا يسير إلا في موكب يحيط به الحراس والحجاب، وقد بهت عمر عندما قدم إلى الشام، فخرج معاويه لاستقباله في موكب حافـــل، ولم ترق للخليفة مشاهدة مظاهر الترف والعظمة في هذا الاستقبال، واستنكر ذلك وقـــال: «أكسروية يا معاوية؟»، فقال يا أمير المؤمنين إنا في ثغر تجاه العدو وبنـا إلى مباهاتهم بزينة الحرب والجهاد حاجة»، فسكت عمر ولم يخطئه لما احتج عليه معاوية بمقصد من مقاصد الحق والدين[2]. وكان معاوية على الرغم من اتخاذه مظاهر الأبهة والترف ممسكاً بزمام نفسه، فـــلم يطلق لنفسه العنان خوفاً من شدة عمر.

وما إن توفي عمر حتى أفصح معاوية عن نواياه في الاستئثار بحكم الشام كله،

---

(١) الطبري، ج ٥ ص ٤٥ ـ ابن الأثير، ج ٣ ص ٩٥ ـ ابن خلدون، المقدمـــة، ص ٤٤٨ ـ السيوطي، تاريخ الخلفاء ص ١٤٥

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص ٣٦٠

وحقق أول مرحلة من هذا المخطط بعد مضي عامين فقط من خلافة عثمان، إذ أسند إليه الخليفة ولاية الشام كلها ، فأخذ يعمل منذ ذلك الحين على تمكين سلطانه في هذه الولاية مستغلاً قرابته إلى الخليفة . ويبدأ يحقق حلمه القديم في غزو الجزر القريبة من الساحل الشامي ، فما زال يلح على عثمان في غزوها [١] حتى أذن له في الغزو بحراً، وأمره أن يعد في السواحل إذا غزا أو أغزى جيوشاً سوى من فيها من الرتب ، وأن يقطع الرتب القطائع ويمنحهم الأخائذ [٢] . وأول غزوات معاوية البحرية غزوة قبرص ، فقد أذن له عثمان بغزوها على شروط، منها أن يحمل معه امرأته ، وأن يدعم الدفاع عن السواحل قبل خروجه في الغزو، وألا يكره المسلمين على الغزو معه. فحمل معاوية معه زوجته فاختة بنت قرظة بن عمرو ابن نوفل ، وحمل عبادة بن الصامت معه امرأته أم حرام بنت ملحان الأنصارية وذلك في سنة ٢٨هـ (٦٤٩م) بعد انحسار الشتاء ، ففتحها معاوية وغنم المسلمون غنائم كثيرة [٣] . وعلى هذا النحو يعتبر غزو معاوية لقبرص أول غزو بحري يقوم به المسلمون في البحر المتوسط ، ولم يكن المسلمون قد ركبوا بحر الروم قبل هذه الغزوة. ثم استعمل معاوية على البحر عبدالله بن قيس الحارثي الفزاري فغزا خمسين غزوة ما بين شاتية وصائفة في البحر ولم يغرق فيه أحد [٤]. ثم كان انتصار الأسطول الشامي بقيادة معاوية بن أبي سفيان والأسطول المصري بقيادة عبدالله بن سعد على أسطول البيزنطيين في واقعة ذات الصواري سنة ٣٤ هـ حداً فاصلاً في تاريخ البحر المتوسط غيّر مصيره وثبت للمسلمين السيطرة البحرية

---

(١) ابن الاثير ، ج ٣ ص ٩٦

(٢) البلاذري ، ج ١ ص ١٥٢

(٣) نفسه ، ص ١٨١ - ١٨٣ . وقد اشترك أسطول مصر بقيادة عبدالله بن سعد في غزوة قبرص (الطبري ، ج ٥ ص ٥٣)

(٤) الطبري ، ص ٥٣ - ابن الاثير ، ج ٣ ص ٩٦

على هذا البحر، وضمن تفوقهم البحري على البيزنطيين [١]، وكسب معاوية بهذا الانتصار كسباً أدبياً كبيراً دعم مكانته في قلوب أهل الشام بوجه خاص، وثبت قدماه في حكم هذه البلاد الشامية. وفي سبيل هذا الكسب اعتمد على العصبية اليمنية، فجعل منها فرقة خاصة زاد في عطائها إلى مقدار الضعف، وجعلهم جنداً مستقلاً لا يختلطون بسواهم، كما تقرب من العناصر المتنصرة من بقايا الغساسنة، فتزوج من ميسون بنت بجدل أم يزيد.

وما إن أحس بقوة مركزه حتى ألح على عثمان، عندما عصفت فتنة الأمصار بالمدينة سنة ٣٤ هـ، وتعرض عثمان لخطر الاغتيال، ألح عليه أن ينتقل معه إلى دمشق، فأهلها كانوا موالين للخليفة، وقال له غداة ودعه: «يا أمير المؤمنين، انطلق معي إلى الشام قبل أن يهجم عليك من لا قبل لك به، فان أهل الشام على الأمر ما يزالوا» [٢]، ولكن عثمان رفض أن يترك دار هجرة الرسول. والظاهر أن معاوية كان يهدف من وراء دعوته للخليفة الانتقال إلى دمشق أن يكتسب بوجوده سنداً روحياً يكفل له أن يظفر بالخلافة من بعده، بدليل أنه خاطب جماعة من المهاجرين في المدينة قبل رحيله عنها إلى الشام فقال في جملة ما قاله: «إنكم قد علمتم أن هذا الأمر كان اذا الناس يتغالبون الى رجال فلم يكن منكم أحد الا وفي فصيلته من يرأسه ويستبد عليه ويقطع الأمر دونه ولا يشهده ولا يؤامره، حتى بعث الله جل وعز نبيه ﷺ، وأكرم به من اتبعه، فكانوا يرئسون من جاء من بعده وأمرهم شورى بينهم يتفاضلون بالسابقة والقدمة والاجتهاد، فان أخذوا بذلك وقاموا عليه كان الأمر أمرهم والناس تبع لهم، وان أصغوا الى الدنيا وطلبوها بالتغالب سلبوا ذلك، ورده الله الى من كان يرأسهم

---

(١) ابراهيم العدوي، الامويون والبيزنطيون، القاهرة، ١٩٥٣ ص ٩٨ - الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم، ص ٦٤

(٢) الطبري، ج ٥ ص ١٠١ - ابن الاثير، ج ٣ ص ٢٥٧

وإلا فليحذروا الغير ، فإن الله على البدل قادر »[1] . ويلوح معاوية في عبارته الأخيرة بتحول الرئاسة إلى البيت الأموي إذا ما تعرض عثمان لاعتداء الخارجين عليه دون أن ينصره المهاجرون في المدينة .

ب- مقتل علي بن أبي طالب وتنازل الحسن عن حقه في الخلافة لمعاوية :

اتفق ثلاثة رجال من الخوارج بعد وقعة النهروان بأشهر على قتل علي ومعاوية وعمرو في ليلة واحدة ، وهم : عبد الرحمن بن ملجم المرادي ، والنزال بن عامر ، وعبدالله بن مالك الصيداوي [2] ، على أن يتولى ابن ملجم قتل علي ، والنزال معاوية ، وابن مالك عمرو . فترصد عبد الرحمن بن ملجم علياً وهو مقبل ليؤدي صلاة الغداة ، فقام إليه ابن ملجم وضربه بسيف قد سم حده على رأسه ، فحمل عليّ إلى منزله ، وقبض الناس على ابن ملجم ، ولم يمس علي عنه يومه ذلك حتى مات في ١٧ من رمضان سنة ٤٠ هـ . أما ابن ملجم ، فأخذ وقطعت أطرافه وأذناه وأنفه ولسانه وسملت عيناه ، ثم قتل بعد ذلك [3] . وذكر ابن الأثير أن الحسن بن علي قتله ، ثم أخذه الناس فأدرجوه في حصير منسوج وأحرقوه بالنار [5] .

أما الخارجي الثاني الذي تولى مهمة قتل معاوية ، وهو النزال بن عامر (أو

---

(١) الطبري ، ص ١٠٠ - ابن الاثير ، ج ٣ص ١٩٨

(٢) وذكر ابن قتيبة وابن الأثير ، أن الاتفاق المذكور تم بين عبد الرحمن بن ملجم والحجاج ابن عبد الله التميمي الصريمي ، وعمرو بن بكر التميمي (ابن قتيبة ، ص ١٥٠ - ابن الأثير ، ج ٣ ص ٣٨٩)

(٣) أبو حنيفة ، ص ٢١٤ - ابن قتيبة ، ص ١٥١

(٤) نفس المصدر ، ص ٢١٥ - ابن قتيبة ، ص ١٥٢

(٥) ابن الاثير ، ص ٣٩٢

الحجاج بن عبدالله التميمي في قول آخر) ، فقد أقبل في نفس الليلة إلى دمشق وهمّ بقتل معاوية وهو يصلي بالناس صلاة الصبح ، ولكنه أخفق ولم يصب السيف منه مقتلاً ، وعولج معاوية فبرأ ، أما القاتل فقد أمر به معاوية فقطعت يداه ورجلاه ونزع لسانه فمات . ومنذ ذلك الحين اتخذت المقاصير في الجوامع وجعل الحراس على رؤوس الخلفاء [١] .

أما القاتل الثالث فقد قصد عمرا بن العاص بمصر ، وكان عمرو يومئذ مريضاً ، وقد فوض خارجة بن جزافة العدوي وقيل خارجة بن أبي حبيبة صاحب شرطته بأن يصلي بالناس مكانه ، فضربه الخارجي بالسيف وقتله ظناً منه أنه عمرو بن العاص ، فأخذه الناس إلى عمرو ، فقتله [٢] .

ولما دفن علي بن أبي طالب خرج ابنه الحسن إلى المسجد الجامع ، فاجتمع الناس إليه فبايعوه متحفظين ، إذ كان الحسن قد اشترط عليهم أن يبايعوه على مسالمة من يسالم ومحاربة من يحارب ، وكانوا يميلون إلى الحسين ، ولكن الحسين أبى أن يبايعه القوم في حياة أخيه [٣] .

أما معاوية ، فقد بويع بالخلافة من جديد في بيت المقدس بعد أن قتل علي ، ودعي بأمير المؤمنين [٤] ، ثم أقبل معاوية غازياً العراق بجيوش كثيفة في مقدمتها عبدالله بن عامر بن كريز ، فاستولى على عين التمر ، ثم نزل الأنبار في طريقه إلى المدائن .وبلغ ذلك الحسن وهو بالكوفة،فخرج في اثني عشر ألفاً يقودهم قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري متجهاً إلى المدائن ، فلما وصل إلى

---

(١) ابن قتيبة ، ص ١٥٢ - أبو حنيفة ، ص ٢١٥

(٢) نفسه ، ص ١٥٢ - ابن الاثير ، ج ٣ ص ٣٩٤

(٣) نفسه ، ص ١٥٣ - ابن الاثير ، ج ٣ ص ٤٠٢

(٤) ابن الاثير ، ج ٣ ص ٤٠٣

ساباط رأى من أتباعه زهداً وانصرافاً عن الحرب[١]، فأعلن الحسن أنه لا يريد أن يحمل الناس على ما يكرهون،وأن الجماعة خير من الفرقة ، وكان في معسكر الحسن جماعة قد أخذوا بآراء الخوارج ، فقالوا « كفر الحسن كما كفر أبوه من قبل » ، فهاج الناس عليه وانتزعوا مصلاه من تحته ونهبوا متاعــه ، وطعنه أحدهم في فخذه ، فحمل الحسن وهو جريح إلى المدائن وقد نزف نزفاً شديداً، ونزل القصر الأبيض ، وعولج حتى برأ . ثم إنه كتب إلى معـــاوية وقد وافى الأنبار يتنازل له عن الخلافة بشروط منها : أن يعطيه معاوية ما في بيت مال الكوفة وقدره خمسة آلاف ألف،وأن يحمل إلى الحسين كل عام ألفي الف، وأن يترك له خراج دارابجرد من فارس ، وأن يكف عن سب أبيه ، فأجابه معاوية إلى شروطه ، ولكنه أخل بالشرطين الأخيرين ، فأما خراج دارابجرد فقد منعه أهل البصرة عن إعطائه إياه بإيعاز من معاوية ، وأما الكف عن سب علي فلم يف به أيضاً[٢] .

وذكر ابن قتيبة أن الحسن اصطلح مع معاوية على أن يظفر معاوية بالإمامة ما كان حيا فإذا مات فالأمر للحسن[٣] . ثم سار الحسن بأهل بيته حتى وافى الكوفة ، وتم تنازل الحسن عن الخلافة لمعاويـة في ٢٥ ربيع الأول سنة ٤١ ، وقيل في ربيع الآخر ، وقيل في جمادي الأول . أما معاوية فقد دخل الكوفة وبايعه الناس ، والتقى فيها بالحسن.ثم رحل الحسن إلى المدينة ، ورحل معاوية إلى دمشق بعد أن استعمل المغيرة بن شعبة على الكوفة ، وسمي هذا العام بعام

---

(١) حاول معاوية أن يرشو قائد جيش الحسن ، فوجه إلى قيس بن سعد الف الف درهم على أن يصير معه أو ينصرف عن الحسن، فرد إليه قيس المال . ويقال أن معاوية نجح في إرشاء عبيد الله بن عباس ، فانضم إليه في ثمانية آلاف من أنصار علي (اليعقوبي ، ص ٢١٤)

(٢) ابن الاثير ، ج ٣ ص ٤٠٥

(٣) السيوطي ، ص ١٨٢

الجماعة لاجتماع الامة فيه على خليفة واحد[١]. وإذا بحثنا في الأسباب التي حملت الحسن على تنازله عن الخلافة رغم اعتراض أخيه الحسين على ذلك[٢] ، وجدناها تنحصر فيما يلي :

١ – كان الحسن ينفر من الحرب ويشفق على المسلمين من الفتن الدامية [٣] ، وكان قد شهد بنفسه عاقبة الفتنة الكبرى وما انتهت إليه من مآسي ونكبات، راح ضحيتها كل من عثمان وعلي ، وأدت إلى تجدد النزاع القديم بين بني أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وبين بني عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف[٤] .وقد عبّر الحسن عن ذلك في قوله مخاطباً أصحابه وهو بساباط : « ايها الناس ، إني قد أصبحت غير محتمل على مسلم ضغينة ، وإني ناظر لكم كنظري لنفسي ، وأرى رأياً فلا تردوا عليّ رأيي، إن الذي تكرهونه من الجماعة أفضل مما تحبون من الفرقة ، وأرى أكثركم قد نكل عن الحرب ، وفشل عند القتال ، ولست أرى أن أحملكم على ما تكرهون [٥]». كان الحسن يزهد في الخلافة إذا كان توليه لها يفضي إلى الفتنة بين المسلمين ، وكان قد نصح أباه عليا بأن يقيل طلحة والزبير من بيعتهما ، وأن يدع القوم يتشاورون عاماً كاملاً ، فإذا رفضوه رفضهم وإذا قبلوه قبلهم ،وقال له في جملة ما قاله عندما أتته الأخبار من دمشق بتأهب معاوية لمقاتلته :« أمرتك أن تركب رواحلك فتلحق بمكة المشرفة فلا تتهم به (أي لا

---

(١) ابن قتيبة ص ١٥٤

(٢) نفسه ، ص ١٥٥ – ابن الأثير ، ج ٣ ص ٢٠٥

(٣) السيوطي ، ص ١٧٧

(٤) ماجد ، التاريخ السياسي ، ج ٢ ص ١٥

(٥) الأخبار الطوال ، ص ٢١٧

يتهم في قضية مقتل عثمان) ولا تحل شيئاً من أمره فعصيتني ، وأمرتك حين دعيت إلى البيعة أن لا تبسط يدك إلا على بيعة جماعة فعصيتني ، وأمرتك حين خالفك طلحة والزبير أن لا تكرههما على البيعة وتخلي بينهما وبين وجههما ، وتدعو الناس يتشاورون عاماً كاملاً ، فوالله لو تشاوروا عاماً ما زويت عنك ولا وجدوا منك بداً » [١] .

٢ - أراد الحسن أن يُخمد الفتنة الكبرى التي أطاحت بعثمان وعليّ على يديه ، إما لرغبه صادقة في حقن دماء المسلمين وتسكين الفتنة وإشفاقاً عليهم من الاقبال على مزيد من المعارك ومزيد من التضحيات البخسة ، أو لاقتناعه بعقم أي محاولة للتغلب على أهل الشام ، الذين رجحت كفتهم بسبب تلاحمهم وتضامنهم أمام أهل العراق المنقسمين على أنفسهم . وفي كلتي الحالتين جاء تصرف الحسن نابعاً عن تفهم دقيق للموقف ومعبراً عن نظرة واقعية لحقائق الأمور [٢] . ولقد قرن الحسن بين ما فعله هو إذ حقن دماء المسلمين بما فعله جده رسول الله إذ بصّر العرب بعد ضلال وهداهم بعد كفر ، ويعبر الحسن عن ذلك بقوله : « أيها الناس ، إن الله هدى أولكم بأولنا ، وحقن دمائكم بآخرنا » [٣] .

٣ - لم يعد الحسن يثق بأهل الكوفة بعد ما فعلوه بأبيه في موقعة صفين وبعد أن انخذلوا عن الحسن وكرهوا القتال ، ونفروا بسرادقه ، وتفرقوا عنه ، وقد عبر عن ذلك في خطبته لأهل العراق فقال : « يا أهل العراق إنه سخى بنفسي

---

(١) ابن قتيبة ، ص ٥١

(٢) وذكر أبو حنيفة أنه قال لعلي بن محمد بن بشير الهمداني مظهراً يأسه من التغلب على معاوية : « ووالله لئن سرنا إليه بالجبال والشجر ما كان بد من افضاء هذا الأمر إليه » (الاخبار الطوال ، ص ٢٢١)

(٣) ابن قتيبة ، ص ١٥٤

عنكم ثلاث : قتلكم أبي ، وطعنكم إياي ، وانتهابكم متاعي »[١] . ولما سئل الحسن بعد أن عاد إلى المدينة عن السبب الذي حمله على التنازل ، قال: « كرهت الدنيا ، ورأيت أهل الكوفة قوماً لا يثق بهم أحد أبداً إلا غلب ، ليس أحد منهم يوافق آخر في رأي ولا هوى ، مختلفين لا نية لهم في خير ولا شر. لقد لقي أبي منهم أموراً عظاماً ، فليت شعري لمن يصلحون بعدي ، وهي أسرع البلاد خراباً »[٢] .

وهناك من يعزون تخليه عن حقه في الخلافة بأنه لم يكن مهيئاً لحمل اعبائها ، لتفضيله الحياة السهلة وإسرافه في حياة اللهو إلى حد زواجه بما يقرب من سبعين امرأة[٣] . والواقع إن عودة الحسن إلى المدينة وتفضيله المقام بها بقية حياته على الكوفة أكبر المصرين ، انما يعبر عن نزعة دينية ، وعن ميل إلى الانزواء ، كما أن القول بزواجه من سبعين امرأة مبالغ فيه ويحمل على الشك ، فلم يكن له من الولد سوى ثمانية ذكور من أربع زوجات وأمهات أولاد لا يمكن أن يصل عددهن إلى مثل هذا الرقم . وحتى إذا افترضنا بأنه تزوج كثيراً من النساء فهل يعني هذا أنه أسرف في حياة اللهو ؟ . ولذلك لا نعتقد أنه تخلى عن الخلافة لرغبته في الحياة السهلة ، صحيح أنه كان يكره الفتن والقتال ، ولكنه كان لا يتردد في حمل السلاح والتعرض للموت اذا ما اقتضى الأمر ذلك ، وقد رأيناه يدافع عن عثمان بن عفان حتى جرح وتلطخ وجهه بالدماء ، ورأيناه في أهل العراق يسعى لمحاربة معاوية ، ثم يطعنه بعضهم في فخده فينزف نزفاً شديداً .

---

(١) الطبري ، ج ٦ ص ٩٢ - ابن الأثير ، ج ٣ ص ٤٠٥

(٢) ابن الاثير ، ص ٤٠٧

(٣) ماجد ، ج ٢ ص ٢١ . وقيل أيضاً أنه أحصن تسعين امرأة (السيوطي، ص ١٧٨)

ج - خروج معاوية على تقاليد الخلافة الراشدة الى اصطناع الملك :

وبتنازل الحسن عن الخلافة أصبح معـــاوية خليفة للمسلمين بإجماع الأمصار الاسلامية ، ومنذ هذه اللحظة أخذ يعد العدة لحصر الخلافة في البيت الأموي ، وجعلها وراثية . فلما استقامت له الأمور استعمل على الكوفة المغيرة بن شعبة ، ثم هم أن يعزله ويولي سعيد بن العاص ، فلما بلغ ذلك المغيرة قدم الى الشام ، على معاوية وأظهر له خوفه من نشوب الفتنة والاختـــلاف بين المسلمين من بعده ، واقترح عليه أن يتخذ ولده يزيد ولياً للعهد ، فقال لمعاوية : « يا أمير المؤمنين ، قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان، وفي يزيد منك خلف، فاعقد له ، فان حدث بك حادث كان كهفاً للناس وخلفاً منك، ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة . قال : ومن لي بهذا ؟ قـال : أكفيك أهل الكوفة ويكفيك زياد(بن أبيه) أهل البصرة ،وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك»[1]. فأعجب معاوية برأيه واقتنع به ، فسيّره الى عمله حتى مات المغيرة .

وقوى عزم معاوية على البيعة ليزيد ، خاصة بعد أن أرسل اليه المغيرةوفداً من أهل الكوفة يطالبونه بمبايعة يزيد ولياً لعهده ، ولكنه آثر التمهل والتؤدة حتى لا يثير عليه الحسن بن علي وأبناء الصحابة ، ورأى أن يترك إعلان ذلك الى ما بعد وفاة الحسن ، ولهـذا سعى سعياً حثيثاً الى اهلاكه بالسم ، وتشير الروايات الى أن زوجته جعدة بنت الأشعث بن قيس هي التي سمته بتحريض من معاوية وقيل أن يزيد بن معاوية هو الذي دس اليهـا أن تسمه فيتزوجها [2] . وذكر بعضهم أنه مات بعد مرض أصابه [3] . وعندما علم معاوية بنبأ وفاته ،

---

(١) ابن قتيبة ، ص ١٥٥ - ابن الاثير ، ج ٣ ص ٥٠٤

(٢) ابن الاثير ، ص ٤٦٠ - السيوطي ، ص ١٧٩

(٣) ابن قتيبة ، ص ١٦٣ - أبو حنيفة ، ص ٢٢١

لم يخف فرحته بوفاته وسجد وسجد من كان معه[١]. وذكروا أنه عندما تلقى نبأ وفاة الحسن كبر في قصر الخضراء تعبيراً عن سروره فكبر أهل الخضراء، ثم كبر أهل المسجد بتكبير أهل الخضراء.

وكان معاوية كما ذكرت يمهد للبيعة ليزيد، فأراد أن يظهره أمام المسلمين بمظهر المجاهد المثاغر، فيبعثه مع المجاهدين فيحرز بذلك كسباً أدبياً يرفع من شأنه، ويمحي من ذاكرة المسلمين ما عرف به يزيد من خلاعة، مما يساعد على تأهيله لمنصب الخلافة، وكان يزيد معروفاً عند المسلمين بلهوه ومجونه وعكوفه على الشراب، وكان معاويه قد أغزى سفيان بن عوف العامري في سنة ٤٥ هـ الى الطوانة بأرض الروم، فأصيب جيشه بالحمى والجدري، وبلغ يزيد هذا النبأ وهو على شرابه مع أم كلثوم بنت عبدالله بن عامر، فقال:

أَهون عليّ بما لاقتْ جموعُهم ∴ يوم الطوانة من حمى ومن مُوم
اذا اتكأتُ على الأنماط مرتفقاً ∴ بدير مرّان عندي ام كلثوم

فبلغ ذلك معاوية، فأقسم عليه ليغزونّ إحدى الغزوات المقبلة، فأردف به معاوية ذلك الجيش، فغزا القسطنطينية، فسميت غزوته بالرادفة[٢].

فلما توفي الحسن في سنة ٤٩ هـ عزم معاوية على البيعـــة ليزيد، فكتب إلى عماله يأمرهم بتقريظ يزيد ووصفه، وبإرسال الوفود إليه من الأمصار، فأقبلت الوفود من العراق والشام تبايعه. وأرسل معاوية أثناء ذلك إلى مروان يأمره بأن يعد الناس نفسياً لقبول مبدأ تعيين يزيد ولياً للعهد، إذ كان عرب الحجاز

---

(١) ابن قتيبة، ص ١٦٣

(٢) اليعقوبي، ج ٢ ص ٢٢٩ ـ السمهودي، ج ٣ ص ٢٤

بوجه خاص غير مستعدين للتنقل من النظام القائم على الشورى إلى النظام الوراثي . وعندما خاطب مروان أهل المدينة بذلك كان رد الفعل عنيفاً ، وأعلن أبناء الصحابه استنكارهم لولايه العهد ، ونهض عبدالرحمن بن أبي بكر وأعلن معارضته بقوله : « ما الخيار أردتم لأمة محمد ، ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية ، كلما مات هرقل قام هرقل » [١] .

وكان لا بد لمعاوية من اصطناع اللين مع المعارضين من أهل المدينة ، فقدم بنفسه إلى المدينة في سنة ٥٠ هـ ، فتلقاه الناس ثم أرسل إلى العبادلة أبناء الصحابة وهم عبدالله بن عباس وعبدالله بن جعفر بن أبي طالب وعبدالله بن عمر وعبدالله ابن الزبير ، وخاطبهم في رغبته في أخذ البيعة ليزيد ، فعارضوه كلهم ، ورد عليه عبدالله بن عمر قائلاً : « ... فإن هذه الخلافة ليست بهرقلية ولا قيصرية ولا كسرويه يتوارثها الأبناء عن الآباء ، ولو كان كذلك كنت القائم بها بعد أبي ، فوالله ما أدخلني مع الستة من أصحاب الشورى إلا على أن الخلافة ليست شرطاً مشروطاً وإنما هي في قريش خاصة لمن كان لها أهلاً ممن ارتضاه المسلمون لأنفسهم من كان أتقى وأرضى » . ثم عاد معاوية إلى الشام [٢] ، وأخذ يعطي المقارب ، ويداري المباعد ، ويلطف به حتى استوثق له أكثر الناس ، ثم عاود معاوية مطالبة أهل المدينة بالبيعة لابنه ، واستخدم سعيد بن العاص عامله على المدينة وسائل العنف والغلظة في حمل الناس على مبايعة يزيد ، فأبطأ الناس عنها إلا اليسير منهم ، ولا سيما بني هاشم الذين أنكروا أن يتولى عليهم من يشرب الشراب ويلعب بالكلاب ويظهر الفسوق [٣] . فاضطر معاوية إلى القدوم بنفسه إلى المدينة وهو ينوي إرغام المعارضين على قبول البيعة ليزيد ، فقدم في ألف

---

(١) ابن الأثير ، ج ٣ ص ٥٠٦

(٢) ابن قتيبة ، ص ١٦٢

(٣) نفسه ، ص ١٦٩ ـ اليعقوبي ، ص ٢٢٨

فارس، وأدى فريضة الحج بمكة وقفل إلى المدينة،فدعا بالمعارضين الأربعة وهم : الحسين بن علي ، وعبدالله بن عمر ، وعبد الرحمن بن أبي بكر ، وعبدالله بن الزبير ، فحضروا ، وسألهم في تقديم ابنه يزيد ولياً لعهده ، فلما أبوا ، قـــال معاوية : « فإني قد أحببت أن أتقدم إليكم ، إنه قد أعذر من أنذر،إني كنت أخطب فيكم فيقوم إلى القائم منكم فيكذبني على رؤوس الناس ، فأحمل ذلك وأصفح ، وإني قائم بمقالة ، فأقسم بالله لئن رد على أحدكم كلمة في مقامي هذا لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه ، فلا يُبقين رجل إلا على نفسه » . ثم دعا صاحب حرسه وأمره بأن يقيم على رأس كل منهم حارسين يحمل كل منهما سيفه ، حتى إذا ما اعترض واحد منهم على ما يقوله معاوية بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفيهما. ثم خرج وخرجوا معـــه إلى مسجد المدينة، فرقى المنبر وخاطب المسلمين معلناً موافقة هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم على البيعة ليزيد ، وأمر القوم بمبايعة يزيد ، فبايع الناس [1] ، أمام سكوت ساداتهم . وفي مبايعة يزيد بولاية العهد يقول عبدالله بن همام السلولي :

تلقفها يزيد عن أبيـــه ∴ فخذها يا معاوي عن يزيدا

لقـــد علقت بكم فتلقفوها ∴ ولا ترموا بها الغرض البعيدا[2]

وبذلك ثار معاوية على القاعدة التي سنّها الخلفاء الراشدون ، فخرج على نظام الحكم الديني ، واستحدث نظام الوراثة في الحكم . وعلى الرغم من مزايا نظام الشورى الذي جرى عليه العرب قبل ذلك اذ يكفل اختيار أصلح الناس للخلافة وأكثرهم كفاية ، إلا أنـــه لم يعد نظاماً صالحاً بعد أن اتسعت الدولة العربية وانقضى جيل الصحابة الذين كانت لهم الاولوية في الاختيار لسابقتهم

---

(١) ابن الاثير ، ص ٥١١

(٢) المسعودي ، ج ٣ ص ٥٣

وصحبتهم للرسول . لقد كان هذا النظام صالحاً في البيئات القبلية أو في ظـل النزعة الابتهالية التي كانت سائدة في عصر الخلافة الراشدة ، وإن كان قد أثبت عدم صلاحيته عند قيام خلافة عثمان،وسبّب انقساماً خطيراً بين المسلمين ترتبت عليه الأحداث المفجعة التي تمخضت عنها ثورة الأمصار ، واقتضى الأمر في بداية العصر الأموي حصر الخلافة في بيت معين مع الاحتفاظ بمظهر البيعة. وإذا كان الشيعة قد انتقدوا معاوية لقيامه بأخذ البيعة لابنه يزيد ، فـإنهم لم يلبثوا ان قبلوا مبدأ الوراثة وأخذوا به .

وكان النظام الوراثي في الحكم جديداً على المسلمين لم يألفوه من قبـل ، ولهذا السبب اعترض عدد من المؤرخين على تلقيب معاوية ومن جاء بعده من خلفاء بني أمية بالخلفاء ، وآثروا تلقيبهم بالملوك ، وقد تضافرت عوامل مختلفة مع العامل السابق في حمل الناس على القول بهذا اللقب . فقد كان الناس ينقمون على بني أمية تعصبهم للعرب على الموالي، ونزوعهم للروح الجاهلية، وميل بني أمية الى مظاهر الأبهة والفخامة المعروفة عند القياصرة والاكاسرة ، فمعاوية « أول من أقـام الحرس والشرط والبوابين في الإسلام ، وأرخى الستور ، واستكتب النصارى، ومُشي بين يديـه بالحراب ، وأخـذ الزكاة من الأعطية ، وجلس على السرير والناس تحته ، وجعل ديوان الخاتم ، وبنى وشيّد البناء ، وسخّر الناس في بنائه ولم يسخر أحد قبله ، واستصفى أموال الناس فأخذهـا لنفسه . وكان سعيد بن المسيب يقول : فعل الله بمعاوية وفعل، فإنه أول من أعاد هذا الأمر ملكاً. وكان معاوية يقول : أنا أول الملوك »[1] . والظاهر أن الوسائل الملتوية التي توسل بها معاوية في الوصول الى الخلافة : من اصطناع الخديعة والمكر، والدس، والرشوة،

---

(١) اليعقوبي ، ج ٢ ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ . وذكر السيوطي أن سعيد بن جهمان قال لسفينة : إن بني أمية يزعمون أن الخلافة فيهم، قال : « كذب بنو الزرقاء ، بل هم ملوك من أشد الملوك ، وأول الملوك معاوية » (السيوطي ، ص ١٨٥)

لتأليب الناس على عليّ ، كانت عاملاً في ابتعاده عن المثل التي اتبعها الخلفاء الراشدين ، فقد ذكر اليعقوبي أن سعداً بن مالك دخل عليه بعد أن تنازل له الحسن عن الخلافة فقال : « السلام عليك أيها الملك . فغضب معاوية فقال : ألا قلت السلام عليك يا أمير المؤمنين ؟ قال : ذلك إن كنا أمّرناك ، إنما أنت منتز (أي ثائر) »[١] .

ومع ذلك، ومع انفراد معاوية ومن خلفه من بعده بالملك، والاستئثار به بحكم العصبية، فقد كانوا متحرين لمقاصد الحق جهدهم إلا في ضرورة تحملهم على بعضها خشية افتراق الكلمة ، حتى أفضى الأمر إلى من خلفوا يزيد بن عبد الملك ، في أغراضهم الدنيوية ومقاصدهم، ونسوا ما كان عليه سلفهم من تحرى القصد فيها واعتماد الحق في مذاهبها ، وحصروا هممهم على شهوات النفس وركوب اللذات من معاصي الله ، مما أدى إلى الإطاحة بالدولة الأموية [٢] .

وعلى الرغم من أن السلطة التي مارسها معاوية كانت عربية في جوهرها دعامتها الجنس دون الدين فإنها لم تصل بعد إلى أن تكون ملكية ، وإنما كانت إحياء لنظام شيخ القبيلة الذي كان سائداً في جزيرة العرب قبل الإسلام ، ولعله تأثر في ذلك بنظام الغساسنة في بلاد الشام بدليل أن المؤرخ البيزنطي تيوفانيس يصف معاوية لا كملك وإنما كمستشار أول .

د – جهود معاوية في تأسيس الدولة الأموية :

اتخذ معاوية مدينة دمشق مركزاً للخلافة الأموية ، وحاط نفسه بأبهة

---

(١) اليعقوبي ، ص ٢١٧

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٣٦٦ ، ٣٦٧

الملوك وجلالهم ، فأقام في قصر الخضراء لصق الجامع ، وجعل لنفسه سريراً على نحو ما كان لأباطرة الروم . وكان معاوية مجدداً في نظم الحكم والادارة ، فعلى الرغم من إبقائه على النظام الاداري القديم وعلى النظام النقدي المتبع في عصر الخلافة الراشدة فإنه أول من اصطنع الموالي والنصارى في المناصب، فكان كاتبه وصاحب أمره سرجون بن منصور الرومي ، وعلى حرسه رجـــل من الموالي يقال له المختار وقيل أبو المخارق مالك[1] وكان طبيبه ابن أثال نصرانياً ولاّه على خراج حمص[2] ، واقتـــدى عماله على الأمصار به ، فكان زياد بن أبيه أول من دوّن الدواوين ووضع النسخ للكتب، وأفرد كتاب الرسائل من العرب والموالي المتفصحين ، وكان يقول : ينبغي أن يكون كتاب الخراج من رؤساء الأعاجم العالمين بأمور الخراج[3] . ومعـــاوية أيضاً أول من وضع البريد في الاسلام ، تسهيلاً لوصول أخبار الأقاليم إليه سريعاً ،[4] وأول من اتخذ ديوان الخاتم وولاه عبيدالله بن أوس الغساني[5] ، وقيل ولاه عبدالله بن محصن الحميري، وكان سبب ذلك أنه أمر لعمرو بن الزبير بمائة ألف درهم وكتب له بذلـك إلى زياد ، ففتح عمرو الكتاب ، وصيّر المائة مائتين ، فلما رفع زياد حسابه أنكرهـا معاوية وطلبها من عمرو وحبسه ، فقضاها عنه أخوه عبدالله بن الزبير ، وعندئذ أنشأ معاوية ديوان الخاتم وحزم الكتب ، ولم تكن تحزم من قبل[6] . ومعاوية أيضاً

---

(١) الطبري ، ج ٦ ص ١٨٣ ـ الصولي ، أدب الكتاب ، تحقيق الأستاذ محمد بهجة الاثري، القاهرة ١٩٤١ ، ص ١٩٢ ـ ابن الاثير ، ج ٤ ص ١١

(٢) اليعقوبي ، ج ٢ ص ٢٢٣ ـ الجهشياري ، ص ٢٧

(٣) نفس المصدر ، ص ٢٣٤

(٤) ابن طباطبا ، ص ١٠٦ ـ السيوطي ، ص ١٨٧

(٥) السيوطي ، ص ١٨٧

(٦) ابن الاثير ، ج ٤ ص ١١

أول من أذن في تجريد الكعبة ، وكانت كسوتها قبل ذلك تطرح عليها الكسوة فوق الأخرى ، وهو أول من اتخذ الحرس [١] ، وأول من كانت له الصوافي في جميع أقاليم الدولة العربية ، وهي الأموال التي كان يستصفيها لنفسه من جميع الولايات بعد استقطاع العطايا ، ومن هذه الأموال أو الصفايا كانت صلاته وجوائزه [٢] .

ومعاوية هو أول من أدخل المقصورة في المسجد ، وكان يدخلها عن طريق سرداب يصل بين قصر الخضراء والمقصورة ، وكان لايدخل هذه المقصورة إلا ثقاته وحراسه [٣] . كذلك استحدثت المئذنة في عهد معاوية وأصبحت عنصراً معمارياً من عناصر الجامع ، ولم تكن كذلك في مساجد الاسلام حتى ذلك الحين ، وكان القوم يستخدمون الناقوس بجامع عمرو بن العاص وقت صلاة الفجر حتى سنة ٥٣هـ (٦٧٣ م) فأمر معاوية مسلمة بن مخلد الأنصاري واليه على مصر بأن يبني صوامع للأذان ، فبنى مسلمة أربعة صوامع في أركان جامع عمرو ، وانتشرت الصوامع في مساجد الإسلام بعد ذلك [٤] ، وفي ذلك تقليد لصوامع كنيسة يوحنا المعمدان بدمشق التي كانت تقوم في الأركان على شكل أبراج مربعة الشكل [٥] . وذكر البلاذري أن معاوية أراد أن يزيد كنيسة يوحنا في المسجد بدمشق ، فأبى النصارى ذلك ، وعدل عن مشروعه [٦] .

---

(١) السيوطي ، ص ١٨٧

(٢) اليعقوبي ، ج ٢ ص ٢٣٣ ، ٢٣٤

(٣) أبو حنيفة ، ص ٢١٥

(٤) السيد عبد العزيز سالم ، المآذن المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٩

(٥) علي الطنطاوي ، الجامع الأموي في دمشق ، دمشق ، ١٩٦٠ ص ٥٨

(٦) البلاذري ، ج ١ ص ١٤٩

أما فيما يتعلق بالمباني الحربية ، فقد أبـدى معاوية نشاطاً كبيراً في ترميم الحصون الساحلية ، فرمم حصون عكا عندما أبحر منها إلى قبرص ، كمـا رمم حصون صور[١]، وأنشأ جبلة وكانت حصنا للروم جلوا عنه عندما فتح المسلمون حمص ، وشحنها بالمرابطة ،وأنشأ لجبلة حصناً خارجاً من الحصن البيزنطي القديم ، كذلك مصّر أنطرطوس وكان حصناً جلا عنه أهله ، فبناها معاوية وأقطع بها القطائع ، وكذلك فعل برقية وبلنياس[٢] . ولم يكتف بما قام به من منشآت دفاعيه بقصد تأمين السواحل من خطر الغارات البيزنطية ، فقد عمل على إعادة استيطان المدن التي خرج عنها البيزنطيون بعد الفتوحات الاسلامية ، فنقل إلى أنطاكية في سنة ٤٢ هـ جماعة من الفرس وأهـل بعلبك وحمص ومن المصرين البصرة والكوفة[٣] ، ونقل إلى سواحل الأردن قوماً من فرس بعلبك وحمص، فاستقروا في صور وعكا في عام ٤٢ هـ كمـا نقل في سنتي٤٩ و ٥٠هـ إلى السواحل قوماً من زط البصرة والسيابجة وانزل بعضهم انطاكية[٤] .

وفي عهد معاوية اتسعت الدولة العربية ، فاستولى المسلمون في أواسط آسيا على هراة وكابل، كذلك غزا عبدالله بن سوار العبدي بلاد السند مما يلي خراسان سنة ٤٣ ، فغزا القيقـان[٥] ، وواصل المهلب بن أبي صفرة من بعده غزو السند سنة ٤٤ ، وهاجم الاقليم الممتد ما بين الملتان وكابل[٦] . وعندما ولى معاوية

---

(١) البلاذري ، ص ١٤٠

(٢) نفس المصدر ، ص ١٥٨

(٣) نفسه ، ص ١٧٥

(٤) نفسه ، ص ١٩٢

(٥) ابن الأثير ، ج ٣ ص ٤٣٧

(٦) البلاذري ، ج ٣ ص ٥٣١ — ابن الاثير ، ج ٣ ص ٤٤٦

عبيدالله بن زياد على خراسان سنة ٥٤ غزا تركستان ، وتمكن المسلمون من غزو بخاري وسمرقند(١) . وكما اتسعت الدولة العربية في المشرق اتسعت في المغرب، ففي سنة ٥٠ ﻫ تمكن عقبه بن نافع من فتح برقة وزويلة وافريقية ، وأسس مدينة القيروان .

وإلى معاوية يرجع الفضل الأعظم في بناء البحرية العربية الإسلامية وانشاء أسطول بحري للمسلمين على النحو الذي رأيناه من قبل عند الحديث عن معاوية وهو بعد عامل على الشام . ثم اهتم معاوية بعد أن ظفر بالخلافة بتدعيم البحرية الاسلامية ، وذلك عندما أغار البيزنطيون على السواحل في سنة ٤٩ فأمر بجمع الصناع والنجارين فجمعوا ورتبّوا في السواحل، وكانت دار الصناعة في عكا ومصر ثم نقلت بعد ذلك من عكا إلى صور في عصر هشام بن عبد الملك (٢) .

وبفضل هذا الاسطول تمكن المسلمون بقيادة جنادة بن أبي امية في عهد معاوية من الاستيلاء على جزيرة ارواد سنة ٥٤ ﻫ (٣) وأسكنها معاوية المسلمين، وجزيرة رودس في سنة ٥٢ ﻫ ، وأمره معاوية فأنزلها قوماً من المسلمين (٤) .

أما غزواته في الأراضي البيزنطية فمديدة ، فقد وجه منذ سنة ٤٣ قواده للإغارة على مسالح البيزنطيين وحصونهم فيما بين انطاكية وطرسوس ، واهم هذه الغزوات الغزوة التي قام بها المسلمون في سنة ٤٩ ، وقيل في سنة ٥٠ ﻫ

(١) البلاذري ، ج ٣ ص ٥٠٧ ، ٥٠٨ — ابن الاثير ، ج ٣ ص ٤٩٨

(٢) نفسه ، ج ١ ص ١٤٠

(٣) ابن الاثير ، ج ٣ ص ٤٩٧

(٤) البلاذري ج ١ ص ٢٧٨ - ابن الاثير ، ج ٣ ص ٤٩٣

ففي هذه السنة سيّر معاوية جيشاً كثيفاً إلى الأراضي البيزنطية بقيادة سفيان ابن عوف ، وأمر ابنه يزيد بالغزاة معهم ، فتثاقل يزيد واعتل ، ولكن المسلمين تعرضوا لجوع ومرض شديد ، فسيّر معاوية ابنه يزيد في حشد كبير ، واشترك في هذه الرادفة ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو أيوب الأنصـــاري وعبد العزيز بن زرارة الكلابي ، فأوغل المسلمون حتى بلغوا القسطنطينية ، واشتبكوا مع البيزنطيين في بعض المواقع (١) . وسنعود إلى دراسة محاولات المسلمين غزو القسطنطينيه بالتفصيل .

ـ ٢ ـ

الفتوحات الاسلامية في العصر الاموي

ا ـ اتساع الدولة العربية في شرق العالم الاسلامي :

فتح بلاد ما وراء النهر :

واصل العرب فتوحاتهـم في العصر الأموي ، في الاتجاه الشرقي ، فاتسعت رقعة الدولة العربية اتساعاً كبيراً بفتوحات خراسان وتركستان وما وراء النهر من جهة ، وبفتوحات السند من جهة ثانية ، ففي عهد يزيد بن معاوية ، قام سلم ابن زياد عامله على خراسان ، بفتح إقليم خوارزم وعبر نهر جيحون ومعه امرأته ، فأتى بلاد ما وراء النهر وأخضع سكان سمرقند ، ووجه من هـــناك جيشاً إلى خجندة ، فانهزم . وظل سلم يشن غزواته من مرو على بلاد الصغد (٢) . ولم تنشط

---

(١) ابن الأثير ، ج ٣ ص ٤٥٨

(٢) البلاذري ، ج ٣ ص ٥١٠

فتوح ما وراء النهر إلا منذ أن تولى الحجاج بن يوسف خراسان مع العراقين في سنه ٧٨ هـ في خلافة عبد الملك بن مروان، فولى خراسان المهلب بن أبي صفرة ، فغزا مغازي كثيرة وافتتح خجندة ، وأدت إليه بلاد الصغد الاتاوة [١] . ولما توفي المهلب ولى الحجاج يزيد بن المهلب على خراسان، وفي عهد ولايته اشتبك المسلمون بقيادة موسى بن عبد الله بن خازم ، وهو أحد المتمردين من العرب على الدولة الأموية مع الهياطلة سكان إقليم تركستان، وهم شعب من الشعوب التركية فهزموهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وأبدى موسى هذا نشاطاً حربياً لا مثيل له واستولى على ترمذ ، وهو في عدة يسيرة وقاتل الترك والعجم فهزمهم . ثم عزل الحجاج يزيداً بن المهلب ، وولى خراسان مكانه المفضل بن المهلب ، فوجه المهلب قائده عثمان بن مسعود لاستنزال موسى فاشتبك عثمان مع موسى ، في موقعة بجزيرة بالترمذ تعرف بجزيرة عثمان ، لقى فيها موسى حتفه سنة ٨٥ هـ [٢] .

ولم تأخذ فتوحات العرب لبلاد ما وراء النهر مظهرها الجدي إلا منذ أن ولى الحجاج على خراسان القائد العربي الكبير قتيبة بن مسلم الباهلي في سنة ٨٦هـ في أول خلافة الوليد بن عبد الملك ، وفي أول ولايته وجه قتيبة من مرو أخاه صالحاً فغزا بلاد فرغانة وافتتح كاسان واورشت وخشكت مدينة فرغانة القديمة [٣] .

وفي سنة ٨٧ غزا قتيبة بيكند ، أدنى مدن بخاري إلى النهر ، وافتتحها عنوة، ثم عاد إلى مرو [٤]. وفي سنة ٨٨ غزا قتيبة نومشكت ورامثنة ، وتصدى

---

(١) البلاذري ، ج ٣ ص ٥١٤ - ابن الأثير ، ج ٤ ص ٤٥٤

(٢) نفس المصدر ، ص ٥١٦ - ابن الأثير ، ج ٤ ص ٥٠٦ ، ٥١٢ - عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسي ، ج ٢ ص ٢٢٣

(٣) البلاذري ، ج ٣ ص ٥١٧ - ابن الأثير ، ج ٤ ص ٥٢٤

(٤) نفسه ص ٥١٧ - ابن الأثير ، ج ٤ ص ٥٢٨ - سيدة كاشف ، الوليد بن عبد الملك القاهرة ١٩٦٢، ص ١١٨

له الترك ومعهم الصغد وأهل فرغانة فانتصر عليهم بعد قتال عنيف كاد يظهر فيه الترك على العرب [١] ، وفي سنة ٨٩ غزا قتيبة بخاري ولكنها استعصت عليه ثم عاود عليها الكرة في العام التالي ونجح في الاستيلاء عليها ، وأسس بها جامعاً بعد أن دمر بيت النار ، وعندئذ هابه أهل الصغد ، فصالحهم قتيبة على إتاوة يؤدونها إليه [٢]. وظل قتيبة يوجه غزواته في بلاد الصغد في الاعوام التالية حتى استولى على العديد من مدنهم ، فافتتح سمرقند في سنة ٩٣ هـ [٣] ، وغزا فرغانة والشاش (طشقند) في سنة ٩٥ ، ففتح كاشان مدينة فرغانة وخجندة ، واشترك معه في فتح هذه البلاد مقاتلة من أهـــل بخاري وكش ونسف وخوارزم [٤] .

وتأثرت فتوحات قتيبة بوفــاة الحجاج بن يوسف في شوال سنة ٩٥ هـ . ولكنه واصل الغزو في العام التالي بتشجيع من الخليفة الوليد، فغزا كاشغر أدنى مدائن الصين ، وطرقت جيوشه على هذا النحو أبواب الصين من الجهة الغربية . ويذكر ابن الأثير أن ملك الصين (يوانغ جونغ) كتب يسأله أن يبعث قتيبة إليه رجلاً من أشراف قومه يخبره عن العرب ودينهم ، فسير إليه قتيبة عشرة رجــال انتقاهم من بين رجاله تتوفر فيهم البلاغة والعقل والصلاح والوسامة ، وأمر لهم بارتداء الخز والوشي وأوصاهم إذا مثلوا في حضرة الملك أن يعلموه بأن قتيبة أقسم ألا ينصرف من بلادهم حتى يطأها ويختم ملوكهم ويجبي خراجهم ، وقد نجح هؤلاء

---

(١) ابن الأثير ، ص ٥٣٣

(٢) نفس المصدر ، ص ٥٤٢

(٣) فتح سمرقند بخدعة ، إذ وضع رجــالا من عسكره مستلئمين في صناديق ثم تظـــاهر بالانسحاب ، فامر دهقان سمرقند بإدخال الصناديق إلى المدينة ، فلما أدخلت خرج الرجال منها وفي أيديهم السيوف وأخذوا لا يستقبلون أحداً إلا قتلوه حتى أتوا باب المدينة ففتحوه ، فدخل قتيبة بالجيش (الأخبار الطوال ، ص ٣٢٨)

(٤) ابن الاثير ص ٥٨١

النفر في سفارتهم وأرسل معهم ملك الصين بهدية [١] . وهكذا كانت فتوحات قتيبة في بلاد ما وراء النهر فاتحة لاتصال العرب بالجنس التركي، كما كان لجهود قتيبة الموفقة أعظم الأثر في إنشاء مراكز جديدة للثقافة العربية والاسلامية في وسط آسيا ، كما قوت ومكنت العلاقات بين الدولة العربية والصين [٨]. ولم يطل العمر بقتيبة حتى يستكمل فتوحاته في الصين ، فقد توفى الوليد سنة ٩٦ هـ وخلفه سليمان بن عبدالله ، وكانت بين قتيبة وسليمان مباينة مرجعها أن الوليد لما أراد أن ينزع أخاه سليمان من ولاية العهد ويجعل مكانه ابنه عبد العزيز بن الوليد أجابه الحجاج وقتيبة ، فلما مات الوليد خاف قتيبة أن ينتقم منه سليمان ، فهم بخلعه وهو بخراسان ، فكره جنده ذلك وأجمعوا على خلع قتيبة وهاجموه واحتزوا رأسه ، وقتل معه من أهل بيته أحد عشر رجلاً في سنة ٩٦ .

وكان مقتل قتيبة خسارة عظيمة للمسلمين فهو يعد من أعظم قواد الفتح الاسلامي ولا يقل في جهوده التي بذلها عن خالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان، ولو أنه عاش أطول من ذلك لأمكن للمسلمين أن يتوغلوا حتى الصين، بدليل أنه لما قتل، توقفت فتوح المسلمين في بلاد الترك إلى الحد الذي وصل إليه قتيبة، وقد رثاه عبد الرحمن بن جمانة الباهلي بقوله :

كأن أبا حفص قتيبة لم يسر .٠. بجيش إلى جيش ولم يعل منبرا
ولم تخفق الرايات والجيش حوله .٠. وقوف ولم يشهد له الناس عسكرا
دعته المنايا فاستجاب لربه .٠. وراح إلى الجنات عفا مطهرا
فما رزىء الاسلام بعد محمد .٠. بمثل أبي حفص فبكّيه عبهرا [٣]

---

(١) ابن الأثير، ج ٥ ص ٦ ، ٧ - محمد محمود زيتون ، الصين والعرب عبر التاريخ ، القاهرة ١٩٦٤ ص ٣٢

(٢) سيدة الكاشف ، المرجع السابق ، ص ١٢٣ - فيليب حتي ، تاريخ العرب المطول ، ج ١ ص ٢٧٥

(٣) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٢٠ . وعبهر أم ولد لقتيبة

فتح جرجان وطبرستان :

لما قتل قتيبة ولّى سليمان يزيد بن المهلب على خراسان والعراق في سنة ٩٧ هـ فوجه يزيد همه لفتح جرجان وطبرستان ، ولم يكن المسلمون قد دخلوا هذين الإقليمين أو وطأوا أراضيهما قبل ذلك [١] . ويذكر ابن الاثير أن سبب غزوهما على يد يزيد أنه لما فر من سجن الحجاج لاذ بسليمان بن عبد الملك بفلسطين وهو بعد أمير واستعاذ به هو وأخوته من الحجاج ، فلما علم الحجاج بذلك كتب إلى الوليد يخبر فرارهم ، فبعث الوليد إلى سليمان يأمره بارسال يزيد إليه ، فأرسله وأرسل معه ابنه أيوب وقيدهما بسلسلة ، فلما قدما على الوليد سأل أيوب عمه ألا يخفر ذمة أبيه وألا يقطع من سليمان رجاء السلامة في جواره ، فأمنه الوليد وعاد يزيد إلى سليمان [٢] . وكان سليمان كلما بلغه أن قتيبة فتح فتحاً ، يوبخ يزيد ، فيرد عليه يزيد بأن « هذه الفتوح ليست بشيء ، الشأن هي جرجان » [٣]

فسار إليها في مائة ألف من أهل الشام والعراق وخراسان بالإضافة إلى الموالي والمتطوعة ، وابتدأ بقهستان فحاصرها ، وكان سكانها من الترك وهم الهياطلة أو الهون [٤] ، وما زال يقاتل أهلها ويقطع عنهم المواد حتى ضعفوا وعجزوا ، فأرسل صول ، دهقان قهستان ، إلى يزيد يطلب منه أن يصالحه ويؤمنه على نفسه وأهله ، فصالحه ودخل يزيد قهستان ، صلحاً . ثم زحف منها إلى جرجان ، فدعاه أهلها إلى الصلح فأجابهم إلى ذلك [٥] .

---

(١) كان سعيد بن العاص قد صالح أهل جرجان على خراج يؤدونه إلى المسلمين ، ثم امتنعوا .

(٢) ابن الأثير ، ج ٤ ص ٥٤٧

(٣) نفسه ، ج ٥ ص ٢٩

(٤) ماجد ، ج ٢ ص ٢٥١

(٥) ابن الاثير ، ج ٥ ص ٣٠

وأطمعه فتح جرجان في الاستيلاء على مدينة طبرستان الحصينة، وكانت تعرف أيضاً باسم مازندان [١]، وتقع إلى الجنوب من بحر قزوين، وكانت تسكنها عناصر فارسية محاربة تستخدم الطبر والفأس في الحرب، فلما زحف إلى طبرستان أرسل إليه الأصبهبذ صاحبها يسأله الصلح على أن يرحل عن طبرستان، فأبى يزيد، وصمم على فتحها، فسير أخاه أبا عيينة من وجه وابنه خالد بن يزيد من وجه وأبا الجهم الكلبي من وجه ثالث، وفي هذه الأثناء استنصر الأصبهبذ بأهل جيلان والديلم وكانوا يصاقبون طبرستان من الغرب، فقدمت منهم حشود كبيرة لنصرته واشتبك أهل طبرستان ومعهم الديلم في قتال عنيف مع المسلمين، فانهزم المسلمون، وأدت هزيمة المسلمين إلى تشجيع أهل جرجان على النكث وانتقاض الصلح. فآثر يزيد أن يصالح الأصبهبذ ويتفرغ لاسترجاع جرجان، فصالحه على سبعمائة ألف، ثم انصرف يزيد إلى جرجان، وكان قد اتفق مع الأصبهبذ على أن يكتب هذا الأخير إلى صول صاحب جرجان ليستدرجه إلى البحيرة كي يتحصن بها، فإذا ما خرج من جرجان أمكن ليزيد الاستيلاء عليها، وبفضل هذه الحيلة استرجع يزيد جرجان ثم سار منها إلى البحيرة فحاصر صولا بها ستة أشهر، واضطر صول إلى طلب الصلح على نفسه وماله على أن يسلم إليه البحيرة، فأجابه يزيد إلى ذلك [٢]. ثم نكث أهل جرجان وغدروا برجاله، فسار إليها وحاصرها سبعة أشهر، ونصب عليها المنجنيق، ثم دلهم رجل من خراسان على الطريق إلى قلعتهم، فأقبل عليها المسلمون وأوقدوا النار على بابها، وافتتحها يزيد وأسر كل من كان بها، وقادهم إلى أحد الوديان، وأمر بقتلهم فقتلوا، ثم أعاد فتح جرجان ووضع الجزية والخراج على أهلها، ثم استخلف عليها جهم بن زحر الجعفي [٣]

---

(١) ياقوت، معجم البلدان، مجلد ٥ مادة مازندران

(٢) ابن الأثير، ج ٥ ص ٣٢

(٣) البلاذري، ج ٢ ص ٤١٢

فتوح السند :

اتصل العرب بالهند اتصالاً مباشراً قبــل الإسلام عن طريق التجارة البرية والبحرية ، ولهذا السبب كان لدى العرب إلمام كبير ببلاد الهنـــد وحضارتها ، ومعرفة تامة بمواردها الاقتصادية وثرواتها الطائلة ، فلما تم للمسلمين في عهد الوليد افتتاح بلاد ما وراء النهر واستولوا على بخاري وسمرقند وخجندة ، وعبروا نهر سيحون، ووصلوا إلى بلاد فرغانة وكاشغر على حدود الصين ، كان من الطبيعي أن يفكروا في فتح إقليم السند باب الهندالذي أصبح يجاور آخر الحدود الشرقية للدولة العربية الاسلامية [١] . وكانت أنظار المسلمين تتطلع إلى بـلاد الهند منذ الفتوحات الاسلامية الأولى ، فمن المعروف أن الحكم بن أبي العاص الثقفي تمكن من الوصول بحراً إلى بعض سواحل الهند في خلافة عمر بن الخطاب، وشجعته الغنائم الهائلة التي ظفر بها على مزيد من الغزوات ، فبعث بأخيه المغيرة إلى خور الديبل الواقعة على مصب السند ، فلاقي المغيرة العدو وهزمه وغنم [٢] . كما وجه علي بن أبي طالب في سنة ٣٨ هـ وأول ٣٩ هـ الحارث بن مرة العبدي إلى أرض القيقان من بلاد السند مما يلي خراسان حيث قتـــل وجميع من معه في سنة ٤٢ هـ [٣] . وغزا المهلب بن أبي صفرة ذلك الثغر في سنة ٤٤ في خلافة معاوية ، واشتبك مع أهل بنة [٤] والاهور (لاهور) وهما بين الملتان وكابـل ، ولكن هذا الاشتباك لم يسفر عن أي نتيجة . وظل المسلمون يغيرون على اقليم السند من جهة سجستان، فافتتحوا مكران عنوة وفتحوا القندهار وغزوا البوقان والقيقـان فغنموا غنائم كثيرة حتى كانت أيام الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق من قبل عبد الملك

---

(١) أحمد محمد الساداتي ، تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم، ج ١ القاهرة ١٩٥٧، ص ٥٦

(٢) البلاذري ، ج ٣ ص ٥٣٠ — أبو المعالي أطهر المباركبوري ، العقـــد الثمين في فتوح الهند، سراتير ، ١٩٦٧ ص ٤٠ وما يليها

(٣) نفسه ، ص ٥٣١ — العقد الثمين ، ص ١٠٢ ، ١١١ . والقيقان ناحية من الباكستان الغربي يقال لها اليوم قلات

(٤) يقال لها اليوم نيركوهات في باكستان الغربي

ابن مروان ، فأرسل إلى مكران سعيد بن أسلم الكلابي سنة ٨٧٥ ، فوثب عليه رجلان من العرب الخارجين على سلطان الأمويين في هذه الجهات وقتلاه [١] ، وكانا قد لقيا عند داهر ملك السند كل ترحيب ، واصطنعها فنصراه في بعض حروبه . فلما بلغ الحجاج نبأ قتل سعيد الكلابي طلب من الوليد الإذن له بتسيير حملة الى الهند ، ولكن الخليفة لم يجبه الى طلبه . وحدث بعد ذلك أن تعرضت سفينة تجارية كانت قادمة من جزيرة الياقوت (سيلان) وعليها بنات لتجار مسلمين مات آباؤهن هناك ، يحملن هدية إلى الخليفة ، تعرضت هذه السفينة لاعتداء قراصنة من ميد الديبل ، استولوا على السفينة بما عليها وأسروا النساء، فأرسل الحجاج الى داهر ملك السند يطلب منه تخليص نساء المسلمين من الأسر، فاعتذر داهر بعدم قدرته على هؤلاء القراصنة [٢] .

وما زال الحجاج يلح على الخليفة الوليد في أن يأذن له بفتح السند حتى أذن له ، فولى الحجاج ابن أخيه محمد بن القاسم الثقفي سنة ٨٩ قائداً على حملة سيرها لغزو السند . وكان محمد بن القاسم يومئذ يقيم بفارس ، فأمره أن يسير إلى الري وعلى مقدمته أبو الأسود جهم بن زحر الجعفي ، فرده إليه وعقد له على ثغر السند ، وضم إليه سته آلاف من جند الشام وجموعا أخرى كثيرة غيرهم [٣]، وجهزه بكل ما يحتاج إليه ، حتى الخيوط والإبر والمسال ، وأمره أن يقيم بشيراز حتى يتوافى إليه أصحابه ويوافيه ما أعدّه له . وعمد الحجاج الى القطن المحلوج ، فنقع في الخل الخمر الحاذق ، ثم جفف في الظل ، وأمرهم بنقعه في الماء واستخدامه في المطابخ [٤] . وزحف ابن القاسم بجموعه إلى مكران فأقام بها

---

(١) ابن الاثير ج ٤ ص ٣٨٠ — العقد الثمين ، ص ١٤٤ ، وما يليها

(٢) نفسه ، ص ٥٣٤ — العقد الثمين ، ص ١٤٩

(٣) بلغ عدد عسكره ١٢ ألفاً (الساداتي ، ج ١ ص ٥٩)

(٤) البلاذري ، ج ٣ ص ٥٣٤ ـ اليعقوبي ، ج ٢ ص ٢٨٨ ـ ابن الاثير ، ج ٤ ص ٥٣٧

أياماً ثم رحل منها الى الديبل مار أبفنزبور وأرمائيل[1] فافتتحها، وقطع بلوخستان حتى نزل على الديبل. وهناك وافته سفن كانت مشحونة بالرجال والسلاح والعدد، وانضم إليه جموع من الزط والميد، فأفاد منهم فيما بعد في معرفة مسالك الهند، فخندق بالديبل، وركزت الرماح على الخندق، ونشرت الأعلام وأنزل الناس على راياتهم، وبدأ يحاصر المدينة ثم نصب منجنيقاً يعرف بالعروس كان يرمي به خمسمائة رجل[2]، وكان بالديبل تمثال ضخم يقال له البد قائم في بناء عظيم تحت منارة شديدة الارتفاع[3]، بأعلاها دوارة تدور مع الريح هو بيت المناذكة، فأمر برميه بالمنجنيق فتهدم، فاشتدت طيرة الأهالي من هدمه واضطرب الناس، وفر عامل داهر عنها وتمكن ابن القاسم من افتتاح الديبل عنوة، واقتحم المدينة عن طريق سلالم نصبت على الأسوار وصعد إليها الرجال، وأقام المسلمون يقتلون من عارضهم فيها ثلاثة أيام، ثم اختط للمسلمين بهـا، وبنى مسجداً جامعاً، وأنزلها ابن القاسم أربعة آلاف من المسلمين[4]، ثم رحـل إلى البيرون[5]، حيث صالحه أهلها بالأمان، وجعل محمد بن القاسم لا يمر بمدينة إلا فتحها حتى اقترب من مهران، فبلـغ داهر ذلك، فتأهب لتلقيه. وفي هذه الأثناء سيّر ابن القاسم محمد بن مصعب الثقفي إلى سدوسان، فصالـح أهلها، وانصرف إلى ابن القاسم ومعه من الزط أربعة آلاف رجـل انضموا إلى قوات المسلمين. ثم عبر ابن القاسم نهر مهران ليـلاً على جسر عقده، وداهر لاه عنه، غافل بعبوره، واضطر داهر إلى الاشتباك مع المسلمين في موقعة دارت بالقرب من

---

(١) هي أرمن بيله اليوم من اقليم القيلان وتقع على ٦٠ ميلاً من كراتشي

(٢) البلاذري، ج ٣ ص ٥٣٥ – ابن الأثير، ج ٤ ص ٥٣٧

(٣) ذكر اليعقوبي أن ارتفاعه بلغ أربعين ذراعاً (اليعقوبي، ٢ ص ٢٨٨)

(٤) البلاذري، ج ٣ ص ٥٣٥ – اليعقوبي، ص ٢٨٩ – ابن الاثير ص ٥٣٧

(٥) نفسه ص ٥٣٦ – ابن الاثير، ص ٥٣٧. وذكرهـا اليعقوبي النيرون وهو الاسم الصحيح، وتقع على الضفة الغربية للسند، وكانت تعرف باسم نيرانكوت، وموقعها حيدر آباد السند حالياً (الساداتي، ص ٦٠ حاشية رقم ١ - سيدة الكاشف، الوليد، ص ١٢٥)

حصن راور ، واستخدم فيها الهنود الأفيال ، وانتهت بهزيمـــة الهنود ومصرع ملكهم داهر . فلما قتل داهر ، تغلب محمد بن القاسم على بـلاد السند ، وافتتح مدينة راور عنوة ، وكانت بهذه المدينة امرأة لداهر ، فخافت ان تؤسر ، فآثرت الموت على الحياة أسيرة ، فأحرقت نفسها وجواريها [١] .

ثم زحفت جيوش المسلمين بعد ذلك نحو الشمال الشرقي حتى وصلوا إلى مدينة برهمنا باد العتيقة ، وكان قد لجأ إليها فل داهر بقيادة ابنه جاي سنك وامتنعوا بها ، فقاتلهم ابن القاسم ، وافتتح المدينة عنوة ، وقتل بها ثمانية آلاف ، وفر ابن داهر الى الشمال ولاذ بالرور العاصمة . وأقام ابن القاسم بهـــذه المدينة فترة من الوقت نظم فيها إدارة الأقاليم التي افتتحها ، وعامل رؤساء المنادكة من رجـال الدين بها معاملة حسنة ، وأطلق لهم حرية العبادة على ان يدفعوا ما فرضه عليهم من الجزية [٢] . ثم واصل الزحف الى الرور عاصمة داهر ، مـاراً بساوندري وبسمد ، فصالـح أهليها ، فأسلموا ، وانتهى محمد إلى الرور ، وكانت مقامة على سفح جبل ، فحاصرها أربعة أشهر ، وكان يتولى الدفاع عنها ابن داهر ، فأوهم أهلها بأن داهر لم يمت وإنما اختفى فترة ليعود إليهم بعد ذلك ومعه الامدادات ، فاستبسل أهلها في محـــاربة المسلمين ، وفطن ابن القاسم إلى سبب مقاومتهم الضارية ، فأتى بأرملة لداهر كان قد أسرها في برهمناباد تدعى لادهي ، فخاطبت قومها وقالت : « إن الملك قد قتل ، فاطلبوا الأمان » ، ففت هذا النبـــأ في عضدهم ، ودب اليأس في نفوسهم ، فطلبوا الأمان ونزلوا على حكم ابن القاسم ، وفتحوا له باب مدينتهم ، فدخلها [٣] .

وما زال ابن القاسم يفتتح المدن والمعاقل حتى قطع نهر بياس أحـد روافد

(١) البلاذري ، ج ٣ ص ٥٣٧ ـ ابن الاثير ، ج ٤ ص ٥٣٨ ـ الساداتي ، ج ١ ص ٦١

(٢) الساداتي ، ج ١ ص ٦٢

(٣) اليعقوبي ، ج ٢ ص ٢٨٩

السند ، ووصل إلى مدينة الملتان أكبر مدن السند الأعلى وأحصنها على الإطلاق ، فقاتله أهلها وقاوموه ، وطال حصار المسلمين للمدينة حتى نفدت أزوادهم ، فأكلوا الحمر ، ثم أقبل عليهم رجل مستأمن دلهم على مدخل الماء الذي يشرب منه أهل المدينة ، فغوّره ابن القاسم ، وأرغمهم بذلك على النزول على حكمه ، فقتل منهم المقاتلة وسبى الذرية ، كما سبى سدنة البد وهو معبد الهنادكة وعدتهم ستة آلاف ، وغنم منه ذهباً كثيراً ، وكنوزاً نفيسة .[1] وأقبل عليه بالملتان عدد كبير من الأعيان والتجار وأرباب الحرف من المناطق المجاورة بعد أن سمعوا عن تسامحه وعدله ، وكان هؤلاء السكان يعانون كثيراً من جور البراهمة ، فأحبوه[2] . ولم يقنع ابن القاسم بما وصل إليه من فتوحات في إقليم السند الأدنى ، إذ كان يتطلع إلى فتح إمارة كنوج أعظم إمارات الهند ، وكانت تمتد من السند إلى البنغال ، فكتب إلى الحجاج يستأذنه في فتحها ، فأذن له ، فأخذ محمد بن القاسم يتأهب لما هو مقبل عليه ويجهز حملته الى هذه الإمارة عندما وصلته وهو بالملتان الأنباء بوفاة الحجاج في شوال سنة ٩٥ هـ . ومع ذلك فلم يتردد عن إنفاذ حملته إلى الكيرج ، فتصدى له دوهر وقاتله ، فانهزم دوهر وذكروا أنه قتل[3] . ثم توفي الوليد في سنة ٩٦ هـ وآلت الخلافة إلى أخيه سليمان الذي كان ينقم على الحجاج وصنائعه ، لتأييده الوليد عندما عزم على جعل ولاية العهد لابنه عبد العزيز بدلاً من أخيه سليمان . فولى سليمان على السند يزيد بن أبي كبشة بدلاً من ابن القاسم السكسكي وأمره بأن يبعث به مقيداً إلى الشام ، فسيره مقيداً مع معاوية بن المهلب ، فبكى أهل الهند على محمد وصوروه بالكيرج[4] . فلما وصل

---

(١) البلاذري ، ج ٣ ص ٥٣٨ – ابن الأثير ، ج ٤ ص ٥٣٩

(٢) الساداتي ، ص ٦٣ – سيدة الكاشف ، ص ١٢٦

(٣) البلاذري ، ج ٣ ص ٥٣٩ – ابن الأثير ، ج ٤ ص ٥٨٨

(٤) نفسة ، ص ٥٣٩

إلى العراق حبسه صالح بن عبد الرحمن بواسط ، وتعرض في سجنه للتعذيب على أيدي أعوان سليمان وأعداء الحجاج من آل المهلب حتى توفي ، فارسلوا رأسه الى الخليفة بدمشق .

ولم يكد ابن أبي كبشة يقضي في السند ثمانية عشر يوماً حتى مات ، واستغل جاي سنك (جيشبة) ابن داهر هذه الفرصة فوثب على برهمنا باد واستردها ، واضطرب السند ، وأخل الجند الذين كانوا قد قدموا مع ابن القاسم بمراكزهم ، فعاد جند كل بلد إلى بلدهم [١] . فأرسل سليمان حبيب بن المهلب ، فنزل على شاطىء مهران ، وأخضع أهل الرور .

ثم توفي سليمان واستخلف عمر بن عبد العزيز ، فسيّر عمراً بن مسلم الباهلي عاملا إلى السند ، وأوصاه بالرفق بأهل السند وتشجيعهم على اعتناق الاسلام ، فأقبل في ولايته عدد كبير من أبناء السند على الاسلام ، وأسلم جاي سنك بن داهر أيضاً [٢] .

ثم آلت ولاية السند في عهد هشام بن عبد الملك الى جنيد بن عبد الرحمن المري ، وتمكن جنيد من استرداد إمارة برهمنا باد من جاي سنك بعد أن أسره ثم قتله ، ونجح جنيد في بث السرايا والغارات حتى بلغت غزواته يوجين ومالوه والكجرات في شرق السند وجنوبه الشرقي [٣] . ثم تولى تميم بن زيد العتبي ، وفي أيامه زاد خروج المسلمين عن بلاد الهند ، الأمر الذي أدى إلى تقلص ملك المسلمين في السند ، وارتداد الكثيرين من الهنود الى الهندوكية . وظل الأمر كذلك الى أن تولى إمارة المسلمين الحكم بن عوانة الكلبي وبصحبته عمرو بن محمد ابن القاسم الذي استأثر بالحكم من بعده ، وقد أسس الحكم مدينة اسلامية بالقرب من شاطىء السند غير بعيد من برهمنا باد سماها المحفوظة ، ونزلها ، كما بنى عمرو بن محمد مدينة لا تبعد عن المحفوظة سماها المنصورة وذلك

---

(١) اليعقوبي ، ج ٢ ص ٢٩٦

(٢) البلاذري ، ص ٥٤٠ — ابن الاثير ، ج ٤ ص ٥٨٩

(٣) الساداتي ، ج ١ ص ٦٨

بعد عودته مظفراً من إحدى الغزوات . واستخلص عمرو ما كان قد غلب عليه العدو من المدن وسار سيرة أبيه ،فرضى الناس بولايته[١] .

ب – اتساع رقعة الدولة العربية في غرب العالم الاسلامي :

(١) فتوح المغرب :

رأينا فيما سبق كيف تمكن المسلمون في حملة عبدالله بن سعد على إفريقية من التغلب على جريجوريوس وقتله ، وكيف انتهت الحملة باستيلائهم على سبيطلة ، وعقد معاهدة صلح بينهم وبين حاكم إفريقية الجديد الذي أقامه الأفارقة على أنفسهم . وشغل العرب بعد ذلك بفتنة الأمصار ، ولم يعاودوا الاغارة على إفريقية منذ سنة ٢٨ هـ حتى سنة ٣٨ هـ ، وهي السنة التي تولى فيها عمرو ولاية مصر من قبل معاوية . وكان عمرو بن العاص يضع فتح إفريقية على رأس جدول أعماله ، إذ كانت مغانمها الكثيرة التي أسفرت عنها حملة ابن سعد عاملاً رئيسياً في تحريك مطامعه . فما إن استقر الأمر لمعاوية بعد أن تنازل الحسن له عن الخلافة في سنة ٤١هـ حتى استأنف بث السرايا والبعوث في برقة وطرابلس، وتمكن قائده عقبة بن نافع من فتح غدامس وودان سنة ٤٢ هـ[٢] .

ولما توفي عمرو بن العاص في سنة ٤٣هـ (٦٦٤ م) فصل معاوية ولاية إفريقية عن مصر ، واعتبرها من بين الولايات الاسلامية التي تتبع دمشق مباشرة ، فأقام عليها عقبة بن عامر الجهني بعد أن عزل عبدالله بن عمرو عنها،ثم ولّى معاوية بن حديج التجيبي رئيس حزب العثمانية في مصر على قيادة الجيوش في إفريقية متجاهلاً بذلك عقبة بن نافع الذي كان ما يزال يقوم بالغزو في نواحي برقة والواحات .

---

(١) البلاذري ، ج ٣ ص ٥٤٣ – ابن الأثير ، ج ٤ ص ٥٩٠ – السلاوي ، ج ١ ص ٦٩

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٥ – أبو المحاسن بن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، القاهرة ١٩٢٩ ص ١٢٤

المرحلة لأولى :

وكانت إفريقية في تلك الأثنـاء تموج بالفوضى ، إذ أرسل قنسطانز الثاني امبراطور بيزنطة إلى إفريقية بطريقاً يسميه العرب أوليمة لمطالبة أهلها بأن يقدموا إليه ثلاثمائة قنطار من الذهب على نحو مـا فعلوه مع ابن سعد ، فأبى الوالي القديم جناحه (لعله جناديوس) [١] أن يعطيه شيئاً ، واضطر أوليمة إلى إبعاده من إفريقيـــة ، فسار إلى دمشق ، ووصف لمعاوية سوء الأحوال في إفريقية ، وسأله أن يبعث معه جيشاً إلى المغرب [٢] ، فاستجـــاب معاوية لرجائه وسيّر معه معاوية بن حديج،فلما وصلوا إلى الاسكندريه توفي جناحه ، ومضى ابن حديج في طريقه إلى إفريقية ، فوصلها وهي نار تحتدم [٣]. ويعتقد الدكتور حسين مؤنس أن نزاعاً شديداً بين البيزنطيين وأهل إفريقية كان يقسم البلاد ويمزق أهلهـا شيعاً وأحزاباً ، إذ كان الامبراطور البيزنطي في ظروف مالية سيئة مما اضطره إلى الضغط على سكان إفريقية ، وقد حمل ذلك أهـــل هذه البلاد إلى اعتبار العرب منقذين لهم ممـــا كانوا يلاقونه من نير الروم[٤] ، وأدى النزاع القائم بـين الأهالي والحكومة البيزنطية إلى قيام الأفارقة بطرد عامل الامبراطور من البلاد فعاد إلى بلاده [٥] .

خرج معاوية بن حديج من مصر في سنة خمس وأربعين على رأس جيش ضخم

---

(١) Julien, Histoire de l'Atrique du no d, p. 15 .

(٢) ابن عذاری ، ج ١ ص ١٧

(٣) نفسه ، ص ١٧

(٤) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ١١٥

(٥) نفس المرجع ، ص ١٢٠

لغزو إفريقية[١] ، حتى وصل إلى قرطاجنة في موضع يعرف بقمونية [٢] هو نفس الموقع الذي تقوم عليه القيروان[٣] ، وكان الامبراطور البيزنطي قد سبق المسلمين فأرسل إلى إفريقية بطريقاً يقال له نجفور (لعله نقفور) في ثلاثين ألف مقاتل لإرغام الأهالي على دفع الجزية ، فلم يلبث جيش ابن حديج أن اشتبك مع جيش نجفور في قمونيـــة ، فانهزم البيزنطيون عند أول اشتباك وتحصنوا داخل أسوار سوسة ، فقدمت قوات ابن حديج شمالاً وعسكرت في موضع مرتفع من جبل يعرف القرن [٤] ، ومن هناك سير جيشين ، أحدهما بقيـــادة عبدالله بن الزبير ووجهته سوسة ، تمكن من الاستيلاء عليها بسهولة ، والثـاني بقيادة عبد الملك بن مروان ووجهته جلولاء ، فحاصرها أياماً ثم قفل عائداً ، وحدث اثناء انصرافه أن تهدم سور جلولاء فدخلها ووقعت غنيمة باردة في أيدي المسلمين [٥] . ثم مضى معاوية بن حديج شمـــالاً وافتتح بنزرت [٦] . ويذكر البلاذري أنه غزا صقلية لأول مرة في سنة ٤٦ هـ[٧] ، ثم اختتم غزواته في إفريقية بفتح جزيرة جربة ، فقد سير رويفع بن ثابت الأنصاري لفتحها ، ففتحهـا سنة ٤٧ [٨] قبل أن يعزله معاوية عن ولاية المغرب في سنة ٤٨ هـ

---

(١) راجع التفاصيل في كتاب المغرب الكبير ، ج ٢ ص ١٧٨ - ١٨٢

(٢) المالكي ، ص ١٨ ـ السلاوى ، الاستقصا لأخبار المغرب لأقصى ، الدار البيضاء ، ١٩٥٤ ج ١ ص ٧٧

(٣) نفسه ، ص ١٨

(٤) نفسه ، ص ١٨ ـ السلاوي ، ج ١ ص ٧٦

(٥) البكري ، المغرب في أخبـــار إفريقية والمغرب ، ص ٣٢ ـ ابن عذارى ، ج ١ ص ١٧ ـ ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٢ ص١٥٦

(٦) البكرى ،ص ٥٨ ـ ياقوت مجلد١ ص ٥٠٠

(٧) البلاذرى ، ج ص ٢٧٨ ـ ابن عذارى ، ج ١ ص ١٨

(٨) البكري ، ص ١٩ ـ المالكي ، ص ٥٣ ـ ياقوت ، مجـلد ٢ ص ١١٨ النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ١٣٢

المرحلة الثانية :

بتولية عقبة على إفريقية تبدأ مرحلة هامة من تاريخ فتح العرب للمغرب ، لأن عقبة ، وكان تابعياً جليلاً ، شارك في الغزوات الأولى التي قام بها العرب على برقة وافريقية ، واكتسب خلال السنين الطويلة التي قضاها في برقة وطرابلس خبرات لافريقية واسعة نتيجة لاحتكاكه بالسكان ، وقد كسب الاسلام بجهود عقبة مكاسب هائلة ، فقد كان عقبة قوي الايمان بدينه ، شديد الحماس للبشره ، وكان فتحه لبرقة فتحاً حربياً ومعنوياً في آن واحد بسبب تحول سكان هذا الاقليم إلى الإسلام .

خرج عقبة إلى المغرب في سنة ٤٩ بعد رحيل معاوية بن حديج إلى مصر ، وقضى ما يقرب من ستة أشهر يخضع خلالها الواحات الداخلية في برقة ، فافتتح ودان وجرمة وفزان وخاوار . ثم عاد إلى سرت وخرج بجيش ضخم إلى إفريقية متجنباً الطريق الساحلية ، التي تربط سرت بقابس حتى وصل إلى غدامس فافتتحها ، وافتتح وقفصة وقصطيلية من إقليم الجريد [١] . وقد أدرك من خلال تجربته السابقة أن أهل إفريقية يدخلون في طاعة العرب ، طالما بقي العرب في بلادهم ، فإذا ما انصرف العرب عن البلاد شقوا عليهم عصا الطاعة وارتد من دخل منهم في الإسلام إلى النصرانية ، وكانت برقة وزويلة قاعدتا الفتح العربي للمغرب متطرفتين للغاية عن إفريقية مما كان يساعد أهل إفريقية على الخروج على العرب في كل مرة ينتهون فيها من غزوهم لها . فرأى عقبة أنه لفتح هذه البلاد يتحتم على العرب إنشاء قاعدة عربية إسلامية في إفريقية أو معسكراً ثابتاً للمسلمين ، فاختط القيروان سنة ٥٠ في موضع داخلي يقيها

---

(١) ابن عبدالحكم ، ص ٢٦٤ - الاستبصار في عجائب الأمصار ، الاسكندرية، ١٩٥٨ ص ١٤٧

التعرض لغزوات البيزنطيين البحرية ويتوافر فيه طيب المراعي [١] ، وشرع في تأسيس المسجد الجامع ودار الإمارة وأمر الناس بتشييد دورهم ومساجدهم بها ، فعمرت القيروان بمختلف أنواع المباني والمنشآت، وشد الناس اليهاالرحال، فاتسعت بالأسواق والمرافق، ودامت حركة البناء ، فيها نحواً من خمس سنوات، واكتملت عمارتها في سنة ٥٥ هـ ، وسوّرت المدينة بسور من اللبن والطين ، هدم في عهد زيادة الله بن الأغلب[٢] . وقـــدر للقيروان أن تصبح حاضرة المغرب الإسلامي كله في عصر الخلافة الأموية إلى أن انفصل المغرب عن الدولة العباسية في أواخر القرن الثاني للهجرة وتكونت فيه إمارات مستقلة .

وبتأسيس القيروان أخذت إفريقية تظهر كولاية هامة من ولايات الدولة العربية الاسلامية ، فتطلعت إليها أنظار الطامعين في ولايتها .

المرحلة الثالثة :

لم تطل ولاية عقبة على افريقية أكثر من خمس سنوات ، فقد عزله معاوية ابن أبي‌سفيان في سنة ٥٥ هـ (٦٧٤ م) نتيجة لسمايات مسلمة بن مخلد الأنصاري والي مصر الذي كان يحسد عقبة على انتصاراته المتتابعة ، وأقـــام مسلمة على إفريقية مولاه أبا المهاجر دينار ، فقدم إلى إفريقية وأساء عزل عقبة .

وكان أبو المهاجر يتميز عن عقبة بالدهاء وحسن السياسة ، وكان يرى أن يصطنع بربر افريقية وخاصة البرانس منهم ، فيكتسب مودتهم ويضمن انضواءهم تحت لوائه وعدم انحيازهم الى البيزنطيين ، ثم ركز قواه الى مهاجمة البيزنطيين ، فزحف الى المغرب الأوسط ، وغزا قبائـــل أوربة البربرية وهم من البرانس

---

(١) راجع التفاصيل في المغرب الكبير ، ج ٢ ص ١٩٩ - ٢٠٧

(٢) اليعقوبي، كتاب‌البلدان، طبعة ليدن ١٨٩٢ ، ص ٣٤٧

واستطاع بحسن سياسته أن يجتذب اليه كسيلة بن لزم زعيم هذه القبائل ،وكان نصرانياً فأسلم ، واستخدمه أبو المهاجر في الاستيلاء على تلمسان ، ثم شن على قرطاجنة هجوماً كبيراً في سنة ٥٩ ، ٩ ٦ م) ولم يتركها الا بعد أن تخلى له البيزنطيون عن القسم الواقع جنوبي إقليم قرطاجنة [١] .

المرحلة الرابعة :

لما توفي معاوية في سنة ٦٠ هـ وخلفه ابنه يزيد بادر بعزل أبي المهاجر دينار ورد عقبة الى ولاية افريقية ، فقدم اليها عقبة وهو ناقم على أبي المهاجر بسبب إهانته له يوم عزله ، فما كاد يتولى إفريقية حتى قبض عليه وأوثقه في الحديد [٢] . ثم عزم على الغزو ، وخرج غازياً غزوته الكبرى التي وصل فيها إلى المحيط الأطلسي ومعه جموع من بربر أوربة عليها كسيلة ، واشتبك مع البيزنطيين في باغاية وقرطاجنة واستولى عليها ثم حاصر المستير ودخلها، ودخل الزاب، وقاتل البيزنطيين مرة ثانية على وادي المسيلة وهزمهم ، ثم تصدوا له من جديد ومعهم بربر لواته وهوارة وغيرهم ، فقاتلهم عقبة قتالاً شديداً حتى هزمهم ، ويبدو أنه أساء إلى كسيلة في هذه الآونة وأهانه ، فخرج هووأصحابه عن طاعته [٣]،وفروا جميعاً من معسكره ، وسنرى كيف انتقم كسيلة لنفسه من عقبة أثناء عودته من هذه الغزوة .

انطلق عقبة بجيشه مخترقاً أرض المغرب ، هازماً كل من اعترضه من البيزنطيين ومن حالفهم من البربر ، حتى وطئت جيوشه لأول مرة أرض المغرب

---

(١) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ١٧٠ - ١٧٦ ، فجر الأندلس ، القاهرة ، ١٩٥٩ ص ٤٠

(٢) ابن الأثير ، ج ٤ ص ١٠٥

(٣) نص عبيدالله بن صالح،نشره ليفي بروفنسال في مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية مدريد ، ١٩٥٤ ، ص ٩ ٢

الأقصى وانتهى إلى مدينة إيغيران يطتّوف الواقعة على ساحل المحيط الأطلسي، ثم عاد من حيث أتى ماراً بتارنا ورباط شاكر حتى بلغ طنجه ، ومنها اتجه إلى المغرب الأوسط . فلما بلغ مدينة طبنة أرسل أكثر فرق جيشه من طريق آخر ولم يستبق معه سوى خمسة آلاف ، سار بهم إلى مدينة تهودة ليستولي عليها ويتخذها قاعدة لقواته في منطقة أوراس ، وما كاد يقترب منها حتى ألفى نفسه مطوقاً من حشود بربرية هائلة عدتها خمسون ألفاً يقودهم كسيلة ، ودارت بينه وبين كسيلة موقعة سريعة انتهت باستشهاده ، واستشهد معه عدد كبير من المسلمين [٣] سنة ٦٣ ،ودوى خبر مصرعه في إفريقية والمغرب ، فقرر زهير بن قيس البلوي نائب عقبة على القيروان ، أن ينسحب بالحامية العربية إلى برقة قبل أن يفاجئهم كسيلة بالهجوم ، وأقبل كسيلة بعسكره فاستولى على القيروان في سنة ٦٤ هـ [٤] .

المرحلة الخامسة :

ثم توفي يزيد بن معاوية سنة ٢٤ هـ (٦٨٢ م) وبويع لمروان بن الحكم ، ولكن عهده لم يطل ، إذ توفي بعد عام واحد من خلافته ، وخلفه ابنه عبد الملك ، فبعث زهير بن قيس في حملة لاسترجاع القيروان سنة ٦٩هـ ، فسار زهير إلى إفريقية على رأس جيش كثيف من جنود الشام ، فلما بلغ كسيلة قدومه إليه رحل عن القيروان، واشتبك مع الجيوش العربية ومن انضم إليها من موالي البربر في موقعة عرفت بساقية ممس على مرتفع من هضبة تتصل بجبال أوراس،فانتصر المسلمون انتصاراً ساحقاً وقتل كسيلة ، ودخل زهير القيروان، ثم تركها بعد أن نظّم إدارتها ، وشرع في القفول إلى مصر زاهداً في إمارة إفريقية ، وفي أثناء

---

(١) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ، ص ٣٩ - المغرب الكبير ، ج ٢ ص ٢٢٨

(٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ٣١

عودته قطع عليه البيزنطيون الطريق عند درنة ، ودارت بينه وبينهم معركة لقي فيها زهير حتفه [١] .

ولما استشهد زهير ببرقة اضطربت بلاد المغرب من بعده ، واضطرمت بها نار الفتن ، وافترق أمر البربر ،وتعدد سلطانهم في رؤسائهم ، وظهرت من بينهم امرأة بربرية تزعمتهم يقال لها الكاهنة الزناتية . وانقضت بعد مقتل زهير أعوام أربعة توقف فيها الفتح لانشغال عبد الملك بن مروان بفتنة ابن الزبير في الحجاز والعراق . فلما قضى عبد الملك على الفتنة في سنة ٧٣هـ لم يتردد في استعادة المغرب، فسيّر لهذا الغرض جيشاً ضخماً جعل على قيادته قائداً قديراً هو حسان ابن النعمان الغساني [٢] ، فزحف إلى إفريقية في سنة ٧٤هـ (٦٩٣ م) ، وهاجم قرطاجنة القاعدة البيزنطية في إفريقية ودخلها بالسيف ،ودمر عمرانها وسوّاها بالأرض [٣] . ثم تفرغ بعد ذلك لمواجهة الكاهنة واشتبك مع قواتها في موقعة دارت على نهر يسمى البلاء ، ويسمونه وادي مسكيانة [٤] ، فانهزم حسان هزيمة شنعاء وأسرت الكاهنة من رجاله ثمانين رجلاً ، وتراجع المسلمون إلى برقة ، وخرجت إفريقية على هذا النحو من أيدي العرب .

المرحلة السادسة :

أقام حسان في برقة ما يقرب من أربعة سنوات يترقب النجدة التي وعده بها عبد الملك بن مروان، فلما كانت سنة ٨٠ هـ ، أرسل إليه عبد الملك إمدادات ضخمة، وذلك بعد أن قضى تماماً على حركات الخوارج في سنة ٧٨ هـ ، وذكر

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٣ - نص عبيد الله بن صالح ، ص ٢٢١ - تاريخ المسلمين في الاندلس ، ص ٤١

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٤

(٣) نفسه ، ص ٣٥

(٤) البكري، ص ٥٠

المؤرخون أن عدة هذه القوات التي وصلت إليه بلغت أربعين ألف مقاتل ، لم تشهد إفريقية قوات تماثلها ضخامة من قبل ، وأدركت الكاهنة بوصول هذه القوات عجزها عن مواجهتها ، فأخذت تتراجع موغلة في جبال أوراس ، وما زال حسان يطاردها حتى اشتبك معها في سنة ٨٢ هـ (٧٠١ م) عند موضع يقال له بئر الكاهنة [١] يقع قريباً من طبرقة ، فهزمها هزيمة نكراء ، وسحق جيشها وأباده ، ولقيت الكاهنة مصرعها . واستقامت البلاد لحسان ، فعزم على مواجهة البيزنطيين الذين استردوا قرطاجنة ، فما كاد يقترب منها حتى فر البيزنطيون بحراً [٢] . فقرر حسان أن يقيم تجاه قرطاجنة مدينة إسلامية تقع على البحر وتشرف على مدخل قرطاجنة ، فبنى تونس إلى الشرق من قرطاجنة في موضع تنيس القديمة ، وأنشأ فيها حسان داراً لصناعة الاسطول [٣] كما أسس فيها مسجداً جامعاً وداراً للإمارة وثكنات للجند ، وقدّر لهذه المدينة أن تصبح من أعظم مدن المغرب .

وبعد أن فرغ حسان من القضاء على مقاومة البربر والبيزنطيين معاً وجّه عنايته لتنظيم البلاد إدارياً على نحو ما فعله العرب في مصر والشام والعراق بعد الفتوحات ، فدوّن الدواوين ، ونظم الخراج ، وبعث العمال على سائر بلاد المغرب ، وعمل على تعريب البلاد ونشر الاسلام ، ووزع الفقهاء في أنحاء المغرب لتعليم البربر قواعد الدين واللغة ، فأقبل البربر على الاسلام في حماس منقطع النظير ، وأخلصوا له ، وجنّد حسان منهم أجناده حتى أصبح معظم جيشه منهم . وهكذا فتح حسان بلاد إفريقية حربياً ومعنوياً في آن واحد ،

---

(١) نص عبيدالله بن صالح ، ص ٢٢٣

(٢) البكري ، ص ٣٧

(٣) نفسه ، ص ٣٨

واستطاع أن يحول إفريقية إلى ولاية اسلامية قلباً وقالباً (١) .

المرحلة السابعة :

ولم يتح لهذه السياسة الحكيمة التي أثمرت سريعاً أن تستمر ، فقد عزله عبد العزيز بن مروان والي مصر من قبل عبد الملك في سنة ٨٥ هـ (٧٠٥م) ، وولى على إفريقية أحد ثقاته وهو موسى بن نصير ، وكان من أقدر رجال الدولة الأموية وأكثرهم كفاية .

وتابع موسى الفتوحات المغربية بنشاط وهمة ، فخرج غازياً إلى طنجة ، وقد عزم عزماً أكيداً على استكمال فتح المغرب كله ، وفي سبيل ذلك اتبع كل وسائل العنف والإرهاب مع البربر ، فطارد قبائل البربر وقتل منهم أعداداً كبيرة ، وأخذ يغرس بذور الرعب والذعر في نفوسهم ، وكان موسى يهتم في حروبه بما يجنيه من مغانم وسبي دون أن يحفل بما كانت تثيره هذه الغزوات في نفوس الوطنيين من سوء الظن بالعرب والكراهية لهم ، وعلى الرغم من أنه نجح في فتح المغرب كله إلا أن سياسته التعسفية مع البربر أدت مع مرور الزمن إلى إقامة حواجز فاصلة بين العرب والبربر وإلى انحراف كثير من السكان إلى تقبل مذاهب ثورية من خارجية وصفرية وشيعية (٢) .

ولم تستعص على موسى من بلاد المغرب سوى مدينة سبتة لمناعتها ووصول الامدادات إليها من إسبانيا القوطيه .

---

(١) ابن عذاري ، ج ١ ص ٣٨

(٢) حسين مؤنس ، فجر الاندلس ، ص ٤٧ - المغرب الكبير ، ج ٢ ص ٣٠١ وما يليها .

(٢) فتوح الأندلس :

كان يحكم سبتة من قبل القوط الغربيين [١] حاكم يقال له جوليان ويسميه العرب يليان أو اليان [٢] ، كما كان يحكم اسبانيا القوطية ملك يقال له Roderick ويسميه العرب لذريق كان حاكما على قرطبة [٣] ، ثم وثب على العرش القوطي وانتزعه من الملك الشرعي غيطشة Witiza ، وتغلب على وقلة Achila ابن غيطشة ، ففر وقلة إلى المغرب ولاذ بيليان في سبته [٤] وحثه على مساعدته في فتح الأندلس ، فلم يجد يليان ـ وكان يكره لذريق المتسور على ملك القوط ـ بدا من الاتصال بطارق بن زياد والي طنجة من قبل موسى بن نصير . وبادر طارق بإبلاغ مولاه بما عرضه عليه يليان ، فرحب موسى بذلك [٥] إذ كان يطمع في المزيد من الفتح والجهاد ، فكتب موسى إلى الوليد بن عبد الملك يبلغه بما ذكره يليان من تذليل مهمة موسى في فتح الأندلس. ولكن الوليد تردد في الأمر ، وخاف على المسلمين أن يغرر بهم موسى في بحر شديد الأهوال [٦] ، وأمر موسى بأن يتروى في الأمر ، وأن يختبر هذه البلاد أولا بالسرايا . فسيّر موسى قائداً من قواده يقال له طريف بن مالك المعافري على سرية من خمسمائة مقاتل أعد لهم يليان السفن ، فعبروا الزقاق ، ونزلوا بجزيرة لاس بالوماس [٧] الواقعة

---

(١) أخبار مجموعة في فتح الاندلس ، مدريد ، ١٨٦٧ ص ٤

(٢) البكري ، ص ١٠٤ ـ Saavedra, Estudio Sobre la invasion de los Arabes en Espana, Madrid, 1892, p. 48. ـ المغرب الكبير ، ج ٢ ص ٢٦٣ ـ

(٣) Dozy, Histoire des Musulmans d' Espagne, Leyde, 1932, p.70

(٤) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٩ ـ Saavedra, op. cit. p 54

(٥) ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس، مدريد ١٩٢٦ ص ٨ ـ أخبار مجموعة ، ص ٦ ـ ابن عذاري ، ج ٢ ص ٦

(٦) أخبار مجموعة ، ص ٦ ـ المقري ، نفح الطيب ، طبعة محيي الدين عبد الحميد، ج ١ ص ٢٣٧

(٧) Saavedra, p. 64

على مقربة من مدينة طريف الحالية التي سميت باسمه لنزوله فيها ، وذلك في رمضان سنة ٩١ هـ (يوليو ٧١٠ م) وعاد طريف من غزوته ظافراً غانماً ، فأمن موسى إلى يليان واستوثق منه، واشتد عزمه على فتح الأندلس .

واختار موسى على الحملة التي أعدها لفتح الأندلس قائداً من قواده المعروفين بحسن القيادة والبلاء هو طارق بن زياد البربري ، فأمّره على سبعة آلاف رجل جلهم من البربر [١] من رهائن المصامدة [٢] . وأبحرت حملة طارق من ميناء طنجة في ٥ رجب سنة ٩٢ هـ (أبريل سنة ٧١١ م) في السفن التي وضعها يليان تحت تصرف المسلمين وبعض السفن التي أنتجتها دار الصناعة بتونس، واختلفت السفن بالرجال والخيل ما بين شاطىء طنجة وجبل كالبي [٣] على الشاطىء الجنوبي من إسبانيا، الذي عرف منذ ذلك الحين بجبل طارق. ولما توافت جموعه زحف بحذاء الساحل شمالاً ، فاستولى على قرطاجنة الجزيرة ، ثم اتجه غربا إلى الجزيرة الخضراء . وكان لذريق وقتئذ مشغولاً بإخماد ثورة في شمال اسبانيا قام بها البشكنس في بنبلونة ، فترك هذه العمليات الحربية سريعاً وبادر بالعودة إلى عاصمته طليطلة ، وخرج من هناك بجيوش كثيفة بلغت عدتها نحو مائة الف مقاتل ، وقيل سبعين ألفاً وقيل أربعين ألفاً . فلما علم طارق بذلك كتب إلى موسى يستمده ، فأمده بخمسة آلاف من المسلمين كملت بهم عدة من معه إثني عشر ألفاً [٤] .

---

(١) أخبار مجموعة ، ص ٦ — ابن خلدون ، كتاب العبر ، ج ٤ ص ٢٥٤ — المقري ، نفح الطيب ، ج ١ ص ٢١٦ ، ٢٣٨

(٢) نص عبيد الله بن صالح ، ص ٢٢٤

(٣) Lévi - Provençal, Histoire de l' Espagne musulmane, Leiden, 1950, t. I. p. 18 .

(٤) أخبار مجموعة ، ص ٧ — المقري ، نفح الطيب ، ج ١ ص ٢٤١

ثم اشتبكت قوات لذريق مع قوات المسلمين في ٢٨ من رمضان سنة ٩٢ هـ (يوليو ٧١١ م) في موضع يقع على وادي لكة بالقرب من شذونة ، في قتال عنيف دام أياماً وانتهى بهزيمة لذريق ، وأحدث انتصار طارق في وادي لكة دوياً هائلاً في المغرب والمشرق . واندفعت جيوش المسلمين في أثر فلول القوط تستولي على المدن وتفتتح المعاقل حتى وصلت إلى طليطلة العاصمة ، فدخلتها في سنة ٩٣ هـ

ثم عبر موسى بن نصير إلى الأندلس في جيش ضخم يتألف من ١٨ ألفاً معظمهم من العرب ، وتعاون هو وطارق على افتتاح بقية الأندلس ، حتى أشرف القائدان على جبال البرت المطلة على بلاد غالة . وبينما هو يتأهب لاختراق هذه الجبال وصله رسول من الخليفة الوليد يستدعيه إليه في دمشق فلم يجد موسى بداً من إجابة الخليفة إلى طلبه ، فقفل عائداً إلى دمشق بعد أن استخلف على الأندلس ابنه عبد العزيز ، واختار له اشبيلية عاصمة له [١] . وفي عهد عبد العزيز تم للمسلمين فتح بلاد غرب الأندلس سنة ٩٥هـ (٧١٤م) وشرق وجنوب شرق الأندلس في سنة ٩٦ هـ ، واتجه بعد ذلك إلى تنظيم البلاد وإدارة شؤونها ، ولكنه قتل على أيدي قواد جيشه عندما اتهموه بالخروج على الدولة الأموية [٢] .

وقدر لمن خلفه من ولاة الاندلس أن يتوسعوا في جنوبي فرنسا ، ويبسطوا سلطان المسلمين على اقليم سبتمانيا المتاخم لشبه جزيرة أيبيريا .

---

(١) راجع تفاصيل فتح الاندلس في كتابي : تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ، ص ٧٠ - ١٠٨

(٢) راجع تفاصيل ذلك في كتاب تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ، ص ١١٢-١٠٥

- ٣ -

أهم الاحداث السياسية في العالم الإسلامي

ا - أحداث المشرق :

(١) أحداث العراق :

لما توفي معاوية بن أبي سفيان كتب أهل الكوفة إلى الحسين بن علي يبايعونه بالخلافة ، وكان مما كتبوه إليه : « إنا قد حبسنا أنفسنا علـــى بيعتك ، ونحن نموت دونك ، ولسنا نحضر جمعة ولا جماعــة بسببك [١] » . وفي هذه الآونة استدعاه الوليد بن عتبة بن ابي سفيان عامل المدينة وطالبه بالبيعـــة ليزيد ، فسام التأخير ، واحتج بأن مثله لا يعطي بيعته سراً ، وأبدى استعداده لمبايعة يزيد إذا اجتمع الناس ، ثم انصرف إلى داره ، وأقام حتى المساء . ورحل بعد ذلك إلى مكة [٢] . أما ابن الزبير فقد سبق الحسين في الرحيل إلى مكة حتى لا يرغم على المبايعة ليزيد . إذ كان يطمع في الظفر بالخلافة بعد معاوية. ولما دخل مكة ، قال : « انا عائذ بالبيت [٣] » . ولزم جانب الكعبة لا يفارقه عامة النهار .

وما كاد الحسين يصل إلى مكة ، ويعلم أهـــل مكة بوصوله ، حتى بدأوا يترددون عليه ويجتمعون عنده دون أن يحفلوا بابن الزبير. ثم والاه أهل الكوفة بالمكاتبات العديدة يسألونه القدوم عليهم ليسلموا الأمر إليه ويطردوا النعمان

---

(١) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ٤٥

(٢) أبو حنيفة الدينوري ، ص ٢٢٨ - ابن الاثير ، ج ٤ ص ١٥

(٣) ابن الاثير ، ج ٤ ص ١٧

ابن بشير عامل الكوفة . وأول ما ورد عليه كتاب حمله إليه رسولان من قبل سليمان بن صرد وجماعة من شيعة الكوفة ، وفي اليوم التالي ورد عليه رسولان آخران ومعهما خمسون كتابا من أشراف أهل الكوفة ورؤسائها ، وفي اليوم الثالث وافاه رسولان يحملان إليه خمسين كتابا أخرى . فلما أمسى ذلك اليوم ورد عليه سعيد بن عبدالله الثقفي ومعه كتاب من رؤساء أهل الكوفة ، وهكذا تتابعت الكتب على الحسين حتى ملأ بها خرجين له [١] . فرد الحسين على أهل الكوفة جميعاً بكتاب واحد دفعه إلى رسولين من أهل الكوفة يخبرهم فيه بأنه سيرسل إليهم ابن عمه مسلم بن عقيل ليتحقق بنفسه من حقيقة مشاعرهم قبل ان يقدم هو (اي الحسين) عليهم [٢] .

ووصل مسلم بن عقيل إلى الكوفة في ٥ شوال سنة ٦٠ هـ ، وبايعه من أهلها ثمانية عشر ألف رجل سراً للحسين [٣] ، وعلم النعمان بن بشير الأنصاري والي الكوفة بوصوله ، وكان رجلاً مسالماً ، فوقف موقفاً سلبياً من مسلم ، وأعلن عن موقفه بقوله : « لا أقاتل إلا من قاتلني ، ولا أثب إلا على من وثب على ، ولا آخذ بالقرفة والظنة ، فمن أبدى صفحته ونكث بيعته ضربته بسيفي ما ثبت قائمه في يدي ، ولو لم أكن إلا وحدي » [٣] . ولكن بعض أنصار الأمويين في الكوفة وعلى رأسهم عبدالله بن مسلم بن سعيد الحضرمي ، وعمارة بن عقبة كتبوا إلى يزيد بن معاوية يخبرونه بما قدم مسلم بن عقيل إلى الكوفة من أجله ،

---

(١) أبو حنيفة ، ص ٢٢٩ . وذكر ابن الأثير أن أهل الكوفة أرسلوا مع أحد رسلهم إلى الحسين مائة وخمسين صحيفة (ص ٢٠)

(٢) أبو حنيفة ، ص ٢٣٠ - ابن الأثير ، ص ٢١

(٣) نفسه ، ص ٢٣٥ - ابن الأثير ، ص ٣٠ . وذكر ابن قتيبة أنه بايع للحسين بالكوفة أكثر من ثلاثين ألفا (ص ٢٠٨)

(٤) نفسه ص ٢٣١ - ابن الاثير ، ص ٢٢

وما كان من تخاذل النعمان بن بشير نحو مسلم . فكتب يزيد إلى عبيدالله بن زياد عامله على البصرة بعهده إليه في ولاية البصرة والكوفة معاً، ويأمره بعزل النعمان والقضاء على مسلم . فلما علم مسلم بقدوم عبيدالله ، خاف على نفسه ، فلاذ بدار هانيء بن عروة المرادي [٤] في قول وهانيء بن وروقة المذحجي في قول آخر وكان هانيء هذا من أشراف الكوفة ، وطلب منه أن يضيفه ويجيره ، فأجاره هانيء على غير رغبته ، وأدخله دار نسائه ، وجعل الشيعة يختلفون إليه في دار هانيء ، فكان مسلم يبايع من أتاه منهم ويأخذ عليهم العهود والمواثيق المؤكدة بالوفاء .. وفي أثناء مقامه تهيأت له فرصة قتل عبيدالله بن زياد الذي قدم لزيارة شريك بن الأعور في منزل هانيء ، وكان شريك قد مرض مرضاً شديداً ، ولكنه لم يغتنم هذه الفرصة ويثب عليه لأمرين : الأول كراهية هانيء لقتله في داره ، والثاني كراهيته للغدر [١] .وعلم ابن زياد عن طريق جواسيسه أن مسلم ابن عقيل يقيم بدار هانيء ، فاستقدمه إليه ، فقدم إليه هانيء ، فأمره بإحضار مسلم بن عقيل ، فامتنع عن دفع ضيفه حتى يموت دونه ، فهدده ابن زياد بالقتل ، فلم يحفل بتهديده فغضب أحد أتباع ابن زياد ، وضرب هانيء بقضيب كان بيده على أنفه وجبينه حتى كسر أنفه وأسال الدماء على ثيابه ونثر لحم خديه وجبينه ، ثم أمر ابن زياد به فألقي في بيت . وبلغ مذحجا أن ابن زياد قد قتل هانئاً فأقبلوا حتى أحاطوا بالقصر ، فخرج إليهم شريح القاضي وأعلن لهم أن هانئاً لم يقتل ، فانصرفوا .

وعندما علم ابن عقيل أن هانئاً قد قتل دعا كل من بايعه من الشيعة ، فتجمعوا لديه فتقدم معهم حتى أحاطوا بقصر الإمارة ، ولكن ابن زياد أرسل إليهم من

---

(١) ابن الاثير ، ج ٥ ٢

(٢) أبو حنيفة ، ص ٢٣٣

(٣) نفسه ، ص ٢٣٥

يخوفهم المعصية ويهددهم بالعذاب ، فتفرقوا عن ابن عقيل ، فلما ألفى نفسه وحيداً قد خذله القوم مضى في أزقة الكوفة لا يدري إلى اين يذهب ، فانتهى إلى باب امرأة كندية فآوته ، ولكن ابنها مضى إلى ابن زياد ودله على مكان ابن عقيل ، وتم القبض عليه ، ثم أمر به ابن زياد فرقي به إلى أعلى القصر ، فضربت عنقه هناك فسقطت رأسه إلى الرحبة ثم سقط الجسد[1] ، اما رأسه فبعث به إلى دمشق وأما جسده فصلب[2] .

أما الحسين فلم تكن قد وصلته أخبار مسلم ، فاستبطأها وعزم على السير نحو الكوفة ، فلما هم بالرحيل أتاه ابن عباس ، وحاول أن يثنيه عن السير تخوفاً من غدر أهل العراق به ، ولكنه لم يصغ إليه بحجة ان مسلم بن عقيل كتب إليه باجتماع أهل الكوفة على بيعته ونصرته ، وعندما علم ابن الزبير بعزم الحسين على الرحيل سر في نفسه لمسيره وشجعه على إتيان الكوفة وقال : « وفقك الله ! أما لو أن لي بها مثل أنصارك ما عدلت عنها » [3] . ثم دخل أبو بكر بن الحارث بن هشام على الحسين قبل سيره ونصحه بعدم الذهاب إلى الذين غدروا على أبيه علي وأخيه الحسن ، ولكن الحسين شكره على نصيحته ولم يأخذ بها .

فلما اقترب الحسين من القادسية لقيه نفر أبلغوه بمقتل مسلم بن عقيل ونصحوه بالعودة ، وظل كلما تقدم قليلاً أقبل عليه من ينصحه بالعودة ، ولكنه واصل السير . وكان ابن زياد قد وجه الحصين بن نمير في أربعة آلاف فارس من أهل الكوفة وأمره أن يقيم فيما بين القادسية إلى القطقطانة حتى يمنع من يخرج من

---

(١) أبو حنيفة ، ص ٢٤٠ - ٢٤٢ - المسعودي ، ج ٣ ص ٥٨ - ابن الاثير ، ج ٤ ص ٢٦ - ٣٦

(٢) المسعودي ، ج ٣ ص ٦٠

(٣) نفسه ، ص ٥٦

الكوفة لنصرة الحسين . ثم سار الحسين في طريقه إلى الكوفة فتصدت له في الطريق فرقة من الفرسان منعته من السير إلى الكوفة أو العودة إلى الحجاز ، فاختار طريقه إلى كربلاء وهو في قدر ٥٠٠ فارس من أهل بيته وأصحابه ونحو مائة من الرجال (١) ، فلما وصل إلى هناك في غرة المحرم من سنة ٦١ أمر بأثقاله فحطت . ثم أرسل ابن زياد عمر بن سعد بن أبي وقاص في أربعة آلاف فارس ، فحالوا بين الحسين وأصحابه وبين الشريعة وهي موضع المـــاء ، ثم نشب القتال في ٩ من المحرم ، وتكاثر عساكر الكوفة على الحسين وأصحابه ، فلم يزل أصحاب الحسين يقاتلون ويقتلون حتى لم يبق معه غير أهل بيته ، ثم قتل علي بن الحسين ، ثم عبدالله بن مسلم بن عقيل ، وظلوا يتساقطون الواحد بعد الآخر حتي لم يبق سواه ، فحمل عليـــه مالك بن بشر الكندي فضربه بالسيف علي رأسه وعليه برنس خز فقطعه وأفضي السيف إلى رأسه فجرحه ، ثم اشتد عليه الطعان وتكاثرت عليه عساكر ابن زياد فظل يقاتل حتي قتل ، واحتز القتلة رأسه وحملوها إلى ابن زياد بالكوفة ، فأرسلها إلى يزيد بدمشق . وكان عدد القتلى من أصحاب الحسين ٧٢ رجلاً احتزت رؤوسهم وحملت على أطراف الرماح (٢) .

ثم كانت حركة التوابين برئاسة سليمان بن صرد الخزاعي تعبيراً عن ندم الشيعة علي خذلانهم للحسين بن علي وسخطهم علي بني أمية ، وتفصيل ذلك أنه لما قتل الحسين ورجع ابن زياد إلى الكوفة وتلاقت الشيعة بالتلاوم والتندم ، ورأت أن قد أخطأت خطئاً كبيراً بدعائهم الحسين وتركهم نصرته وإجابته حتي قتل إلى جانبهم ، ورأوا أنه لا يغسل عارهم والإثم عليهم إلا قتل من

(١) المسعودى ، ص ٦١ . والظاهر أن هـــذا الرقم مبالغ فيه ، فأبو حنيفة الدينوري واليعقوبي وابن الاثير يؤكدون أن عدة من كان مع الحسين ٧٢ رجلا

(٢) راجع ابو حنيفة ، ص ٢٥٠ ـ ٢٦٠ ، المسعودي ، ٦٠ ـ ٦١ ، ابن الاثـــير ، ج ٤ ص ٤٦

قتله أو القتل فيهم »[١] ، فاجتمعوا بالكوفة إلى خمسة نفر من رؤساء الشيعة هم : سليمان بن صرد الخزاعي ، والمسيّب بن نجبة الفزاري ، وعبدالله بن سعد ابن نفيل الأزدي ،وعبدالله بن وال التيمي ، ورفاعة بن شداد البجلي ، وكلهم من خيار أصحاب علي ، فاجتمع هؤلاء الزعماء في منزل سليمان بن صرد ، واتفقوا على الدعوة إلى جهاد الفاسقين قتلة سبط رسول الله ، والتوبة[٢] من الذنب الكبير في التخلف عن نصرته والتقاعس عن مؤازرته بعد أن استدعوه إليهم ،وتولية سليمان بن صرد الخزاعي رئيساً لهم باعتباره شيخ الشيعة وصاحب رسول الله .

دعا التوابون إلى مناجزة قاتلي الحسين ، وعلى رأسهم عبدالله بن زياد ،فخرج من النخيلة في ٥ من ربيع الآخر سنة ٦٥ إلى قبر الحسين ، فترحموا عليه وتابوا عنده من خذلانه ، وقضوا عنده يوماً وليلة يبكون ويتضرعون ، ثم ساروا للقاء قوات عبيدالله بن زياد وفيها الحصين بن نمير وشرحبيل بن ذي الكلاع وأدهم بن محرز وجبلة بن عبدالله الخثعمي من كبار قادة بني أمية ، فلما مر سليمان بقرقيسياء نصحه زفر بن الحارث الكلابي بالبقاء في هذه المدينة ، ولكنه أبى إلا قتال ابن زياد ، فأشار عليه زفر بالمبادرة نحو عين الوردة لاحتلال الموقع قبل أن يحتله ابن زياد وقواته ، فلما أقبلت قوات ابن زياد في جموع كثيفة عدتها ثلاثون ألف مقاتل من أهل الشام ، اشتبكوا معهم في معركة عنيفة انتهت بمصرع سليمان بن صرد وعامة زملائه وهزيمة التوابين[٣] ، وفي مصرع التوابين يقول أعشى همدان :

---

(١) ابن الأثير ، ج ٤ ص ١٥٨

(٢) دعاهم ابن صرد لأن يكونوا كبني إسرائيل إذ قال لهم نبيهم : (إنكم ظلمتم أنفسكم) (فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم) سورة البقرة ، آية ٥٤

(٣) اليعقوبي ، ج ٢ ص ٢٥٧ – ابن الأثير ، ج ٤ ص ١٨١ – ١٨٥

فساروا وهم ما بين ملتمس التقى ∴ وآخر مما جرّ بالأمس تائب
فلاقوا بعين الوردة الجيش فاصلا ∴ إليهم فحسّوهم ببيض قواضب
فجاءهم جمع من النـــاس بعده ∴ جموع كموج البحر من كل جانب
فما برحوا حتى أبيدت سراتهم ∴ فلم ينجُ منهم ثمّ غيرُ عصائب
وغودر أهل الصبر صرعى فأصبحوا ∴ تعاوَرُهم ريح الصبا والجنائب
فأضحى الخزاعي الرئيسّ مجدّلاً ∴ كأنْ لم يقاتل مرة ويحارب[1]

وتبعت هذه الحركة حركة أخرى تنسب إلى المختار بن عبيد الثقفي أحـد قواد المسلمين في العراق زمن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ، وتعرف هـذه الحركة لذلك بالمختارية . انتهز المختـار فرصة الارتباك الذي ترتب على مقتل الحسين بن علي في كربلاء ، ثم الاضطرابات التي أعقبت وفاة يزيد بن معاوية ، ومصرع سليمان بن صرد ورفاقه في عين الوردة ، وادعى في الكوفة انه موفد من قبل محمد بن علي بن أبي طالب المعروف بابن الحنفية ، للأخذ بثأر الحسين ، ونجح المختار في ضم بقايا التوابين ، واستجاب له كثير من الشيعة ، واتفقوا على الرضا به ، ولم يزل أصحابه يكثرون وأمره يقوى حتى استعمل عبدالله ابن الزبير عبدالله بن مطيع على الكوفة في رمضان سنة ٦٦ هـ ، فعـزم على إظهار دعوته ، واستمال بإبراهيم بن الأشتر ، فعرض عليه كتاباً من محمد بن الحنفية نصه : « من محمد المهدي إلى إبراهيم بن مالك الأشتر ، سلام عليك فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو ، أما بعـد ، فإني قد بعثت إليكم وزيري وأميني الذي ارتضيته لنفسي وأمرته بقتال عدوي والطلب بدماء أهل بيتي فانهض معهم بنفسك وعشيرتك ومن أطاعك فإنك إن نصرتني وأجبت دعوتي

---

(١) المسعودي ج ٣ ص ٩٦ - ابن الاثير ، ج ٤ ص ١٨٨

كانت لك بذلك عندي فضيلة. ولك أعنة الخيل وكل جيش غاز وكل مصر ومنبر وثغر ظهرت عليه فيما بين الكوفة وأقصى بلاد الشام[١] » . وعند ذلك بايعه ابراهيم بن الأشتر، وبفضل معونة ابن الأشتر تمكن المختار من اقتحام قصر الإمارة بالكوفة وطرد عبدالله بن مطيع عامل ابن الزبير على الكوفة ، وبايعه على أثر ذلك أشراف الكوفة على كتاب الله وسنة رسوله والطلب بدماء أهل البيت وجهاد المُحِلّين والدفع عن الضعفاء . وأصبح المختار وقد غلب على الكوفة ودانت له العراق وأذربيجان وهمذان وأصبهان والري ، فولاها بعض عماله[٢]. ثم عقد المختار ليزيد بن أنس الأسدي في عشرين ألف رجل، وقواهم بالسلاح والنفقة ، وولاه الموصل والجزيرة وما غلب عليه من أرض الشام[٣].

سار يزيد حتى نزل نصيبين ، فبلغ ذلك عبدالملك بن مروان، فسير ابن زياد بأهل الشام ، فوافى ابن زياد نصيبين وقاتل يزيداً بن أنس فهزمه وقتل من أصحابه مقتلة عظيمة . وبلغ المختار ذلك ، فعهد إلى ابراهيم بن الأشتر بقيادة جيش[٤] يتألف معظمه من أبناء الفرس والأساورة لمقاتلة عبيدالله بن زياد ، وأوصاه بأن يضم إليه كل جيش يزيد بن أنس ، فانضم إليه عشرة آلاف رجل. ولما علم عبدالملك بن مروان بخروج ابن الأشتر إلى الشام عقد للحصين بن نمير في فرسان أهل الشام وكانوا نحوا من أربعين ألفاً وفيهم عبيدالله بن زياد وعدد من

---

(١) أبو حنيفة ، ص ٢٨٩ - ابن الأثير ، ج ٤ ص ٢١٥

(٢) عقد المختار لعبدالله بن الحارث أخي الأشتر على أرمينية وهمذان ، وبعث محمد بن عمير ابن عطارد على أذربيجان ، وبعث عبد الرحمن بن سعيد بن قيس إلى الموصل ، ويزيد بن معاوية البجلي على أصبهان وقم

(٣) أبو حنيفة ، ص ٢٩٢

(٤) ذكر أبو حنيفة أن جيش المختار كان يتألف من عشرين ألف رجل (ص ٢٩٣) أما ابن الأثير ، فذكر أن المختار أمر ابراهيم بن الأشتر على سبعة آلاف (ج ٤ ص ٢٣١)

قتلة الحسين ، ثم التقى الجيشان في موضع يسمى خازر يقع قريباً من الموصل على نهر سمي به ، ودارت معركة عنيفة قتل فيها عبيدالله بن زياد ، والحصين بن نمير ، وشرحبيل بن ذي الكلاع ، وابن حوشب ذي ظليم ، وعبدالله بن إياس السلمي ، وغالب الباهلي وأشراف أهل الشام وأحرقت أبدانهم بالنار[١]،بسبب خذلان عمير بن الحباب السلمي قائد ميمنة ابن زياد له ، إذ لم ينس ما فعله اليمنية بقومه من مضر في وقعة مرج راهط ، فانقلبت موقعة الخازر إلى حرب طاحنة بين العصبيتين اليمنية والمضرية ،ففي أثناء القتال صاح عمير بن الحباب: « يا لثارات قيس ! يا لمضر ! يا لنزار » . فاجتمع المضريون من اهل الشام مع ابن الأشتر وانقلبوا على اليمنيين من أهل الشام ، وأسفرت موقعة الخازر عن فوز المختارية والمضرية في آن واحد ، وأرسل ابراهيم رأس ابن زياد إلى المختار ، فبعثه بدوره إلى محمد بن الحنفية [٢] .

ولم يلبث أهل الكوفة أن قبلوا دعوة ابن الزبير عندما دعاهم إليها مصعب ابن الزبير في سنة ٦٨ هـ للتخلص من استبداد المختار ، وطلبوا من مصعب بن الزبير أن يخلص الكوفة من المختار الكاذب ، فزحف مصعب بجموع أهل البصرة واشتبك مع المختار في موقعة المذار، فانهزم المختار وتراجع إلى الكوفة ثم قتل . وهكذا خضعت العراق لابن الزبير ، وظلت كذلك إلى أن تمكن عبد الملك بن مروان من القضاء على مصعب في سنة ٧١ بدير الجاثليق على النحو الذي سنوضحه عند حديثنا عن حركة ابن الزبير في الحجاز .

وفي عهد هشام بن عبد الملك خرج زيد بن على زين العابدين بن الحسين ،

---

(١) اليعقوبي ج ٢ ص ٢٥٩

(٢) أبو حنيفة ، ص ٢٩٥ ـ المسعودي ، ج ٣ ص ٩٧ ـ ابن الأثير ، ج ٤ ص ٢٦٥ ، ٢٦٦

الذي تنسب إليه فرقة الزيدية ، وكان يسعى لطلب الخلافة ، فعمل على التوجه إلى المدينة واتخاذها مركزاً له ، وسار إليها بالفعل ، ولكن أهل الكوفة تبعوه في ١٥ ألفاً وقيل في ٤٩ ألفاً[١] ، وحثوه على الذهاب إليها ، فعاد إلى الكوفة ، والتفت حوله جموع أهل المدائن والبصرة وواسط والموصل وخراسان ،وعندئذ أفصح زيد عن حقيقة نواياه ، فتصدى له يوسف بن عمر الثقفي والي الكوفة سنة ١٢٢ ، غير أن أتباع زيد لم يلبثوا أن خذلوه وتفرقوا عنـــه ، فحارب في نفر قليل ، فأصيب بسهم في جانب جبهته اليسرى، فحمله بعض أتباعه المخلصين له، وحاولوا إخراج النصل ، ولكنه توفي من ساعته فدفنوه في ساقية ماء ، وغطوا قبره ببعض الأعشاب ورحل ابنه يحيى إلى كربلاء. وعرف والي الكوفة موضعه، فاستخرجه وقطع رأسه فأرسله إلى دمشق ، وصلب جسم زيد عارياً على جذع نخلة بكناسة الكوفة ، وظـل مصلوباً خمسين شهراً حتى أمر الوليد بن يزيد بن عبد الملك بإحراقه ، وأذرى رماده في الرياح على شاطىء الفرات[٢]. وانقسمت الزيدية بعد استشهاد زيد إلى ثمان فرق هي : الجارودية ، والمرثدية ، والأبرقية واليعقوبية ، والعقبية ، والأبترية ، والجريرية ، واليمانيه [٣] .

وفي عهد الوليد بن يزيد ظهر يحيى بن زيد بن علي بن الحسين بالجوزجان من بلاد خراسان في سنة ١٢٥ منكراً للظلم وما شمـل الناس من الجور والاستبداد ، فسيّر إليه نصر بن سيار سالم بن أحوز المازني ، فقتـل يحيى في موقعة حدثت بقرية أرعوية، فاحتز رأسه وحمل إلى الوليد. أما جسده فصلب في الجوزجان، وظل مصلوباً إلى أن ثار أبو مسلم الخراساني على الأمويين في خراسان ، فأنزله ودفنه [٤] .

---

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٢٣٤

(٢) المسعودي ، ج ٣ ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ - ابن الأثير ، ج ٥ ص ٢٤٦

(٣) نفسه ، ص ٢٠٨

(٤) نفسه ، ص ٢١٢ - ابن الأثير ، ج ٥ ص ٢٧٢

(٢) أحداث الحجاز والشام :

خلا الجو لعبد الله بن الزبير بعد استشهاد الحسين بن علي في كربلاء ، فدعا وجوه أهل تهامة والحجاز إلى بيعته فبايعوه جميعاً باستثناء عبد الله بن عباس ، ومحمد بن الحنفية [١] . وكان أهل المدينة لما شملهم جور يزيد وعماله وعمّهم ظلمه وأسخطهم إقدامه على قتل الحسين ، وثبوا بعثمان بن محمد بن أبي سفيان عامل يزيد عليهم ، ومروان بن الحكم وسائر بني أمية وأخرجوهم من المدينة واتبعوهم يرجمونهم بالحجارة [٢]، وأقاموا عليهم عبد الله بن حنظلة في سنة ٦٣ هـ ، فلما بلغ يزيد مبايعة أهل تهامة والحجاز لابن الزبير وتجرؤ أهل المدينة على طرد عامله وجميع أبناء أمية منها ، أعد جيشاً من أهل الشام يتألف من ١٢ ألفاً [٣]. وقيل خمسة آلاف [٤] فيهم عدد من النصارى، لتأديب أهل المدينة ، والقضاء على حركة ابن الزبير، وجعل على قيادته مسلم بن عقبة المري ، وأشرك في قيادة فرقه قادة من أهل الشام ، منهم : الحصين بن نمير السكوني ، وحبيش بن دلجة القيني ، وروح بن زنباع الجذامي . ولما بلغ أهل المدينة وصول جيش يزيد تأهبوا لمقاتلته ، فولت قريش عليها عبد الله بن مطيع العدوي ، وولت الأنصار عليها عبد الله بن حنظلة الراهب المعروف بالغسيل ، ثم اتخذوا خندقاً يحيط بالمدينة من جميع نواحيها وجعلوا لحمايته جماعة منهم [٥] . وأقبلت عساكر الشام من ناحية الحرة وعسكروا بالجرف، في ٢٧ من ذي الحجة سنة ٦٣، وأحدقوا بالمدينة

---

(١) ابو حنيفة ، ص ٢٦٤

(٢) ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، ص ١٩٣ ـ اليعقوبي ، ص ٢٥٠ ـ المسعودي ، ج ٣ ص ٦٩

(٣) ابن الأثير ، ج ٤ ص ١١٢

(٤) اليعقوبي ، ص ٢٥١

(٥) ابن قتيبة، ص ١٩٥ ـ أبو حنيفة ص ٢٦٥ ـ اليعقوبي ، ج ٢ ص ٢٥٠ ـ المسعودي، ج ٣ ص ٦٩ — ابن الأثير ، ج ٤ ص ١٧٥

من كل ناحية لا يجدون منفذاً يدخلون منه ، وكان أهل المدينة قد قاموا على أفواه الخنادق ملبسين بالسلاح ، فجعل الناس يرمون عسكر الشام بالحجارة والنبال من فوق الآكام والبيوت. ولما استعصى على مسلم اقتحام المدينة لجأ مروان ابن الحكم إلى الحيلة ، فاحتال على بعضهم وخدعه ، فدخل ومعه مائة فارس ، فأتبعه الفرسان ، فدخلوا المدينة من ناحية الطورين ، واشتبكوا مع أهل المدينة ، فانهزم هؤلاء وقتل منهم عدد كبير : من بينهم الفضل بن عباس ، وزيد بن عبد الرحمن بن عوف ، وأخذ ابن الغسيل يقدم أبناءه واحداً واحداً حتى قتلوا بين يديه ، ثم قتل وقتل معه أخوه ، وقتل أيضاً عبد الله بن زيد بن عاصم ، ومحمد ابن عمرو بن حزم الأنصاري [١] ، وجالت خيول أهل الشام تقتل وتنهب . وذكروا أنه قتل يوم الحرة من أصحاب الرسول ثمانون رجلا ، ومن قريش والأنصار سبعمائة ، ومن سائر الناس من الموالي والعرب والتابعين عشرة آلاف [٢] . وذكر المسعودي أنه قتل من سائر قريش بضع وتسعون ، ومن الأنصار مثلهم ومن سائر الناس أربعة آلاف [٣] ، واستباح جيش الشام المدينة ثلاثة أيام بلياليها ، من ٢٧ ذي الحجة حتى أول المحرم سنة ٦٤ ، ثم أمسكوا بعد ذلك [٤] ، وجلس مسلم بن عقبة ، فدعا الناجين من أهل المدينة إلى البيعة على أنهم فيء وعبيد ليزيد يفعل في أموالهم وذراريهم ما يشاء ، فبايع الناس على أنهم عبيد

---

(٢) ابن الاثير ، ص ١١٧ . وذكر المسعودي أنه قتل في يوم الحرة من آل أبي طالب عبدالله بن جعفر بن أبي طالب ، وجعفر بن علي بن أبي طالب ، ومن بني هاشم من غير آل أبي طالب الفضل بن عباس ، وحمزة بن عبدالله بن نوفل والعباس بن عتبة بن أبي لهب (ج ٣ ص ٧٠)

(٢) ابن قتيبة ، ص ٢٠١

(٣) المسعودي ، ج ٣ ص ٧٠

(٤) ابن قتيبة ، ص ٢٠٥ ـ ابن الاثير ، ج ٤ ص ١٢٠

ليزيد ، ومن أبى ضرب عنقه [١] .

ولما فرغ مسلم من قتال أهل المدينة ونهبها استخلف على المدينة من قبله روح ابن زنباع الجذامي ، وقيل عمرو بن مخرمة الأشجعي، ومضى بجيشه نحو مكة ، فما كاد يصل إلى المشلل [٢] ، حتى اعتل ثم مات بعد أن استخلف على القيادة الحصين بن نمير السكوني، فسار الحصين حتى قدم مكة في ٢٦ من المحرم سنة ٦٤ ، وقد بايع أهلها وأهل الحجاز لعبد الله بن الزبير ، ولاذ بـه الفارون من أهل المدينة ، وتولى الدفاع عن البيت جماعة من الخوارج النجدية يتقدمهم نجدة ابن عامر الحنفي . وحاصر أهل الشام مكة ، وأقاموا يقـاتلون عبد الله بن الزبير بقيـــة شهر المحرم وصفر كله ، وفي ٣ من ربيـع الأول سنة ٦٤ أخذوا يرمون البيت بالمجانيق المنصوبة على جبل أبي قبيس ، فتواردت أحجار المجانيق والعرادات على البيت الحرام، ولم يكتف الشاميون بذلك بل رموا النار والنفط ومشاقات الكتان وغير ذلك من المحرقات على الكعبة [٣] ، فأصابت المجانيق ناحية من البيت فهدمته مع الحريق الذي أصابه [٤] وظل أهل الشام يحاصرون مكة ويرمونها بالمجانيق حتى بلغهم نعي يزيد بن معاوية في أول ربيع الآخر ، فتوقفوا عن القتال ، وأرسل الحصين إلى عبد الله يطلب مهادنته، ففتح له أبواب المسجد ، ثم قابل ابن الزبير ، فأخذ الحصين بيده وقال له هامساً : « هل لك في الخروج معي إلى الشام فأدعو الناس إلى بيعتك ، فإن أمرهم قد مرج ولا أرى

---

(١) ابن الاثير ، ج ٤ ص ١١٨

(٢) ابن قتيبة ، ص ٢٠٤ ـ اليعقوبي ، ج ٢ ص ٢٥١ ـ ابن الاثير ، ص ١٢٣ . وذكر أبو حنيفة أنه مات بهرشي وهي ثنية في طريق مكة بالقرب من الجحفة (أبو حنيفة ، ص ٢٦٧)

(٣) المسعودي ، ج ٣ ص ٧٢

(٤) ابن قتيبة ، ص ٢١٥

أحداً أحق بها اليوم منك ، ولست أعصى هنـاك » . فانتزع عبدالله بن الزبير يده من يد الحصين وقال وهو يجهر بقوله : « أبعد قتل أهل الحرة ؟ لا والله حتى أقتل بكل رجل من أهل الحجاز عشرة من أهل الشام »، فقال الحصين : « لقد كذب من زعم أنك من دهاة العرب ، أكلمك سراً وتكلمني علانية، وأدعوك إلى الخلافة وتدعوني الى الحرب » (١) . وعلى أثر ذلك انصرف الحصين مع أجناده إلى الشام .

ثم بويع معاوية بن يزيد بالخلافة بالشام في الوقت الذي انضوى فيه أهل الحجاز إلى جانب عبدالله بن الزبير وبايعوه بالخلافة ، ولكن معـاوية كان زاهداً ، ولم يلبث أن توفي بعد شهرين دون أن يولي عهده لأحد من أبنائه أو أقاربه تاركاً الأمر شورى لينصب المسلمون على الخلافة من يرونه أهلاً لها، ولكن ذلك أفسح المجال للتنازع بين المسلمين، وأتاح الفرصة لذوي الأغراض والطامعين ، وفي ذلك يقول أحد الشعراء :

إني أرى الفتنة هاجت مراجلها .·. والملك بعد أبي ليلى لمن غلبا (٢)

وأبو ليلى هي كنية معاوية بن يزيد لمـــا ولي الخلافة ، وكانت تطلق على المستضعف من العرب، فمنذ أن توفي معاوية بن يزيد التاث أمر الشام، واضطربت أحواله ، وكثر الداعون إلى أنفسهم ، واجتمع الناس في الجابية ، فتناظروا في ابن الزبير ، وفي خالد بن يزيد بن معـاوية ، وفي عمرو بن سعيد بن العاص . وفي

---

(١) أبو حنيفة الدينوري ، ص ٢٦٨

وذكر ابن قتيبة أن الحصين كشف لعبدالله بن الزبير عن رغبته في البيعة لهعلى أن يهدر كل ما اجترمه هو وأجناده يوم الحرة ، ويخرج معه ابن الزبير الى الشام إذ أنهلا يرغب في أن يكون الملك في الحجاز(ابن قتيبة،ص ٢١٧ ـ اليعقوبي، ص ٢٥٣ ـ ابن الأثير ، ج ٤ ص ١٢٩)

(٢) المسعودي ، ج ٣ ص ٧٢

البصرة طمع عبيدالله بن زياد والي البصرة في الخلافة ، فخطب في الناس وأعلمهم بموت يزيد ثم معاوية وأن الأمر شورى لم ينصب له أحـد ، وقال : « لا أرض اليوم أوسع من أرضكم ، ولا عدد أكثر من عددكم ، ولا مال أكثر من مالكم ... فانظروا رجلاً ترضونه يقوم بأمركم ، ويجـاهد عدوكم ، وينصف مظلومكم من ظالمكم ، ويوزع بينكم أموالكم » [١] ، فقام إليه أشراف البصرة وبايعوه ، فلما انصرفوا مسحوا أيديهم بالحيطان وقالوا : « أيظن ابن مرجانة أننـا ننقاد له في الجماعة والفرقة » [٢] . ولما أراد ابن زياد أن يأخذ بيعة أهل الكوفة أبوا الانقياد له ، وخلعوا ولاية بني أمية وإمارة ابن زياد، وأجابوا ابن الزبير الذي وجه إليهم عبدالله بن مطيع عاملاً عليهم ، ثم أردفه بالمختار الثقفي ليكوّن جيشاً من أهل العراق يحارب به أهل الشام ، ولكن المختار طمع في ولاية الكوفة لنفسه، ونجح في اجتذاب الشيعة إليه ، وسار بهم إلى قصر الإمارة ، فأخرج ابن مطيع منـه وتغلب على الكوفة ، ثم خلع بيعة ابن الزبير وبايع محمـداً بن الحنفية ليتخذ منه وسيلة شرعية لاجتذاب قلوب الناس [٣] . أمـا أهل البصرة فقد ثاروا على ابن زياد ، وكاتبوا ابن الزبير ، بينما فر ابن زياد الى دمشق [٤] . كذلـك بايع أهل مصر لابن الزبير فولى عليهم عبد الرحمن بن جحدم الفهري [٥] ، كما دخل أهـل فلسطين في طاعته وكان يليهم من قبله ناتل بن قيس الجذامي [٦] . أما أهل الشام

---

(١) المسعودي ، ج ٣ ص ٨٣

(٢) ابن الأثير ، ج ٤ ص ١٣٢

(٣) المسعودي ، ج ٣ ص ٧٤

(٤) ابن الأثير ، ج ٤ ص ١٣٩

(٥) اليعقوبي ، ج ٢ ص ٢٥٥ – ابن الأثير ، ج ٤ ص ١٤٥

(٦) نفسه

فقد انقسموا بعد وفاة معـــاوية بن يزيد إلى شيع وأحزاب ، واختلفوا فيمن يتولى الخلافة من بعده ، وكان بعضهم يؤيـــد عبدالله بن الزبير ، أمثال عثمان بن عتبة بن أبي سفيان الذي رفض الخـلافة وانضم الى ابن الزبير ، وعمر ابن يزيد الحكمي الذي كان يميل الى ابن الزبير . ويذكر المسعودي أن الأمر استوثق في الشام لابن الزبير ، « وأخـذت له البيعة على سائر منابر الإسلام إلا منبر طبرية من بلاد الأردن ، فإن حسان بن مالك بن بحدل أبى أن يبايع لابن الزبير وأرادها لخالد بن يزيد بن معـاوية » [١] ، وفي مصر كان ابن جحدم عـاملا لابن الزبير ، وبدمشق كان الضحاك بن قيس الفهري يدعو له سراً ، وفي حمص كان النعمان بن بشير الأنصاري قد بايع له ، وفي قنسرين والعواصم كان زفر ابن الحارث الكلابي ، وفي الكوفة عبدالله بن مطيع ، وفي البصرة الحارث بن عبدالله بن أبي ربيعة ، وفي خراسان عبدالله بن خازم السلمي ، ولم تبق ناحية إلا مالت الى ابن الزبير باستثناء الأردن ورئيسها حسان بن بحدل [٢] ، وكان عاملا لمعاوية ولابنه يزيد على فلسطين ، فسار إلى الأردن واستخلف على فلسطين روح ابن زنباع الجذامي ، فثار ناتل بن قيس بروح بن زنباع ، وأخرجه من فلسطين وبايع لابن الزبير [٣] . وذكر أبو حنيفة الدينوري أن مروان بن الحكم نفسه كان على وشك اللحاق بعبدالله بن الزبير ليبايعه وينضم إليه بعد أن رأى الناس في دمشق مختلفين فيمن يتولى الخلافة ، فلما قدم عليه عبيدالله بن زياد في دمشق هارباً من العراق ، عنفه فيما ذهب إليه وقـــال له : « أنت سيد قومك وأحق الناس بهذا الأمر ، فمد يدك أبايعك » ، ثم خـرج ابن زياد الى الناس وناظرهم

---

(١) المسعودي ، ج ٣ ص ٩٢

(٢) اليعقوبي ، ج ٢ ص ٢٥٥ ـ ابن الأثير ، ج ٤ ص ١٤٥

(٣) ابن الأثير ، ص ١٤٦

وعنفهم في تخاذلهم وحملهم على بيعة مروان ، فاجتمعوا وبايعوه[٤] . وساعد روح ابن زنباع عبيدالله بن زياد في إقناع القوم بالمبايعة لمروان ، فقد قام في الناس خطيباً وقال : « يا أهل الشام ! هذا مروان بن الحكم شيخ قريش ، والطالب بدم عثمان ، والمقاتل لعلي بن أبي طالب يوم الجمل ، ويوم صفين ، فبايعوا الكبير واستنيبوا الصغير ، ثم لعمرو بن سعيد » ، فبايعوا لمروان ثم لخالد بن يزيد ثم لعمرو بن سعيد بن العاص[٥] ، على أن تكون إمرة دمشق لعمرو ، وإمرة حمص لخالد بن يزيد[٦] ، وتمت بيعة مروان في ٣ من ذي القعدة سنة ٦٤ هـ .

ولكن الضحاك بن قيس الفهري استاء لخروج الأمر من يد ابن الزبير ، كما ساءه أن ينضم اليمنية وعلى رأسهم حسان بن مالك زعيم قحطان وسيدهم في الشام إلى مروان بن الحكم ، فخرج الضحاك من الجابية الى مرج راهط على بعد عدة أميال من دمشق في جموع هائلة من القيسية والمضرية ، كما انحاز إليه قيس ومضر ونزار وجماعة من قضاعة برئاسة وائل بن عمرو العدوي ، وذلك في المحرم سنة ٦٥ هـ . وذكر ابن الاثير أن الضحاك استمد النعمان بن بشير وهو بحمص فأمده بشرحبيل بن ذي الكلاع ، واستمد زفر بن الحارث بقنسرين فأمده بأهل قنسرين ، وأمده ناتل بأهل فلسطين ، أما مروان فقد اجتمع إليه حشود من كلب وغسان والسكاسك والسكون ، فجعل على ميمنته عمرو بن سعيد ، وعلى ميسرته عبيدالله بن زياد ، واستغل يزيد بن أبي النمس الغساني فرصة خروج

---

(٤) أبو حنيفة ، ص ٢٨٥ ـ ابن الأثير ، ج ٤ ص ١٤٥

(٥) اليعقوبي ، ص ٢٥٦ ـ ابن الأثير ، ص ١٤٨

(٦) ابن الأثير ، ص ١٤٨

الضحاك بن قيس من دمشق ، فغلب عليهـــا ، وأخرج عامل الضحاك منها ، واستولى على الخزائن وبيت المال ، وبايع لمروان وأمنّه بالأموال والرجـــال والسلاح ، فكان أول فتح على بني أمية [١] .

ثم اشتبك الفريقـان بمرج راهط في ذي القعدة سنة ٦٤ [٢]،وقيل في المحرم سنة ٦٥ [٣]، في قتال عنيف ، انتهى بهزيمة القيسية ، وقتل الضحاك وقتل معه ثمانون رجلاً من أشراف أهل الشام ، وذكر المؤرخون أن القيسية لم تشهد هزيمة مثلها وأنها « قتلت مقتلة لم يقتل مثلها في موطن قط [٤]». وتلاحقت فلولهم إلى أجنادهم ، فلما علم النعمان بن بشير بخبر الهزيمة خرج من حمص هارباً ومعـــه امرأته ، ولكنه وقع في يد أنصار مروان من اليمنية فقتلوه . أمـا زفر بن الحارث الكلابي فقد فر من قنسرين إلى قرقيسياء وتغلب عليها وامتنع بها ، في حين تراجع ناتل بن قيس الجذامي عن فلسطين ولاذ بابن الزبير في مكة . وبذلك آلت بلاد الشام جميعها إلى مروان بن الحكم فولى على ولاياتها ثقاته .

وكان لموقعة مرج راهط التي انتصرت فيها العصبية اليمنية على القيسية آثار خطيرة في انبعاث العداء التقليدي وإشعال نار الفتنة في سائر أنحاء العـــالم الإسلامي ، فقامت الحرب بـين اليمنية والقيسية في مناطق عديدة من الدولة العربية الإسلامية .

ثم استغل مروان بن الحكم انتصاره في مرج راهط في استيلاء على مصر ، وكان يلي مصر عبدالرحمن بن عتبة بن جحدم من قبل عبدالله بن الزبير ،وذلك

---

(١) ابن الأثير ، ج ٤ ص ١٥٠

(٢) الكندي ، ولاة مصر ، بيروت ١٩٥٩ ص ٦٥

(٣) ابن الأثير ، ص ١٥٠

(٤) اليعقوبي ، ص ٢٥٦ ـ المسعودي ، ج ٣ ص ٨٧ ـ ابن الأثير ج ٤ ص ١٥٠

منذ شعبان سنة ٦٤ ، وبايعه أهل مصر ممن كانوا يشايعون بني أمية على غل في قلوبهم . فلما بويع مروان بالخلافة ، دعاه شيعته من أهل مصر إلى تخليص بلادهم من التبعية لابن الزبير ، فزحف مروان إلى مصر في جيش ضخم من وجـوه اليمنية بقيادة خالد بن يزيد بن معاوية وعمرو بن سعيد وعبد الرحمن بن الحكم وحسان بن بحدل ، وسار هذا الجيش بحذاء الساحل ، وفي نفس الوقت سيّر ابنه عبد العزيز في جيش إلى أيلة وأمره بأن يدخل مصر من تلك الناحية ، فلما بلغ ابن جحدم ذلك عزم على التصدي لأهل الشام ، وأشار عليه جنده بحفـر خندق حول الفسطاط ، فحفره في شهر واحـد ، ثم بعث ابن جحدم ـ فئة بقيادة الأكدر بن حمام اللخمي ليغير على الشام ، وبعث فرقة بقيادة السائب ابن هشام العامري ليقطع على مروان طريقه إلى مصر ، كما بعث جيشاً بقيـادة زهير بن قيس البلوي إلى أيلة ليمنع عبد العزيز بن مروان من المسير إليها . أما السائب فقد رجع بجيشه ولم يقاتل فسمي جيشه جيش الكرارين ، وأما السفن فقد تعرضت لعاصفة عاتية فغرقت ونجا الأكدر بصعوبة وعاد إلى الفسطاط ، وأما زهير فقد انهزم عند بصاق بالقرب من أيلة [١] . ولمـا وصل مروان إلى عين شمس خرج إليه ابن جحدم في أهل مصر ، فاشتبكوا مع قواته ، ولكنهم انهزموا ، وتراجعوا إلى خندقهم وقاتلوا عليه نُوبا أي بالتناوب ، فعرفت هذه المواقع بأيام الخندق والتراويح . وأخيراً تم الصلح بـين مروان وأهل مصر ، على أن يؤمنهم ويدفع إلى ابن جحدم مالاً وكسوة ، ودخل الفسطاط في غرة جمادي الأولى سنة ٦٥ هـ. واضطر مروان إلى قتل ثمانين رجلاً من معافر امتنعوا عن خلع بيعة ابن الزبير والمبايعة له ، كما ضرب عنق الأكدر بن حمام سيد لخم وشيخها [٢] . وأقام مروان في مصر شهرين، ثم أسند ولايتها إلى ابنه عبدالعزيز وجعل إليـه خراجها وصلاتها ، ثم رحل منها إلى دمشق في أول رجب سنة

---

(١) الكندي ، ص ٦٦

(٢) نفس المصدر ص ٦٧ ـ سيدة الكاشف ، مصر في عصر الولاة ، ص ٨٠

٦٥ هـ. ولما رحل من مصر بعد أن ضمن مبايعة أهل الشام ومصر له ، ونزل في الصميرة [١] وقيل الصنبرة من أرض الأردن [٢] ، عزم على تولية العهد من بعده لابنه عبد الملك ، فاستقدم حسان بن بحدل وأرغبه وأرهبه حتى بايع ابنه عبدالملك ثم عبد العزيز ، وتم تحويل ولاية العهد إليهما ، وترتب على ذلك أن غضب خالد بن يزيد بن معاوية لخلعه عن ولاية العهد ، وحدّثت أمه في ذلك وكان مروان قد تزوجها بعد مبايعة أهل الشام له حتى يستذل خالد ويضع منه، فعمدت أم خالد إلى قتل مروان، فباغتته نائماً ووضعت الوسادة على أنفه حتى مات ، وخلفه ابنه عبد الملك . وافتتح عبد الملك عهده بمواجهة العديد من المشاكل ، فلم تمض على خلافته سنتان حتى فجع بقتل عبيدالله بن زياد، ساعده الأيمن، ورفاقه، وهزيمة جيش الشام أمام قوات المختار في موقعة الخازر، ويذكر المسعودي أنه أتاه في تلك الليلة مقتل حُبيش بن دلجة القيني وعامة أصحابه وكان قد وجهه إلى المدينة لمحاربة ابنه الزبير ، « ثم جاءه خبر دخول ناتل بن قيس فلسطين من قبل ابن الزبير ، ومسير مصعب بن الزبير من المدينة إلى فلسطين ، ثم جاءه مسير ملك الروم لاوى بن قلنط (الامبراطور البيزنطي لاونديوس ٦٩٥ — ٦٩٨) ونزوله المصيصة يريد الشام ، ثم جاءه خبر دمشق ، وأن عبيدها وأوباشها ودعارها قد خرجوا على أهلها ونزلوا الجبل ، ثم أتاه أن من في السجن بدمشق فتحوا السجن وخرجوا منه مكابرة، وأن خيل الأعراب أغارت على حمص وبعلبك والبقاع ، وغير ذلك مما نمي إليه من المقظعات في تلك الليلة ، فلم يُر عبد الملك في ليلة قبلها أشد ضحكاً ، ولا أحسن وجها ، ولا أبسط لساناً ، ولا أثبت جناناً منه تلك الليلة ، تجلداً وسياسة للملوك وترك إظهار الفشل [٣] » .

---

(١) المسعودي ، ج ٣ ص ٨٩

(٢) اليعقوبي ، ج ٢ ص ٢٠٧

(٣) المسعودي ، ج ٣ ص ٩٨

ويضيف أحد المؤرخين المحدثين إلى هذه الكوارث التي تلاحقت على الدولة الأموية في هذا العام أن الشام شهدت مجاعة وقحطاً لم تشهد لهما نظيراً من قبل ولم تقو الدولة الأموية على دفعها[1] . ويدأ عبدالملك بناتل بن قيس ، فسار إلى لقائه ، واشتبك معه في أجنادين ، فانهزم جيش ابن الزبير ، وقتل ناتل وعامة أجناده ، وانهزم الباقون ، ولما بلغ نبأ الهزيمة إلى مصعب ولى راجعاً إلى المدينة ، وفي هزيمة جيش ابن الزبير يقول أحد شعراء المروانية :

قتلنا بأجنادين سعداً وناتلا .·. قصاصاً بما لاقى حبيش ومنذر[2]

ثم عاد عبدالملك إلى دمشق لمواجهة المشكلات الأخرى . وفي هذه الأثناء ولى عبدالله بن الزبير أخاه مصعباً على البصرة ، وكان قد انضم إليه عدد من أشراف الكوفة فراراً من استبداد المختار الذي أراد القصاص من قتلة الحسين ابن علي، فوافى مصعب من أشراف الكوفة نحو عشرة آلاف رجل من بينهم محمد بن الأشعث[3] ، وطلب هؤلاء الكوفيون من مصعب أن يخلصهم من حكم المختار ، فجهز مصعب جيشاً ليزحف به نحو الكوفة ، فلما علم المختار بذلك بادر بإرسال جيش بقيادة أحمد بن سليط لمقاتلة قوات مصعب . والتقى الجيشان عند المذار ، فانهزم جيش المختار وقتل منهم عدد كبير ، ومضى مصعب إلى الكوفة ، فخرج إليه المختار بما لديه من أجناد ، والتقى الجيشان بنهر البصريين، فانهزم المختار وقتل عــدد كبير من انصاره ، ودخل المختار الكوفة منهزماً ، فتحصن في قصر الإمارة ، فحاصره مصعب أربعين يوماً ، ولما طال عليه الحصار عزم على الخروج لمقاتلة مصعب، فخرج مع عدد من أصحابه ،وقاتل قتالاً عنيفاً

---

(١) جورجي ينى ، تاريخ سوريا ، بيروت ١٨٨١ ، ص ٢٣٣

(٢) المسعودي ، ج ٣ ص ٩٨

(٣) أبو حنيفة الدينوري ، ص ٢٩٨ ، ٣٠٠ ، ٣٠٤

ثم انهزم ، وما زال يقاتل حتى مات معظم من معه ، فقتل واحتزت رأسه ، وأرسل مصعب رأسه إلى عبدالله بن الزبير [١]، ثم تتبع مصعب الشيعة الخشبية وهم فرع من الكيسانية أتباع المختار بالقتل [٢] .

وكان عبد الملك بن مروان يترقب نتيجة الصراع القائم بين المختار ومصعب وكلاهما كان عدواً له ، فتركهما يقتتلان حتى يتخلص على الأقل من واحد منهما . وكان قد شغل في هذه الأثناء بمهادنة البيزنطيين ، فاضطر إلى دفع جزية سنوية إلى امبراطورهم جستنيان الثاني [٣] . ويذكر البلاذري أن جماعة من المردة أو الجراجمة الذين كانوا يسكنون مدينة الجرجومة وتقع ما بين مدينتي بياس وبوقاس بجبل اللكام ، انتهزوا فرصة إغارة البيزنطيين على الشام وقت انشغال عبدالملك بن مروان بفتنة عبدالله بن الزبير ، وقدموا إلى لبنان ، فصالحهم عبدالملك على ألف دينار كل أسبوع فتفرقوا بقرى حمص ودمشق ورجع معظمهم إلى مدينتهم ، كما صالح القائد البيزنطي على مال يؤديه إليه حتى يتفرغ لقتال مصعب بن الزبير في العراق ، واقتدى في صلحه مع البيزنطيين بما فعله معاوية حين شغل بحرب أهل العراق ، إذ كان قد صالح البيزنطيين على أن يؤدي إليهم مالاً ، ويرتهن منهم رهناء وضعهم في بعلبك [٤] . وتصادف دخول الجراجمة في أراضي لبنان في سنة ٧٠هـ في الوقت الذي حدثت فيه فتنة بدمشق ، أثناء قيام عبدالملك بمحاربه زفر بن الحارث الكلابي بقرقيسياء والرحبة ، فقد استغل عمرو بن سعيد بن العاص فرصة غيابه ودعا الناس بدمشق إلى البيعة ،

---

(١) أبو حنيفة ، ص ٣٠٨ - المسعودي ، ج ٣ ص ٩٩

(٢) المسعودي ، ج ٣ ص ٩٩

(٣) جورجي يني ، ص ٢٣٦

(٤) البلاذري ، ج ١ ص ١٩٠

وتحصن في داخـــل أسوارها ، فكر عبد الملك راجعاً ، وحاصر دمشق [١]
ودخلها ، ثم قتل عمراً بن سعيد .

أقام عبدالملك بدمشق بقية عام ٧٠ هـ . ريثما يتم إجلاء الجراجمة ، ثم خرج على رأس جيوشه لمحاربـــة مصعب بن الزبير ، فنزل أول الأمر في قرقيسياء سنة ٧١ هـ وحاصر زفراً بن الحارث ، وأرغمه على الاستسلام ، ثم تقـــدم عبدالملك ، فنزل على نصيبين ، ثم اتجـه إلى العراق ، فلما بلغ مصعب خروج عبدالملك إليـــه ، أعد جيشاً خرج به لمحاربته ، فتوافى العسكران بدير الحاثات [٢] في سنة ٧٢ هـ ، فعمد عبد الملك إلى استمالة رؤساء جيش مصعب عن طريق الأموال [٣] ، ونجح عبدالملك في خطته ، فانضم إليه عدد كبير من أجناد مصعب ، ثم دارت الموقعة بالقرب من دير الجاثليق في ١٥ جمادي الأولى سنة ٧٢ ، وانتهت بهزيمة مصعب ومصرعه ، ودخل عبد الملك الكوفـة فبايعه أهلها [٤] . وفي مصرع مصعب يقول عبدالله بن قيس الرقيات من شعراء الزبيرية :

لقد أورث المصرين عاراً وذلة ∴ قتيـــل بدير الجاثليق مقيم
فما صبرت في الحرب بكر بن وائل ∴ ولا ثبتت عند اللقاء تميم
ولكنه ضاع الذمار ، ولم يكن ∴ بها مضري يوم ذاك كريم [٥]

ثم عهد عبدالملك وهو بالكوفة إلى الحجاج بن يوسف بالسير إلى مكة

---

(١) نفس المصدر ـ المسعودي ، ج ٣ ص ١٠٢ ـ ابن الأثير ، ج ٤ ص ٣٠٢
(٢) أبو حنيفة ، ص ٣١١ . وقيل بقرية مسكن من قرى العراق على شاطىء دجلة (المسعودي ، ص ١٠٥)
(٣) نفس المصدر ، ص ٣١١ – المسعودي ، ج ٣ ص ١٠٥
(٤) نفسه ، ص ٣١٣ ـ المسعودي ص ١٠٩
(٥) أبو حنيفة ، ص ٣١٣ ـ المسعودي ، ج ٣ص ١٠٩

والقضاء على حركة عبدالله بن الزبير ، فسار الحجاج حتى نزل بالطائف ، فأقام شهراً ، ثم زحف إلى مكة في موسم الحج ، ونصب المجانيق على جبل أبي قبيس ، فتحصن ابن الزبير بالمسجد ، وأخذت أحجار المجانيق تتساقط على المسجد ، فاضطر عبدالله إلى الخروج للقتال مع جماعة من أتباعه ، فقاتل قتالاً شديداً حتى قتل عامة من معه ، وأحدق به الشاميون من كل جانب ، فضربوه بسيوفهم حتى قتل في ٢٧ من جمادي الآخرة سنة ٧٣ هـ ، وأمر به الحجاج فصلب بمكة ، أما عروة بن الزبير فقد فر من الحجاج إلى الشام ، واستجار بعبد الملك ، فأجاره .

ب - أحداث مصر والمغرب والأندلس :

تشدد عمال بني أمية في طلب الجزية من أهل مصر وبالغوا في ذلك ، مثل ذلك أن عبيد الله بن الحبحاب زاد على كل دينار قيراطاً ، فثار الأقباط في سنة ١٠٧ هـ على ابن الحبحاب ، وانتقضت كورة تتو (منية الفرماوي) ونمى (من أعمال الجيزة) وقربيط (من أعمال الوجه البحري) وطرابية (في شرق الدلتا) وعامة الحوف الشرقي ، وكان ذلك أول انتقاض للقبط بمصر ، فبعث إليهم الحر بن يوسف والي مصر على صلاتها العسكر لإخماد حركة القبط ، ولذلك عمد الخليفة الوليد الثاني إلى إحلال العناصر القبطية التي تعمل بالزراعة في مصر بعناصر عربية ، ففي سنة ١٠٩ أمر بنقل أعداد كبيرة من القيسيه إلى مصر فنزلها نحو ثلاثة آلاف منهم نزلوا بالحوف الشرقي ، وأمرهم بالزراعة بدلاً من الأقباط [1]. كذلك نزل مصر قبائل من اليمانية أمرهم الخليفة بالاشتغال بالزراعة [2] .

---

(١) الكندي ، ولاة مصر ، ص ٩٨

(٢) المقريزي ، الخطط ، ج ١ ص ١٤٣

وفي المغرب احتج البربر على سياسة الاستبداد والعنف التي اتبعها معهم عمال بني أمية ، وقيامهم بفرض الجزية على رقاب البربر على نحو ما كانت تؤخذ منهم قبل أن يعتنقوا الإسلام ، كما أسرف بعض العمال أمثـــال عبيدة بن عبدالرحمن السلمي في غزو قبائل البربر وسبي نسائهم [(١)] ، وكان لهذه السياسة الغاشمة أثرها في تقبل البربر لمبادىء الخوارج التي تنادي بالمساواة . وهكذا كانت نفوس البربر تغلي سخطاً على هذه المظالم ، واستغل البربر فرصة خروج جيش العرب لغزو صقلية في سنة ١١٦ هـ (٧٣٣) ووثبوا بقيادة زعيم لهم يقال له ميسرة المطغري على والي طنجة فقتلوه ثم قتلوا والي السوس ، وانتقضوا على الدولة الأموية وأعلنوا الثورة . وعلى هذا النحو تحرج موقف عبيدالله بن الحبحاب في المغرب ولكنه أعد جيشا من خيار العرب بقيادة خالد بن حبيب الفهري لمقاتلة البربر ، فولى البربر عليهم زعيماً من غلاة الخوارج يدعى خالد بن حميد الزناتي ، واشتبك البربر مع العرب بالقرب من وادي شليف بتاهرت في معركة ضارية انتهت بهزيمة العرب هزيمة لم يسمعوا بمثلها ، قتل فيها أشراف العرب وحماتهم ، فسميت الوقعة بغزوة الأشراف [(٢)] . وانتقضت البلاد بعد هزيمـــة العرب ، ووصلت أخبار الهزيمة إلى مسامع الخليفة فعزم على الانتقــــام ، وسير جيشاً ضخمـاً من الشاميين التقى مع جيش البربر عند بليدة بقدورة الواقعة على وادي سبو بالقرب من تاهرت في بداية سنة ١٢٤ ، وفي هـــذه الوقعة هزمت جيوش العرب هزيمـة شنعاء وقتل أكثرهم ، ولاذ الناجون بقيادة بلج بن بشر القشيري بمدينة سبتة ، وتحصنوا بهـــا . واتفق أن ثار بربر الأندلس على عربها تضامناً مع إخوانهم في المغرب ، فاضطر عبدالملك بن قطن الفهري والي الأندلس إلى الاستعانة بقل الشاميين المحصورين في سبتة لإخماد حركة البربر في الأندلس ،

---

(١) اعتبر عمر بن عبدالله المرادي والي طنجة البربر فيئاً للمسلمين وعبيداً لهم ، فكان ذلك سبباً في قيام البربر بالثورة على الدولة الأموية . (ابن عذارى ، ج ١ ص ٥٢)

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٥٥ ـ ابن الاثير ، ج ٥ ص ١٩٢

ونجح عرب الأندلس والوافدين عليهم من عرب الشام في القضاء على ثورة البربر في الأندلس في موقعة دارت في حوز طليطلة على وادي سليط ، في سنة ١٢٥ هـ [١] .

ثم انقلب الشاميون في الأندلس على عربها البلديين وكانوا من أهل الحجاز ، واستولوا على السلطان ، وتدهورت الأوضاع نتيجة لذلك في الأندلس الأمر الذي دعا الخليفة إلى تنصيب أبي الخطار الحسام بن ضرار الكلبي والياً على قرطبة في رجب سنة ١٢٥ هـ (مايو سنة ٧٤٣) . وفي عهد هذا الوالي تحول النزاع بين البلديين والشاميين في الأندلس إلى صراع بين القيسية واليمنية ، انتهى بتغلب القيسية [٢] .

---

(١) راجع التفاصيل في المغرب الكبير ، ج ٢ ص ٣٠٦ — ٣٢٠

(٢) راجع التفاصيل في تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ، ص ١٦٠ — ١٧٠

الفصل السابع

الحضارة العربية في عصر الدولة الاموية

١ — النظم الإدارية : الدواوين — القضاء — السكة — الطراز

٢ — شيوع الترف في المجتمع المدني

٣ — الحياة الفكرية

٤ — المنشآت المدنية والدينية .

الفصل السابع

الحضارة العربية في عصر الدولة الاموية

— ١ —

النظم الادارية

١ — الخلافة والوزارة :

تحول نظام الخلافة منذ قيام الدولة الاموية إلى ملك استبدادي وراثي على غرار ما كان معروفاً عند الفرس والروم ، فتولى الخلافة من بني أمية بنو حرب ثم بنو أبي العاص، وعدل الأمويون في حكم الدولة من تطبيق نظام الخلافة الراشدة القائم على الشورى والمستند على الدين الى نظام الملك القائم على التوريث والمستند على السياسة أولاً ، واستحالت الخلافة منذ ذلك الحين إلى ما يشبه نظام الملكية مع تمسك شكلي بفكرة البيعة التقليدية ، والتزام بمعاني الخلافة من تحري الدين ومذاهبه والجري على منهاج الحق [١] ، باستثناء الخلفاء الامويين المتأخرين الذين

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٣٦٧

استعملوا طبيعة الملك في أغراضهم الدنيوية ومقاصدهم ، من ركوب الشهوات واللذات والمعاصي ، ومن استخفاف بحق الرئاسة .

أما الوزارة فقد وُجدت في العصر الاموي من حيث التسمية دون الاختصاص، فقد كان طبيعياً بعد أن اتسعت رقعة الدولة العربية بفتوح الشام والعراق ومصر وفارس والمغرب والأندلس وانقلبت الخلافة إلى مُلك، أن يحتك العرب بشعوب متحضرة لها أنظمة وإدارات متفوقة ، وأن يفيدوا من هذه الأنظمة سيما مـــا يتعلق منها بالدواوين وبعض النظم الادارية، فأخذوا عن الفرس نظام الدواوين، ثم اتخذوا الحاجب ليقوم مقام الخليفة في بعض المهام الخلافية ويحجب الخليفة عن العامة ويغلق بابه دونهم، فلما استفحل الملك بعد ذلك « ظهر المشاور والمعين في أمور القبائل والعصائب واستئلافهم ، وأطلق عليهم اسم الوزير »[1]

وبقي أمر الشؤون المالية في الموالي والذميين ، واتخـــذ للسجلات « كاتب مخصوص حوطة على أسرار السلطان أن تشتهر ، فتفسد سياسته مع قومه ، ولم يكن بمثابة الوزير لأنه إنما احتيج له من حيث الخط والكتاب لا من حيث اللسان الذي هو الكلام »[2] ، فكان النظر للوزير عاماً في أحوال التدبير والمفاوضات وسائر الأمور كالنظر في ديوان الجند والعطاء[3] .

---

(١) ابن خلدون ، ص ٤٢٢

(٢) نفسه ، ص ٤٢٢

(٣) اصطنع الخلفاء الأمويون أولي الرأي وقربوهم إليهم ، وتلقب بعض هؤلاء بالوزراء أمثال زياد بن أبيه في عهد معاوية ، وروح بن زنباع الجذامي في عهد عبد الملـــك بن مروان وعبد الحميد كاتب الخليفة مروان بن محمد ، الذي قام مقام الوزير في الدولة . ولكنّ لا ينبغي أن نفهم هذا اللقب الوزاري بنفس المعنى الذي عرف به في العصر العباسي ، ذلك أن معظم وزراء بني أمية كانوا مجرد كتاب قربهم الخلفـــاء إليهم واعتمدوا عليهم في تصريف الأمور وفي المشورة والرأي . ولذلك لا يجوز من قبيل التشبه بالوزراء أن يطلق عليهم لقب وزراء ، لان وظيفة الوزير بالمفهوم الذي تحدد في العصر العباسي والعصور الاسلامية التالية لم تكن من الوظائف المعروفة في الدولة العربية في العصر الأموي .

ب - الدواوين :

رأينا فيما سبق أن عمر بن الخطاب أول من أدخل نظام الديوان من خلفاء المسلمين ، ولم يلبث نظام الديوان أن تعقد منذ عصر معاوية بن أبي سفيان ، فظهر عدد من الدواوين ، كل منها يختص بالنظر في شأن من شؤون الدولة .

١ - ديوان الجند :

وأول هذه الدواوين ديوان الجيش وقد سبق أن تحدثنا عنه في تنظيم عمر للفتوح ، وهو نفس ديوان الجند أو ديوان العطاء .

٢ - ديوان الخراج والجبايات :

ويعتبر أهم الدواوين جميعاً لأنه يشرف على الشؤون المالية للدولة ويتولى تسجيل ما يرد عليها وما ينفق من الأموال في الوجوه المختلفة ، وقد اقتبسه عمر بن الخطاب من الادارة الفارسية متبعاً في ذلك مشورة الفيرزان [١] ، وكان ديوانا البصرة والكوفة : ديوان الجند والأعطية بالعربية ، وديوان المال بالفارسية كما كان ديوانا الشام بالعربية والرومية [٢] وديوانا مصر بالعربية والقبطية أو اليونانية [٣] ، يرجع السبب في إبقاء الديوان على مثل ما كان عليه قبل الفتح

---

(١) الجهشياري ، الوزراء والكتاب ، تحقيق الأستاذين مصطفى السقا وابراهيم الأبياري ، القاهرة ، ١٩٣٨ ، ص ١٧ - الصولي ، أدب الكتاب ، ص ١٩٠ وما يليها - ابن طباطبا ، ص ٨٣

(٢) الصولي ، ص ١٩٢ - ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٣٢ . والمقصود بالرومية اليونانية

(٣) الكندي ، كتاب ولاة مصر ، ص ٨٠ - سيدة الكاشف ، مصر في عصر الولاة ، ص ١١٩ - السيد عبد العزيز سالم ، التأريخ والمؤرخون العرب ، ص ١٣٤

العربي إلى قلة خبرة العرب بأمور الإدارة، وتفضيلهم ترك النظم الإدارية والمالية في البلاد المفتوحة على ما كانت عليه دون تغيير أو تعديل [١]، فأقروها كما هي . وظل ديوان الخراج والجبايات في عصر الدولة الأموية حتى أيام عبد الملك بن مروان ، عندما استحال الأمر ملكاً ، واستقرت دعائم الدولة العربية ورسخت قواعدها ، « وانتقل القوم من غضاضة البداوة إلى رونق الحضارة ، ومن سذاجة الأمية إلى حذق الكتابة ، وظهر في العرب ومواليهم مهرة في الكتاب والحسبان [٢] » ، فأمر عبد الملك في سنة ٧٨ سليمان بن سعد والي الأردن لعهده أن ينقل ديوان الشام إلى العربية ، فأكمله لسنة من يوم شروعه فيه ، وكان يتولاه قبل ذلك سرجون بن منصور الرومي النصراني [٣] . أما ديوان العراق ، فقد أمر الحجاج كاتبه صالح بن عبد الرحمن البصري مولى بني مرة ابن عبيد ، وكان يكتب بالعربية والفارسية التي تلقنها عن زادان فروخ كاتب الحجاج قبله ، أن يتولاه بعد أن قتل زادان فروخ في حرب ابن الأشعث ، وأمره أن ينقل الديوان من الفارسية الى العربية فعرّبه [٤] . أما ديوان مصر فقد أمر عبدالله بن عبدالملك والي مصر من قبل أبيه عبد الملك بن مروان بنسخه بالعربية ، وصرف عبدالله أثيناس عن الديوان وجعل عليه ابن يربوع الفزاري من أهل حمص [٥] . وكان أول من نقل الكتابة من الفارسية إلى العربية بخراسان اسحق بن طليق الكاتب من بني نهشل في سنة ١٢٤ في خلافة هشام [٦]

---

(١) برنارد لويس ، العرب في التاريخ ، تعريب الدكتور نبيه أمين فارس والدكتور محمود زايد ، بيروت ١٩٥٤ ص ٧٧

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٣٢

(٣) الجهشياري ، ص ٤٠ ـ الصولي ، ص ١٩٢ ـ ابن خلدون ، المقدمة ص ٤٣٢

(٤) الصولي ، ص ١٩٢ ـ الجهشياري ، ص ٣٨ ـ ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٣٢

(٥) الكندي ، ص ٨٠ ـ المقريزي ، الخطط ، ج ١ ص ١٧٥

(٦) الجهشياري ، ص ٦٧

ونتج عن حركة التعريب انتشار اللغة العربية والخط العربي ، ونشاط الترجمة من اليونانية والفارسية والهندية ، وأصبحت اللغة العربية على حد قول ابن خلدون لساناً حضرياً في جميع أمصار الاسلام .

٣ - ديوان الرسائل والكتابة :

وهو مستحدث في زمن معاوية ولم يكن موجوداً زمن الخلفاء الراشدين ، ويقوم متولي هذا الديوان بالإشراف على الرسائل الواردة من الولايات الإسلامية أو الموجهة من الخليفة إلى عماله ، وكان القائم على هذا الديوان يختار من أهل أنسب الخليفة ومن عظماء قبيله ، لعظم أمانتهم وخلوص أسرارهم[١]. ثم تعقد هذا الديوان وتعددت اختصاصاته ، وكثر عدد من يعملون فيه ، فوجد كتاب رئيسيون يقومون بالإنشاء ، وآخرون يساعدونهم في التلخيص والتبييض ، وأصبح لهذا الديوان محفوظات خاصة يتولى الاشراف عليها الخازن ، فكانت أصول المراسلات ونسخها تنظم في سجلات أو مغلفات خاصة يقال لها أضابير توضع عليها بطاقات تدل على محتوياتها ليسهل استخراجها والرجوع إليها[٢] .

٤ - ديوان الخاتم :

من أكبر الدواوين في الدولة الأموية ، أنشأه معاوية بن أبي سفيان حتى لا تخرج التوقيعات بدون ختم فلا يعلم ما تحتويه من أسرار أحد غير الخليفة ،فلا تتعرض هذه التوقيعات للتزوير والتعديل ، ويرجع الطبري السبب الذي دعا

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ص ٤٣٦

(٢) عبد المنعم ماجد ، تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٣ ص ٣٦

معاوية إلى اطلاق الختم على الكتب الخلافية أنه – أي معاوية – أمر لعمر بن الزبير عنـــد زياد بن أبيه بالكوفة بمائة ألف ، ففتح الكتاب ، وصير المائة مائتين ، ورفع زياد حسابه ، فأنكرها معاوية ، وطلب بها عمر وحبسه حتى قضاها عنه أخوه عبدالله ، فاتخذ معاوية عند ذلك ديوان الخاتم وحزّم الكتب ولم تكن تحزم من قبل [١]وأسند ديوان الخاتم إلى عبدالله بن محصن الحميري[٢] وقيل ولاه عبدالله بن أوس الغساني [٣]وأصبح الديوان يضم عدداً من الكتاب القائمين على إنفاذ كتب السلطان والختم عليها إما بالعلامة أو بالحزم ، وكان الحزم يتم عن طريق لصق رأس الصحيفة على ما تنطوي عليه من الكتاب ، وقـــد يجعل على مكان الالصاق علامة يؤمن معها من فتحه والاطلاع على ما فيه [٤] ، وهي لا تخرج عن ختم المكان الملصوق بخاتم منقوش قـــد غمس في مذاق من الطين معد لذلك ، أحمر اللون [٥] .

٥ – ديوان البريد :

استحدثه معاوية كذلك[٦] وذلك عندما اتسع نطاق الدولة وأصبح من الضروري نقل الرسائل في سرعة متناهية لتسهيل الاتصال السريع بين الخليفة

---

(١) الطبري ، ج ٦ ص ١٨٤ ـ الجهشياري ، كتاب الوزراء ص ٢٥ ـ ابن طباطبا ، ص ١٠٧ ـ ابن الأثير ، ج ٤ ص ١١ ـ ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٧٠

(٢) نفس المصدر ، ص ١٨٤ – ابن الأثير ، ج ٤ ص ١١

(٣) السيوطي ، ص ١٨٧

(٤) ابن طباطبا ، ص١٠٧ـ ابن خلدون، المقدمةص ٤٧١

(٥) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٧١

(٦) ابن طباطبا ، ص ١٠٦ ـ السيوطي ، ص ١٨٧

وبين عمال الأقاليم . فكانوا يضعون مضمرات الخيل في عدة أماكن ، فإذا وصل صاحب الخبر المسرع إلى مكان منها وقد تعب فرسه ركب غيره فرساً مستريحاً ، وكذلك يفعل في المكان الآخر والآخر حتى يصل بسرعة [1] .

ج — القضاء :

ظل القضاء في عصر دولة بني أمية بسيطاً كما كان في عصر الخلفاء الراشدين ، إذ لم تكن المذاهب الأربعة التي تقيد بها القضاء قد ظهرت بعد ، ولذلك كان القاضي يعتمد على الاجتهاد في الأحكام مستعيناً في ذلك بالكتاب والسنة والإجماع ، وكان القضاة مستقلين في آرائهم وأحكامهم ، فلم تكن لميول الدولة أي أثر عليهم في ذلك . وكان اختيار القضاة وتعيينهم يتم على يد الخليفة ، ولكن بعض القضاة كان يختارهم الولاة بتفويض من الخليفة . وينقسم القضاء في العصر الأموي إلى قضاء شرعي وقضاء مدني ، وكان القاضي الشرعي يستمد أحكامه القضائية من مصادر الشريعة الاسلامية : القرآن والسنة والإجماع أو القياس ، أما القضاء المدني فيتولاه المحتسب [2] ، وكثيراً ما جمع القضاة الشرعيون بين السلطتين الشرعية والمدنية . أما المشاكل التي يستعصى حلها على القاضي الشرعي فكان يفصل فيها قاضي المظالم [3] ، وتفوق سلطته القضائية سلطة القاضي والمحتسب [4] ، ولقد أفرد الأمويون للنظر في المظالم ديواناً خاصاً

---

(١) ابن طباطبا ، ص ١٠٦

(٢) والحسبة في رأى الماوردي واسطة بين أحكام القضاء وأحكام المظالم

(٣) الماوردي ، الأحكام السلطانية ، ص ٧٤

(٤) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٣٩٢

يرجع الفضل في انشائه إلى عبدالملك بن مروان [١] . وكان عبدالملك إذا وقف منها على مشكل أو احتاج فيها إلى حكم منفذ رده إلى قاضيه أبي ادريس الأزدي ، فنفذ فيه أحكامه لرهبة التجارب من عبدالملك بن مروان ، فكان أبو أدريس هو المباشر وعبدالملك هو الآمر[٢]. وكان خلفاء بني أمية يباشرون النظر في المظالم بأنفسهم ، ويعتبر عمر بن عبد العزيز أول من ندب نفسه للنظر في المظالم فردها ، وراعى السنن العادلة وأعادها ، ورد مظالم بني أمية على أهلها حتى قيل له وقد شدد عليهم فيها وأغلظ « إنا نخاف عليك من ردها العواقب » ، فقال « كل يوم أتقيه وأخافه دون يوم القيامة لا وقيتُه[٣]».

وكان يشترط فيمن يتولى القضاء سبعة شروط هي :

١ – أن يكون رجلا .

٢ – وأن يكون عاقلا صحيح التمييز بعيداً عن السهو والغفلة .

٣ – وأن يكون حراً .

٤ – وأن يكون مسلماً .

٥ – وأن يكون عادلاً، والعدالة أن يكون ظاهر الأمانة عفيفاً عن المحارم، متوقياً المآثم، بعيداً عن الريب ، مأموناً في الرضا والغضب .

٦ – وأن يكون سليماً في السمع والبصر ليصح بهما إثبات الحقوق ويفرق بين الطالب والمطلوب ، ويميز المقر من المنكر ليتميز له الحق من الباطل .

---

(١) الماوردي ، الأحكام السلطانية ، ص ٧٤

(٢) نفسه

(٣) نفسه

٧ ـ أن يكون عالماً بالأحكام الشرعية ، وعلمه بها يشتمل على علم بأصولها والارتياض بفروعها، وأصول الأحكام في الشرع أربعة هي القرآن والسنة وتأويل السلف والقياس [١] .

د ـ السكة :

رأينا فيما سبق أن عمر بن الخطاب أقـر العملات الفارسية والبيزنطية مع إضافة بعض نقوش عربية مما يقتضيه الاسلام [٢] . وفي خلافة عثمان بن عفان ضربت دراهم نقشت عليها عبارة « الله أكبر » ، ولما تولى معاوية الخلافة ضرب دنانير إسلامية عليها صورته متقلداً سيفه على نسق الدنانير البيزنطية [٣] ، وعلى الرغم من أنه لم تصل إلينا أي دنانير من عهد معاوية إلا أنه وصلت الينا بعض فلوس نحاسية ضربت في إيليا بفلسطين ، نقشت عليها صورة معاوية وهو أقرب ما يكون إلى صورة الأباطرة المنقوشة على الفلوس البيزنطية . ويذكر المقريزي أن عبدالله بن الزبير ضرب دراهم مدورة ونقش على الوجه « محمد رسول الله » ، وعلى الظهر « أمر الله بالوفاء والعدل » [٤] ، كما ضرب أخوه مصعب بالعراق دراهم مماثلة في سنة ٧٠ هـ بأمر أخيه عبدالله على ضرب الأكاسرة، وكتب عليها في أحد الوجهين : « بركة الله » وفي الآخر « اسم الله » [٥] ولم تعرف عنـــد المسلمين عملة إسلامية خالصة إلا في عصر الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ،

---

(١) نفسه ، ص ٦٢ ، ٦٣

(٢) راجع نظام العملات في الفصل الخاص بتنظيم عمر بن الخطاب للفتوح

(٣) المقريزي ، شذور العقود في ذكر النقود القديمة والاسلامية، تحقيق السيد محمد الطباطبائي، النجف ١٣٥٦ هـ ، ص ٦

(٤) المقريزي ، المصدر السابق ، ص ٦

(٥) البلاذري ج ٣ ص ٥٧٥ ـ ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٦٣

الذي كان يرى أن ضرب العملات العربية الاسلامية ضرورة لازمة اقتضتها الظروف لتدعيم البناء الاقتصادي والسياسي القومي للدولة العربية ، ومن الملاحظ أن عصر عبدالملك شهد ظاهرة جديدة هي صبغ الدولة بصبغة قومية عربية في جميع الشؤون الإدارية والمالية ، فإليه يرجع الفضل في تعريب الدواوين وإليه يرجع الفضل أيضاً في تعريب السكة الإسلامية ، وكان ذلك ضرورة من ضرورات الحكم في مرحلة الاستقرار التي أعقبت مرحلة الفتوحات [١] ، ويبدو أيضاً أنه كان يسعى جاهداً إلى توحيد النظام النقدي الاسلامي في سائر أنحاء الدولة العربية بعد أن تعددت العملات الخاصة التي أصدرها عبدالله بن الزبير في الحجاز وأخوه مصعب في العراق ، وقطرى بن الفجاءة ، ثم إن العملات بما تحمله من نقوش تتضمن اسم الخليفة أو الأمير الحاكم والمركز الذي سكت فيه تعبر عن سيادة الدولة العربية وتحررها من أي نفوذ أجنبي، وكان تداول عملات بيزنطية وفارسية في عصر بلغت فيه الدولة العربية ذروة تألقها السياسي والحضاري يتعارض تماماً مع تطبيق سياسة عربية في كافة وجوه الحياة اقتصادياً وسياسياً .

ولقد مر الاصلاح النقدي الذي قام به عبدالملك بن مروان بمرحلتين قبل أن تأخذ العملات الأموية صورتها الاسلامية الخالصة . ففي المرحلة الأولى ضربت الدنانير الذهبية على غرار الفلوس البيزنطية ، فبتر أعلى الصليب من وجه العملة وظهر على شكل حرف T وأحيط هذا الصليب بعبارات التوحيد المنقوشة بالخط الكوفي . أما في الوجه الآخر فقد أبقى على صورة هرقل وولديه قنسطنطين وهرقليوناس . وفي المرحلة الثانية استبعد عبد الملك التأثيرات البيزنطية نهائياً بأن نقش صورته هو مكان صورة هرقل وولديه ، ثم أبقى

---

(١) عبد الرحمن فهمي ، فجر السكة العربية ، ص ٣٨

العمود القائم على المدرج الذي يحمل الصليب في العملات القديمة ، وأصبح وجه الدينار يحمل صورة عبدالملك ، وأصبح ظهره منقوشاً بكتابة تدور على حافة الدينار نصها: «بسم الله ضرب هذا الدينار سنة ست وسبعين » وأصبح الصليب مجرد عمود قائم على أربع مدرجات . ولقد سببه ظهور صورة عبد الملك على ديناره احتجاج جماعة من الصحابة الذين أنكروا على عبدالملك تشبهه بالأباطرة كما أنكروا إظهار الصور التي ينهي عنها الشرع [١] كما أثار صدور هذا الدينار وعليه صورة الخليفة رد فعل عنيف عند البيزنطيين الذين اعتبروا هذا الإصلاح النقدي الاسلامي ثورة على نظام النقد البيزنطي العالمي [٢] .

ومع ذلك فقد كان دينار المرحلة الثانية تمهيداً لصدور الدينار الإسلامي الخالص في سنة ٧٧ هـ وكان يتوسط الوجه العبارة الآتية : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له » بينما كان يدور علي الحافة عبارة : « محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » ،أما الظهر فقد كان يتوسطه : « الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد »، وكان يدور بالحافة«بسم الله ضرب هذا الدينار عام سبع وسبعين» [٣].

هـ ـ الطراز :

تخلى العرب بعد الفتوحات عن ثيابهم الخشنة من الجبب الصوفية المرقعة بالأدم،والأقبية الطويلة المربوطة في وسطها بالزنانير، والصابرات التي يرتدونها فوق الأقبية، وأقبلوا على التأنق في اللباس،وتظاهروا بمظاهر الأبهة والفخامة ،

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ص ٤٦٤

(٢) عبد الرحمن فهمي ، النقود العربية ، ص ٤٢

(٣) عبدالرحمن فهمي ، فجر السكة الاسلامية ، ص ٢٩١

فازدهرت صناعة النسيج في أنحاء الدولة العربية ، وعرفت مصانع النسيج بدور الطراز ، والطراز كلمة فارسية الأصل معناها التطريز وعمل المدبج أو الشريط الكتابي الذي ينسج في لحمة الثوب وسداه ، ثم تطورت كلمة الطراز فأصبحت تعني المصنع الحكومي الذي تصنع فيه الثياب ، ومن المعروف أن من أبهة الملك وفخامة السلطان ومذاهب الدول حسبما يذكر ابن خلدون أن ترسم أسماء الملوك أو علامات تختص بهم في طراز أثوابهم المعدة للباسهم من الحرير أو الديباج أو الإبريسم ، « تعتبر كتابة خطها في نسج الثوب ألحاما وأسداء بخيط الذهب ، أو ما يخالف لون الثوب من الخيوط الملونة من غير الذهب على ما يحكمه الصناع في تقدير ذلك ، ووضعه في صناعة نسجهم ، فتصير الثياب الملوكية معلمة بذلك الطراز قصد التنويه بلابسها من السلطان فمن دونه أو التنويه بمن يختصه السلطان بملبوسه إذا قصد تشريفه بذلك أو ولايته لوظيفة من وظائف دولته »[١] .

وهكذا اقتبس خلفاء الدولة الأموية الطراز من دولتي الروم والفرس ، ولم يجروا أي تغيير جوهري على صناعة النسيج السابقة على الاسلام ، وقنعوا بإدخال الكتابة العربية التي تشير إلى أسمائهم مع كلمات أخرى تجري مجرى الفأل أو السجلات[٢] . وكانت الدور المعدة لنسج الأثواب الخلافية في قصورهم تسمى دور الطراز الخاصة ، تمييزاً عن دور الطراز العامة التي تتولى صناعة ثياب الرعية ، وكان يتولى النظر على هذه الدور قائم يسمى صاحب الطراز ينظر في أمور الصباغ والأنوال والحاكة الذين يعدون الحلل والبرود وغيرها ، وفي إجراء أرزاق العمال .

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٧١ ، ٤٧٢

(٢) نفسه ، ص ٤٧٢ - M. A. Marzouk, Alexandria as a textile centre, B. I. S. A. C., t. XIII, p. 126

وكانت مصر قبل الإسلام مشهورة بصناعة النسيج ، وكان الأقباط يحملون لواء هذه الصناعة مدة طويلة لدرجة أن العرب كانوا يطلقون على المنسوجات المصرية اسم قباطي [١] نسبة إلى أقباط مصر الذين تفوقوا في هذا المجال ، ولذلك عمد العرب إلى الإفادة من هـذه الشهرة في كسوة الكعبة ، ومنح الخلع ، وأدى ذلك إلى نهوضهم بهـذه الصناعة ودفعها خطوات كبيرة إلى الأمام . وشاع في عصر سليمان بن عبد الملك نوع من الترف والتأنق في الزي بتوجيه من الخليفة ، فقد فرض على رجاله وأهل بيته وخدمة ارتداء الوشي لشدة ولوعه بهذا النوع من النسيج الذي تدخل في لحمته وسداه خيوط الذهب ، ويعرف أيضاً بالمقصب ، وفي أيامه عمل الوشي الجيد باليمن والكوفة والاسكندرية ، ولبس الناس جميعاً الوشي جباباً وأردية وسراويل وعمائم وقلانس ، وذكر المسعودي أنه « كان لا يدخل عليه رجل من أهل بيته إلا في الوشي ، وكذلك عماله وأصحابه ومن في داره ، وكان لباسه في ركوبه وجلوسه على المنبر ، وكان لا يدخل عليه أحد من خدامه إلا في الوشي ، حتى الطباخ ، فإنه كان يدخل إليه في صدره وشي وعلى رأسه طويلة وشي ، وأمر أن يكفن في الوشي المثقـلة » [٢]. كذلك شاع لبس الطيلسان بين فئات مختلفة من الناس ، وكان أول من لبسه في الإسلام من العرب عبدالله بن عامر بن كريز (ت ٥٩ هـ) أوجبير بن مطعم (ت ٥٤) ، وكان عمر بن عبد العزيز يصلي في جبة طيالسة ليس عليه إزار [٣] .

---

(١) الأزرقي ، أخبار مكة ، ج ١ ص ٢٦٠ ، وكانت الكعبة تكسى في الجاهلية من الأنطاع والأكسية والكرار والأنماط فكانت ركاماً بعضها فوق بعض ، ثم كساها عمر وعثمان القباطي ، وكساها عثمان كسوتين من قباطي مصر وبرود اليمن ، فلما كان معاوية كساها الديباج مع القباطي فكانت تكسى الديباج يوم عاشوراء والقباطي في آخر شهر رمضان، واستمر ذلك متبعاً حتى نهاية الدولة الأموية (الأزرقي ، ج ١ ص ٢٥٤)

(٢) المسعودي ، ج ٣ ص ١٧٥

(٣) بدري محمد فهد ، الطيلسان ، فصلة من مجـلة كلية الشريعة ، العدد الثاني ، بغداد ١٩٦٦ ص ٢

- ٢ -

شيوع الترف في المجتمع المدني

كان عمر بن الخطاب يحرص كل الحرص على أن يلتزم العرب بعد الفتوحات حياتهم الأولى القائمة على الخشونة والتقشف والزهد خشية أن تجرفهم حياة المدنية في تيارها، فقد ترتب على فتح الشام ومصر والعراق وفارس أن تمرد العرب على بداوتهم بتأثير البيئات الحضارية الجديدة ورغبتهم في مجاراة أهل البلاد المفتوحة في مذاهبهم وعاداتهم، فهموا بالخروج عن بداوتهم والاستمتاع بما أتت به الحياة الحضارية من ألوان الترف المباح الذي لا يتعارض مع أصول الإسلام وتعاليمه، ولكن عمر بن الخطاب نهاهم عن ذلك لتمسكه بزهده وإلزامه الفاتحين الاحتفاظ بخشونتهم التي جعلت منهم محاربين ذوي بأس، بأن فرض عليهم الإقامة في معسكرات خارج المدن يعيشون فيها على النمط البدوي. ويذكر ابن الأثير أنه لما قدم إلى الجابية كان أول من لقيه يزيد وأبو عبيدة ثم خالد على الخيول عليهم الديباج والحرير، فنزل وأخذ الحجارة ورماهم بها، وقال: « ما أسرع ما رجعتم عن رأيكم! إياي تستقبلون في هذا الزي وإنما شبعتم مذ سنتان! وبالله لو فعلتم هذا على رأس المائتين لاستبدلت بكم غيركم ». فقالوا: « يا أمير المؤمنين، إنها يلامقة [1]، وإن علينا السلاح » قال: « فنعم إذن » [2].

على أن السياسة التقشفية التي التزمها عمر لم تلبث أن انتهت بانتهاء عصره، فلما استخلف عثمان لم يتشدد كما كان يفعل عمر، وإنما تساهل في سياسته،

(١) اليلمق القباء المحشو

(٢) ابن الأثير، ج ٢ ص ٥٠٠

فانطلق العرب إلى حياة الترف وحياة الدنيا ، وحرصوا على الاستمتاع بها في الحدود المشروعة ، وهنا تأنقوا في مآكلهم ومشاربهم وملابسهم ، واستبدلوا بدورهم القديمة الساذجة قصوراً منمقة الجدران موزونة الأبعاد . ثم تطورت الحياة الاجتماعية عند العرب في العصر الأموى ، « باتساع العيش والتفنن في أحواله ، فبلغوا الغاية في ذلك وتطوروا بطور الحضارة والترف في الاحوال ، واستجادة المطاعم والمشاوب والملابس والمباني والاسلحة والفرش والآنيـة وسائر الماعون والخرثى ، وكذلك أحوالهم في أيام المباهاة والولائم وليالي الإعراس »[1]. ولقد أغرم العرب في العصر الاموى بفني الغناء والموسيقى بعد أن أثروا بسبب تدفق الاموال عليهم بعد الفتوحات ، ولما كان الفراغ والجاه من مقومات حياة الترف فقد انصرفوا إلى سماع الغناء واقتناء الجوارى والقيان لملأ فراغهم ، وكان فن الغناء والموسيقى قد ارتقى في هـذا العصر عن طريق الاسرى الذين حملوا معهم في جملة ما حملوا موسيقاهم وفنونهم الغنائية ، فكثر عدد الموالي المشتغلين بهذا الفن ، ويعدد صاحب الأغاني أسماء ثلاثين مغنيا من الرجال وخمسين مغنية ، وفي ذلك يقول ابن خلدون: « فلما جاءهم الترف وغلب عليهم الرفه بما حصل لهم من غنائم الأمم ، صاروا إلى نضارة العيش ورقـة الحاشية واستحـلاء الفراغ . وافترق المغنون من الفرس والروم ، فوقعوا إلى الحجاز ، وصاروا موالي العرب ، وغنوا جميعاً بالعيدان والطنابير والمعازف والزمامير ، وسمع العرب تلحينهم للأصوات ، ولحنوا عليها أشعارهم . وظهر بالمدينة نشيط الفارسي وطويس وسائب خاثر مولى عبدالله بن جعفر ، فسمعوا شعر العرب ولحنوه وأجادوا فيه ، وطار لهم ذكر. ثم أخذ عنهم معبد وطبقته وابن سريج وأنظاره »[2] .

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٣٠٥

(٢) نفس المصدر ، ص ٧٦٥

واشتهرت في أيام يزيد بن عبد الملك مغنية تعرف بسلامة القس أغرم بهـا يزيد ، كما أغرم بجارية أخرى تسمي حبابة إلى حد أنه لما اعتلت حبابة أقام يزيد أياماً لا يظهر للناس ،فلما ماتت أقام أياماً لا يدفنها جزعاً عليها حتى جيّفت ، ثم ضم إليه جويرية لها لم تزل معه حتى مات [١] . ويرجع إلى الوليد بن يزيد الفضل في ازدهار فن الغنـــاء والموسيقى حتى أصبح اسمه يقترن بهذا الفن ، فأطلق عليه اسم خليع بني مروان [٢] ، وذكروا أنه قـــد ورث الطرب في الشعر عن أبيه « وهو أول من حمـــل المغنين من البلدان إليه وجالس الملهين ، وأظهر الشرب والملاهي والعزف،وفي أيامه كان ابن سريج المغني ومعبدوالغريض وابن عائشة وابن محرز وطويس ودحمان ، وغلبت عليه شهوة الغناء في أيامه ، وعلى الخاص والعام ، واتخذ القيان ، وكان متهتكاً ماجناً خليعاً » [٣] .

ويعتبر هشام بن عبدالملك أول من أنشأ لسباق الخيل حلبة من خلفاء بني أمية ، فاجتمع له فيها من خيله وخيل غيره أربعة آلاف فرس [٤] ، وكان له فرس مشهور يقال له الزائد. وكان الوليد بن يزيد مغرماً بالخيل وإقامة الحلبة، وكان له فرس يسمى السندي كان يسابق به في خلافة هشام ، وكان يقصر عن فرس هشام المعروف بالزائد وربما ضامه ، وربما جاء مصلياً . والمصلي من الخيل ما وصل رأسه عند صلا السابق وهو الاول ، وقد أجرى الوليد الخيـــل في الرصافة ، وكان يدخل مع ذويه في مسابقات [٥].

---

(١) المسعودي ، ج ٣ ص ١٩٨ وما يليها

(٢) نفسه ، ص٢١٦

(٣) نفسه ، ص ٢١٣

(٤) نفسه ، ص ٢٠٣

(٥) نفسه ، ص ٢١٨

وفي عصر الدولة الأموية تنوعت الأطعمة والأشربة ودخلت في المآكل العربية أنواع فارسية ورومية ما كان العرب يعرفونها من قبل، وخاصة الحلوى كالخشكنانج والاخبصة اليابسة والذانجوج (١) .

— ٣ —

الحياة الفكرية

ازدهرت الحركة الفكرية في العصر الأموي وشملت مجالات العلوم الدينية واللغوية، والتاريخ والجغرافيا، والعلوم العقلية كالفلسفة والفلك والرياضيات والعلوم الطبيعية، ووجد في العصر الأموي الباحثون في فروع المعرفة المختلفة، بعضهم من اليهود أو النصارى الذين تحولوا إلى الاسلام وتعربوا، وكتبوا بالعربية، والبعض الآخر من العرب، وفيما يلي عرض موجز لهذه النشاطات الفكرية المتعددة :

١ — العلوم الدينية :

هي أول ما عرفه العرب من العلوم، فالمعروف أن الصحابة تفرقوا في الأمصار الإسلامية، وشارك الكثير منهم في الفتوحات، فتأسست المدارس الدينية في الأمصار الإسلامية وكان أساسها القرآن والحديث والفقه، فكانت بداية التأليف العلمي عند العرب وثيقة الصلة بهذه المصادر، وكانت مراكز هذه الحركة المدينة والفسطاط والبصرة والكوفة ودمشق، ومن أشهر علمائها عبدالله

---

(١) المسعودي، ج ٣ ص ٣٠

ابن عمرو بن العاص في الفسطاط (ت ٦٥ هـ) ويزيد بن أبي حبيب (ت ١٢٨ هـ) في الفسطاط أيضاً ، وأخذ عنه عبدالله بن لهيعة والليث بن سعد من أعظم علماء الحديث والفقه في مصر الاسلامية .

وكان من أهم العلوم الدينية علم القراءات الذي يعتبر أساس علوم التفسير ، ويتناول هذا العلم أساليب قراءة القرآن نتيجة لانعدام التشكيل والنقاط ، ومن أئمة القراءات في المدينة نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم المدني [١] ، وفي مكة عبدالله بن كثير مولى عمرو بن علقمة الكناني (ت ١٢٠) وقيل أنه من أبناء فارس الذين بعثهم كسرى في السفن إلى اليمن فطردوا الأحباش [٢] ، وفي الكوفة عاصم ابن أبي النجود (ت ١٢٨) مولى بني جذيمة بن ملك بن نصر ، وفي دمشق عبدالله بن عامر اليحصبي (ت ١١٨) . ومن العلوم الدينية علم تفسير القرآن ، وقد نشأ التفسير في عصر النبي ﷺ أول شارح للقرآن الكريم ، ثم تولى صحابته هذه المهمة من بعده ، باعتبارهم الواقفين على أسراره ، المهتدين بهدى النبي ﷺ [٣] ، ومن أشهر المفسرين من الصحابة عبدالله بن عباس . وعن الصحابة أخذ التابعون ، وعن التابعين أخذ تابعو التابعين ، فجمعوا أقوال من تقدمهم وصنفوا التفاسير [٤] ، وأول من دوّن التفسير في الصحف مجاهد المتوفي سنة ١٠٤ [٥] .

ومن العلوم الدينية الحديث ، ويراد به ما يروى عن الرسول من قول أو فعل ، وقد أخذ الناس الحديث عن الصحابة الذين طالت صحبتهم برسول الله ومنهم

---

(١) ابن النديم ، الفهرست ، ص ٢٨

(٢) نفسه

(٣) صبحي الصالح ، مباحث في علوم القرآن ، دمشق ، ١٩٦٢ ص ٣٣١

(٤) نفسه ، ص ٣٣٢ ، ٣٣٣

(٥) علي حسني الخربوطلي ، الحضارة العربية الاسلامية ، ص ٣٦٦

السيدة عائشة وعمر بن الخطاب وأبو هريرة ، ثم ظهرت طبقة التـــابعين الذين أخذوا الحديث عن الصحابة . ولم يدون الحديـــث إلا في أواخر القرن الثاني الهجري في خلافة عمر بن عبد العزيز ، وكانت الأحاديث تحفظ في صدور الرجال أو تكتب في صحائف متفرقة ، ولما كان بعض الأحاديث قـد انتحلت لتلبية حاجة البدع والنزعات[١] ، فقد حرص عمر بن عبد العزيز على تدوين الأحاديث الصحاح ، فأمر بعض من كان يثق بهم من علماء الحديث بجمعها ، فكتبت في دفاتر وأرسلت منها نسخ إلى أنحـاء الدولة الإسلامية . ومن أشهر المحدثين في العصر الأموي سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري بالبصرة (١٦١ هـ) وله من الكتب الجامع الكبير الذي يجري مجرى الحديث ، وأبو عبد الرحمن محمد بن عبدالرحمن ابن المغيرة (ت ١٥٩ هـ) وله من الكتب كتـاب السنن ، وعبد الملك بن عبد العزيز بن جريج (ت ١٥٠ هـ) وصنف كتاب السنن ، ومغيرة بن مقسم الضبي ، (ت ١٣٦ هـ) وصنّف كتاب الفرائض ، وزائدة بن قدامة الثقفي (ت ٦١ هـ) ومن كتبه كتاب السنن وكتاب القراءات وكتاب التفسير ، ومكحول الشامي (ت ١١٦) مؤلف كتاب السنن في الفقه ، وكتـاب المسائل في الفقه . ومن أشهر المحدثين في العصر الاموي عبد الرحمن بن عمرو الاوزاعي (ت ١٥٩ هـ) وله من الكتب كتاب السنن في الفقه وكتاب المسائل في الفقه[٢] .

ب — علوم اللغة :

على الرغم من غلبة الأمية والبداوة على العرب في جاهليتهم ، فقـــد كانت لغتهم الفصحى هي كلما حملوه معهم مع الاسلام من الجزيرة العربية إلى الأمصار ، واللغة العربية هي التي نزل بها القرآن الكريم ، وهي اللغة التي سجل بها روائع

---

(١) عبد العزيز سالم ، التاريخ والمؤرخون العرب ، ص ١٧٥

(٢) راجع الفهرست ، ص ٢٢٥ - ٢٢٧

الشعر العربي القديم الذي يتضمن من السمو الفكري والذوق الفني والإبداع ما يعبر عن سعة أفق العرب ونضوجهم العقلي وخصب خيالهم وحساسيتهم ، وقد اضطر العرب بعد اختلاطهم في بلادالشام بالروم والسريان، وفي مصربالقبط، وفي العراق وفارس بالعجم، وفي المغرب بالبربر، وبعد أن دخل كثير من هذه الشعوب في الاسلام ، إلى وضع قواعد للغة العربية لتحميها من اللحن والخطأ ، فظهرت مدرسة النحويين في البصرة ويرأسها أبو الأسود الدؤلي الذي اطلع على نحو السريان . وذكروا أن أبا الأسود سمع قارئاً يقرأ أن الله برىء من المشركين ورسوله بالكسر ، فقال « ما ظننت أن أمر الناس آل إلى هذا »[1] فاتصل بزياد بن أبيه وطلب منه أن يعين له كاتباً لقنا يفعل ما يقوله له ، فأتاه بكاتب من عبد القيس ، فلم يرضه ، فأتاه بآخر لعله المبرد ، فقال له أبو الأسود : « إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه على أعلاه ، وإن ضممت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف، وإن كسرت فاجعل النقطة من تحت الحرف»[2].

وعن أبي الأسود الدؤلي أخذ جماعة من دارسي النحو منهم يحيى بن يعمر ، وعنبسة بن معدان ، وميمون الأقرن ، وعيسى بن عمر الثقفي ، وكان هذا الأخير من مقدمي نحويي البصرة ، وعنه أخذ الخليل بن أحمد ، وأصدر كتاب المكمّل . ومن تلاميذ الدؤلي يونس بن حبيب (ت ١٨٣ ﻫ) مولى بني ليث بن بكر ، وقيل أنه أعجمي الأصل ، وكان أعلم الناس بتصاريف النحو[3]. كذلك استحدثت الشريعة الإسلامية والنظم السياسية والإداريةفي الدولة العربيةألفاظاً ومصطلحات لم يكن للعرب عهد بها من قبل ، وازدادت هذه المصطلحات بما نقله المسلمون عن اليونانية والفارسية في مختلف ميادين العلوم كالطب والرياضه

---

(١) الفهرست ، ص ٤٠

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٠

(٣) نفسه ، ص ٤٢

والفلسفة والكيمياء، وأدى ذلك إلى البحث في مفردات اللغة من حيث معانيها وأصولها واشتقاقاتها، فظهرت المعاجم العربية، وأول من وفق في جمع أول معجم في اللغة العربية الخليل بن أحمد الازدي (ت ١٧٠)، وذكروا أنه كان غاية في استخراج مسائل النحو وتصحيح القيـــاس ، وهو أول من استخرج العروض وحصّن به أشعار العرب ، وصنف الخليل كتابه المشهور المسمى العين، كما صنف كتباً أخرى منها كتاب النغم وكتاب العروض وكتاب الشواهد وكتاب النقط والشكل وكتاب فائت العين وكتاب الايقاع (١) .

ج ـ علم التاريخ :

قامت الدراسات التاريخية بادىء ذي بدء على دراسة سيرة الرسول وأخبار الغزوات ومن أسهم فيها من الصحابة ، وأخبـــار هجرة المسلمين الاوائل إلى الحبشة ثم إلى يثرب ، ولذلك كانت مكة والمدينة المركز الرئيسي لنشاط هذه الحركة التاريخية . وكان المؤرخون الأول من المسلمين يعتمدون على الروايات الشفوية شأنهم في ذلك شأن رواة الحديث ، فكان كل جيل منهم يستمد أخباره من الجيل السابق ، وكان الخبر التاريخي يستمد من السماع عند الحفاظ الموثوق بهم وهو ما يعرف بالاسانيد ، التي اعتبرت وقتئذ وسيلة للإجماع على صحة الخبر ، وهي نفس الوسيلة التي اتبعها المحدّثون في روايتهم للحديث ، مما يدل على أن التاريخ العربي عند نشأته سلك نفس الطريقة التي سلكها الحديث ، فكان الخبر التاريخي على هذا النحو يتألف من عنصرين : رواة الخبر على التتابـع وهو ما يعرف بالسند أو الإسناد ثم نص الخبر ويسمى المتن(٢) . وأقدم الكتب التاريخية

---

(١) نفسه ، ص ٤٣

(٢) أحمد أمين ، ضحى الاسلام ، ج ٢ القاهرة ١٩٣٨ ، ص ٣١٩ - عبد العزيز الدوري، بحث في نشأة علم التـــاريخ عند العرب ، بيروت ١٩٦٠ ص ٢٠ - سيدة الكاشف ، مصادر التاريخ الاسلامي ومناهج البحث فيه ، القاهرة ١٩٦٠ ص ٢٥

التي تجمع بين الحديث والتاريخ كتب المغازي والسيرة ، فقد دفع اهتمام المسلمين بأقوال الرسول وأفعاله للاهتداء بها والاعتماد عليها في التشريع الإسلامي ، وفي النظم الإدارية ، الكتاب الى التصنيف في سيرة الرسول وفي مغازيه ومغازي الصحابة [١] ، وكان من الطبيعي أن تتألق هذه الحركة في المدينة باعتبارها دار الرسول ودار السنة التي عاش فيها الصحابة وسمعوا أحاديث الرسول ورووها بدورهم إلى التابعين . وينقسم مؤرخو السيرة والمغازي في مدرسة المدينة ومكة إلى ثلاث طبقات ، فبرز في الطبقة الاولى منهم : أبان بن عثمان بن عفان (ت ١٠٥) وعروة بن الزبير (ت ٩٢) الذي مكنته نسبه من أن يروي الكثير من الاخبار والاحاديث عن النبي ﷺ ، فروى منها عن أبيه الزبير ، وعن أمه أسماء وعن خالته عائشة أم المؤمنين ، وعن عروة أخذ ابنه هشام وابن شهاب الزهري .

ومن رجال الطبقة الثانية عبدالله بن أبي بكر بن حزم الانصاري (ت ١٣٥) وعاصم بن عمرو بن قتادة الانصاري (ت ١٢٠) الذي عهد إليه عمر ابن عبد العزيز بالجلوس في جامع دمشق ليحدث الناس عن مغازي رسول الله وعن مناقب الصحابة ، وعليه اعتمد كل من المؤرخين ابن اسحق والواقدي [٢] ، واخيراً ابن شهاب الزهري (ت ١٢٤) أعظم مؤرخي المغازي والسيرة الذي يرجع إليه الفضل في توضيح خطوط السيرة وفي تأسيس المدرسة التاريخية في المدينة [٣] . ومن رجال الطبقة الثالثة محمد بن اسحاق (ت ١٥٢) أشهر تلاميذ الزهري وأصله فارسي ، وإليه تنسب أقدم كتب السيرة التي وصلت إلينا ، ومحمد ابن عمر الواقدي مولى بني هاشم (ت ٢٠٧) الذي فاق ابن اسحق في دقته في

---

(١) أحمد أمين ، ضحى الاسلام ج ٢ ص ٣١٩ ـ عبد العزيز الدوري ، ص ١٩ ، ٢٠

(٢) أحمد أمين ، المرجع السابق ، ج ٢ ص ٣٢٥

(٣) الدوري ، ص ١٠١

المادة وفي الأسلوب مع زيادة في العناية بالتـاريخ ، وفي تحقيق تواريخ الأحداث وتوضيح الإطار الجغرافي المتصل بالمواقع [١] .

وظهرت في العصر الأموي أيضاً مدرسة أخرى للتاريخ في البصرة والكوفة، تميزت بتناول الموضوعات الخاصة بالمعارك والفتوح الاسلامية ودراسة الأنساب، نتيجة طبيعية للصراع الحزبي والإقليمية والقبلية [٢] ، وفي نفس الوقت وجد في هذه المدرسة كتّاب للسيرة والمغازي،فنذكر منهم معمر بن راشد اليماني البصري (ت ١٥٠ هـ) . ومن أشهر كتّاب التاريخ والأخباريين من أصحـاب هذه المدرسة ، أبو مخنف لوط بن يحيى الأزدي (ت ١٥٧ هـ) ، الذي عني بكتابة الأحداث التاريخية العامة في الاسلام ، كالردة والفتوح ومواقع الجمل وصفين ، ومقتل الحسين ، وعن الأزارقة الخوارج ، وذلك بجانب اهتمامه بالانساب [٣] . ومنهم أيضاً سيف بن عمر الكوفي الاسدي (ت ٩٨٠ هـ) الذي اتسمت اخباره في الفتوحات وخاصة ما كان منها متعلقاً بالعراق بميول واضحة المعـالم لقبيلته وتعصب ظاهر لها [٤] ، ومنهم عوانة بن الحكم الكوفي (ت ٥٤٧ هـ) وكان على دراية كبيرة بالاخبار والفتوح مع علم بالشعر والانساب [٥] .

ونلاحظ أن اهتمام العرب بأنسابهم في الجاهلية وضح بوجـه خاص عقب الفتوحات الاولى وذلك عندما أنشأ عمر بن الخطاب الديوان وبدأ بالعباس عم النبي ثم ببني هاشم ثم بمن بعدهم طبقة بعد طبقة مراعياً في ذلك الاعتبار الديني والقبلي

---

(١) الدوري ، ص ٣٠ ، ٣١

(٢) نفسه ، ص ١٢٣

(٣) ابن النديم ، ص ٩٣

(٤) أحمد أمين ، ص ٣٤٣ ـ الدوري ، ص ٣٧

(٥) ابن النديم ، ص ٩١ ـ ياقوت معجم الأدباء ، طبعة مرجليوث ، القاهرة ١٩١٣ ، ج ٦ ص ٩٤

في آن واحد . وزاد اهتمام الامويين بالانساب ، ووضعت لهـذا الغرض سجلات بها ، واشتدت العناية بالانساب أيضاً منذ أواخر العصر الاموي عندما قـامت الخصومات القبلية ، ونشأت الشعوبية ، وأخذ الشعوبيون من الموالي يفتشون عن مثالب العرب في الوقت الذي كانت القبائل تبحث عن مفاخرها [١] ، ومن أشهر نسّابة العراق محمد بن السائب الكلبي (ت ١٤٦ هـ) وكان من علماء الكوفة الذين اهتموا بدراسة الانساب .

أما بالنسبة للتاريخ العربي القديم الذي يتناول أخبار العرب في الجاهليـة الاولى أو الجاهلية القريبة من الاسلام فقد تم تدوينه في عصر الدولة الاموية عندما ثبتت دعائم الدولة العربية ، وبدأ العرب يعنون بأخبارهم القديمة ، فشهد القرنان الاول والثاني للهجرة اهتماماً خاصاً بدراسة أخبار العرب القديمة . ومن المؤرخين الذين اشتغلوا برواية أخبار العرب قبل الاسلام :

١ - عبيد بن شرية الجرهمي ، وكان قصاصاً أخبارياً برز في بلاط معاوية بن أبي سفيان [٢] ، وذكروا أنه ألف لمعاوية « كتاب الملوك وأخبار الماضين »[٣] الذي طبع في ذيل كتاب التيجان في ملوك حمير ، وكتـاب ابن شرية يتضمن كثيراً من أخبار العرب في الجاهلية ، كما يشتمل على كثير من الاشعار التي وضعت على لسان عاد وثمود وطسم وجديس والتبابعة ، ويغلب على هذه الاخبار الطابع القصصي المتأثر بالاسرائيليات [٤] . وعاش عبيد بن شرية إلى أيام عبد الملك بن

---

(١) الدوري ، ص ٤٠

(٢) المسعودي ، ج ٣ ص ٣١ - ابن النديم ، ص ٨٩

(٣) الهمداني ، الاكليل ، ج ٨ تحقيق الدكتور نبيه امين فارس ، برنستن ، ١٩٤٠ ص - فرانز روزنثال ، علم التاريخ عند المسلمين ، ص ٢٧٥

(٤) جواد علي ، العرب قبل الإسلام ، ج ١ ص ٤٤

مروان [١] .

٢ - وهب بن منبّه (ت ١١٠ هـ). وكان يمنياً من أهل ذمار وأصله فارسي، وقيل أنه كان يهودياً وأسلم، وينسبون إليه معظم الاسرائيليات الواردة في المصادر العربية ، ومن الكتب المنسوبة إليه « كتاب الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم وقصصهم » . ويغلب على أخبار وهب طابع القصص الشعبي الخرافي، وقد حمل ذلك المؤرخ هاملتون جب إلى القول بأن كتابي وهب بن منبه وعبيد ابن شرية يمدانا « ببرهان ساطع على أن العرب الاول كانوا يفتقرون إلى الحس والمنظور التاريخيين حتى عندما يتطرقان إلى ذكر أحداث تكاد تكون معاصرة لهما » [٢] .

د - علم الكلام :

ظهرت في العصر الاموي بعض حركات فلسفية دينية كالجبرية والقدرية والمعتزلة. فالجبرية يقولون بأن إرادة الله مطلقة وقدرته تضع حداً لإرادة الإنسان ، والانسان على هذا النحو مجبر لا اختيار له ولا قدرة ، وان الله يخلق في الإنسان الاعمال والافعال ولا قدرة للإنسان على تبديلها . وأول من قال بالجبرية جهم بن صفوان فسمي أتباعه بالجهمية . وقد نفى الجبرية صفات الله لان صفات الله بشرية والبشر خلق . أما القدرية فقد جاءت حركتهم كرد فعل لحركة الجبرية ، ومذهب القدرية هو أن الإنسان يملك القدرة والإرادة عن تصرفاته ، ودعمت القدرية آراءها بآيات من القرآن الكريم ، وكانت القدرية تعارض بني أمية لانها تعتبر أن للفرد حرية الاختيار . أما المعتزلة فهي اعظم مدارس الفكر والكلام

---

(١) ابن النديم ، ص ٨٩

(٢) هاملتون جب، دراسات في حضارة الإسلام، ترجمة الدكتور إحسان عباس وآخرين، بيروت ١٩٦٠، ص ١٤٤

في الاسلام ، وظهرت في بداية القرن الثاني الهجري في البصرة ، ويرجع أصل هذه التسمية إلى واصل بن عطاء الذي اعتزل حلقة أستاذه الحسن البصري بمسجد البصرة ، لاختلافه معه في الرأي . وتتلخص آراء المعتزلة في القول بعدم تكفير مرتكب الكبائر واعتباره في منزلة بين المنزلتين ، أي بين المؤمن والكافر [1]. وقالوا بالقدرة أي أن الله لا يخلق أفعال الناس وإنما هم يخلقون أفعالهم ، وأنهم من أجل ذلك يثابون أو يعاقبون على عكس ما قال به خصومهم من الفقهاء الذين تغالوا في سلب الإنسان قدرته وحريته في التصرف . وقال المعتزلة بسلطان العقل وقدرته على معرفة القبيح من الحسن ، ودعاهم إلى القول بهذا المبدأ ما رأوه من جمود بعض الفقهاء ووقوفهم عند النصوص. كذلك قال المعتزلة بالتوحيد فنفوا أن تكون لله تعالى صفات أزلية من علم وقدرة وحياة وسمع وبصر غير ذاته ، بل إن الله عالم وقادر، وحي وسميع وبصير بذاته ، وربما دعاهم إلى هذا القول ما شاع في عصرهم من ذهاب قوم إلى تجسيم الله تعالى وإثبات صفات له كصفات المخلوقات ، وقد استند المعتزلة في آرائهم على قوله تعالى : « وليس كمثله شيء » وقوله تعالى : « سبحان رب العزة عما يصفون » .

وقد اضطهد خلفاء بني أمية المعتزلة ، ولكن بعض الخلفاء ذهبوا مذهبهم مثل يزيد الناقص بن الوليد، ومروان بن الحكم الذي لقب بالجعدي لأخذه القول بالقدر عن الجعد بن درهم المعتزلي .

ﻫ - الشعر الأموي :

اهتم الأمويون بلغة العرب بعد اختلاطهم بالاعاجم ، فوضعوا لها القواعد ، ووضعوا لشعرهم الأقيسة ، كما جاب العلماء البادية لجمع مفردات اللغة من أفواه البدو الخلص ، فجمع كثير من الشعر القديم ، ووضع الخليل بن أحمد قاموساً

---

(١) المسعودي ، ج ٣ ص ٢٢٢

اللغة وأنشأ علم العروض لوزن الشعر ، فنهض الشعر في العصر الأموي ، واتخذ الشعر الأموي اتجاهات جديدة لم تكن معروفة عند العرب في الجاهليه ، فظهر شعر الغزل ، ومن أشهر شعراء هذا اللون عمر بن أبي ربيعة في الحجاز ، الذي يمثل الغزل غير البرىء لبثينة ، وجميل عذرة الذي يمثل الحب البريء ، وظهر الشعر السياسي ، نتيجة للسياسة الحزبية للدولة الأموية ، واتخاذهم الشعر وسيلة للدعاية ، وهو النوع المعروف بالشعر الحزبي ، فوجد شعراء أبلوا بلاء حسناً ، منهم عبيد الله بن قيس الرقيات من الزبيريين ، والكميت بن زيد الأسدي من شعراء الشيعة[١] ، كما وجد شعراء يمثلون السياسة الأموية ، نذكر منهم الفرزدق شاعر عبدالملك بن مروان ، والوليد ، وسليمان ويزيد ، وجرير شاعر الحجاج ، والاخطل شاعر معاوية وخلفائه . كذلك وجد شعراء يمثلون الصراع بين العصبيتين القيسية واليمنية ، وسجل هؤلاء المفاخرات العصبية ، ومن شعراء النزارية والقيسية الكميت ، ومن شعراء القحطانية دعبل الخزاعي [٢] .

و ـ الكيمياء والطب :

وعني بنو أمية بالكمياء والطب ، وأول من اهتم بهذا العلم وبإخراج كتب القدماء في الصنعة خالد بن يزيد بن معاوية [٣] ، الذي أخذ هذا العلم على يد راهب سكندري يقال له مريانوس الراهب. وخالد بن يزيد هذا نزل بمصر منذ خلافة مروان بن الحكم ، فقد سار معه عندما خرج مروان على رأس حملته إلى مصر للاستيلاء عليها في سنة ٦٥ هـ [٤] . وفي الطب نبغ عدد من النصارى منهم

---

(١) مصطفى الشكعة ، الأدب في موكب الحضارة ، القاهرة ، ١٩٦٨ ص ٨٥

(٢) المسعودي ، ج ٣ ص ٢٣١ ـ فيليب حتى ، تاريخ العرب ، ج ١ ص ٣٢٠ وما يليها ـ الخربوطلي ، الحضارة العربية الاسلامية ، ص ٣٨١

(٣) ابن النديم ، ص ٣٥٤

(٤) الكندي ، ولاة مصر ، ص ٦٥

ابن أثال [١] ، طبيب معاوية وكان خبيراً بالادوية المفردة والمركبة ، وتيادوق طبيب الحجاج [٢] ، وماسرجويه اليهودي الفارسي طبيب مروان بن الحكم ، وقد ترجم هذا الاخير كتابا في الطب من السريانية إلى العربية ،هو كتاب أهرن ابن أعين القس [٣] ، وأبو الحكم النصراني ، طبيب معـــاوية [٤] ، وابن أبجر السكندري طبيب عمر بن العزيز [٥] .

(٤)

المنشآت المدنية والدينية

استطاع بنو أمية بفضل سياستهم العربية أن يسيروا بالعرب في طريق القوة والمنعة ، وأن يصونوا تراث العرب من الضيـــاع من حيث الاحتفاظ بالروح الإسلامية ، ومن حيث اتساع رقعة الدولة ، ومن حيث تعضيد الحركة العلمية . كذلك برهن العرب في عصر الدولة الاموية بنشاطهم العمراني على أنهم من الشعوب المتحضره الكبرى ، فقد احترموا تراث المـاضين ، واهتموا بالتعمير السلمي ، وأحاطوا رجال الفن والصناعات في البلاد المفتوحة بالرعاية والتقدير ، فأسبغوا

---

(١) ابن أبي أصيبعة ، (موفق الدين أبي العباس أحمد الخزرجي) :عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، بيروت ١٩٦٥ ص ١٧١ - ١٧٤

(٢) نفسه ، ص ١٧٩ - ١٨١

(٣) ابن العبري ، مختصر تاريخ الدول ، ١١١ - ابن جلجل ، طبقات الأطباء والحكماء ، ص ٦١ - فيليب حتى ، المرجع السابق ص ٣٢٤

(٤) ابن أبي أصيبعة ، ص ١٧٥

(٥) نفسه . ص ١٧١

عليهم حمايتهم ، واصطنعوهم في أعمالهم الفنية . وكان لاختيار دمشق مركزاً للخلافة الاموية أثره الكبير في تأثرهم ببعض الطرز الفنية التي كانت تسود بلاد الشام، حيث كانت تزدهر مدارس الفن الهلنستي والبيزنطي المتأثر ببعض أساليب الفن الساساني بحكم الجوار ، وشاهد المسلمون العمائر المسيحية الرائعة في الشام من قصور و كنائس وبازيليكيات ومعموديات وأضرحة ، فكان من الطبيعي أن يتأثروا بأساليبها عندما بدأوا يقيمون لأنفسهم منشآت دينية ومدنية وحربية ، تضارع في عظمتها منشآت البيزنطيين ، ولم يأنف العرب أن يتتلمذوا على أيدي أرباب الحرف والفنانين من السوريين والقبط والفرس وغيرهم [١] ، ولهذا كان الفن المعماري والفنون الصناعية الإسلاميــــة في العصر الاموي تعتمد أساساً على التقاليد الفنية المحلية .

١ — المنشآت المدنية :

حرص الامويون على الاستمتاع بالحياة الدنيوية ، والتظاهر بمظاهر الترف والأبهة والفخامة ، فاهتموا بإنشاء القصور المنمقة والمزيّنة بالزخارف النباتية والهندسية والصور والتماثيـــل دون أي تحرج ، وتدلنـــا الآثار الأموية الباقية من القصور الخلافية على تجاوز الأمويين استخدام الزخرفة إلى استعمال التصوير في القصور والحمامات .

ويتجلى في بنـاء القصور الأموية في البادية ميل الأمويين الأصيل إلى الفن ، وانجذابهم نحو البادية حيث التمتع بهدوء الصحراء التي عاش فيها آباؤهم قبـــل عصر الفتوحات ، وحن إليها أبناؤهم ، ولا شك أن البادية هي التي نبعت منها ملكات العرب الفكرية ، ونعني بها ملكات الحس والشعور والخيال وهي مصدر

---

(١) أحمد فكري ، تصدير للترجمة العربية لكتاب « الفنون الإسلاميـــة » تأليف ديماند ، وترجمة الأستاذ أحمد عيسى، القاهرة ١٩٥٩ ص ٥

الإلهام بالنسبة للشعراء والحكماء ، ولهذا آثر خلفاء بني أمية الذين لم تغنهم حياة الترف واللهو في المدن أن يقصدوا البادية للتنعم فيهـــا بالراحة والهدوء ، أو الفرار من الطواعين [١]، ولهذا أقاموا معظم قصورهم على حافة البادية.

وتبقت من القصور الاموية في البادية بعض آثار أهمها آثار قصر المشتى الذي قيل أن الوليد الثاني أقامه على أنقاض قصر غساني في شرق الاردن ، ويحيط بالقصر سور خارجي مربع الشكل تدعمه أبراج نصف دائرية في بدناته وأبراج أسطوانية في الزوايا الاربعة ، ويبلغ طول كل جانب منه ١٤٤ متراً . والقصر يتألف من مجلس أمامي مزود بغرف جانبية ، وفنـــاء مركزي كبير يتوسطه حوض ماء . أما القاعة الرئيسية فأشبه ما يكون نظامها بالنظـام البازيليكي القائم على ثلاثة أروقة تمتد عمودية على الجدار الرئيسي ، وكان القصر مزوداً ببوابة واحدة يكتنفها على كل من الجانبين برج نصف دائري مطول ، ويزين الجدران الجانبية واجهة من النقوش الدقيقة حفرت زخارفهـــا في الكسوة الحجرية حفراً غائراً ، وقـد نقلت هذه الواجهة بزخارفها ونقوشها المكتظة إلى متحف الدولة ببرلين [٢] . وإلى هذا الخليفة أيضاً يرجع الفضل أيضاً في بناء قصر خربة المنية [٣] الذى يقع إلى الشمال الغربي من بحيرة طبرية ، ويذكر المؤرخون أن هذا الخليفة أيضاً قام ببناء قصر القسطل [٤] الذى يبعد نحو عشرين ميلاً جنوبي عمـان ، ويشير المؤرخون أيضاً إلى أنه كان ينزل بالقصر الازرق ببادية الاردن ويقع بين أرض بلقين وفزارة على ماء يقال له الاغدف [٥] . ومن

---

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٢٦٢

(٢) ارنست كونل ، الفن الاسلامي ، ترجمة أحمد موسى ، القاهرة ١٩٦١ ص ١١ ، ١٢

(٣) نفسه ص ١٢

(٤) ابن الأثير ج ٥ ، ص ٢٨٣

(٥) الطبري ، ج ٨ ص ٢٨٩ ـ ابن الأثير ، ج ٥ ص ٢٦٥

القصور التي تنسب إلى هشام بن عبدالملك قصر خربة المفجر ويقع على بعدثلاثة أميال شمال أريحاقريبامن البحر الميت،وكان قصراً شتويا تزدان جدرانه برسوم آدميه وحيوانية، ونشهد اسم هشام مسجلاً على أحد جدران القصر ، وعثر في إحدى قاعات القصر على تمثال لفتاة تحمل حزمة من الأزهار ،كما عثر على لوحة تمثل فتيـات يرقصن وقد صبغن شفاهن وأظافر اليدين والقدمين بصبغة قرمزية ، هذا إلى بلاط من الفسيفساء تتجلى فيه رسوم نباتية تمثل شجرة الحياة الفارسية يحيط بها من اليمين صورة أسد ينقض على غزال ومن اليسار غزالان بين أزهار ، وكلها ملونة بألوان زاهية . وإلى نفس الخليفة ينسب قصر الحير الغربي الواقع على بعد أربعين ميلا إلى الجنوب الغربي من تدمر،ولعله نفس القصر الذي ذكره الطبري باسم الزيتونة [١]، وقد عثر في أطلال هذا القصر على نقوش عربية وعلى تماثيل من النوع التدمري الروماني [٢] ، وكان هذا القصر محاطاً بغابة من الاشجار والجنات تبقت آثارها.وهناك بقايا قصر يسمى الحير الشرقي يقع على بعد أربعين ميلا شمالي شرقي تدمر ينسب بناؤه إلى نفس الخليفة [٣] .

ومن القصور الـتي تنسب إلى الوليد بن عبد الملـك القصر المعروف بقصير عمره ، وهو قصر صغير يقوم في الصحراء على جانب من وادي بطم ، وعلى مسافة تبعد نحو ٥٠ ميلا من عمان ، اكتشفه الويس موسل في سنـة ١٨٩٨ ، وقد أقام فيه هذا العالم ليلة من سنة ١٩٠١ وأقام معه فيـه الفنان النمساوي ميليخ الذى قـام بنقل بعض رسومه.وقصير عمره بناء صغير نسبياً يشتمل على

---

(١) الطبري ، مجلد ٨ ص ١٨٠

(٢) دانيال شاومبرجة ، قصر الحير الغربي ، ترجمة إلياس أبو شبكة ، بيروت ١٩٤٥

(٣) راجع التفاصيل في : Creswell, a short account of early Muslim architecture, Beirut, 1968, pp. 111 - 123

حمام وقاعة للاستقبال ، تنفتح على الجانب الجنوبي منها غرفتان من الجانبين أشبه بالمخدعين ، تنتهيان من الخارج بحنيتين . وكانت أرضيه الغرف والقاعة تزدان بالفسيفساء التي تمثل زخارف نباتية ، أما الغرف الأخرى فكانت مكسوة بالرخـــام ، وتزدان جدران الغرف بصور جدرانية ملونة من النوع المعروف بالفريسكو . أما جدران المخدع فتزدان برسوم تمثـــل أعداء الإسلام قيصر ولذريق وخسرو ونجاشي، كذلك يزدان الحمام بصور ملونة آدمية وحيوانية .

وجميع صور قصير عمرة من حيث تكوينها ومعالجة موضوعاتها هلينستية الطابع ، أما التصاوير التي وصلت إلينا من قصر الحير الغربي والتي يحتفظ بها متحف دمشق، ففيها أثر من الفن الساساني ، في حين تجمع زخارف واجهة قصر المشتى بين التقاليد الفنية الساسانية والبيزنطية [١] .

ب — المنشآت الدينية :

اهتم الأمويون بتجديد المساجد الأولى التي أسست في عصر الخلافة الراشدة مثل جامع البصرة والكوفة والفسطاط ، وجامع المدينة الذي أعيد إنشاؤه في زمن الخليفة عثمان ، وجامع صنعاء الكبير الذي أعيد بناؤه في زمن الوليد بن عبد الملك، كما اهتموا بتأسيس عدد كبير من المساجد الجامعة مثل جامع دمشق والجامع الأقصى وقبة الصخرة وجامع الزيتونة بتونس وجامع عقبة بن نافع في القيروان .

---

(١) كونل، ص ٥١ — Annette Destrée, L'art Musulman, dans le monde Arabe et Musulman, Bruxelles, 1968, p. 183. - Creswell, op. cit. p. 132

١ - تجديد المساجد الأولى :

بدأ المسلمون في تجديد جامع الرسول في المدينة تجديداً شاملاً في زمن الوليد ابن عبدالملك في سنة ٨٨ هـ (٧٠٦ م) حتى أصبح بحق درة المساجد ، واستعان الوليد ببعض صناع الروم والقبط من أهـل مصر والشام في بنائه وكسوة جدرانه بالفسيفساء البيزنطي والرخام [١] ، وجعـل صالح بن كيسان متولى البنيان الأساس بالحجارة والجدران بالحجارة والقصة ، في حين جعل عمـد المسجد من حجـارة حشيت بعمد الحديد والرصاص ، مدت فوقهـا الأسقف الخشبية مباشرة [٢] . كذلك جـدد جامع البصرة الذي بني باللبن والطين على أيام معاوية بن أبي سفيان في سنة ٤٤ هـ (٦٦٥ م) ، فأعيد بناؤه من الآجر والجص وسقّف بخشب الساج ، واتخذت له عمـد من الحجر ، وتم ذلك على يدي زياد بن أبيـه . وذكروا أن زياداً بني منارة الجامع بالحجارة ، وأقـام للجامع مقصورة [٣] . أما جامع الكوفة الذي أقيم في سنة ١٧ هـ فقد جدد في سنة ٥١ هـ (٦٧٠ م) على يدي زياد بن أبيه ، وزاد زياد في المسجد ووسّعه [٤] . كذلك أضيف إلى جامع صنعاء الكبير الذى بناه وبر بن يحنس الأنصاري الصحابي في سنة ٦ هـ ، وقيل فروة بن مسيك المرادي ، وقيل أبان بن سعيد ، فعندما أفضت الخلافة إلى الوليد بن عبد الملك كتب إلى أيوب ابن يحيى الثقفي بالولاية على صنعاء واليمن ، وأمره أن يزيد في مسجد صنعـاء ويبنيه بناء جيداً محكماً ، فبناه أيوب بن يحيى وزاد فيه من جهة القبـلة

---

(١) البلاذري ، ج ١ ص ٦

(٢) السمهودي ، وفاء الوفا ، ج ١ ص ٣٦٨

(٣) البلاذري ، ج ٢ ص ٤٢٦

(٤) نفسه ص ٣٤٠ - أحمـد فكري ، المدخل إلى مساجد القاهرة ومدارسها ، القاهرة ١٩٦١ ص ٢٠١

الاولى (١) . وزيد في جامع عمرو بن العاص الذي أسس في سنة ٢١ هـ (٦٤٢) عدة مرات في العصر الاموي ، واتخذت له أربعة مآذن في ولاية مسلمة بن مخلد الانصاري سنة ٥٣ في أركان الجامع (٢) ، وأعاد الوالي قرة بن شريك بناءه في سنة ٩٢ هـ ، واستحدث فيه المحراب المجوف لاول مرة (٣) .

٢ — أمثلة من المساجد الجامعة الجديدة :

وأعظم هذه المساجد جميعاً الجامع الأموي بدمشق ، وكان موضع بنـــائه كنيسة يوحنا المعمدان التي أقامهـا الامبراطور ثيو دوسيوس داخل معبد الاله جوبيتر الدمشقي ، وهو معبد وثني قديم احتفظت الكنيسة بجدرانه الخارجية وأبراجه الأربعة القائمة في الأركان . فلما افتتح المسلمون دمشق دخلها خالد من الجهة الشرقية عنوة وانتهى إلى النصف الشرقي من الكنيسة ، فاتخذه المسلمون مسجداً ، بينما دخل أبو عبيدة المدينة من الجهة الغربية صلحاً فترك النصف الثاني من الكنيسة للنصارى ، وبذلـك شارك المسلمون نصارى دمشق في كنيستهم الكبرى (٤) ، وأقاموا صلواتهم في النصف الشرقي دون أن يقوموا بإجراء أي تغيير معماري فيه ، واكتفوا باتخاذ موضع القبلة في الجدار القبلي (٥) . وقـــد

---

(١) محمد بن أحمد الحجرى ، مساجد صنعاء ، ١٣٦١ هـ ، ص ٢٤

(٢) الكندى ، ص ٦٢

(٣) نفسه ، ص ٨٦ — فكرى ، المدخل ، ص ٦٩

(٤) لا يوجد في المصادر العربية للفتح نصاً بذلك ، ولكـن البلاذري يذكر أن أهل دمشق صولحوا على أنصاف منازلهم وكنائسهم (ص ١٤٦)

(٥) ويعتقد الدكتور فكرى أن قصة مشاطرة العرب النصارى كنيسة يوحنا المعمدان هي أسطورة ، كما يعتقد اعتقاداً راسخاً بأن الجامع الأموى لم يقم على نظام الكنائس وأن نظرية قيامه على نظام كنيسة يوحنا المعمدان نظرية باطلة (المدخل ، ص ٢٧٤)

حاول معاوية بن أبي سفيان أن يقنع نصارى دمشق بالتنازل عن نصيبهم، لضمه إلى المسجد، فأبوا إباء شديداً فأمسك عن طلبه، وعاود عبد الملك بن مروان مطالبتهم بهذا الشطر لإدخاله في الجامع وبذل لهم مالا فأبوا أن يسلموه إليه[١].
فلما تولى الوليد الخلافة رأى أن يقيم مسجداً جامعاً للمسلمين لا يقل عظمة عن الكنائس البيزنطية العظمى، فقد رأى الشام بلداً يكثر فيه النصارى، ورأى لهم بيعاً حسنة قد بولغ في زخارفها وانتشر ذكرها مثل كنيسة القيامة وبيعتا اللد والرها، فبادر بمفاوضة أصحاب الكنيسة في التخلي عن شطرهم، وعرض عليهم مالاً كثيراً لقاء تنازلهم عن هذا الشطر، فلما أبوا انتزعه منهم قسراً، وأمر بهدم الكنيسة والجامع القديم، وبناء الجامع، وتم بناؤه في عام ٨٧ هـ (٧٠٦ م). وعلى الرغم من أن هذا الجامع تعرض للحريق عدة مرات، وأضيف إليه وجود عدة مرات، فإنه ما يزال يحتفظ حتى اليوم بتخطيطه الاسلامي الأموي، ويشتمل على بيت الصلاة وصحن (أي فناء) تحيط به مجنبات (أي أروقة). ويتألف بيت الصلاة من ثلاث بلاطات (أروقة) موازية لجدار القبلة تحملها أعمدة رخامية، ويعترض هذه البلاطات في منتصفها بلاط أوسط عمودي على جدار القبلة ينتهي بالمحراب، يتجاوز في ارتفاعه البلاطات العرضية الأخرى الممتدة من الشرق إلى الغرب، فبينما يبلغ ١٥ متراً في هذه البلاطات، يصل إلى نحو ٢٣ متراً في البلاطة الوسطى. وتعلو هذه البلاطات أسقف منشورية الشكل، في حين يقوم عليها في منتصف بلاط القبلة قبة حجرية أضيفت في عصر متأخر[٢].
وكانت جدران المسجد مكسوة بزخارف من الفسيفساء الملونة والمذهبة التي

---

(١) البلاذري، ج ١ ص ١٤٩

(٢) أقيمت في عصر ملكشاه السلجوقي في سنة ٤٧٥ (١٠٨٢ م)

تمثل مناظر طبيعية دمشقية [١] . وتعتبر قبة الصخرة ببيت المقدس من أروع العمائر الدينية الأموية ، أنشأها الخليفة عبد الملك بن مروان في سنة ٧٢ هـ في وسط الحرم الشريف ، وكانت هذه البقعة موضع احترام المسيحيين واليهود والمسلمين على السواء ، وقبة الصخرة بناء حجري مثمن الشكل تتوسطها الصخرة التي قيل أن رسول الله ﷺ أسرى عندها ليلة الإسراء ، فسميت القبة لذلك بقبة الصخرة . وكان سبب بناء قبة الصخرة أن عبد الملك منع أهل الشام من الحج ، « وذلك أن ابن الزبير كان يأخذهم إذا حجّوا بالبيعة ، فلما رأى عبد الملك ذلك منعهم من الخروج إلى مكة ، فضج الناس ، وقالوا : تمنعنا من حج بيت الله الحرام وهو فرض من الله علينا ! فقال لهم : هذا ابن شهاب الزهري يحدثكم أن رسول الله قال : لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدي ، ومسجد بيت المقدس وهو يقوم لكم مقام المسجد الحرام ، وهذه الصخرة التي يروى أن رسول الله وضع قدمه عليها لما صعد إلى السماء ، تقوم لكم مقام الكعبة ، فبنى على الصخرة قبة ، وعلق عليها ستور الديباج ، وأقام لها سدنة ، وأخذ الناس بأن يطوفوا حولها كما يطوفون حول الكعبة » [٢] .

ونظام قبة الصخرة التخطيطي يشبه نظام كنيسة العذراء التي شيدها

---

(١) Abdul Kader Rihaoui , La mosquée des Omeyyades à Damas , Damas , 1968 , p. 16 ـ محمد كرد علي ، دمشق مدينة السحر والشعر ، القاهرة ١٩٤٤ ص ٥٤ ـ السيد عبد العزيز سالم ، الجامع الأموي بدمشق ، مقال في كتاب بيوت الله مساجد ومعاهد ، ج ٢ ، القاهرة ، ١٩٦٠ (كتاب الشعب رقم ٧٨) ـ Annette Destrée , L'art Musulman , dans : Le monde arabe et Musulmen , Bruxelles , 1968 , p. 182

(٢) اليعقوبي ، ج ٢ ص ٢٦١

جستنيان في أنطاكية ، فقد اتخذت شكل بناء مثمن أقيمت فوقه قبة عالية تغطيها الفسيفساء المزينة باللون الأخضر والذهبي ، وحملت القبة على دائرة من العقود نصف الدائرية تقوم على أعمدة قديمة جلبت من عمائر قديمة ، وعلى أكتاف ، وارتبطت فيما بينها عند رؤوس التيجان بأوتار خشبية ضخمة ، ويفصل بين الصف الدائري للعقود التي تقوم عليها القبة والمثمن الخارجي للبناء كله مثمن من العقود التي تقوم على الأعمدة والأكتاف . وقد ظل تخطيط قبة الصخرة فريداً في العمارة الاسلامية في عصورها المختلفة لأن تصميمها يطابق الغرض الذي أقيمت من أجله وهو تحويط الصخرة المقدسة بالحرم الشريف [١] .

أما الجامع الأقصى فهو ثالث الجوامع الأموية الهامة في الشام ، أنشأ الخليفة عمر بن الخطاب في موضعه مصلى من الخشب في سنة ١٦ هـ ، ثم بناه الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان سنة ٦٥ (٦٨٥ م)[٢]، وقيل الوليد بن عبدالملك في سنة ٨٧ (٧٠٦ م) [٣] . وقيل أن بناء هذا الجامع أقيم على موضع كنيسة ترجع إلى أيام جستنيان [٤] . ويتألف بيت الصلاة من عدة بلاطات طولية عمودية على جدار القبلة . وقد تهدم هذا الجامع وأعيد بناؤه في زمن الخليفة العباسي المهدي ، ثم أصيب في عصر الصليبيين حين استولوا على بيت المقدس

---

(١) راجع في ذلك : Creswell , a short account of early Muslim architecture, Beirut 1968, pp. 17 - 40 - Grabar (Oleg), The Umayyad dome of the Rock in Jerusalem, Ars Orientalis, vol. II, 1959, pp. 33 - 62 - Briggs, Muhammadan architecture in Egypt and Palestine, Oxford , 1924 — عبد العزيز سالم ، بيوت الله مساجد ومعاهد ، قبة الصخرة —

(٢) المقدسي ، ص ١٦٨ ، ١٦٩

(٣) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٩

(٤) كونل ، ص ٦

واتخذوه كنيسة ، وأغلب الظن أن قسمه الاوسط مـــا زال يحتفظ بعناصره الاموية الاولى .

وأقيمت في العصر الاموي مساجد أخرى جامعة في أنحاء مختلفة من الدولة العربية الاسلامية لا يمكننا أن ندرسها جميعاً ، ويكفي أن نذكر منها ما يلي :

المسجد الجامع بالقيروان (٥٠ — ١٠٥ هـ / ٦٧٠ – ٧٢٣ م) ، وجـــامع الزيتونة بتونس (١١٤ هـ / ٧٣٢ م) ، والمسجد الجامع بواسط (٨٤ هـ / ٧٠٣ م) ، ومسجد قصير الحـلابات ، ومسجد قصر الحير الشرقي (١١٠ هـ / ٧٢٨ م) ، ومسجد بصرى (١٠٢ هـ / ٧٢٠ م) ، والمسجد الجامع بحران (١٢٦ — ١٣٢ هـ / ٧٤٤ — ٧٥٠ م) والمسجد الجامـع بالاسكندرية المعروف بجامع الالف عمود ، وغير ذلك من المساجد .

(تم بعون الله)

ملحق (١)

نسخة من كتاب أبي بكر الى جميع المرتدين

(عن مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ، جمعها الدكتور محمد حميد الله الحيدرى آبادي ص ٢٦٠ - ٢٦٢)

(بسم الله الرحمن الرحيم

من أبي بكر خليفة رسول الله ، إلى من بلغه كتابي هذا من عامة وخاصة ، أقام على إسلامه أو رجع عنه : سلام على من اتبع الهدى ولم يرجع بعد الهدى إلى الضلالة والعمى ، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، نقر ونعترف بما جاء به ، ونكفر من أبى ونجاهده .

أما بعد : فإن الله تعالى أرسل محمداً بالحق من عنده إلى خلقه بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا « لينذر من كان حياً ، ويحق القول على الكافرين » . فهدى الله بالحق من أجاب إليه ، وضرب رسول الله بإذنه من أدبر عنه ، حتى صار إلى الاسلام طوعاً وكرهاً . ثم توفي الله رسوله ﷺ ، وقد نفذ

لأمر الله ، ونصح لأمته ، وقضى الله عليه ، وكان الله قد بيّن له ذلك ، ولأهل الاسلام في الكتاب الذي أنزل فقال : « إنك ميت وإنهم ميتون » ، وقال : « وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون » ، وقال : « وما محمد إلا رسول قد خلت من بعده الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يَضُر الله شيئاً ، وسيجزي الله الشاكرين » . فمن كان إنما يعبد محمداً ، فإن محمداً قد مات ، ومن كان إنما يعبد الله وحده لا شريك له ، فإن الله له بالمرصاد حي قيوم لا يموت ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، حافظ لأمره ، منتقم من عدوه يجزيه .

وإني أوصيكم بتقوى الله ، وحظكم ونصيبكم من الله وما جاء به نبيكم ﷺ وأن تهتدوا بهداه وأن تعتصموا بدين الله . فإن من لم يهده الله ضال ، وكل من لم يعافه مبتلىً ، وكل من لم يمنه الله مخذول ؛ فمن هداه الله كان مهتديا ، ومن أضله كان ضالاً . قال الله تعالى : « من يهد الله فهو المهتد ، ومن يُضلل فلن تجد له وليا ومرشدا » . ولم يُقبل منه عمل في الدنيا حتى يقر به . ولم يقبل منه في الآخرة صرف ولا عدل .

وقد بلغني رجوع من رجع منكم عن دينه ، بعد أن أقر بالإسلام وعمل به ، اغتراراً بالله وجهالة بأمره وإجابة للشيطان . قال الله تعالى : « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ، أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهو لكم عدو ، بئس للظالمين بدلا » . وقال : « إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً ، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير » .

وإني بعثت إليكم فلانا في جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ، وأمرته أن لا يقاتل أحداً حتى يدعوه إلى داعية الله . فمن استجاب له وأقر وكف وعمل صالحاً ، قبل منه وأعانه عليه ، وأن يحرقهم بالنار ويقتلهم كل

قتلة ، وأن يسبي النساء والذراري ولا يقبل من أحد إلا الاسلام. فمن اتبعه فهو خير له ، ومن تركه فلن يُعجز الله .

وقد أمرت رسولي أن يقرأ كتابي في كل مجمع لكم . والداعيةُ الأذان . فإذا أذّن المسلمون فأذّنوا ؛ كفّوا عنهم ، وإن لم يؤذنوا عاجلوهم، وإن أذّنوا اسألوهم ما عليهم ، فإن أبوا عاجلوهم ، وإن أقروا قُبل منهم وحمل على من ينبغي لهم) .

ملحق (٢)

عهد أبي بكر لأمراء الأجناد ضد المرتدين

(من مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ، جمعها الدكتور محمد حميد الله الحيدري آبادي ص ١٦٣ - ٢٦٤)

(هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ لفلان، حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الاسلام ، وعهد إليه أن يتقي الله ما استطاع في أمره كله ، سره وعلانيته. أمره بالجد في أمر الله ومجاهدة من تولى عنه، ورجع عن الاسلام إلى أماني الشيطان ، بعد أن يعذر إليهم فيدعوهم بداعية الاسلام ، فإن أجابوه أمسك عنهم ، وإن لم يجيبوه شن غارته عليهم حتى يقروا له ، ثم ينبئهم بالذي عليهم والذي لهم ، فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذي لهم ، ولا ينظرهم ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم .

فمن أجاب إلى أمر الله عز وجل وأقر له ؛ قبل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف وإنما يقاتل من كفر بالله على الاقرار بما جاء من عند الله ، فإذا أجاب لم يكن عليه سبيل ، وكان الله حسيبه بعد فيما استسرّ به . ومن لم يُجب داعية الله قُتل وقوتل حيث كان وحيث بلغ مُراغمة ؛ لا يقبل من أحد شيئاً أعطاه إلا الاسلام ، فمن أجابه وأقر قُبل منه وعلّمه ، ومن أبى قاتله . فإن أظهره

الله عليه قتل منهم كل قتلة بالسلاح والنيران ، ثم قسم ما أفاء الله عليه إلا الخمس فإنه يبلغناه . وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد ، وأن لا يدخل فيهم حشوا حتى يعرفهم ويعلم ما هم ، لا يكونوا عيوناً ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم .

وأن يقتصد بالمسلمين ويرفق في السير والمنزل ، ويتفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض ، ويستوصي بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول) .

ملحق (٣)

نص وثيقة التحكيم

(من كتاب الأخبار الطوال لأبي حنيفة
الدينوري ص ١٩٤ - ١٩٦)

و هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وشيعتهما فيما تراضيا به من الحكم بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، قضية علي على أهل العراق شاهدهم وغائبهم ، وقضية معاوية على أهل الشام شاهدهم وغائبهم، إننا تراضينا أن نقف عند حكم القرآن فيما يحكم من فاتحته إلى خاتمته ، نحيي ما أحيا ، ونميت ما أمات ، على ذلك تقاضيا وبه تراضيا ، وإن علياً وشيعته رضوا بعبدالله بن قيس ناظراً وحاكماً ، ورضي معاوية وشيعته بعمرو بن العاص ناظراً وحاكماً ، على أن علياً ومعاوية أخذا على عبدالله بن قيس [1] وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه ، وذمته وذمة رسوله أن يتخذوا القرآن إماماً ، ولا يعدوا به إلى غيره في الحكم بما وجداه فيه مسطورا ، وما لم يجدا في الكتاب رداه إلى سنة رسول الله الجامعة ، لا يتعمدان لها خلافاً ، ولا يبغيان فيها بشبهة .

---

(١) هو أبو موسى الأشعري .

وأخذ عبدالله بن قيس وعمرو بن العاص على عليّ ومعاوية عهد الله وميثاقه بالرضى بما حكما به مما في كتاب الله وسنة نبيه ، وليس لهما أن ينقضا ذلك ، ولا يخالفاه إلى غيره ، وهما آمنان في حكومتهما على دمائهما وأموالهما وأشعارهمـــا وأبشارهما وأهاليهما وأولادهما مـــا لم يعدوا الحق ، رضي به راض أو سخطه ساخط ، وأن الأمة أنصارهما على ما قضيا به من الحق مما هو في كتاب الله ؛ فإن توفي أحد الحكمين قبل انقضاء الحكومة ، فلشيعته وأصحابه أن يختاروا مكانه رجلاً من أهل المعدلة والاصلاح على ما كان عليه صاحبه من العهد والميثاق ، وإن مات أحد الأميرين قبل انقضاء الأجل المحـــدد في هذه القضية فلشيعته أن يولوا مكانه رجلاً يرضون عدله ، وقد وقعت القضية بين الفريقين والمفاوضة ، ورفع السلاح ، وقد وجبت القضية على ما سميناه في هذا الكتاب من موقع الشرط على الأميرين والحكمين والفريقين ، والله أقرب شهيد ، وكفى به شهيداً ؛ فإن خالفا وتعديا فالأمة بريئة من حكمهما ولا عهد لهما ولا ذمة ، والناس آمنون على أنفسهم وأهاليهم وأولادهم إلى انقضاء الأجـــل ، والسلاح موضوعة والسبل آمنة ، والغائب من الفريقين مثل الشاهد في الأمـــر ، وللحكمين أن ينزلا منزلاً متوسطاً عدلا بين أهل العراق وأهل الشام ، ولا يحضرهمـــا فيه إلا من أحبا عن تراض منهما ، والأجل إلى انقضاء شهر رمضان ، فإن رأى الحكماء تعجيــــل الحكومة وعجّلاها ، وإن رأيا تأخيرهـــا إلى آخر الأجل أخراها ، فإن هما لم يحكما بما في كتاب الله وسنة نبيه إلى انقضاء الأجل ، فالفريقان على أمرهم الأول في الحروب ، وعلى الأمة عهد الله وميثاقه في هذا الأمر ، وهم جميعاً يـــد واحدة على من أراد في هذا الأمر إلحاداً أو ظلماً أو خلافاً .

شهد على ما في هذا الكتاب الحسن والحسين ابنا علي بن أبي طالب ، وعبدالله ابن عباس ، وعبدالله بن جعفر بن أبي طالب ، والأشعث بن قيس ، والأشتر بن الحارث ، وسعيد بن قيس ، والحصين والطفيل ابنـــا الحارث بن عبد المطلب ، وأبو سعيد بن ربيعـــة الأنصاري ، وعبدالله بن خبّاب بن الأرتّ ، رسهل بن

حنيف ، وأبو بشر بن عمر الانصاري ، وعوف بن الحـارث بن عبد المطلب ، ويزيد بن عبدالله الأسلمي ، وعقبة بن عامر الجهني ، ورافع بن خديج الانصاري ، وعمرو بن الحمق الخزاعي ، والنعمان بن العجلان الأنصاري ، وحجر بن عدي الكندي ، ويزيد بن حجية التكري ، ومالك بن كعب الهمداني ، وربيعة بن شرحبيل ، والحارث بن مالك ، وحجر بن يزيد ، وعلبة بن حجية .

ومن أهـل الشام : حبيب بن مسلمة الفهري ، وأبو الأعور السلمي ، وبسر ابن أرطأة القرشي ، ومعاوية بن خديج الكندي ، والمخارق بن الحارث ، ومسلم ابن عمرو السكسكي ، وعبد الرحمن بن خـالد بن الوليد ، وحمزة بن مالك ، وسبيع بن يزيد الحضرمي ، وعبدالله بن عمرو بن العـاص ، وعلقمة بن يزيد الكلبي ، وخالد بن الحصين السكسكي ، وعلقمة بن يزيد الحضرمي ، ويزيدبن أبجر العبسي ، ومسروق بن جبلة العكي ، وبُسر بن يزيد الحميري ، وعبدالله ابن عامر القرشي ، وعتبة بن أبي سفيان ، ومحمد بن أبي سفيان ، ومحمدبن عمرو ابن العاص ، وعمار بن الأحوص الكلبي ، ومسعدة بن عمرو العتبي ، والصبّاح ابن جلهمة الحميري ، وعبد الرحمن بن ذي الكلاع ، وثمامة بن حوشب ، وعلقمة ابن حكم .

وكتب يوم الأربعاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من صفر سنة سبع وثلاثين)

المراجع

١ — ابن أبي صبيعة (موفق الدين أحمد الخزرجي) : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، بيروت ١٩٦٥

٢ — ابن الأثير (علي بن أحمد بن أبي الكرم) : كتاب الكامل في التاريخ ، القاهرة ، ١٣٤٨ هـ ، وطبعة دار صادر بيروت ١٩٦٧

٣ — » » : أسد الغابة في معرفة الصحابة ، ج ١ ، تحقيق الأستاذ محمد صبيح ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، وطبعة طهران ١٣٣٤ هـ.

٤ — ابراهيم (محمد أبو الفضل) : أيام العرب في الاسلام ، القاهرة ، ١٩٦١

٥ — أحمد (الأستاذ يوسف) : المحمل والحج ، القاهرة ، ١٩٣٧

٦ — أخبار مجموعة في تاريخ الأندلس ، مدريد ، ١٨٦٧

٧ — الإدريسي (الشريف أبو عبد الله محمد بن العزيز) : صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، مأخوذة من كتاب « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » نشره دوزي ودي غوية ، ليدن ، ١٨٩٣

٨ ـ الأزرقي (أبو الوليد محمد بن عبدالله) : كتاب أخبار مكة وما جاء فيها من آثار ، نشرة الأستاذ رشدي الصالح ملحس ، في جزأين ، مكة ، ١٣٥٢ هـ

٩ ـ ارنولد (توماس): الدعوة الى الإسلام ،ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن ، القاهرة ، ١٩٤٧

١٠ ـ الاستبصار في عجائب الأمصار لكاتب مجهول الإسم ،تحقيق الدكتور سعد زغلول عبدالحميد،الاسكندرية،١٩٥٨

١١ـ الإصطخري (أبو إسحق إبراهيم بن محمد الفارسي) : كتاب المسالك والممالك ، طبعة ليدن ، ١٩٢٧

١٢ ـ الأصفهاني (أبو الفرج) : كتاب الأغاني ، طبعة بيروت ، ٢١ جزءاً ، ١٩٥٦

١٣ ـ الأصفهاني (حمزه بن الحسن) تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء ، برلين ، ١٣٤٠ هـ

١٤ ـ الأصمعي (عبد الملك بن قريب) : تاريخ العرب قبل الإسلام ، تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين ، بغداد ، ١٩٥٩

١٥ـ أطهرالمباركبوري (أبو المعالي) : العقد الثمين في فتوح الهند ، سراتمير ، ١٩٦٧

١٦ ـ الأفغاني (الأستاذ سعيد) : أسواق العرب ، دمشق ، ١٩٣٧

١٧ ـ الألوسي (الأستاذ محمود شكري) : بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، ٣ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٢٤

١٨ — أمين (الأستاذ أحمد) : فجر الإسلام ، القاهرة ، ١٩٤٥

١٩ — » : ضحى الإســـلام ، ج ١ ، القاهرة ١٩٤٦ ، ج ٢ ، القاهرة ، ١٩٣٨

٢٠ — أور (برسي نفيل) جستنيان وعصره ، مجموعة كتب بنجوين ، لندن ، ١٩٥١ (بالانجليزية)

Ure (Percy Neville) : Justinian and his age , Penguin Books Series, London, 1951

٢١ — أومان : الامبراطورية البيزنطية ، تعريب الدكتور مصطفى طه بدر ، القاهرة ١٩٥٣

٢٢ — بارتون الاصول السامية والحامية ، لندن ، ١٩٣٤ (بالانجليزية)

Barton : Semitic and Hametic origins, London, 1934

٢٣ — الباز العريني (دكتور السيد) : الدولة البيزنطية ، القاهرة ، ١٩٦٥

٢٤ — بتلر : فتح العرب لمصر ، ترجمــة محمد فريد أبو حديد ، القاهرة ١٩٣٣

٢٥ — البحتري (أبو عبادة الوليد بن عبيد) : كتاب الحماسة ، تحقيق الاب لويس شيخو اليسوعي ، بيروت ، ١٩١٠

٢٦ — البخاري (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل) : صحيح البخـاري ، طبعة مصر ، إدارة الطباعة المنيرية ، القاهرة ١٣٤٨ ه

٢٧ — البني (الاستاذ عدنان) : حول المشروع التدمري الاستثنائي ، مجلة الحوليات الاثرية السورية ، العدد ١٣ ، سنة ١٩٦٣ .

٢٨ — برانق (الاستاذ محمد أحمد) والمحجوب (الاستاذ محمد يوسف) : محمد واليهود ، سلسلة مع العرب ، عدد ٤

٢٩ — Briggs : Muhammadan architecture in Egypt and Palestine, Oxford, 1925

٣٠ — دي برسيفال (كوسان) : دراسة في تاريخ العرب ، ٣ مجلدات ، باريس ، ١٨٤٧ (بالفرنسية)

De Perceval (Caussin) : Essai sur l'histoire des Arabes, 3 vols., Paris, 1847

٣١ — بروكلمان (كارل) : تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة الاستاذين نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي ، بيروت ١٩٤٨

٣٢ — بصمه جي (الاستاذ فرج) : نبذة تاريخية عن طيسفون ، بغداد ، ١٩٦٤

٣٣ — ابن بطوطة (أبو عبدالله محمد اللواتي الطنجي) : رحلة ابن بطوطة ، مطبعة صادر ، بيروت ، ١٩٦٠

٣٤ — بفان (ا. ر.) : اليهود ، بحث في موسوعة كامبردج في تاريخ العصور الوسطى ، المجلد التاسع (بالانجليزية)

Bevan (E. R.) The Jews, in Cambridge Medievial History, vol. IX

٣٥ — البكري (أبو عبيد الله عبد الله بن عبدالعزيز) : معجم ما استعجم ، تحقيق الاستاذ مصطفى السقا ، ج ١ ، القاهرة ، ١٩٤٥

٣٦ — بـل (ريتشارد) : أصل الإسلام ، لندن ، ١٩٢٦ ،

Bell (Richard) : The origin of Islam in its Christian environment, London, 1926

٣٧ – البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر) : كتاب فتوح البلدان ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، ٣ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٥٦ – ١٩٥٧

٣٨ – » : أنساب الاشراف ، ج ١ ، تحقيق الدكتور محمد حميدالله ، القاهرة ، ١٩٥٩

٣٩ – بنيامين التطيلي : رحلة بنيامين التطيلي ، ترجمها إلى الاسبانية إجناثيو جنثالث ، مدريد ، ١٩١٨ (بالاسبانية)

Benjamin de Tudela, Viajes de Benjamin de Tudelà, trad. espanola por Ignacio Gonzalez, Madrid, 1918

٤٠ – بهل : تدمر ، مقال بدائرة المعارف الإسلامية (بالفرنسية)

Buhl, Tadmur, dans Encyclopédie de l'Islam

٤١ – بيرين (جاكلين) : اكتشاف جزيرة العرب ، ترجمة قدري قلعجي ، بيروت ، ١٩٦٣

٤٢ – بينز (نورمان) : الامبراطورية البيزنطية ، تعريب الدكتور حسين مؤنس ، والاستاذ محمود زايد ، القاهرة ١٩٥٧

٤٣ – تراجم أصحاب المعلقات العشر ، القاهرة ، ١٣٢٩ هـ

٤٤ – ترتون : أهل الذمة في الاسلام ، ترجمة الدكتور حسن حبشي ، القاهرة ، ١٩٤٩

٤٥ — توفيق (الأستاذ محمد) : آثار معين في جوف اليمن ، منشورات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ، ١٩٥١

٤٦ — تومبسون (كاتون) : المقابر ومعبد القمر في حريضة ، أكسفورد ١٩٤٤ (بالانجليزية)

Thompson (Caton) : The tomb and moon temple of Hureidha, Oxford. 1944

٤٧ — جابريلي (فرانسسكو) : العرب ، باريس ، ١٩٦٣ (بالفرنسية)

Gabrieli (Francisco) : Les Arabes, Paris, 1963

٤٨ — الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) : كتاب البيان والتبيين ، طبعة السندوبي ، ج ١ ، القاهرة ، ١٩٣٢ .

٤٩ — جاد المولى (الأستاذ محمد أحمد) وآخرون : أيام العرب ، القاهرة ، ١٩٤٢ .

٥٠ — الجارم (الأستاذ محمد نعمان) : أديان العرب في الجاهلية ، القاهرة ، ١٩٢٣ .

٥١ — Grabar (Oleg) : The Umayyad dome of the Rock in Jerusalem, Ars orientalis, vol. II, 1959

٥٢ — جب (هاملتون) : دراسات في حضارة الإسلام ، ترجمة الدكتور إحسان عباس والدكتور محمد نجم والدكتور محمود زايد ، بيروت ، ١٩٦٤ .

٥٣ — « : علم التاريخ ، دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد ٤ العدد ٨

٥٤ — جروهمان (أدولف) : مقـــال عن « العرب » بدائرة المعارف الإسلامية ، الطبعة الجديدة (بالانجليزية) .

Grohman (A.) al - Arab, in Encyclopaedia of Islam, New edition

٥٥ — » » : Arabic papyri in Egyptian Library, vol. III, Cairo 1938

٥٦ — جليان (أندريه) : تاريخ إفريقيا الشماليـة ، باريس ، ١٩٥٥ (بالفرنسية)

Julien (André) : Histoire de l'Afrique du Nord, Paris, 1955

٥٧ — ابن جلجل : طبقات الأطبـــاء والحكماء ، تحقيق فؤاد سـيد ، القاهرة ، ١٩٥٥ .

٥٨ — الجنابي (دكتور كاظم): تخطيط مدينة الكوفة ، بغداد، ١٩٦٧

٥٩ — جويدي (اجناسيو) : بلاد العرب قبـــل الإسلام ، باريس ، ١٩٢١ (بالفرنسية) .

Guidi (Ignacio) : L'Arabie antéislamique, Paris, 1921

٦٠ — الجهشياري : الوزراء والكتاب ، تحقيق الأستاذين السقا والأبياري ، القاهرة ، ١٩٣٨

٦١ — حتي (الدكتور فيليب): تاريخ العرب، ترجمة الأستاذ محمد مبروك نافع ، القاهرة ١٩٥٣ ، وترجمـة الدكتور ادورد جرجي

والدكتور جبرائيل جبور ، بيروت ، ١٩٦١

٦٢ — » » : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ترجمة الدكتور جورج حداد ، والأستاذ عبـــد الكريم رافق ، ج ١ ، بيروت ١٩٥٨ .

٦٣ — الحجري (محمد بن احمد) : مساجد صنعاء ١٣٦١ هـ

٦٤ — ابن حزم (أبو محمد علي بن سعيد) جمهرة أنساب العرب ، تحقيق الأستاذ ليفي بروفنسال ، القاهرة ١٩٤٨ .

٦٥ - » : جوامع السيرة ، تحقيق الدكتور إحسان عبـــاس والدكتور ناصر الدين الأسد ، مجموعـــة تراث الإسلام ، عدد ٢ .

٦٦ — » حجة الوداع ، تحقيق الدكتور ممدوح حقي ، بيروت ، ١٩٦٦ .

٦٧ — حزين (الدكتور سليمان) : التغير التاريخي للمناخ والطبيعة في بلاد العرب الجنوبية ، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، مجلد ٣ ، قسم ١ ، مايو ١٨٣٥ (بالفرنسية) .

Huzayyen (S.) : Changement historique du climat et du Paysage de l'Arabie du Sud, Bulletin of the Faculty of Arts, University of Egypt, vol. III. Part I, May, 1935,

٦٨ — حسن (الدكتور زكي محمد) : دراسات في منـــاهج البحث والمراجع في التاريخ الإسلامي ، مقال بمجلة كلية الآداب ،

جامعة القاهرة ، المجلد ٢٣ ، ج ١ مايو ١٩٦١ .

٦٩ — حسن (الدكتور حسن ابراهيم) : تاريخ الإسلام السياسي ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥٩ .

٧٠ — » : النظم الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٦٢ .

٧١ — حسنين (الدكتور فؤاد) : استكمال لكتاب التاريخ العربي القديم ، القاهرة ، ١٩٥٨

٧٢ — حسونه (الأستاذ محمد أحمد) : أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٦٠

٧٣ — حسين (الدكتور طه) : في الأدب الجاهلي ، القاهرة ، ١٩٢٧ ، وطبعة ١٩٣٣

٧٤ — الحسيني (دكتور عبد المحسن) : تقويم العرب في الجاهلية ، الاسكندرية ، ١٩٦٣ .

٧٥ — الحميري (أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم) : صفة جزيرة الأندلس ، من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق الأستاذ ليفي بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٣٧ .

٧٦ — الحوفي (الدكتور أحمد محمد) : الحياة العربية من الشعر الجاهلي القاهرة ، ١٩٤٩ ، وطبعة ١٩٥٦ .

٧٧ — » : المرأة في الشعر الجاهلي ، القاهرة ، ١٩٥٤ .

٧٨ – ابن حوقل النصيبي (أبو القاسم محمد) كتاب صورة الأرض ، طبعة بيروت ، ١٩٦٣ .

٧٩ – ابن حيان (أبو مروان حيان بن خلف) : قطعة من كتاب المقتبس في تاريخ رجال الأندلس ، من عهد الأمير عبد الله ، القسم الثالث ، تحقيق الأب ملشور أنطونية ، باريس ١٩٣٧

٨٠ – الحيدر آبادي (دكتور محمد حميد الله) : مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ، القاهرة ، ١٩٥٦

٨١ – الحيمي (الحسن بن أحمد) كتاب سيرة الحبشة ، ومقدمته للدكتور مراد كامل ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

٨٢ – الخازن (الشيخ نسيب وهيبة) : من الساميين إلى العرب ، بيروت ١٩٦٢ .

٨٣ – خان (الأستاذ محمد عبد المعيد) : الأساطير العربية قبل الإسلام ، القاهرة ، ١٩٣٧ .

٨٤ – الخربوطلي (الدكتور علي حسني) : العرب واليهود في العصر الإسلامي ، من سلسلة كتب قومية ، عدد ٢٤٧ .

٨٥ – « : الحضارة العربية الإسلامية ، مطبعة الانجلو ، مصر .

٨٦ – « : الدولة العربية الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

٨٧ – ابن الخطيب : (لسان الدين) : اللمحة البدرية في الدولة النصرية ،

القاهرة ، ١٩٢٨ .

٨٨ — ابن الخطيب : الاحـاطة في أخبار غرناطـة ، ج ١ ، القاهرة ، ١٩٠١ .

٨٩ — الخطيب (الأستاذ عبد الكريم) : الخلافـة والإمامة ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

٩٠ — الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، القاهرة ، ١٩٣١ .

٩١ — ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) : مقدمة ابن خلدون ، تحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي ، القاهرة ، ١٩٥٧ (في أربعة أجزاء) وطبعة بيروت ، ١٩٦١ .

٩٢ — « : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، الجزء الثاني ، طبعة بيروت ، ١٩٦٥ .

٩٣ — ابن دقماق : (ابراهيم بن محمـد العلائي) كتاب الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، القاهرة ، ١٨٩٣ .

٩٤ — الدوري (الدكتور عبد العزيز) مقدمـة في تاريخ صدر الإسلام ، بيروت ، ١٩٦٠ .

٩٥ — « : بحث في نشأة علم التاريخ عنـد العرب ، بيروت ، ١٩٦٠ .

٩٦ — دوزي (رينهارت) : تاريخ مسلمي الأندلس ، ليدن ، ٣ أجزاء ، ١٩٣٢ (بالفرنسية)

Dozy (R.) : Histoire des Musulmans d'Espagne, Leyde, 1932

٩٧ — Destrée (Annette) , L'art Musulman, dans le monde arabe et Musulman, Bruxelles, 1968

٩٨ — ديسو (رينيه) : العرب في سوريا قبل الإسلام ، ترجمة الأستاذ عبد الحميد الدواخلي ، القاهرة ، ١٩٥٩

Dussaud (René) : Les Arabes en Syrie avant l'Islam, Paris, 1907

٩٩ — ديمومبين (جودفروا) : النظم الإسلامية ، ترجمة الدكتور فيصل السامر والدكتور صالح الشماع ، بيروت ، ١٩٦١

١١٠ — الدينوري (أبو حنيفة) : الأخبار الطوال ، تحقيق الأستاذ عبدالمنعم عامر ، القاهرة ، ١٩٦١

١٠١ — ديوان الأعشى الكبير ، شرح وتحقيق الدكتور محمد حسين ، بيروت ، ١٩٦٨

١٠٢ — ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ، القاهرة ، ١٣٢١ هـ.

١٠٣ — ديوان السموأل ، شرح عيسى سابا ، بيروت ، ١٩٥١

١٠٤ — ديوان الشريف الرضي (محمد بن أبي أحمد الحسين) ، طبعة بيروت ، ١٣٠٧ هـ

١٠٥ — ديوان النابغة الذبياني ، نشر وتحقيق الأستاذ محمد جمال ، بيروت ، ١٩٢٩

١٠٦ – رابين(ك.):مقال بعنوان « العربية » ، بدائرة المعارف الإسلامية ، (بالفرنسية)

Rabin (C.):Ency. de l'Islam, article «arabiyya »

١٠٧ – ابن رسته (أبو علي أحمد بن عمر) : الأعلاق النفيسة ، الجزء السابع من المكتبة الجغرافية العربية ، تحقيق دي غوية ، ليدن ، ١٨٩٢

١٠٨ – رفعت (الأستاذ ابراهيم) : مرآة الحرمين ، القـــاهرة ، ج ١ ، ١٩٢٥

١٠٩ – رودوكاناكيس(نيكولوس) : الحياة العـامة للدول العربية الجنوبية ، من كتاب التاريخ العربي القديم ، ترجمة الدكتور فؤاد حسنين علي ، القاهرة ، ١٩٥٨

١١٠ – روزنثال (فرانز) : علم التاريخ عند المسلمين ، ترجمة الدكتورصالح أحمد العلي ، بغداد ، ١٩٦٣

١١١ – Rihaoui (Abdul Kader) : La mosquée des Omeiyyades à Damas, Damas, 1968

١١٢ – رينان (ارنست) : تاريـــخ بني اسرائيل ، باريس ، ١٩٢٥ (بالفرنسية)

Renan (F.) : Histoire du Peuple d'Isaaél, Paris, 1925

١١٣ – « « : تاريخ عام اللغـــات السامية ، ج ١ ، باريس ، ١٨٥٥ (بالفرنسية)

Renan (E.) : Histoire générale des langues sémitiques, t. I, Paris, 1855

١١٤ — الزبيدي (أبو الفيض مرتضى بن محمد) : تاج العروس ، طبعة مصر ، ١٣٥٦ هـ

١١٥ — الزبيري (أبو عبدالله المصعب) : كتاب نسب قريش ، تحقيق الأستاذ ليفي بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٥٣

١١٦ — الزمخشري : الكشاف عن غوامض التنزيل وعيون الأقاويل ، ج ٢ ، القاهرة ، ١٩٢٥

١١٧ — زيتون (الاستاذ محمد محمود) : الصين والعرب عبر التاريخ ، القاهرة ، ١٩٦٤

١١٨ — زيدان (الأستاذ جرجي) : العرب قبل الإسلام ، طبعة دار الهلال ، بمراجعة الدكتور حسين مؤنس .

١١٩ — الساداتي (دكتور أحمد محمد) : تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم ، ج ١ القاهرة ، ١٩٥٧

١٢٠ — سالم (الدكتور السيد عبد العزيز) : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، بيروت ، ١٩٦٢

١٢١ — « المآذن المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٩

١٢٢ — « : الفسطاط ، مقال بدائرة معارف الشعب ، القاهرة ، ١٩٦٠ عدد ٧٩

١٢٣ ـ سالم : الجامع الأموي بدمشق، مقال في كتاب : بيوت الله مساجد ومعاهد، ج ٢ القاهرة، ١٩٦٠

١٢٤ ـ « : تخطيط مدينة الإسكندرية وعمرانها في العصر الإسلامي، بيروت، ١٩٦٤

١٢٥ ـ « التخطيط ومظاهر العمران في العصور الاسلامية الوسطى، المجلة سبتمبر ١٩٥٧

١٢٦ ـ « تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي، الاسكندرية، ١٩٦٩

١٢٧ ـ « المغرب الكبير، الجزء الثاني : العصر الاسلامي، الاسكندرية، ١٩٦٦

١٢٨ ـ « التاريخ والمؤرخون العرب، الاسكندرية، ١٩٦٧

١٢٩ ـ « : طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي، الاسكندرية، ١٩٦٧

١٣٠ ـ « دراسات في تاريخ العرب، الجزء الاول : عصر ما قبل الاسلام، الاسكندرية، ١٩٦٨

١٣١ ـ « دراسة في تاريخ مدينة صيدا في العصر الاسلامي، بيروت، ١٩٧٠

١٣٢ - Steingass, Persian English dictionary, London, 1947

١٣٣ - سترابو : جغرافية سترابو ، (الترجمة الإنجليزية) لجونز ، لندن ، ١٩٤٩ (بالانجليزية)

Strabo, the Geography of Strabo, trans. H.L. Jones, London. 1949

١٣٤ - Saavedra (E.) : Estudio sobre la invasion de los Arabes en Espana, Madrid, 1892

١٣٥ - السخاوي (محمد بن عبد الرحمن بن محمد) : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ ، نص نشره روزنثال في كتابه علم التاريخ عند المسلمين ، بغداد ، ١٩٦٣

١٣٦ - مركيس (الاستاذ يعقوب) : البصرة ، مقال بمجلة سومر ، ج ١ مجلد ٤ ، بغداد ، ١٩٤٨

١٣٧ - مرور (الدكتور محمد جمال الدين) : قيام الدولة العربية الإسلامية في حياة محمد ﷺ ، القاهرة ، ١٩٥٦

١٣٨ - « : الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية خلال القرنين الاول والثاني بعد الهجرة ، القاهرة ، ١٩٦٠

١٣٩ - ابن سعد (أبو عبدالله محمد) : الطبقات الكبرى ، طبعة ليدن ، تحقيق الدكتور سترستين ، ١٣٢٢ هـ (١٠٩٥ م) وطبعة بيروت ١٩٥٧

١٤٠ — السمهودي (أبو الحسن بن عبدالله) : كتاب وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى ، جزآن ، القاهرة ، ١٣٢٦ هـ

١٤١ — سيديو : تاريخ العرب العام ، ترجمة الاستاذ عادل زعيتر ، القاهرة ، ١٩٤٨

١٤٢ — السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر) : بغية الوعاة ، القاهرة ، ١٣٢٦ هـ

١٤٣ — « : تاريخ الخلفاء ، بيروت ، ١٩٦٩

١٤٤ — « : المزهر في علوم اللغة ، شرح الاستاذ محمد أحمد جاد المولى وآخرين .

١٤٥ — « : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، ج١ ، طبعة مصر ، ١٣٢٧ هـ

١٤٦ — الشابشتي : كتاب الديارات ، تحقيق كوركيس عواد ، بغداد ، ١٩٥١

١٤٧ — الشريف (الاستاذ أحمد ابراهيم) : مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول ، القاهرة ، ١٩٦٧

١٤٨ — « : الدولة الإسلامية الاولى ، المكتبة التاريخية ، القاهرة ، ١٩٦٥

١٤٩ — الشريف : دور الحجاز في الحياة السياسية العامة في القرنين الأول

والثاني للهجرة ، القاهرة ، ١٩٦٨

١٥٠ — شلبي (الأستاذ عبد المنعم عبد الرؤوف) : شرح ديوان عنترة ابن شداد (بدون تاريخ)

١٥١ — شاومبرجة (دانيال) : قصر الحير الغربي ، ترجمة الياس أبو شبكة ، بيروت، ١٩٤٥

١٥٢ — الشكعة (دكتور مصطفى): الأدب في موكب الحضارة الاسلامية القاهرة، ١٩٦٨

١٥٣ — شعيرة (دكتور عبد الهادي):الصراع بين العرب والروم(بالفرنسية)
Cheira , La Lutte entre Arabes et Byzantins , Alexandrie , 1947

١٥٤— الشنقيطى (أحمد بن الأمين) : تراجم أصحاب المعلقات العشر وأخبارهم ، القاهرة ، ١٣٢٩هـ

١٥٥ — الشيباني (أبو العباس أحمد بن يحيى) : شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ، القاهرة ، ١٩٦٦

١٥٦ — الصالح (الدكتور صبحي) : مباحث في علوم القرآن ، دمشق ، ١٩٦٢

١٥٧ — « : دراسات في فقه اللغة ، دمشق ، ١٩٦٠

١٥٨ — « : النظم الاسلامية،نشأتها وتطورها ، بيروت ١٩٦٥

١٥٩ – صاعد الأندلسي : طبقات الأمم ، طبعة مصر ، مطبعة التقدم (بدون تاريخ)

١٦٠ – الصفدي (الأستاذ جميل) : اللغة العربية : تطورها ، كتابتها وتعليمها ، البرازيل .

١٦١ – الصولي : أدب الكتاب ، تحقيق محمد بهجة الأثري ، القاهرة ، ١٩٤١

١٦٢ – ضيف (الدكتور شوقي) : العصر الجاهلي ، القاهرة ، ١٩٦٠

١٦٣ – ابن طباطبا (المعروف بابن الطقطقي) : الفخري في الآداب السلطانية ، طبعة صادر بيروت ، ١٩٦٠

١٦٤ – الطبري (محمد بن جرير) : تاريخ الأمم والملوك ، طبعة القاهرة ، ١٣٥٨ هـ ، وطبعة ليدن ، ١٨٨١ – ١٨٨٢ وطبعة دار القاموس الحديث ببيروت

١٦٥ – طلس (الأستاذ محمد أسعد) : تاريخ الأمة العربية ، عصر الانبثاق ، بيروت ، ١٩٥٧

١٦٦ – الطنطاوي (الأستاذ علي) : الجامع الأموي في دمشق ، دمشق ، ١٩٦٠

١٦٧ – عبادة (الأستاذ عبد الفتاح) : انتشار الخط العربي في العالم الشرقي والعالم الغربي ، القاهرة ، ١٩١٥

١٦٨ – العبادي (دكتور أحمد مختار) وسالم (دكتور عبد العزيز) : تاريخ البحرية الاسلامية في المغرب الأندلس ، بيروت ، ١٩٦٩

١٦٩ — العباسي (احمد بن عبد الحميد) : كتاب عمدة الأخبار في مدينة المختار.

١٧٠ — ابن عبد البر : (أبو عمر يوسف) :الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، تحقيق علي محمد البجاوي ، الأقسام ١ ، ٢ ، ٣ ، مطبعة نهضة مصر ، القاهرة .

١٧١ — ابن عبد الحق (صفي الدين عبد المؤمن) : كتاب مراصد الاطلاع في أسماء الأمكنة والبقاع ، طبعة جوينبل Juynboll ، ٤ أجزاء ، ليدن ، ١٨٥٢ — ١٨٥٣

١٧٢ — عبد الحق (الأستاذ سليم عادل) : نظريات في الفن السوري قبل الاسلام ، مجلة الحوليات الأثرية السورية ، مجلد ١١ ، ١٢ ، سنة ٦١ — ١٩٦٢

١٧٣ - ابن عبد الحكم (عبد الرحمن بن عبدالله القرشي) : فتوح مصر وافريقية والأندلس ، تحقيق الأستاذ عبد المنعم عامر ، القاهرة ، ١٩٦١

١٧٤ — ابن عبد ربه : العقد الفريد ، القاهرة ، ١٩٢٨

١٧٥ — ابن العبري (غريغوريوس الملطي) : تاريخ مختصر الدول ، بيروت ، ١٩٥٨

١٧٦ — عبيدالله بن صالح: نص في فتح الأندلس ، نشره الأستاذ ليفي بروفنسال، مجلة المعهد المصري بمدريد ، ١٩٥٤

١٧٧ — عبيد بن شرية: اخبار عبيد بن شرية ، ملحق بكتاب التيجان في ملوك حمير ، طبعة حيدر آباد الدكن ، ١٣٤٧ هـ

١٧٨ — عثمان (الأستاذ فتحي) : الحدود الاسلامية البيزنطية ، القاهرة ١٩٦٧

١٧٩ — العدوي (الدكتور إبراهيم احمد) : قوات البحرية العربية في مياه البحر المتوسط ، القاهرة ، ١٩٦٣

١٨٠ — « : الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم ، القاهرة ، ١٩٥٨

١٨١ — « : الأمويون والبيزنطيون ، القاهرة ، ١٩٥٣

١٨٢ — ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في اخبار المغرب، ج ٢ ، بيروت، ١٩٥٠

١٨٣ — عزام (الأستاذ عبد الوهاب) : مهد العرب ، سلسلة اقرأ ، عدد ٤٠ ، القاهرة ، ١٩٤٦

١٨٤ — العظم (الأستاذ نزيه مؤيد) : رحلة في البلاد العربية السعيدة ، من مصر إلى صنعاء ، القاهرة ، ١٩٣٨

١٨٥ —العلي (دكتور صالح أحمد) : محاضرات في تاريخ العرب ،ج١ بغداد ، ١٩٥٩

١٨٦ — « :منطقة الحيرة، دراسة طبوغرافية مستندة على المصادر العربية ، مجلة كلية الآداب ، جامعة بغداد ، العدد ٥ ، نيسان ١٩٥٢

١٨٧ — « : موظفو بلاد الشام في العهد الأموي ، مجلة الأبحاث ، بيروت ،١٩٥٥

١٨٨ — علي (الدكتور جواد) : تاريخ العرب قبل الإسلام ، من مطبوعات المجمع العلمي العراقي ، ثمانية أجزاء ، بغداد ، ١٩٥٠ — ١٩٥٥

١٨٩ —علي (مولاي محمد) : محمد رسول الله ، ترجمة الأستاذ

مصطفى فهمي ، القاهرة ، ١٩٤٥

١٩٠ — العمري (شهاب الدين بن فضل الله) : كتاب مسالك الابصار في ممالك الامصار ، الجزء الاول ، نشره وحققه الاستاذ أحمد زكي باشا ، القاهرة ، ١٩٢٤

١٩١ — العناني (الأستاذ علي) ومحرز (الأستاذ ليون) : كتاب الأساس في الأمم السامية وقواعد اللغة العبرية وآدابها ، القاهرة ، ١٩٣٥

١٩٢ — غنيمة (الأستاذ يوسف رزق الله غنيمة) : الحيرة ، المدينة والمملكة العربية ، بغداد ، ١٩٣٦

١٩٣ — الفاسي (أبو الطيب تقي الدين محمد بن أحمد) : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، جزآن ، القاهرة ، ١٩٥٦

١٩٤ — فخري (الدكتور أحمد) : اليمن : ماضيها وحاضرها ، القاهرة ، ١٩٥٧

١٩٥ — » : رحلة أثرية إلى اليمن ، ٣ مجلدات ، القاهرة ، ١٩٥٢ (بالانجليزية)

Fakhry (A.) : An archaeological journey to Yemen, 3 vol., Cairo, 1952

١٩٦ — » دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم ، مصر والعراق وسوريا واليمن وإيران ، القاهرة ، ١٩٥٨

١٩٧ — « « اليمن » بحث في المؤتمر الثالث للآثار في البلاد العربية الذي عقد في فاس سنة ١٩٥٩ ، القاهرة ، ١٣٨١ هـ (١٩٦١ م)

١٩٨ — أبو الفداء (الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل) : المختصر في أخبار البشر ، صيدا ، ١٩٥٩

١٩٩ — فرج (الأستاذ محمد) العبقرية العسكرية في غزوات الرسول ، مجموعة مذاهب وشخصيات ، عدد ٢٤

٢٠٠ — فروخ (الدكتور عمر) : تاريخ الجاهلية ، بيروت ، ١٩٦٤

٢٠١ — ابن الفقيه الهمذاني ، مختصر كتاب البلدان ، ليدن ، ١٨٨٥

٢٠٢ — فكري (الدكتور أحمد) المدخل إلى مساجد القاهرة ومدارسها ، الاسكندرية ، ١٩٦١

٢٠٣ — « : تصدير للترجمة العربية لكتاب الفنون الاسلامية، تأليف ديماند ،القاهرة، ١٩٥٩

٢٠٤ — فلبي (هاري سان جون بريدجر) : بلاد العرب ، في دائرة المعارف البريطانية (بالانجليزية)

Philby (Harry St. John Bridger) : Arabia, in Ency. Britanica, 14 edition, 1922

٢٠٥ — فلبي : هضبة بلاد العرب ، نيويورك ، ١٩٥٢ (بالانجليزية)

Philby (H.): Arabian Highlands, New York, 1952

٢٠٦ ـ فلبي : مهد الاسلام ، الاسكندرية ، ١٩٤٧ (بالانجليزية)

Philby, the background of Islam, Alexandria, 1947

٢٠٧ ـ فيلبس (وندل) : قتبان وسبأ ، لندن ، ١٩٥٥ (بالانجليزية)

Philips (Wendell) : Qataban and Sheba, London, 1945

٢٠٨ ـ فهد (الأستاذ بدوي محمد) : الطيلسان ، مجلة كلية الشريعة ، العدد الثاني ، بغداد ،١٩٦٦

٢٠٩ ـ فهمي (الدكتور عبد الرحمن) : النقود العربية ، ماضيها وحاضرها ، المكتبة الثقافية ، القاهرة ،١٩٦٥

٢١٠ ـ « فجر السكة العربية ، من مجموعات متحف الفن الاسلامي ، القاهرة ١٩٦٥

٢١١ ـ فهمي (دكتور علي محمد) : القوى البحرية الاسلامية في شرق البحر المتوسط ، القاهرة ، ١٩٦٦ (بالانجليزية)

Fahmy (Dr. Aly Moh.) Muslim Sea power in the Eastern Mediterranean, Cairo, 1966

٢١٢ ـ فيصل (دكتور شكري):المجتمعات الاسلامية في القرن الأول ، القاهرة ، ١٩٥٢

٢١٣ ـ « : حركة الفتح الاسلامي في القرن الأول ، القاهرة ،١٩٥٢

٢١٤ ـ ابن قتيبة الدينوري (أبو محمد عبدالله بن مسلم) : كتاب المعارف ، القاهرة ، ١٣٠٠ هـ

٢١٥ ـ « « : الشعر والشعراء ، تحقيق الأستاذ أحمد محمد شاكر ، ج ١ ، القاهرة ، ١٣٦٤ هـ

٢١٦ ـ « « : عيون الأخبار ، ٤ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٦٣

٢١٧ ـ « « : الإمامة والسياسة ، ج ١ ، القاهرة ، ١٩٣٧

٢١٨ ـ القرآن الكريم .

٢١٩ ـ القرشي جمهرة أشعار العرب ، بولاق ، ١٣٣٨ هـ

٢٢٠ ـ ابن القوطية (محمد القرطبي) : تاريخ افتتاح الأندلس ، مدريد ، ١٩٢٦

٢٢١ ـ القسطلاني (أحمد بن محمد) : كتاب إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري ، القاهرة ، ١٢٨٨ هـ

٢٢٢ ـ القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي) : صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، ١٤ جزءاً ، القاهرة ، ١٩١٣ - ١٩١٤

٢٢٣ ـ « « : بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، تحقيق الأستاذ ابراهيم الإبياري ، القاهرة ، ١٩٥٩

٢٢٤ ـ كاشف (دكتوره سيدة اسماعيل) : الوليد بن عبد الملك ، القاهرة ، ١٩٦٢

٢٢٥ ـ « : مصادر التاريخ الإسلامي ومناهج البحث فيه ، القاهرة ١٩٦٠

٢٢٦ ـ « : مصر في عصر الولاة ، القاهرة

٢٢٧ ـ الكتاب المقدس ، طبعة القاهرة ، ١٩٦٣

٢٢٨ ـ ابن كثير الدمشقي (عماد الدين أبو الفداء اسماعيل) : تفسير القرآن الكريم ، ٤ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٣٧

٢٢٩ ـ « « : السيرة النبوية ، تحقيق الدكتور مصطفى عبد الواحد ، القاهرة ، ١٩٦٤

٢٣٠ ـ « « : البداية والنهاية ، بيروت، ١٩٦٦ (١٤ جزءاً)

٢٣١ ـ كرد علي (الأستاذ محمد) : الإسلام والحضارة العربية ، جزآن ، القاهرة ، ١٩٥٩

٢٣٢ ـ « « : خطط الشام ، دمشق، ١٩٢٦

٢٣٣ ـ « « : دمشق مدينة السحر والشعر ، القاهرة ، ١٩٤٤

٢٣٤ ـ كرزول : فجر العمارة الاسلامية ، الأمويون ، والعباسيون في العصر الأول ، والطولونيون ، مجلدان ، اكسفورد ، ١٩٣٢ ـ ١٩٤٠ (بالانجليزية)

Creswell (K. A. C.) : Early Muslim Architecture
Umayyads, Early Abbassids and Tulunids,
Folio, 2 vols., Oxford, 1932 - 1940

٢٣٥ ـ كرزول : مختصر لفجر العمارة الاسلامية ، مجموعة كتب بنجوين ، ١٩٥٨ (بالانجليزية)

Creswell, A short account of early Muslim architecture, Penguin Books, 1958 — Beirut, 1968 .

٢٣٦ — ابن الكلبي (أبو المنذر هشام بن محمد) : كتاب الأصنام ، نشره أحمد زكي باشا ، صورته الدار القومية ، القاهرة ، ١٩٦٥ .

٢٣٧ — كنتينو (جورج) : حضارات الشرق الأدنى القديم ، باريس ، ١٩٥٥ (بالفرنسية) .

Contenau (Georges) : Les civilsations anciennes du Proche Orient, Paris. 1955 .

٢٣٨ — الكندي (أبو عمر محمد بن يوسف) : ولاة مصر ، بيروت ، ١٩٥٩ .

٢٣٩ — كوك : بلميرا ، في دائرة المعارف البريطانية (بالانجليزية)

Cooke (C. A.) : Palmyra in Ency Britanica. t. 16, 1964

٢٤٠ — « : النبط ، مقال في دائرة المعارف والأخلاق ، المجلد التاسع ، ١٩٣٠ (بالانجليزية)

Cooke (C. A.) Nabataie, in Ency. of Religion and Ethics, vol. 9, 1930

٢٤١ — « : النقوش السامية الشمالية ، اكسفورد ، ١٩٠٣ (بالانجليزية)

Cooke (C. A.) : A text book of North Semitic inscriptions, Oxford, 1903

٢٤٢ — كونل (ارنست) : الفن الإسلامي ، ترجمة أحمد موسى ، القاهرة ، ١٩٦١ .

٢٤٣ — كيتاني دراسة لتاريخ الشرق ، ميلانو ، ١٩٨١ (بالإيطالية)

Caetani (L.) Studi di storia Orientale, vol. I Milano, 1911

٢٤٤ — كوبار : (بول) وعبد الحق (سليم)وديلون (أرماندو) : تقرير لبعثة اليونسكو إلى سورية في ١٩٥٣ ، باريس ، ١٩٥٤ (بالفرنسية)

Collart (Paul), Abdul Hak, (Selim) et Dillon (Armando) :

Rapport de là mission envoyée par l'Unesco à la Syrie en 1953, Paris, 1954 .

٢٤٥ — لابيير (بول بوفيه) : موجز تاريخ مصر ، الجزء الأول ، القاهرة ، ١٩٣٢ (بالفرنسية) .

Lapierre (Paul- Bovier) : Précis de l'histoire d'Egypte, t. 1, le Caire 1932.

٢٤٦ — Levi - Provençal, Histoire de l' Espagne musulmane, Leiden, 1950 - 1953 .

٢٤٧ — لامنس (ﻫ .) : مهد الإسلام ، الجزء الأول ، رومة ، ١٩١٤

(بالفرنسية)

Lammens (H) : Le Berceau de l'Islam, t . I
Rome, 1914

٢٤٨ — لامنس : مدينة الطائف العربية قبيل الهجرة ، بيروت ، ١٩٢٢
(بالفرنسية)

Lammens (H): la cité arabe de Taif à la veille
de l'Hegire, Beyrouth, 1922.

٢٤٩ — » : مكة قبيل الهجرة ، بيروت ، ١٩٢٤ (بالفرنسية)

Lammens (H.) : La Mecque à la veille de
l'Hegire , Beyrouth, 1924

٢٥٠ — » (هـ .) : بلاد العرب الغربية قبل الهجرة ، بيروت ،
١٩٢٨ (بالفرنسية)

Lammens (H.) : L'Arabie Occidantale avant
l'Hegire, Beyrouth, 1928

٢٥١ — لويس (برنارد) العرب في التاريخ ، تعريب الأستاذين نبيه
أمين فارس ، ومحمود يوسف زايد ، بيروت ، ١٩٥٤

٢٥٢ — لين بول : تاريخ مصر في العصور الوسطى (بالانجليزية)

Lane-Poole, a history of Egypt in the Middle
ages, London, 1936

٢٥٣ — ماجد (الدكتور عبد المنعم) : مقدمــة لدراسة التاريخ
الإسلامي ، القاهرة ، ١٩٥٣ .

٢٥٤ ــ » : التاريخ السياسي للدولة العربيــة ، جزآن ، القاهرة ، ١٩٦٠

٢٥٥ ــ » : تاريخ الحضارة الاسلاميــة في العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٣،

٢٥٦ ــ الماوردي (أبو الحسن علي بن محمد) : الاحكام السلطانية والولايات المدنية ، المطبعة المحمودية التجارية ، مصر

٢٥٧ ــ المالكي (أبو بكر عبد الله) : كتــاب رياض النفوس ، القاهرة ١٩٦١،

٢٥٨ ــ مجلة الحوليات الاثرية السورية ، مقال عن الحفريات البولونية في تدمر ، المجلد العاشر ، دمشق ، ١٩٦٠

٢٥٩ ــ أبو المحاسن (ابن تغري بردي) : النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة ، ج ٤ ، القاهرة ، ١٩٢٩

٢٦٠ ــ محمد حسين (الدكتور محمد) : الهجاء والهجاءون في الجاهلية ، بيروت ، ١٩٦٠

٢٦١ ــ محمود (الدكتور حسن) : قيام دولة المرابطين ، القاهرة ، ١٩٥٧

٢٦٢ ــ Marzouk : Alexandria as a textile centre B.I.S. A. C., t. XIII, Cairo

٢٦٣ ــ Margoliouth, lectures on Arabic historians Calcutta, 1939

٢٦٤ ــ المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين) : مروج الذهب ومعادن

الجوهر ، أربعة أجزاء ، طبعـــة الاستاذ محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، وطبعة بيروت ١٩٦٥

٢٦٥ ــ « « : التنبيه والإشراف ، طبعـــة بيروت (مكتبة خياط) ١٩٦٥

٢٦٦ ــ المقدسي (المطهر بن طاهر) : كتاب البدء والتاريخ ، ج ٤ ، باريس ١٩٠٣

٢٦٧ ــ المقدسي (شمس الدين أبو عبدالله محمد) : أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ليدن ، ١٩٠٦

٢٦٨ ــ المقري (أحمد بن محمد) : نفـــح الطيب من غصن أندلس الرطيب ، تحقيق الاستاذ محيي الدين عبد الحميد ، ١٠ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٤٩

٢٦٩ ــ المقريزي (تقي الدين أحمد) : كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ج ١ ، طبعة بولاق ، ١٢٧٠ هـ. وطبعة بيروت ١٩٥٩

٢٧٠ ــ « : شذور العقود في ذكر النقود ، تحقيق السيد محمد الطباطبائي ، النجف ، ١٣٥٦ هـ

٢٧١ ــ المقريزي : إمتاع الاسماع بما للرسول من الابناء والاموال والحفدة والمتاع ، تحقيق الاستاذ محمد شاكر ، القاهرة ، ١٩٤١

٢٧٢ ــ ابن منظور : لسان العرب ، بيروت ، ١٩٥٥

٢٧٣ ــ مؤنس (دكتور حسين) : فتح العرب للمغرب ، القاهرة ، ١٩٤٨

٢٧٤ — » : فجر الاندلس ، القاهرة ١٩٥٩

٢٧٥ — مورينو (جومث) : الفن الاسلامي في اسبانيا ترجمة الدكتور لطفي عبد البديع ، والدكتور عبد العزيز سالم ، القاهرة، ١٩٦٨

٢٧٦ — موسكاتي (ساباتينو) تاريخ وحضارة الشعوب السامية ، باريس ١٩٥٤ (بالفرنسية)

Moscati (Sabatino) : Histoire et civilisation des peuples sémitiques, Paris, 1954

٢٧٨ — موسل (ألويس) : شمال الحجاز ، ترجمة للدكتور عبد المحسن الحسيني ، الاسكندرية ، ١٩٥٢

٢٧٨ — » : تدمر ، نيويورك ، ١٩٢٨ (بالانجليزية)

Musil (Alois): Palmyrena, New York, 1928

٢٧٩ — » : شمال نجد ،نيويورك ، ١٩٢٨ (بالانجليزية)

Musil (Alois) : Nortgern Negd, New York, 1928

٢٨٠ — » بلاد العرب الصخرية ، فيينا ، ١٩٠٧ (بالانجليزية)

Musil (Alois): Arabia Petraea, Wien, 1907

٢٨١ — موير (وليام) : الخلافة قيامها وتدهورها ثم سقوطها (بالانجليزية)

Muir (William) : The Caliphate; its rise; decline and fall, Beirut 1963,

٢٨٢ - ميخائيل (دكتور نجيب) : الشرق الادنى القديم ، الجزء الثالث من موسوعة مصر والشرق الادنى القديم ، (سورية) الاسكندرية ، ١٩٦٦

٢٨٣ - « : حضارة العراق القديمة ، الجزء السادس من موسوعة مصر والشرق الادنى القديم ، الاسكندرية ، ١٩٦١

٢٨٤ - الميداني (أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري) : مجمع الأمثال ، القاهرة ، ١٣٥٢ ه

٢٨٥ - الناضوري (الدكتور رشيد) : المدخل في التطور التاريخي للفكر الديني ، بيروت ، ١٩٦٩

٢٨٦ - نامي (الدكتور خليل يحيي) : أصل الخط العربي وتاريخ تطوره إلى ما قبل الاسلام ، مجلة كلية الآداب ، الجامعة المصرية ، المجلد الثالث ، الجزء الثالث ، مايو ١٩٣٥

٢٨٧ - « : نقوش خربة براقش ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، مجلد ١٦ ، ج ١ ، مايو ١٩٥٤

٢٨٨ - النجار (محمد بن محمود) : كتاب الدرة الثمينة في تاريخ المدينة ، القاهرة ، ١٩٥٦

٢٨٩ - ابن النديم : الفهرست ، تحقيق جستاف فلوجل ، ليبزج ، ١٨٧١

٢٩٠ – نلدكة (ثيودور) : أمراء غسان ، ترجمة الدكتور بندلي خوري والدكتور قسطنطين زريق ، بيروت ، ١٩٣٣

٢٩١ – النويري (شهاب الدين أحمد) : نهـــاية الأرب في فنون الأدب ، نسخة مصورة من طبعة دار الكتب المصرية ، ج ٢

٢٩٢ – نيكلسون (ر. ا.) تاريـــخ الأدب العربي ، كامبردج ، ١٩٥٣ (بالانجليزية)

Nicholson (R. A.) ; A Literary history of the Arabs, Cambridge, 1953

٢٩٣ – نيلسون (ديتلف) : تاريخ العلم ونظرة حول المادة ، من كتاب التاريخ العربي القديم ، ترجمة الدكتور فؤاد حسنين علي ، القاهرة ، ١٩٥٨

٢٩٤ – » : الديانة العربية القـــديمة ، فصل في كتاب التاريخ العربي القديم ، ترجمة الدكتور فؤاد حسنين علي،القاهرة، ١٩٥٨

٢٩٥ – النهروالي (قطب الدين) : كتاب الاعلام بأعلام بيت الله الحـــرام ، تحقيق وستنفلد ، ليبزج ، ١٨٥٧

٢٩٦ – هاردنج (لانكستر) : آثار الأردن، تعريب الأستاذ سليمان موسى، عمان ، ١٩٦٥

٢٩٧ ـ الهاشمي (الدكتور علي) : المرأة في الشعر الجاهلي ، بغداد ١٩٦٠.

٢٩٨ ـ ابن هشام (أبو محمد عبد الملك) : كتاب سيرة النبي ، تحقيق الاساتذة مصطفى السقا وابراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي ، القاهرة ، ١٩٤٦ ـ ١٩٥٥

٢٩٩ ـ الهمداني (أبو محمد الحسن بن أحمد) : كتاب الاكليل ، الجزء الثامن ، تحقيق الدكتور نبيه فارس ، برنستن ١٩٤٠ ، والجزء العاشر ، تحقيق الاستاذ محب الدين الخطيب ، القاهرة ، ١٣٦٨ هـ

٣٠٠ ـ « : صفة جزيرة العرب ، نشره الاستاذ محمد بن عبدالله بن بليهيد النجدي ، القاهرة ، ١٩٥٣

٣٠١ ـ الهمذاني (ابن الفقيه) : مختصر كتاب البلدان ، طبعة ليدن ، ١٨٨٥

٣٠٢ ـ الهندى (الاستاذ هاني) ، ومحسن ابراهيم : اسرائيل ، بيروت ، ١٩٥٨

٣٠٣ ـ هومل (فرتز) : التاريخ العام لبلاد العرب الجنوبية ، من كتاب التاريخ العربي القديم ، ترجمة الدكتور فؤاد حسنين علي ، القاهرة ، ١٩٥٨.

٣٠٤ ـ الواقدي (أبو عبدالله محمد بن عمر) : مغازي رسول الله ،

القـاهرة ، ١٩٤٨ (وطبعة اكسفورد تحقيق مارسدن جونس ، ١٩٦٦)

٣٠٥ ـ ولفنسون (اسرائيل) : تاريـخ اليهود في بلاد العرب ، القـاهرة ، ١٩٢٧

٣٠٦ ـ وهب بن منبه: كتـاب التيجان في ملوك حمير ، حيد آباد الدكن ، ١٣٤٧ هـ

٣٠٧ ـ ويتمر (جون) : تدمر : درس من التاريخ ، في مجلة الحوليـات الأثرية السورية ، مجلد ١٠ ، ١٩٦٠ (بالفرنسية)

Witmer (John) : Palmyre, apprendre de l'histoire dans : Annales archèologiques de Syrie, vol. X, 1960.

٣٠٨ ـ ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبدالله) : معجم البلدان ، خمسة مجلدات ، طبعة بيروت ، ١٩٥٥

٣٠٩ ـ « « : معجم الادباء ، طبعة مرجليوث ، القاهرة ١٩١٣

٣١٠ ـ اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب) : كتاب البلدان ، نشره دي غوية مع الاعلاق النفيسة لابن رسته ، في الجزء السابع من المكتبة الجغرافية العربية ، ليدن ، ١٨٩٢

٣١١ ـ « : تاريـخ اليعقوبي ، ج ١ ، طبعة النجـف ، ١٣٨٥ هـ ، وطبعة دار صادر ، بيروت

٣١٢ – ينى (جرجي) : تاريخ سوريا ، بيروت ، ١٨٨١

٣١٣ – أبو يوسف (يعقوب بن ابراهيم) : كتاب الخراج ، طبعة بولاق ، ١٣٠٢ ه .

٣١٤ – يوسيفوس : تاريخ يوسيفوس ، طبعة دار صادر ، بيروت .

فهرس موضوعات الكتاب

فهرست موضوعات الكتاب

صفحة

الباب الثانى

عصر الخلافة الراشدة

الفصل الثالث :

الأخطار التى تهددت الدولة العربية الاسلامية بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم

الفصل الرابع : الفتوحات الاسلامية

الفصل الخامس : الفتنة الكبرى

الباب الثالث

عصر الدولة الأموية

الفصل السادس :

الأحداث السياسية البارزة فى عصر الدولة الأموية

الفصل السابع : الحضارة فى عصر الدولة الأموية

فهرست الخرائط واللوحات

أ ـ الخرائط :

ب ـ اللوحات :

خريطة مدن الشرق الإسلامي

(عن الاطلس التاريخي للدكتور عبد المنعم ماجد والدكتور على البنا)

أ

ب

ج

د

تماثيل من تدمر

ا – نقش على تابوت يمثل امرأة تسمى مرتهون بنت مقيمو ، وتبدو فيه المرأة وقد تزينت بقرطين وأسورة ذات خرزات وعلى رأسها نسيج من المخرمات الدقيقة .

ب – نقش يمثل فتاتين تلبس كل منهما ملاءة من قماش حريري تبدو طياته وتغطي رأسيهما .

ج – نقش بارز يمثل امرأة تسمى حنة بنت مقيمو بن زبديبل وتحمل في يدها اليمنى مفتاحاً وفي اليسرى مغزلاً وحول رقبتها قلادة من خمسة أدوار .

د – تمثال صغير لامرأة مستخرج من مجموعة نقوش جنزية وتحمل في يدها اليسرى ثلاثة مفاتيح نقش على واحد منها عبارة « الدار الأبدية » . (عن كتاب Choix d'Inscriptions de Palmyre)
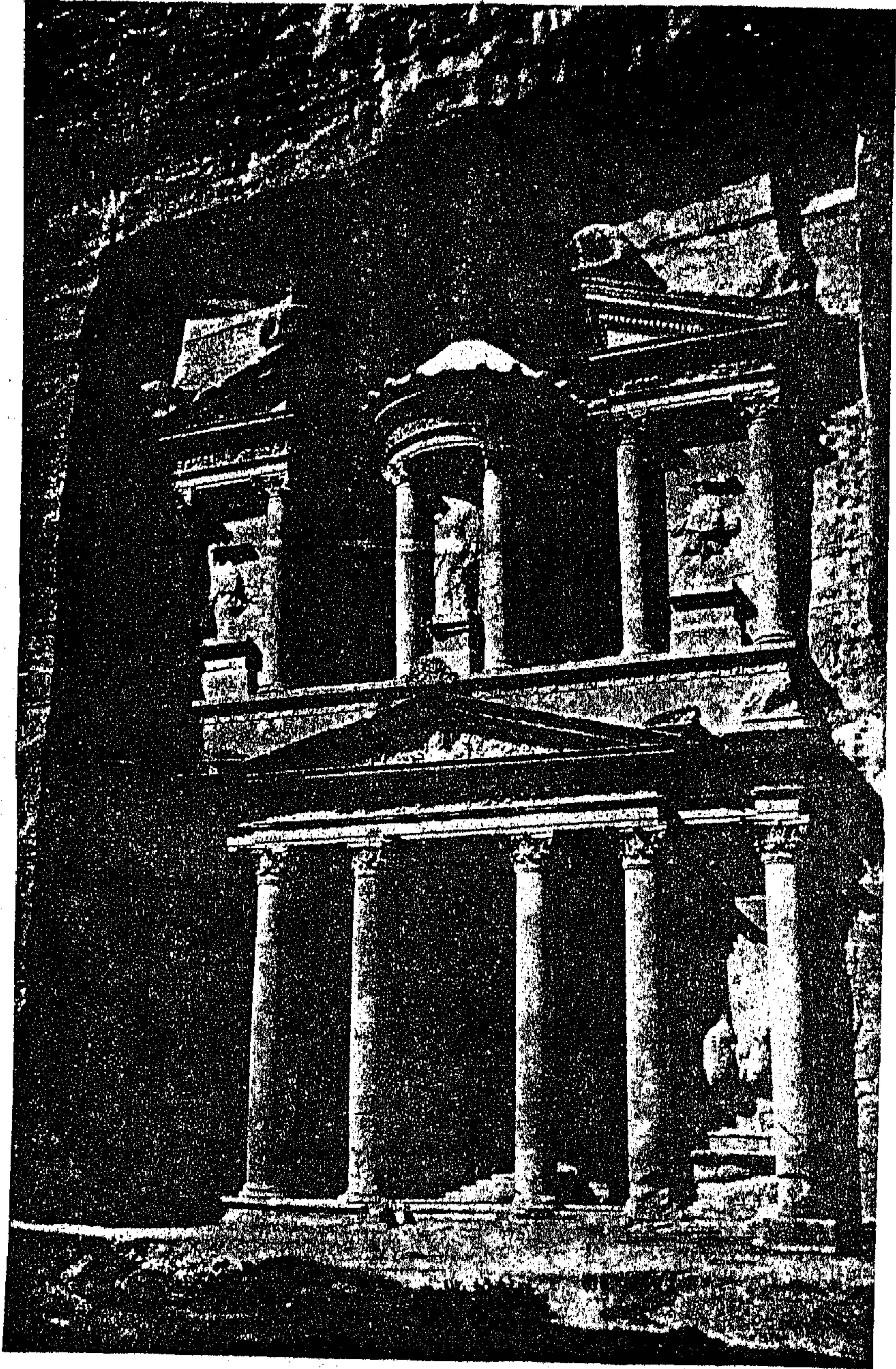
البتـراء ـ صورة لواجهة بنـاء الخزنـة
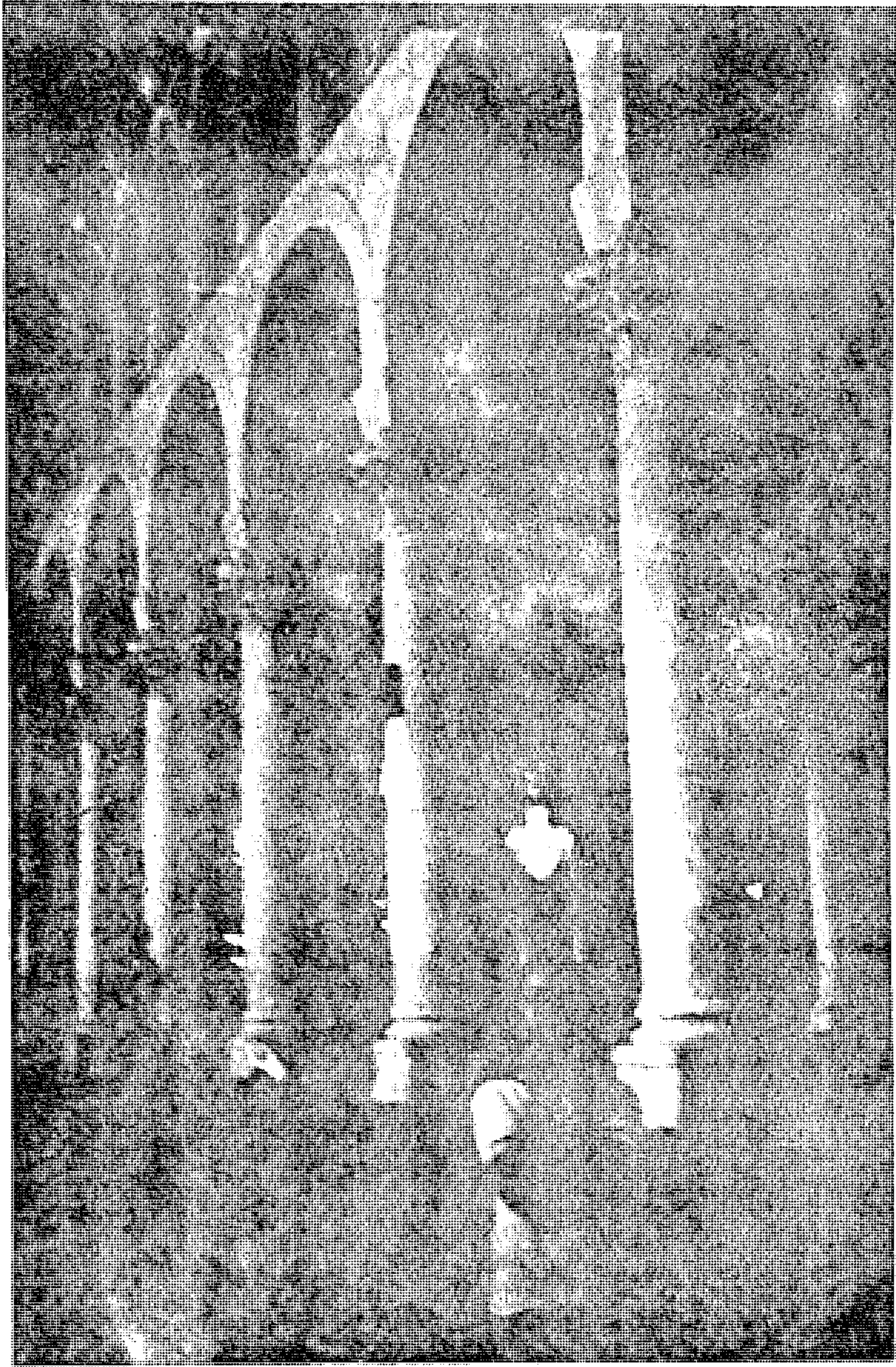
بيت الصلاة بالجامع الاموى بدمشق

تمثال من البرونز من مدينة تمنع عاصمة قتبان (٧٥ — ٥٠ ق.م)

(عن كتاب قتبان وسبأ)
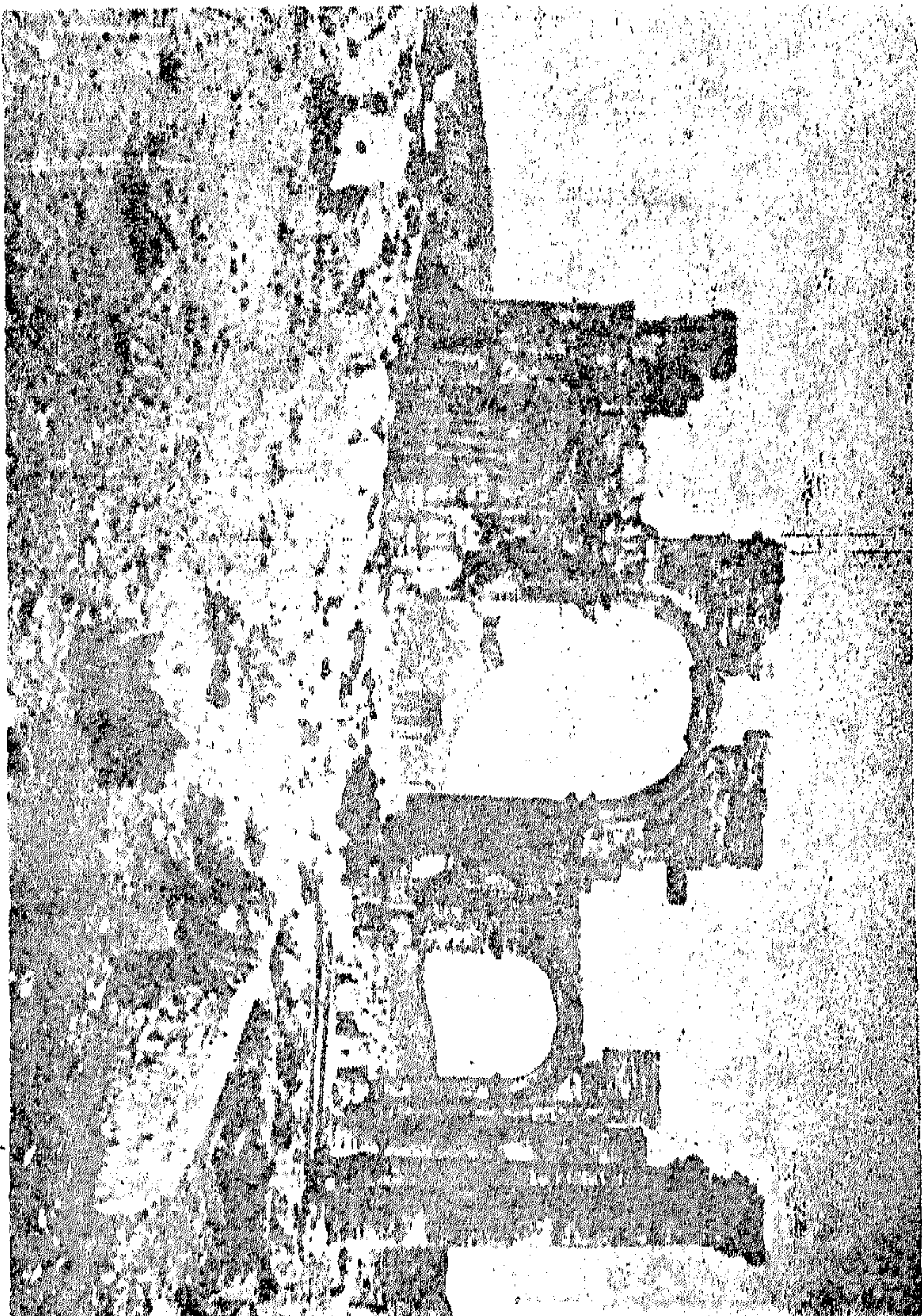
بوابة المدخل الشرقي لمعبد الاله بعل في تدمر

(عن كتاب Choix d'Inscriptions de Palmyre)
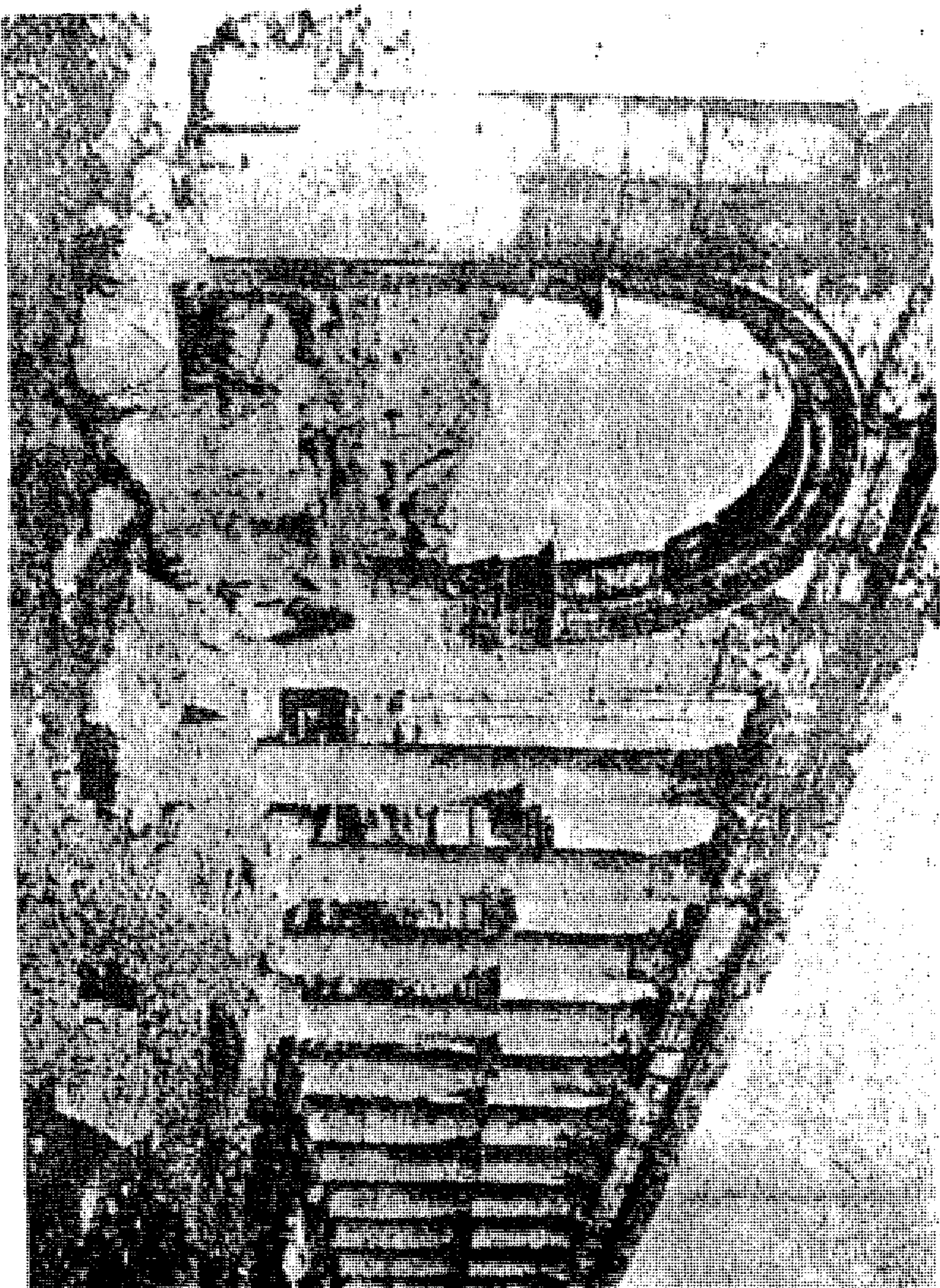
بائكة على امتداد الشارع الرئيسي بتدمر

ويرى القوس الذي ينفتح على أحد الشوارع الجانبية

(عن كتاب Choix d'Inscriptions de Palmyre)

بيت مال جامع دمشق

الفسيفساء باعلى المدخل الغربي للجامع الاموي بدمشق
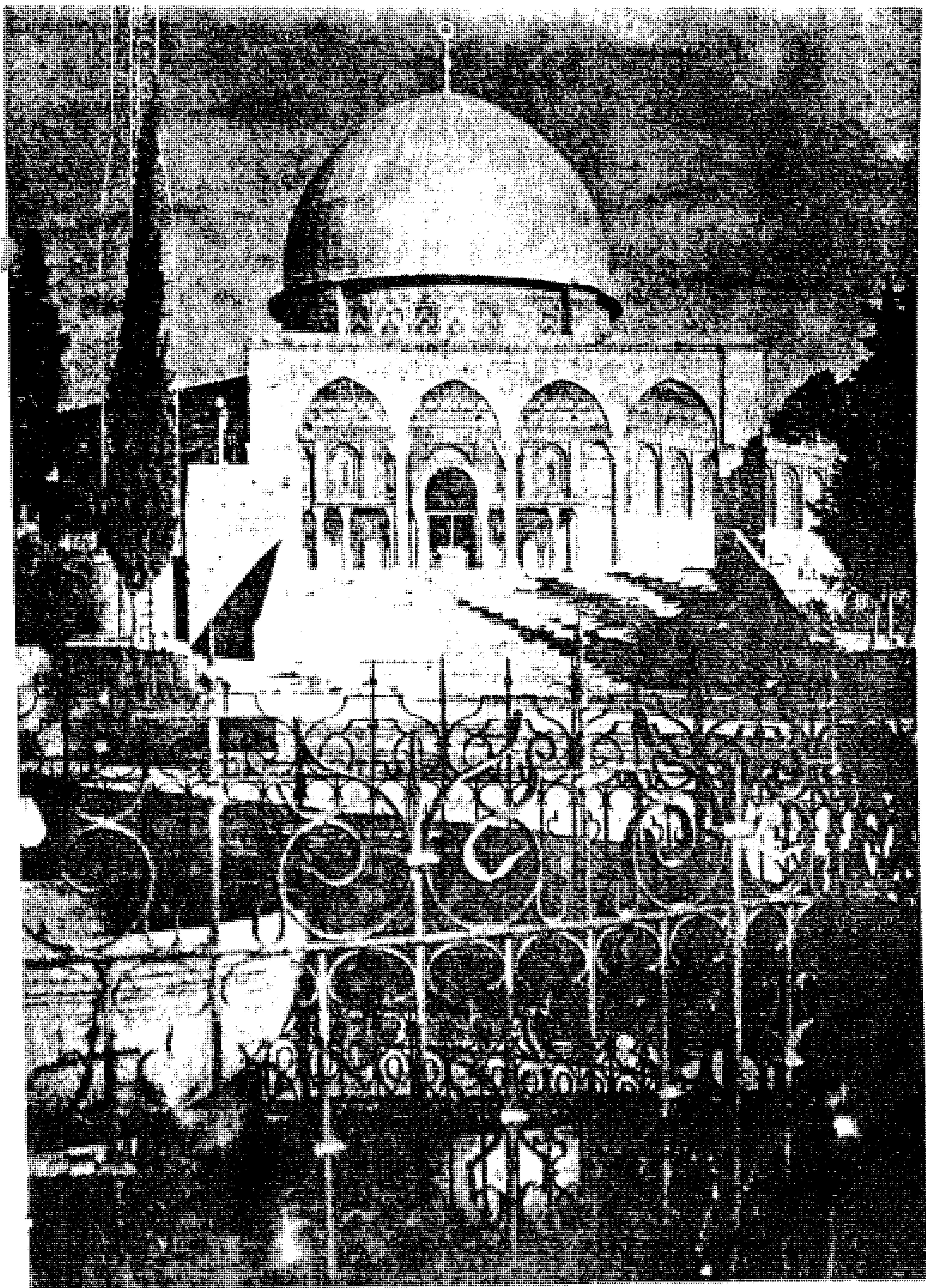
قبة الصخرة ببيت المقدس

زخارف منقوشة بواجهة قصر المشتى